

المعروف بـ «قصص الأنبياء»

تأليف

الشيخ محمد بن بسطام الخوشابي

المتوفى ١٠٩٦ هـ

تحقيق وتقديم

سعيد عبد الفتاح

الجزء الثاني



Title: ᶜARĀᵓIS AL-QURᵓĀN
WANAFĀᵓIS AL-FURQĀN
WAFARĀDIS AL-JINĀN
(stories of the Prophets)

Author: Muḥammad ben Bisṭām al-Ḫūšābi

Editor: Saᶜīd ᶜAbdul-Fattāḥ

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 1024 (2 volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: عرائس القرآن ونفائس الفرقان وفراديس الجنان
المعروف بـ "قصص الأنبياء"

المؤلف: الشيخ محمد بن بسطام الخوشابي

المحقق: سعيد عبد الفتاح

الناشر: دار الكتب العلميـــة ـ بيروت

عدد الصفحات: 1024 (جزءان)

سنة الطباعة: 2007 م

بلد الطباعة: لبنـــان

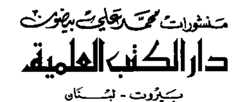
الطبعة: الأولى

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م ـ ١٤٢٨ هـ



منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

مجلس فى:

قصة نبى الله موسى عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى منّ على المستضعفين فى الأرض بإرسال موسى فجعلهم أئمة، وقص علينا القصص من نبأ موسى بالحق، فجعله فراديس الجنة، وجعل للعرب حرمًا آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء فضلاً منه ونعمة، وبعث محمدًا بالرسالة، ما كان يرجو أن يلقى إليه الكتاب إلا رحمة. والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وشفيعنا ورسولنا أبى القاسم محمد قائد الخلق وممهد السنة ﷺ وعلى خلفائه الراشدين ذوى قدر جلى، سادتنا وقادتنا، وأئمتنا أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان المتشبثين بأذيال السنة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين.

اعلموا إخوانى فى الدين وخلص خلاّنى فى طلب اليقين أن هذه الأوراق بين فيها من (عرائس القرآن ونفائس الفرقان، وفراديس الجنان) قصة موسى بن عمران عليه السلام مما ذكر فى القرآن من السور التى ذكر فيها جميعًا على الترتيب الواقع فى نفس الأمر بقدر الإمكان مأخوذًا من القرآن الفرقان الكريم مع تفسيره بأصوله، ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

مجلس في:

بيان ولادة موسى عليه السلام

تسع آيات من سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾[1].

أقسم بطوله وسنانه، ومجده على أن تلك الآيات المتلوة في سورة القصص.

﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أي اللوح المحفوظ.

أو نقول: «طسم» اسم لتلك السورة على ما عليه إطباق الأكثرين، و «تلك» إشارة إلى الآيات المفهومة من طسم.

والمراد بالكتاب المبين تلك السورة أيضًا.

و «مبين» إما متعد أو لازم، أي: السورة الظاهر إعجازها أو معانيها، أو كونها من عند الله تعالى أو السورة المبينة كونها من عند الله، أو صدق محمد بإعجازها أو المبينة قصص الأولين.

في بيان ولادة موسى عليه السلام تسع آيات من سورة القصص.

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ ﴾ بتلاوة جبريل، ففي الكلام مجاز عقلي مثل: بنى الأمير المدينة.

---

(١) الآيات رقم (١) إلى الآية رقم (٩) من سورة القصص ﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ حال من فاعل «نتلو» أو مفعوله، وهو بعض النبأ.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى لنفعهم، ومن جملة النفع كون الأنبياء العظام المتقدم أزمنتهم كالمحسوس المشاهد والمراد بموسى (عليه السلام) موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوى بن يعقوب، عليه السلام.

والمراد بفرعون: الوليد مصعب بن ريان الملك فى زمن يوسف عليه السلام.

قال فى الحدائق: لما حضر يوسف عليه السلام الوفاة أوصى إخوته بعد إحضارهم فقالوا: أيها الصديق أخرجتنا من مسكن آبائنا بالشام، وأدخلتنا مصر مساكن الفراعنة فما توصينا أنرتحل إلى الشام أم نسكن بمصر؟ قال: كان ذلك فى الكتاب مسطوراً وأوحى إلىّ أنه يخرج بعد موتى بزمان قريب رجل جبار من أولاد العملاق وسيكون منه على أولادكم أذى كثيراً، ثم يظهر من أولاد أخى لاوى نبىّ مرسل من أولى العزم، صاحب الشريعة والكتاب ويكون هلاك هذا الفاسق وجملة عمالقة الشام وفراعنة مصر على يديه، وعلى يدى أتباعه، ثم بعد ذلك قال: خليفتى يهوذا، ثم بعده روبيل، ثم لاوى، ثم شمعون، ثم يشجر، ثم ربالون، ثم بنيامين، ثم دان ثم نجتالى، ثم جاد، ثم آشير، والسلام.

ثم هؤلاء المذكورون كانوا هداة علمًا بالإجماع لرؤيا يوسف أحد عشر كوكبًا.

وعند البعض: كانوا أنبياء أيضًا.

ثم بعد انقراضهم نُبِّئ، موسى بن ميشا بن يوسف عليه السلام قبل موسى النبى بزمان كثير ثم وقع الانقراض لأنبياء بنى إسرائيل، فلم يبق فيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فَسلَّط الله تعالى كما هو عادته عليهم جباراً ظالمًا من العمالقة وهو فرعون موسى الوليد بن مصعب بن ريان ملك يوسف عليه السلام ففعل بهم ما حكى الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى تجبر واستكبر وتعظم بغير حق فى أرض مصر.

وفى لفظ «علا فى الأرض» نكتة شريفة هى: أن الأرض أسفل طبقات عالم الأجسام فمن دام فيها العلو كان كالراقم على الماء، ففيه تسفيه له.

وبين بعض تلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى أتباعًا لنفسه الخبيثة يتبعونه، ولا يقدرون على لىّ العنق عما رسمه أو شيع بعضهم بعضًا فى خدمته، أى يتناولون فى

أعـماله لا يقـدر أحد علـى التأخـر عن نوبتـه، أو جعلهم أصنافًـا بعـضهم يقطعـون الأحجار، وبعضهم ينحتون الجبال، وبعضهم يبنون القصور وعلى هذا.

أو جعلهم أحزابًا، أى كان يغرى بينهم العداوة كى لا يتَّفقوا عليه.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ فالمـراد بأهـل الأرض: القبـط وبنـو إسـرائـيل، والمراد بالطائـفة: بنو إسرائيل فـقط، و «يستضعف» حال من فاعل «جعل» وبين الاسـتضعاف بقوله:

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ فالاستئناف للبيـان وكان سبب الذبح على ما رواه الثقات: أنَّ فـرعون رأى فى المنام كأن نارًا خرج من بيت المقـدس أى من جانبه وأحرقـت مصـر وبيوت القـبط ولم تدخل بيت إسرائيـلى أصلاً، فـحكاه على الكهنة والمعبرين والمـنجمين فقالوا: سيولد من بـنى إسرائيل مولود يكون هلاك ملكك على يديه، ثم قالت: الفوات من امرأته إنَّا نسـمع من بنى إسرائيل يقولون: إن يوسف عليه السلام أخبر بذلك فى توصية الإخوة ويقـولون: إن إبراهيم عليه السلام لما دخل مصر وغضـبت امرأته سـارة بعض الفراعنة دعـا على أهل مصـر وأوحى إليه أنه سـيولد من ذريتك مولود يكون زوال العمالقـة من مصر والشام بسببه، فغضب فـرعون، فأمر بقتل كل مولود ذلك فسلط القوابل من القـبط والذباحين على نساء بنى إسرائيل بذبح الأبناء ويستحيى البنات، فوقع فى بنى إسرائيل موتات فدخل كبراء القبط على فرعون وقالوا: أنت تقتل صغـار بنى إسرائيل ويموت كبـارهم فيلزم أن يلقى العمل علينا، فـأمر بقتل الولدان سنة، وبتـركه سنة، ففى سنة التـرك ولد هارون عليه السـلام قبل مـوسى عليه السلام بأربع سنين، وفى سنة القتل ولد موسى عليه السلام ثم ورد هنا سؤال: وهو أن فرعون لم يكن مصدقًا بكلام الأنبـياء وإلاَّ لكان مؤمنًا ولا يكون قول الكهنة والمنجمين صدقًـا إلا قليلاً منـه فكيف طوعت نفس هذا الظالم أن يقتـل بمنامه الفـاسد ومخـيله الكاسد تسعين ألفًا من أولاد الأنبياء على ما نقل بعض الثقات.

فأجاب تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: إنه كان من المفسدين فى كل أمره، ولم يكن مصلحًا أصلاً فسوغت له نفسه تحدث العالم لبقاء وجوده الخبيث على ما عليه أمر المفسدين ثم قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ وهو معطوف على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ لا على ﴿نَتْلُو﴾ لأنه من المتلو.

وصيغة المضارع لاستحضار الحال الماضية للاستغراب والمراد بالمستضعفين بنو إسرائيل وبالأرض أرض مصر، والمنّ هو العطاء.

وقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أى رؤساء فى الدارين.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ بما فى أيدى فرعون وقومه من ﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: فى أرض مصر والشام بعد إهلاك الفراعنة والعمالقة.

والتمكين التسليط وتنفيذ الأمر.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أى من بنى إسرائيل.

﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من زوال ملكهم بأيديهم، خبر كالبيان للمنّ المذكور.

فأخذ تعالى فى بيان المن فذكر أوله فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ وهى «يوخا» بنت يصهر من أولاد لاوى، ويصهر هذا غير جد موسى عليه السلام.

وهذا الإيحاء الصحيح أنه بواسطة ملك، كما فى أم عيسى عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ الآية.

وهذا الوحى يسمى وحى تشريف لا وحى تشريع الذى يكون فى الأنبياء.

والصحيح من مذهب أهل السنة والجماعة أن المرأة لا تكون نبية لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ الآية.

فبوحى التشريف لا تكون المرأة نبية، بل الشرط فى النبوة وحى التشريع وهو مخصوص بالرجال.

فجاء إلى أم موسى، فأمرها بأمرين ونهاها من أمرين ووعد لها وعدين: فقال تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أى: من القتل.

﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أى: النيل.

﴿وَلا تَخَافِي﴾ أى: فى الضيعة وحيوانات البحر والغرق وغير ذلك.

﴿وَلا تَحْزَنِي﴾ أى: بفراقه.

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب لأن اسم الفاعل للحال فإن كان للاستقبال فالقرب.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ روى أن أم موسى لما حملت مات عمران فى وقت

الحمل ولم يظهر لأم موسى بحال الحـمل من عظم بطنها ومن ثقلها ومن نزول لبنها، فلما خرها الطلق قـالت لبنتها: مريم أخت موسى: اذهبى إلى قابلة التى كـانت صافية فلما دخلت قالت: اليوم ينفعنى حبك، فلما وضعت موسى وأخذته القابلة، هالها نور بين عينيه، فأحبته القابلة كما قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ (طه: ٣٩) فقالت لأمّه: خـذى ولدك وإنى جئت على عزم أن أخـبر الذباحيـن فيقتـلوه، لكن حبب إلى ولدك وظننت أنه السبب فى زوالنا لكن غلبـة الحب منعتنى عن الإخبار فـخرجت ولما رآها الذباحون وأنكرت هى، دخلوا على أم موسى فارتعدت مفاصلها، ودهش عقلها، فلفت موسى بخرقة وألقـته فى التنور المسجور، فدخل الذباحون ففـتشوا فلم يجدوا، وقالوا: لم دخلت القابلة؟ قالت: كانت صافـية لى، فدخلت للزيارة ولم يروا لها تغيرًا ولا أثر الولادة، فخـرجوا فقـالت أم موسى لأخـته: أين المولود؟ قـالت: لا أعرف، ففـتش فوجد فى التنور يرتضع إبـهامه، ولـم تضـره نار، كما فى جـده إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأرضعته أربعة أشهـر ولم يصح ولم يتحرك موسى فى تلك المدة، فبعد ذلك أخذ فى الصبا فـخافت فذهبت إلى النجار وقالت: اصنع لى تابوتا خـمسًا فى خمس، فقال: مـا تصنعين؟ فقـالت: أضع مولودًا فيه وألقـيه فى البحر لخـوف الذبح، فصنع النجـار ودفع، وذهب إلى الذباحيـن فلم يقدر على التكـلم وأخذ لسـانه، فأشـار فلم يعلموا فضربوه، وطردوه، ثم بعد خروجه قدر على التكلم وظن أنه المرسل تملكهم، فدخل على الذباحين، فأخذ لسانه وبصره فأخذ يشير فلم يعلموا، فضربوه وطردوه مرة أخرى، ولمـا خرج آمن بالله مـخلصًا ففـتح بصره ولسـانه، ودخل على موسى فـقبل رجليه وأصلح مع المرأة التابوت، فألقته أمه فى النيل يوم الاثنين فأخذته الأمواج تلتطم به حتى ساقه سائق القضاء إلى نهر ينشعب من النيل إلى بركة فى دار فرعون.

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ وكانت لفرعون بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت برصاء، فوصف الأطبـاء علاج ذلك بريق حيوان بحـرى يشبه الإنسـان وظنى أنه النسناس وكان فرعون وامـرأته آسية بنت مزاحم وبنتـه على البركة ينظرون إلى بحر النـيل فجاء تابوت موسى، تلتطـم به الأمواج حتى تعلق بشـجرة، فأمـر فرعون بـالسفن، فجـاءوا إليه، فعالجـوا لفتح التابوت فلم يقدروا أو لكسره فلم يـقدروا، فجاءت آسية فـرأت فيه نورًا إلى السمـاء، فعالجت ففـتحته ورأت فـيه صبيّـا يرتضع إبهامه، ورأت نورًا بين عـينيه

وأحبته حبا شديدًا، فأخذته وضمته إلى صدرها فجاءت بنت فرعون فرأت أن ريقه يخرج عند ارتضاع إبهامه كاللبن فأخذت ريقه فلطخت به جسدها فبرأت بإذن الله تعالى وأحبته أيضًا حبّا شديدًا ثم رآه فرعون وأحبه حبا شديدًا لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (طه: ٣٩).

فهذا هو الالتقاط المذكور وهو وجدان اللقطة بلا طلب.

قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ واللام على حقيقة التعليل وفى مدخوله استعارة، شبه العداوة والحزن بالتبين والمحبة فى الترتيب على الالتقاط، فالاستعارة مكنية والقرينة اللام.

أو نقول: شبه ترتيب الغاية على الالتقاط وهى العداوة والحزن بترتيب المحبة والتبنى، وهى الغرض للالتقاط فاستعملت اللام الموضوعة للثانى فى الأول.

فالاستعارة تبعية مصرحة.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ جواب لسؤال: كيف يرتكب العاقل التقاط عدوه؟

فأجاب: بأن عادتهم كانت عدم الاهتداء ومن جملته هذا فالمراد تجهيلهم بأنهم قتلوا من أولاد الأنبياء تسعين ألفًا لأجل موسى، ثم إن الله تعالى رباه على أيديهم وفى بيوتهم وبين أظهرهم فلا جهل ولا حمق أعظم من هذا.

فالخاطئ من خطئ، بمعنى أخطأ.

والمراد بيان الموجب غير الله بهم هذا المكر وهو التقاطهم لعدوهم وتربيتهم له.

فالخاطئ بمعنى الآثم الفاسق من الخطيئة يعنى أنه تعالى لفسقهم فعل بهم ما فعل.

ثم لما وجدوه وأحبه فرعون وأهله قالت الغواة من جلسائه: نقتله لأنه عبرانى من أعداء فرعون.

فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وهو عطف على ﴿فَالْتَقَطَهُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ كانت معترضة للتجهيل ولبيان الموجب.

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ خبر مبتدأ أى هو ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ أى يا فرعون والأمراء، والخطاب للتغليب.

وفى «لك» للتخصيص.

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فإنه يوجد فيه علامات النجابة والأمارات المذكورة من رؤية النور وارتضاعه من إبهامه اللبن، وبرء البرصاء به.

﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ حال من فاعل التقطه.

وقالت: فيكون من كلام الله تعالى أى التقطوه وقالوا كذا وهم لا يشعرون أنه سبب زوال ملكهم.

أو هو من كلام المرأة، تعنى أن الناس لا يعرفونه فإن تبناه فلا يعرف ذلك فتشتهر بين الناس نبوته.

لذا روى أنها احتجت فقالت: هذا الولد عظيم الجثة من أولاد السنة الماضية، والأمر بالقتل فى هذه السنة، فاستوهبته فقال: لك لا لى، أى إنه ولد لك لا لى.

وفى الحديث: (لو قال لى لنفعه موسى كما نفعها لكن الشقاء أدركه فمنعه)[1] الله أعلم.

قال العلماء: إن أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (يوسف: ٢١).

وابنة شعيب ـ عليه السلام ـ حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦) وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما وقال: فإن عدل فذلك ظنى به.

وأنا أقول: الأفرس من الكل آسية حين قالت: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ حيث استفرسوا فى الرجال البالغين وهى استفرست فى المولود الصغير[2].

---

(١) حديث: (لو قال: ولى... لنفعه موسى كما نفعها، لكن الشقاء أدركه فمنعه) لم أقف عليه ولعله أثر.

(٢) وهذه ملحوظة ذكية جدًا من أهم الملحوظات التى تدل على التفرس الباطن، فإن «آسية» هى الكاملة كما قال رسول الله ﷺ: (كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاَّ ثلاث: آسية زوجة فرعون، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران).

مجلس في:

بيان تربية موسى عليه السلام

خمس آيات من سورة القصص فى بيان تربية موسى عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وأصبح فؤاد أمِّ موسىٰ فارغًا﴾[1] أى: خاليًا من العقل من شدة الدهش، والحيرة، والحزن وذلك أنها لما رأت الأمواج تلتطم بموسى ـ عليه السلام ـ ترفعه مرة وتخفضه مرة أتاها الشيطان فقال: ما رضيت أن يقتله فرعون فيحصل لك الأجر أو فتبقيه وإلاَّ فعليك الوزر.

ولما سمعت أنه التقطه آل فرعون فجاءها اللعين فوسوس إليها أن الله تعالى قد حفظه أربعة أشهر فما رضيت بحفظه حتى ألقته إلى يدى عدوه فلك الويل، فذهب عقلها من الوسوسة فلم تدر بما تجيب إبليس.

﴿إن كادت لَتُبْدِى به﴾ إن هى المخففة وضمير الشأن والقصة محذوف والذى يدل عليه كلام الكشاف فى مواضع من تفسيره.

إن حذف ضمير الشأن مع إن المكسورة المخففة جائز كأن المفتوحة المخففة، فما فى الكافية من أن حذف ضمير الشأن منصوبًا بإنى غير المفتوحة ضعيف، لأن جاد الله أعلى كعبًا من ابن الحاجب فى العربية وتبدى من البدو بسكون الدال، لا من البدو

---

(١) الآيات الخمس من سورة القصص من الآية رقم (١٠) إلى الآية (١٤) من نفس السورة: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

بتشديد الواو فمعنى تبدى: تصحر من الإصحار هو إلقائه فى الصحراء فلذا عُدِّى بالباء، ولو كان بمعنى الإظهار لكان الباء زائدًا وضمير «به» إلى موسى والمضاف محذوف فالتقدير والمعنى أن القصة كادت أم موسى لتصحر بأمر موسى وهو أنه ابنها أى تظهره وتقول: وا إبناه لذهاب عقلها من الوسوسة وشدة حزنها.

﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وجواب لولا محذوف أى لولا ثبت ربطنا على قلبها لأبدت.

والربط على القلب عن التثبت والتصبر، فإنه إذا ربط على شىء أى أوقع عليه الربط ثبت واستقر، وكيفية الربط ـ والله أعلم ـ أن الله تعالى أحدث فى قلبها حالة هى الوجد والجذبة.

كما قيل: (جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين) والوجد إنما يحدث من نقر أو سماع، أو نظر كما بين فى محله.

فهنا يحتمل أن يكون من سماع هاتف يقول: أنسيت قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ فإلقاؤك بأمره فكيف يكون لك الوزر، ونسيت قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ فكيف يكون الهلاك.

فاندفعت الوسوسة وحصل الحالة ونسيت ما سوى الحق، وفنيت صفاتها البشرية، ثم قال تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى ربطنا لتكون من المصدقين بوعدنا.

وهنا معنى آخر: وهو أن المرأة لما سمعت بوقوع موسى بيد فرعون أو تبنيه، ومحبته، ولآسية كذلك ابتهجت وفرحت فرحًا شديدًا، فأصبح فؤادها خاليًا من الحزن والغم، وكادت تقول للناس إن المولود بيد فرعون الذى تبناه هو ابنى من شدة الفرح فربط الله تعالى على قلبها بأن أحدث لها فكرة أدت إلى الوجد وهى: أيها المسكينة لا تنوى بالتفات أكابر الدنيا، فإنه لا ثبات له كأصحابه، وإنما العمدة وعدنا، وإنما أحدث الله الجذبة لتكون من المؤمنين أو الواثقين بوعد الله لا تبنى فرعون ومحبته.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ أى: لأخت موسى ـ مريم ـ.

﴿قُصِّيهِ﴾ أى: اتبعى أثره، وتتبعى خبره.

يحتمل أن نقول: هذا عند تلاطم الأمواج فتتبع أثره حتى أتى دار فرعون.

ويحتمل أن نقول: ذلك بعد الوقوع بدار فرعون فتعلم ما يؤول إليه أمره، فقصت أخته فدخلت دار فرعون.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ أى عن بُعْد مرورة متجانفة لحالها توهم أنها إنما تنقل شيئًا آخر لا إياه.

فتبصره بطرف عينها، فرأت الصبى فى يد فرعون يعلله شفقة عليه، والصبى يبكى، ويطلب الرضاع والخدم يطلبون.

﴿وَهُمْ﴾ أى: آل فرعون.

﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته وتطلبه، فدنت أخته من فرعون فرأت أن الصبى لا يقبل ثدى أحد، وفرعون وآسية فى طلب المرضع كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ وهذا التحريم تكوينى لا تكليفى أى: منعنا عنه المراضع بإحداث النفار فى الصبى عن المراضع.

والمراضع: جمع مرضع، على خلاف القياس أو مرضع وهو محل الرضاع، أى: الثدى، أو مصدر ميمى بمعنى الرضاع.

﴿مِن قَبْلُ﴾ مجىء أخته أو من قبل ولادته فى القضاء السابق.

﴿فَقَالَتْ﴾ أى أخته.

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ أى: أهل شرف لا أخساء لأن الملوك يأنفون عن رضاعهم.

﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أى: يقومون بمصالح الصبى لإرضاء الملك وأهله.

﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أى أهل البيت.

الذكر لهذا الصبى يريدون الخبر فلا يتكاسلون فى أموره، فقال هامان: خذوا هذه المرأة فإنها تعرف أبوى هذا المولود، فقالت المرأة: أريد وهم للملك ناصحون لا للصبى، فقالوا: ائتى بها، فراحت إلى أمها، فأتت بها، فلما أخذت الصبى وأعطت ثديها قَبِلَ الصبى ثديها، ومصَّه ثم ثديها الآخر فَمصَّه حتى نام، فأعطته آسية، فقال فرعون: من أنت منه، فقالت: أيها الملك لست منه فى شىء إلا أنى امرأة طيبة الرائحة طاهرة الجسد لا أعطى ثديى صبيًا إلا قبله، فقالوا: أرضعيه فى دار الملك وأعطاها فرعون وهامان وآسية وغيرهم من الهدايا والتحف ما يخرج من الحد، ثم

قالت المرأة لآسية وثوقًا بوعد الله تعالى فى الرد: لا أقدر على السكنى فى داركم لأن لى أولاد وأشغال. فكيف يمكن للظبى الإقامة فى صحبة الأسد! وكيف يتأتى للحجلة أن تتخذ وكراً فى مقام البازى! فإن أقمت فى دركم أهلك.

فردوا لها بالرجوع إلى دارها، وأجروا عليها كل يوم أربعة دنانير غير العطايا والصلات والكساوى، فنعم ما قال رسول الله ﷺ: (مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجرها)[1].

صدق رسول الله.

ثم رجعت إلى بيتها بعد بناء آل فرعون بيتها وتزيينه كما قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوجدان ولدها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه.

﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ على الخصوص فإنه المقصود الأصلى لأنه أمر دينى وقرة العين وذهاب الحزن دنيوى.

ويدل عليه إعادة حرف التعليل.

﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

حقيقته وعد الله تعالى.

وفيه تعريض للمرأة فى مراع ولدها، أو لا يعلمون أن المقصود الأصلى علمها بحقيقة وعد الله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ هى جمع شدة وهى قوة الجسد وكمال النشو وبلوغ الأشد من سن ثمانية عشر إلى قريب الثلاثين.

﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ أى كمل عقله بعد كمال جسده.

قال الإمام الداعى إلى الله فخر الدين الرازى فى سورة يوسف عليه السلام.

إن أحوال الإنسان تشبه أحوال القمر لأن القمر يظهر هلالاً أولا ثم بعد أسبوع يكمل نصف نصفه المواجه لنا نوراً ثم بعد أسبوع آخر يكون بدراً فيستضىء نصفه المواجه لنا بالتمام، ثم بعد الأسبوع الثالث ينتقص نور نصف نصفه ثم فى الأسبوع الرابع يدخل فى المحاق فيغيب.

---

(١) حديث: (مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أُمِّ موسى (عليه السلام) ترضع ولدها وتأخذ أجرها) انظر: ابن كثير التفسير: ٣/ ١٤٩، ٣٨٣، ومصنف ابن أبى شيبة: ٤/ ٢٢٨، الديلمى فى مسند الفردوس: ٤/ ١٤٠، ابن عدى فى الكامل فى الضعفاء: ١/ ٢٩٥.

وهكذا الإنسان فكل سبع سنين بمنزلة أسبوع للقمر وسماها سابوها فى سورة الأحقاف، فإذا تولد الصبى ففى السابوع الأول يزيد نور عقله يومًا فيومًا ثم فى السنة الثامنة وهو أول السابوع الثانى، يؤمر بالصلاة، ويظهر فيه بعض علائم الرشد، ثم فى أول السابوع الثالث، وهو السنة الخامسة عشر يدخل فى حد التكليف وتظهر الشهوة ثم يشتد ذلك ثم، فى السابوع الرابع وهو من إحدى وعشرين إلى ثمانية وعشرين يكمل قواه الجسدانية، ويفيض الله تعالى من نور العقل عليه، ما يستعده، ثم فى السابوع الخامس يكون الوقوف إلى الأربعين، ثم بعده الانحطاط، فلما كمل جسد موسى عليه السلام وعقله قال الله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فهذا الحكم والعلم غير النبوة ويدل عليه سياق الكلام والقصة لاستثنائه بعد الهجرة كما سيجىء.

ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ لأنه يدل على أنه إنما أوتى الحكم والعلم جزاء على إحسانه والنبوة غير مكسوبة بل هى موهوبة.

وأيضًا يدل هذا الكلام على أن كل من كان محسنًا فهذا جزاؤه أى: يعطيه الله هذا الحكم والعلم، والنبوة ليس كذلك فالمراد من الحكم والعلم سمت الحكماء والعلماء وسيرتهم أى آتينا موسى حالة لا يتكلم بشىء يستجهل فيه ولا يعمل عملاً يسفّه فيه فى أقواله وأفعاله كانت مقبولة للطباع القيمة والنفوس المستقيمة كما هو ديدن الأنبياء العظام والرسل الكرام قبل إرساله كما حكى فى حق نبينا محمد ﷺ كان يعظمه الكفرة ويقولون: محمد الأمين، والفتى العاقل والرجل المبارك، وكانوا يضعون عنده الودائع، وكانوا يرضون بأحكامه على ما هو المشهور من أمره.

والإحسان هو العمل على وجه الإخلاص، ومتابعة السنة، وبعبارة أخرى هو غلبة العقل على الشهوة والغضب، وبعبارة أخرى أشرف من الكل لأنها عبارة الأشرف.

من الكل الإحسان (أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[١] الحديث.

---

(١) حديث: (**اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه...**): (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عمرو، وروى من غير حديثه، أيضًا انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ١/ ٥٧ الحديث رقم (١٤٠)

مجلس في:

بيان هجرة موسى عليه السلام وغربته

ثمان آيات من سورة القصص فى بيان هجرة موسى عليه السلام وغربته

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾[1] مدينة مصر جائيًا من قصر فرعون فإن قصره كان خارج المدينة، أو مدينة منف أو الإسكندرية أو غيرهما.

فإنه كان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابسه ويدعى ابن فرعون.

فاتفق أن فرعون ركب يومًا إلى البلدة المذبورة وركب موسى خلفه فدخل المدينة.

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وكل «على» بدل كلمة فى التشبيه تمكنه فى الحين نتمكنه واستقراره على ظهر المركوب فى كمال التمكن، وقيد الغفلة بكونها من أهلها دلالة على شيوع الغفلة فيهم، وهذا الحين وقت الأكل والشرب بين العشاءين.

---

(١) الآيات الثمانى من سورة القصص من الآية رقم (١٥ - ٢٢) ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وقيل: وقت الندم عند القيلولة القائلة.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾ أحدهما سبطى فاجر وهو السامرى، صاحب الفتنة الكبرى، والآخر قبطى كافر اسمه فاتون أو فيلتون طباخ فرعون كان قد سخر السامرى لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون.

﴿هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

وشيعة الرجل تابعه، وتبعيته بموسى عليه السلام فى النسب لا فى الدين يدل عليه قوله تعالى للمجرمين وقوله تعالى: ﴿لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

وهذا هو المناسب لسياق القصة على ما سيجىء.

وقيل: كان السبطى مسلمًا، وفيه ضعف.

وكلمة «هذا» لحكاية الحال الماضية كأنه يقول: لو وجد ناظر وقت الاقتتال ونظر لقال هذا من شيعته وهذا من عدوه، فحكى هذا المقال للاستغراب.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ أى طلب الإعانة فلذا يعلو على الذى من عدوه.

والشيعة والعدو يطلق على الواحد والكثير.

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ أى ضرب بجميع كفه فى صدر القبطى، والوكز هو الضرب فى الصدر، والفكر هو الضرب فى الظهر ولكزه قراءة.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى قتله.

قال الراغب: القضاء فصل الأمر أى قطعه.

أما قول فيتعدى بإلى نحو قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ أى: أوحينا.

وإما فعلى فيتعدى بنفسه نحو قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾.

وهنا أيضًا «فعلى» فأصله فقضى عليه، قطع الحياة متسلطًا عليه، فضمن التسلط فعدى بعلى.

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إنما عده من عمل الشيطان وظلمًا واستغفر منه، لأنه ترك مندوب على ما فصله الإمام الرازى.

لأن المقتول كان حربيًا مباح الدم وموسى عليه السلام كان فى حكم الأسرى على ما تدل عليه: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وقوله: تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ الآية.

والأسير فى دار الحرب إذا قتل أو سرق لا إثم عليه غاية الأمر أن الأولى تركه لاحتمال ضرر دنيوى، وتكون حسنات الأبرار سيئات المقربين.

عد موسى عليه السلام ترك المندوب ظلمًا لحرمانه ثوابه، ومن عمل الشيطان واستغفر منه، وهذا هو اللائق بجانب الأنبياء وشأنهم.

وقيل: كان قبل الأمر وكان صغيرًا لكن صدوره كان قبل النبوة وذلك جائز، الله أعلم.

﴿إِنَّهُ﴾ أى: الشيطان.

﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر عداوته وإضلاله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ اعتراف بذنبه.

﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ استغفارًا، فوجد التوبة بأركانها وهى الندم، والإقلاع فى الحال، والعزم على أن لا يعود الدال عليه قوله: ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ والاعتراف بالظلم، وطلب الغفران.

﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ لوجود شرائط التوبة.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن وجد منه أركان التوبة فيغفر له ويرحمه برفع الدرجة.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ «ما» مصدرية والباء قسمية أى: بحق إنعامك علىَّ بالمغفرة والقوة وسائر النعم لأتوبن.

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فالتوبة عن مظاهرة المجرمين قيد لهذا الكلام على كون السبطى مجرمًا كافرًا أو فاسقًا، والباء للاستعطاف، وهو طلب العطف والرحمة وهو ليس بقسم عند الكشاف.

وقسم عند ابن الحاجب، والصحيح قول الكشاف.

ويؤول قسميته بالمؤكدية، فالمعنى يا رب بحق إنعامك علىَّ بالمغفرة والقوة وغيرهما وبحرمته اعصمنى، فلن أكون إن عصمتنى ظهيرًا للمجرمين كما كنت.

فعلى القسم يكون ما بعده جملة خبرية يحتاج إلى الاستثناء فلم يستثن، فابتلى مرة أخرى فى العدو على الاستعطاف يكون ما بعده إنشائيًا دعاء فلا يحتاج إلى الاستثناء.

وقيل: الفاء سببية أى سبب إعطائك من القوة وغيرها أستعمل قواى فى مظاهرة أوليائك، ولا أعين أعداءك من المجرمين كما فعلت، فلم يستثن، فابتلى فى الغد، وفى الآية دليل على أن مظاهرة الظالمين والفاجرين والمجرمين حرام.

حكى أن رجلاً جاء إلى عطاء[(١)] وهو من كبار التابعين فقال الرجل: يا عطاء إن لى أخًا يكتب لبعض الأمراء يضرب بقلمه ولا بعد ورزقه، أى ما قدر له من بيت المال، هل عليه وزر؟ قال عطاء: فمن الأمير؟ قال: خالد بن عبد الله القشيرى[(٢)] أمير مكة ـ شرفها الله تعالى ـ من قبل يزيد بن عبد الملك[(٣)]، وكان أميرًا ظالمًا، قال: فأين أنت من قول موسى: ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

وفى الحديث: (يؤتى بالظالم يوم القيامة وأعوانه حتى من لاق لهم دواة، أو برى لهم قلمًا فيجعلون فى تابوت من حديد فيقذفون فى النار)[(٤)].

أعاذنا الله من مظاهرة المجرمين.

---

(١) **(عطاء)** تقدمت ترجمته.

(٢) فى نسخة المخطوط (خالد بن عبد الله القشيرى) والصحيح هو (خالد بن عبد الله القسرى)، وترجمته فقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر انظر: ٦/ ٣٩٩ من الدر المنثور للسيوطى.

(٣) **(يزيد عبد الملك)** الخليفة أبو خالد القرشى الأموى الدمشقى، استخلف بعهد عقده له يتحقق سليمان بعد عمر بن عبد العزيز، وأمه هى عاتكة بنت يزيد بن معاوية، ولد سنة إحدى وسبعين، وكان أبيض جسيما جميلا مدور الوجه لم يتكهل، قال ابن جابر: أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول فهممنا أن نوسع له فقال: دعوه يتعلم التواضع، ابن وهب: حدثنا عبد الرحمن بن يزيد قال: لما توفى عمر بن عبد العزيز قال يزيد: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأتى بأربعين شيخًا شهدوا أن الخلفاء ما عليهم نجاسة ولا عذاب، كان لا يصلح للإمامة مصروف الهمة إلى اللهو والغوانى، قيل: مشى مع جارية فى قصوره بعد موت حبابة فقالت جاريته:

كفى حزنًا بالواله الصب أنيرى   منازل من يهوى معطلة قفرا

فصاح وخر مغشيًا عليه، ومات بعد أيام، قيل: مات بسواد الأردن ومرض بنوع دن السل، وقال أبو مسهر: مات بإربد، وقالوا: مات لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة، فكانت دولته أربعة أعوام وشهرًا، وعهد بالخلافة إلى أخيه هشام ثم من بعده لولده الوليد بن يزيد، ذاك الفويسق، وخلف أحد عشر ابناء.

انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٥٠ الترجمة رقم (٥٣).

(٤) حديث: **(يؤتى بالظالم يوم القيامة وأعوانه حتى من لاق لهم دواة، أو برى لهم قلمًا)** انظر: =

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ من الاستفادة.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الأخبار وما يقال فيه.

﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ﴾ أي صادف القبطي المذكور.

﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يناديه بأعلى صوته.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ﴾ فاجر ضال عن الرشد.

﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الغي، يعني أيها الفاجر الألد الخصام كنت سببًا في قتل أمس واليوم تقاتل الآخر.

وسبب استصراخه أن أولياء المقتول شكوا إلى فرعون من القبط فقال فرعون: لا أحكم إلا بالشاهد فجاءوا بالإسرائيلي إلى السوق يطلبون البينة فلما رأى القبطي موسى عليه السلام وقد ألف بلطفه فاستنصره ليخلصه من يد أولياء المقتول، فغضب موسى عليه السلام على السامري بقوله السابق.

ثم بعد ذلك تحركت غيرته لنصرة أولاد الأنبياء، وإن كانوا فجاراً.

وقصد دفع القبطي على ما قال: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ وأن مزيدة لتأكيد معنى الإرادة: أي: لما حصلت إرادة قوية بالغة إلى حد ظهرت أماراته على موسى، وإن كانت الإرادة من الكيفيات النفسانية لا يطلع عليه أحد.

﴿أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي لموسى وللإسرائيلي ﴿قَالَ﴾ أي السبطي وهو الظاهر لخوفه من قوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ﴾.

وهو من يفعل كل ما يريد ولا ينظر في العواقب، أو من تيسر كل الناس على ما يريد وهو في صفات الله تعالى كمال وفي غيره نقصان وظلم.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ فإن من الإصلاح دفع السيئة بالحسنة يعني الرجل الفاجر أي السامري يمكن دفع القبطي بوجه آخر غير القتل، فلم تقتل فأنت جبار ولست بمصلح، فذهب أولياء المقتول إلى باب فرعون وأنهوا إليه الأمر فشاور

= الورع لأحمد بن حنبل: ١/ ٩٣، الديلمي في مسند الفردوس: ١/ ٢٥٥، المناوي: فيض القدير: ٤/ ٢٩٦.

فرعون امرأة فى قتل موسى - عليه السلام - لأنه كان عدوّا أزليّا وقد وجد قتل القبطى فلا يعيبه أحد فأشار الأمراء كلهم غير أمير واحد وهو حزبيل ابن عم فرعون، وكان خازنه على قتل موسى - عليه السلام -.

فجاء حزبيل وهو رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه تساعيًا من أقصى المدينة على ما قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾.

الجار متعلق بيسعى وهو صفة رجل وقدم المتعلق للاهتمام بشأنه يدل على كون السعى من مكان بعيد فيستحق فاعله الأجر العظيم.

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ ﴾ أى الأشراف لأنهم يملئون المجلس بالزينة والأعين بالهيئة.

﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى يتشاورون بسببك، فإن المتشاورين يأمر كل واحد منهم الآخر ويأتمر.

﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أى من المدينة إلى أى صوب قدرت، لأن الفرار مما لا يطاق من سنة المرسلين.

﴿ إِنِّي لَكَ ﴾ اللام للبيان، أى أنصح لك غير متعلق بقوله: ﴿ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ لأن الألف واللام فى الناصحين بمعنى الذى، ومتعلق الصلة لا يتقدم على الموصول خصوصًا إذا كان مجرورًا.

وإن اعتذر بأن الظرف يكفيه رائحة الفعل.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا ﴾ مما فى الطريق من اللصوص والسبع وعدم الزاد والماء وغيرها.

﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق الطلب من آل فرعون.

قال داعيًا وملتجئًا إليه.

﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وهذا يدل على أن قتل القبطى كان مباحًا وإلا لانعكس الحال، ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ لفظ التلقاء أى الجانب يدل على أنه ما كان عالمًا بأمر مدين ولا عازمًا صوبه بل المعنى لما خرج من المدينة عرض له طرق ثلاث فساقه سائق القضاء والقدر إلى الطريق الأوسط وكان فى نفس الأمر طريق مدين.

ومدين كان اسم ابن لإبراهيم عليه السلام وسمى به أولاده بلدتهم وهم قوم شعيب

عليه السلام ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى وسط السبيل، أو السبيل السوى أى المستقيم وموسى عليه السلام كان خير خلف لجده إبراهيم عليه السلام وقد قال جده الخليل عليه السلام فى هجرته: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ وهو على (يقين)[1] من الهداية حيث قال: «سيهدين».

والكليم قال على سبيل الرجاء: «عسى أن يهدينى» لكن زاد لفظ «سواء السبيل» فجبر فاقتدى بجده.

وروى أن موسى عليه السلام لما خرج من مدينة فرعون وكان لا يدرى أين يتوجه رأى ثلاث طرق فأخذ الوسط ثم عنَّ له ملك على فرس وبيده رمح قصير فقال: يا موسى اتبعنى فتبعه وجاء عسكر فرعون فصرفهم الله تعالى عن نبيه فأخذوا فى اليمين والشمال، ولم يأخذوا فى طريق موسى عليه السلام لأنهم ما كانوا فى طريق موسى عليه السلام فلم يلحقوهم، وذهب نبى الله حافيًا، راجلاً بل زاد، ولا ماء، فأكل فى الطريق من أوراق الشجر فقرحت شفتاه وسقط خف رجله فوصل فى ثمان ليال إلى مدين.

---

(١) غير واضحة فى نسخة المخطوط، أما الآية فهى الآية رقم (٩٩) من سورة الصافات.

مجلس في:

بيان تزوج موسى بنت شعيب عليهما السلام

ست آيات من سورة القصص[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

في بيان تزوج موسى بنت شعيب عليهما السلام ست آيات من سورة القصص.

في معالم التنزيل: (عن شداد بن أوس ﷺ مرفوعًا: بكى شعيب النبي عليه السلام حتى عمي فرد الله تعالى عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فرد عليه بصره، ثم بكى حتى عمي، فرد عليه بصره، ثم بكى حتى عمي، فرد عليه بصره، فقال الله تعالى له: ما هذا البكاء أشوقًا إلى الجنة أم خوفًا من النار؟ قال: لا يا رب ولكن شوقًا إلى لقائك، فأوحى الله تعالى إليه إن يكن ذلك فهنيئًا لك لقائي يا شعيب كذلك أخدمتك موسى كليمي)[2].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: وصل بئرهم، فذكر الحال وأريد المحل.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي: على شفيره ومستقاه على حذف المضاف.

﴿أُمَّةً﴾ أي: كثيرة جماعة فالتنكير.

---

(١) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

(٢) حديث: (بكى شعيب (عليه السلام) حتى عَمِيَ فردَّ الله تعالى عليه بصره، ثم بكى حتى عمي...) الحديث لم أقف عليه.

﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ أى من قبائل شتى وأمم مختلفة.

وكذلك لك الأمم الجوامع.

﴿يَسْقُونَ﴾ أى مواشيهم.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أى مجاورًا إياهم.

﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أى تكفان وتمنعان غنمهما، وترك المفعول فى الأفعال الخمسة هنا لأن المقصود بيان الباعث على مرحمة النبى موسى ورحمته إنما تنبعث من مسقى الجماعة الكثيرة وذود المرأتين الضعيفتين سواء سقى الجماعة الإبل ذواد المرأتين الغنم إلا وقولهما: ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ باعث على كمال المرحمة، وقوله: «فسقى» فبعث عن الرحمة الكاملة، فذكر المفعول فضول لأنه حصل المقصود بدونه، وهذا عند صاحب الكشاف.

وليس من تنزيل المتعدى منزلة اللازم.

وعند صاحب المفتاح ترك المفعول للاختصار لدلالة القرينة عليه.

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أى: مخطوبكما من الذود والناس يسقون وتفرس نبى الله سبب الذود وإنما سئل ليحققه ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ جمع راع، أى عادتنا أن ننتظر ولا نختلط بالرجال للحياء المانع وللضعف وخوف اختلاط الغنم خوف سؤال أليس لكم رجل فأجابتنا بقولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وهذه الواو فصيحة تنبئ عن محذوف وهو بعض الجملة الاستئنافية يعنى ليس لنا راع وأبونا شيخ كبير وهو شعيب النبى ابن ميكيل بن يشخر ابن مدين بن إبراهيم عليه السلام فتحرك رحمة موسى عليه السلام.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أى لأجلهما غنمهما فأشار الرب تبارك وتعالى إلى شدة بطش موسى وقوته بأنه مع جوعه مذ ثمان ليال وسقوط خف قدمه وشدة عنه وكلاله عمل عملاً شديدًا لأنه عليه السلام راحم القوم فبعدهم عن الماء وأخذ الدلو وكان لا ينزعه إلا أربعون رجلاً فنزعه بقوة الله تعالى وصب فى البركة ودعا بالبركة فسقى غنمهما.

وقيل: كان هناك بئر أخرى وكان عليها حجر لا يقله إلا أربعون فأقله وحده وأخذ الدلو المذكور فسقى، وفيه مدح لموسى عليه السلام من وجه آخر بأنه كان ينتهز

الفرصة هى النوبة والانتهاز الاغتنام، فمع جراحتـه وجوعه وتعبه اغتنم الفرصة الواقعة من الخيـر، فلم يضيعهـا وفيه أرباح: إن المؤمن ينـبغى أن يكون متخلقًـا بهذا الخلق العظيم حتى لا يفوت عنه فى وقته.

رزقنا الله تعالى الاقتداء بهم.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ لأنه كان فى حر عظيم.

وفيه أيضًا مدح له.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ شكاية إلى الله تعالى، كما قال يعقوب عليه السلام جده: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦).

فقـوله: ﴿لِمَـا أَنزَلْتَ﴾ صلة فقير بتضـمين سائل وطلب وإيثار الماضى لإرادة الاعتياد أى إنى فقير وطالب لأى شىء لأن «ما» مـوصولة، قليل أو كثير غث أو سمين من جنس الخير خير أو غيره مما اعتدت من قبل بإنزاله وإعطائه.

وفيـه معنى آخر هو أن يكون مـا موصولة واللام للتعليـل والماضى على حقيـقة، فالمراد رب إنى فـقير بحمدك لأجل الذى أنزلت إلىَّ من خيـر، وهو الخلاص والنجاة من صحبتـه فرعون الظالم الذى هو خير الدين أو يعقل سبب افـتقارى، وقد كنت فى صحبة اللعين على الفناء التام هو قتل للقـبطى، والفرار منهم وهو خير لأنه مما اختاره الله تعالى فيعقل ذلك شكرًا ونجا بلطف الله تعالى.

والمرأتان سـمعتا قوله هذا عن سـوق غنمهما ولمـا جاءتا أباهما قال: أعـجلكما فجـسس بطون الأغنام فوجدها مـلأى، قالتا: يا أبانا وجدنا عـند الماء فتى من صفـته كيت وكـيت، فحكتا مـا جرى، ووصفـتا جوعـه وتعبه ومـا قال فى شكاية إلى ربه، فأرسل إحداهما إليه تدعوه.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ فالفاء فصيحة وتلك صغراهما واسمها «صغيرى» واسم الكبيرة «صغراء» على ما ورد فى الحديث من أنه تزوج صغراهما.

﴿تَمْشِي﴾ حال من فاعل جاءت.

﴿عَلَى اسْـتِحْـيَـاءٍ﴾ حال من فاعل تمشى فـيفيد أنها كانت على استـحياء حالتى المجىء والمشى معًا وقد وضعت كمها على وجهها.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أى ليعطيك أجرة سقيك لنا، فكره

موسى ذلك لأن أخذ الجعل على عمل الآخرة لا يليق بشأنه لكن قال: أذهب إلى الشيخ فأتبرك برؤيته، وأستظهر برأيه فذهب معها، والمرأة تتقدم للدلالة والريح تلعب بذيلها، تصف ما تحته، فقال موسى عليه السلام: يا حرة امشى خلفى ودلى على الطريق.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ الفاء فصيحة، وحين المجىء وجد السفرة موضوعة، والطعام حاضر للتعشى، فامتنع موسى عليه السلام من الأكل وقال شعيب عليه السلام: ألست بجائع؟ قال: بلى ولكنا من سلالة إبراهيم وإسحاق ويعقوب لا نشترى بمقابلة عمل الآخرة ملء الأرض ذهبًا، فقال شعيب: ونحن أيضًا من ذرية إبراهيم عليه السلام وعادتنا إطعام الضيوف، فهذه ضيافة لا أجرة، فأكل موسى ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ .

مصدر كالطلب بمعنى المقصوص، أى قص عليه ما جرى على نفسه من أول الولادة إلى هذا الزمان من أمر ذبح الأبناء وإلقاء أمه فى البحر والتقاط فرعون، وقتله القبطى، والفرار منهم.

﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لأن سلطان فرعون لا يجرى فى مدين، وقد أجيب دعاؤه ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الحمد لله تعالى.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ وهى الداعية وإنما أعيدت ظاهرة لطول الفصل.

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ﴾ قبل اليوم وجربت.

﴿الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ يعنى أن موسى عليه السلام قوى أمين لكن مرضت بذلك دفعًا للتهمة بمدح الأجنبى، فأخرجت الكلام مخرج المثل، وأتت بأمر عام ودخل فيه موسى عليه السلام دخولاً أوليا، وهو كلام فصيح جامع لا ترى أحسن منه، وللمبالغة عكس الأمر فإن الظاهر جعل القوى الأمين اسم إن لأنه معرفة بالإجماع وإن كان التعريف للجنس.

وخيرًا فعل التفضيل لأنه أصله أخير فخفف وإضافة أفعل التفضيل ليست بمعنوية عند عبد القاهر وأبى على والخبر أولى.

وإن كانت محضة عند سيبويه فهى اختلافية لكن للعناية إلى الخبرية قدمت كأنها الأصل والمستتبعة للقوة والأمانة وسائر الفضائل والقوم هى الكفاية للأمر بالعلم، والفعل والأمانة هى الديانة والخوف من الله تعالى فإذا اجتمعتا فى الأجير والخادم والمتولى للأمر فقد حصل المرام.

ذكر فى الانتصاف أن عمر ﷺ أخذ من الآية وجعل يبكى ويقول: أشكو إلى الله تعالى ضعف الأمين وخيانة القوى.

كأنه يطلب من الله تعالى الجامع بينهما.

فقال أبوها: من أين علمت قوته وأمانته؟ قالت: أما القوة فمن إقلال الحجر العظيم ونزع الدلو الكبير، وأما أمانته فمن قوله: امشى خلفى ودلى على الطريق.

ومن تصويب رأسه عند كلامه فرد الشيخ بكلامها.

﴿ **قَالَ** ﴾ يعنى شعيب عليه السلام لموسى ﴿ **إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** ﴾.

وإنما أتى بهاتين لأنه كانت له سبع بنات.

كما ورد فى التوراة نقله البقاعى.

﴿ **عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي** ﴾ نفسك، أو تكون أجيرًا لى، أو تأتنى ﴿ **ثَمَانِيَ حِجَجٍ** ﴾ بتقدير المضاف أى رعيته ثمانى حجج، والحجة السنة لأنه الحج يكون فى كل سنة مرة، فسموا السنة بها تبركًا.

والحاصل أن شعيبًا عاهد موسى وقال: أريد منك أمرين: إنكاحك البنت درعية الثمان وما كان هذا عقدًا على ما دل عليه «أريد» حتى يعترض باعتراضات كثيرة فيها إيهام المنكوحة، وجعل خدمة الحجج مهرًا وإن كان ذلك جائزًا فى رعى الغنم على ما فعل فى الفقه، ومنها أن الرعى لغنم الأب لا لغنمها وغير ذلك فلا يرد شىء من ذلك، لأن النكاح ورد على معين وهى الصغرى عند الأكثرين، لأن شعيبًا قال لموسى عليهما السلام: اختر أيتهما شئت؟.

قال: اخترت الداعية لأنها مدحتنى بقولها: القوى الأمين.

فانظر أيها العاقل ما ضيع موسى مدحها مرة فكيف يضيع حمدك الله العليم الخبير فى السنين المتطاولة وكان النكاح على مهر معين وكانت رعيته على أجر معلوم، لكن هذا عهد وعد، فوجد العقل بعد ذلك والسؤال بأنه كيف ساقى لشعيب النبى عليه السلام إخراج بنته من البيت واسترعائها الغنم غير وارد لأن الضرورات تبيح المحظورات، مع أن العادات مختلفة، فعند أهل البدو عمل المرأة عمل الرجال غير خارج من المروءة، والديانة لا تمنعه.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أى عشر سنين.

﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أى الإتمام من عندك وبفضلك لا ألزمه عليك.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام أبعد الأجلين أو بالمناقشة فى مراعاة أوقات الرعى والود ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فى عموم الأحوال خصوصًا فى أحوال الرعى والمعاملة مع الخادم وفائدة اشتراط المشيئة فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه تعالى ومعونته.

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿ذَلِكَ﴾ أى العهد المذكور.

﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ من الأطول والأقصر.

﴿فَلا عُدْوَانَ﴾ من أحد.

﴿عَلَيَّ﴾ أى كما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان لأنى مخير فهذا وجه ضم الأطول لأنه طلب بعده، أو لا عدوان منى، فهو كقولهم: لا إثم على لأنى أيضًا مخير.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أى شاهد ورقيب، فلتضمين معنى الرقيب عدّى.

روى أنه بعد العهد قال شعيب لابنته: أعطى موسى عصا من عصى الأنبياء، لأن عصى الأنبياء كانت عند شعيب بالتوارث، وكان وضع عنده ملك فى صورة رجل عصا وديعة، فذهبت بنته إلى البيت الذى فيه العصى فأخرجت العصا المودعة فلمس شعيب، وقال: دعيها وأتى بغيرها فذهبت وجاءت سبع مرات ولا يقع فى يدها غيرها، فقال شعيب: أعطيها موسى، إن لها شأنا، فلما خرج ندم شعيب وتبعه وقال: رد إلى الوديعة، فقال موسى: لا، فكان لها شأن فحضر ملك فى صورة رجل قال: ضعها يا موسى على الأرض أيكما يقلها فهى له، فلم يقدر شعيب على الإقلال، ورفع موسى عليه السلام، قال: إن لها شأنًا، ثم قال: يا موسى: إذا أخذت فى المسير وأتيت المفرق ينقسم الطريق إلى اليمين والشمال لا تذهب إلى اليمين فإن فيه كلاء وعشبًا لكن فيه تنين، واذهب إلى الشمال كسائر الرعاء، فلما وصل لمفرق الطريق، أخذت الغنم فى اليمين ولم يقدر على ذودها، فذهب خلفها، فرأى ربعًا وماء فنفشت فيه

الغنم فنام موسى فجاء تنين فحاربته العصا فقتلته وتلطخت بدمه ثم انتبه موسى، فرأى عصا متلطخة بدم الحية والحية ميتة فتعجب وحمد الله تعالى.

فجاء إلى شعيب فأخبره الخبر، فحمد الله وتعجب ثم قال من شده فرحه: يا موسى كل سحله تولد فى السنة ورع ودرعاء، أى الذى اسود رأسه وابيض بدنه فهى لك.

فقيل لموسى فى منامه: اضرب بعصاك الماء، فضرب فكان كل سخلة فى تلك السنة أورع ودرعاء فأخذها موسى عليه السلام فحمد الله تعالى.

مجلـــس فـــى:

بيان تكليم موسى عليه السلام واستنبائه وإرساله

في سبع آيات من سورة القصص:

بسم الله الرحمن الرحيم

في بيان تكليم موسى عليه السلام واستنبائه وإرساله في سبع آيات من سورة القصص[1].

عن أبي موسى الأشعري قال: قام رسول الله ﷺ بخمس كلمات: إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط، ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور[2].

وفي رواية: النار (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[3]. رواه مسلم.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ﴾ أي أطول الأجلين وتزوج ابنته الصغرى، ومكث عشرًا

---

(١) ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

(٢) حديث: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ورفعه...) هذه رواية كثيرة في كتب السنة والحديث انظر رواية الإمام مسلم ١/ ١٦١.

(٣) وفي رواية (حجابه النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما افتد إليه بصره من خلقه) وهذه رواية الإمام مسلم في صحيحه ١/ ١٦١.

أخرى وولدت زوجته منه غلامين اسم أحدهما: موسون، والآخر: مليقا زاد ثم استأذن من شعيب فى زيارة أمه، وأخيه، وأخته بمصر.

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ أى زوجته وولديه وعبيده على ما دلَّ عليه لفظ الأهل وجمع «امكثوا».

﴿آنَسَ﴾ أى أبصر إبصارًا لا شبهة فيه.

﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ ابتدأ إبعاده من جانب الطور لأنه كان يرى فى الظلمة الشديدة غير تلك النار، وذلك لأن موسى عليه السلام كان غيورًا فكان يسير فى النهار بلا رفعة لئلا ينظروا إلى زوجته وإذا كان بالليل يقرب من الرفقة ففى بعض الليالى فقد الرفقة وأخطأ الطريق، وكانت ليلة شديدة الظلمة، فمطرت وهبت الريح العاصفة وتفرقت ماشيته، وكان يسير مع أغنامه وأخذ امرأته الطلق، وقدح الزند، فلم يخرج النار وكان البرد شديدًا، فعند ذلك رأى النار، وتلك النار كانت نورًا، أى: نور الحجاب الذى ذكر فى الحديث السابق.

وقيل: كانت على حقيقة النار كما ورد فى الحديث: رواية النار.

لكن الصحيح أنه نور، لكن لما رآه موسى عليه السلام نارًا وظنه نارًا كذلك قيل: نارًا.

﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أى: بخبر الطريق.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أى: عود غليظ سواء كان عليه نار أو لم تكن، فلعمومه بينه على طريق المبالغة بقوله ﴿مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى تدفعون البرد وإنما أتى بصيغة الترجى لأنه كان يحتمل أن يحترم عند الوصول إلى النار فلا يصل وإن أتى بالجذوة، وكان يحتمل أن لا يقع الاصطلاء، أى الاسترخاء لسبب من الأسباب فلذا أتى بـ «علَّ» فى الموضعين بخلاف الإيناس فإنه كان محققًا، فلذا أتى بأن، قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ والمنادى هو الله تعالى.

﴿مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ﴾ من اليمين أى بموسى أو من اليمين أى الميمون لتكليم موسى.

﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ حال من شاطئ هو الجانب أو متعلق بنودى، وبركة البقعة لأنه وقع فيها إرسال موسى واستنباؤه وتكليمه وغير ذلك.

﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل الشاطئ الوادى لأن المبدل أى الشاطئ مشتمل عليها لأن الشجرة كانت ثابتة على الشاطئ، فيجوز فى بدل الاشتمال اشتمال المبدل على البدل وإن كان المشهور عكسه.

﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾ وأن مفسرة لما فى النداء من معنى القول، فقال موسى: لبيك وسعديك من المتكلم؟ قال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وتوجيه التكليم هو أنه تعالى خلق فى الشجرة صوتًا وحرفًا وإلا على كلامه القديم، فتمثل كلامه القديم الأزلىّ بالكلام اللفظى المخلوق فى الشجرة، كما كان جبريل يتمثل بدحية الكلبى.

ولا يلزم من التمثل بصورة دحية اتصاف جبريل بصفات دحية من أوصاف البشرية، فلا يلزم من تمثل الكلام القديم بالكلام اللفظى اتصافه بسمات الحدوث والإمكان.

وهذا التمثل مذكور فى البيضاوى فى سورة مريم وفى طه لكن «أبو منصور الماتريدى»[١] قال: إن المسموع هو الكلام اللفظى المثال لا الكلام القديم التمثل.

وقال أبو الحسن الأشعرى[٢]: المثال والتمثل كلاهما مسموعان كما أن ذاته تعالى مرئى بلا جسم ولا كيف، فكذا كلامه القديم مسموع بلا صوت ولا حرف.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ والمذكور هنا وفى النمل، وفى طه، واحد، لكن لما كانت القصة مشتملة على جمل كثيرة وقصص متعددة ذكر فى كل سورة بعض منها فالحال واحد، وفى سورة طه قال: ﴿مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ (طه: ١٧، ١٨) وعد منافعها وأصناف العصا إلى نفسه وكان من حق التوحيد إسقاط الإضافات فأمر بالإلقاء ليريه من خواص العصا ما يخرق العادة وليقطع الإضافة فقيل: ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمًا يتحرك كالجان وهى الحية الصغيرة السريعة وكانت تبتلع الأحجار وتقلع الأشجار.

﴿فَلَمَّا رَآهَا﴾ فالفاء فصيحة.

﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أى تتحرك كالحية الصغيرة السريعة، فالتشبيه فى السرعة لا فى الهيئة والجثة لا بباء كأن عنه فى الابتداء والانتهاء.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أى منهزمًا.

---

(١) (أبو منصور الماتريدى) تقدمت ترجمته.

(٢) (أبو الحسن الأشعرى) تقدمت ترجمته.

﴿ولَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى لم يرجع، من عقب الفارس إذا كر بعدما فر.

﴿يَا مُوسَىٰ﴾ أى نودى يا موسى.

﴿أَقْبِلْ﴾ على الحية.

﴿وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ لأنى لا يخاف لدى المرسلون، فأقبل عليها.

فقيل: ﴿خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾.

فأدخل يده فى فمها بعدما لفها بمنديل الدرعة التى كانت عليه، فقالت الملائكة: أيحول المنديل الثعبان؟ قال: لا لكن خلق الإنسان من ضعف، فانقلب الثعبان عصا، فرأى يده بين شعبتيه والعصا بيده فقيل له بعد ذلك:

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى: برص.

فقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ احتراس دفعًا لوهم أن بياض اليد يكون للبرص ولا ينافيه كونه فى مقام الإعجاز والكرامة لأن المنافاة بعد الوقوع وأما قبله فيحتمل الوهم، فسلك يده أى أدخلها فى جيبه ثم أخرجها فرأى عليها شعاعًا مثل شعاع الشمس قد سد ما بين الأفقين، ثم أدخلها فى الجيب مرة أخرى فعادت كما كانت.

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أى أدخل فى جيبك يدك تارة أخرى لتعود إلى حالتها الأولى.

وقوله: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أى: لأجل إزالة الرهب، وذلك لأن الإنسان إذا رأى يده التى هى آلة فى مزاولة الأعمال على هيئة أخرى وإن كانت أشرف يخاف ويرهب، فقيل: أدخلها فى جيبك تارة أخرى لتعود إلى حالتها الأولى ويزول رهبك.

وقيل: اضمم إليك يديك بعدما بسطنا اتقاء للحية بأن تدخل اليمنى تحت عضد الأيسر وبالعكس لأن بسطهما كذلك عضاضة وتقص لك عند الأعداء، فقوله: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أى إذا عراك الخوف فافعل كذا تجلدًا وضبطًا لنفسك.

ويرد عليه أنه كان يجب لتقديمه على «اسلك يدك» لأنه من تتمة الآية الأولى، وإن كان يمكن دفعه بأن قورن بين الآيتين لكونهما كالشاهدين للدعوى واعلم أنه تعالى ذكر فى سورة طه الضم ولم يذكر السكك والإدخال، وفى سورة النمل ذكر الإدخال ولم يذكر الضم، وهنا ذكرهما جميعًا وضم الجناح مستعار استعارة تمثيلية من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن ضمهما إليه.

فالمعنى: تجلد وتضطرب عند رؤية اليد شفافة أو رؤية الحية مقبلة فأدخل يدك تحت إبطك فلا تخف من شعاع اليد أو الحية.

﴿فَذَانِكَ﴾ ثنية ذاك.

﴿بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أى: حجتان سيرتان.

وبرهان فعلان من أبره الرجل إذا أتى بالبرهان فالألف والنون مزيدتان.

وقيل: فعلال من برهن أنت أرسلت بهما.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فكانوا أحقاء بالإرسال إليهم للإصلاح أو للإعذار.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ فضاحًا.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وإن كنت فصيحًا، وما قيل من اللثغة من أخذ الجمرة فى فيه عند نتف لحية فرعون على ما يدل عليه قوله تعالى فى سورة طه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ ضعيف، لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كانوا فى النبيه خصوصًا فى اللسان لأنه آلة الكلام وهم بالكلام مبعوثون خصوصًا موسى عليه السلام فإنه مختص باسم الكليم.

والمراد من العقدة كونه غير أفصح مثل هارون على ما دل عليه هذا الكلام.

أو نقول: المراد بالعقدة فى ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ وبعد كيد وده الإبانة فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢) يبين أن مخاطبة الخلق بعد مخاطة الحق مما يشق على الإنسان، ويعقد اللسان عند أرباب القلوب فسأله أن يجرى لسانه عند المخاطبين، تأمل.

﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أى معينًا، والردء فى الأصل ما يعان به كالضبع والشبع.

﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بالرفع صفة للردء، والتصديق فى الأصل نسبة الصدق إلى أحد وهو ليس بمراد هنا.

فهو مجاز إما فى الطرف بمعنى يلخص الحق ويقرر الحجة ويزيل الشبهة والدليل عليه قوله فيما سبق ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾.

وأما فى الإسناد، أى يكون سببًا بتلخيصه المذكور لتصديق القوم والدليل قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أى سنقويك به فهو مجاز فى المرتبة الثانية لأن قوة الإنسان باليد وقوة اليد بشد العضد.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أن تسلطًا فى الحجة أو الغلبة، روى أنَّ موسى عليه السلام كان بعد الإرسال والاستنباء إذا رأى فرعون كان يقول: اللهم إنى أجعل هيبتك وسلطانك فى نَحْره وصدره، وأعوذ بك من شدة خوفه كما يبول الحمار.

﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بضرر.

﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى اذهبا بها أو متعلق بـ «نجعل» أو بـ «لا يصلون» أو قسم جوابه ما دل عليه فلا يصلون لا هو لتقدمه ولمكان الفاء.

أو متعلق ببيان.

﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

كأنه قيل: بم نغلب؟ فأجيب تغلبون بآياتنا، ولا يجوز تعلقه بـ «الغالبون» إن كان اللام موصولاً، لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول وإن كان اللام للتعريف يجوز.

وقيل: يجوز مطلقًا لأن الظروف يتحمل فيها ما لا يتحمل فى غيرها.

قيل: المراد بالغلبة الغلبة فى المال كغلبة أتباع نبينا ﷺ لأنه روى قتل فرعون السحرة وصلبهم. وقيل: مطلقًا، ولم يذكر صلب السحرة فى القرآن بل المذكور فيه إرادة فرعون ذلك، فلعله لم يقع.

روى أن موسى عليه السلام رجع إلى أهله بعد ما وقع فوجد زوجته قد ولدت، وأن مواشيه قد اجتمعت وأحاطت بالمرأة فاستدارت بها، فعرض على أهله الإيمان، فآمنوا به جميعًا، وفى ذلك الوقت ذهب جبريل إلى هارون فى مصر فأرسله الله تعالى وجعله نبيًا، وانتظر مجيء موسى عليه السلام.

قيل: لم يكرم أخ أخًا مثل تكريم موسى عليه السلام لأخيه هارون، حيث سأل ربه أن يجعله شريكًا فى رسالته حيث قال:

﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ فى سورة طه (الآية: ٣٢) والحمد لله.

مجلس في:

بيان أداء موسى الأمانة وتبليغ الرسالة وإظهاره المعجزة

في سورة الشعراء في ثماني عشرة آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بيان أداء موسى الأمانة وتبليغ الرسالة وإظهاره المعجزة في سورة الشعراء في ثماني عشرة آية[1].

ثبتنا الله تعالى على الصراط القويم.

في التيسير: روى عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم لمَ أكثر الله ذكر موسى في القرآن؟ قال: من أحَبَّ شيئًا أكثر ذكره، وأشار إلى قوله تعالى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (طه: ٣٩)[2].

وروى أيضًا عن وهب رواية أخرى: أن موسى عليه السلام مكث عند الشجرة سبع ليال لا يأكل ولا يشرب ملتذًا بكلام الله تعالى ثم بعد السبع قيل له: أجب ربك، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (طه: ٢٥، ٢٦).

ثم قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (طه: ٣٦) الآية، ثم قال: ﴿اذْهَبْ

---

(١) ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

(٢) حديث: (لم أكثر الله ذكر موسى في القرآن؟) لم أقف عليه.

أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري﴾ (طه: ٤٢) ثم إن موسى عليه السلام توجَّه إلى مصر، وشيَّعته الملائكة، وما كان معه زاد ولا رفيق إلاَّ عصاه، وأمَّا أهله فبعد غيبة موسى بقوا متحيرين، فقال الراعى ـ أى عبد موسى ـ: تعالوا نتوجه إلى مدين لعل موسى هلك، فذهب بهم إلى شعيب فبقوا عند شعيب إلى أن جاوز الله تعالى ببنى إسرائيل البحر وأغرق فرعون، ثم أرسل شعيب عليه السلام أهل موسى إليه فلما توجه موسى عليه السلام إلى مصر ودمل إليه استقبله هارون بوحى من الله تعالى ملاقيًا على شاطئ النيل قريبًا من قصر فرعون، فتصافحا، وتعانقا وأوحى الله تعالى إليهما ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ (طه: ٤٣) مثل أن يقولا له على طريق العرض والمشورة ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (النازعات: ١٨) ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ إن حقق ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ إن توهم فالتذكير للمحقق والخشية للمتوهم.

يعنى إن لم يحقق فلا أقل من أن يتوهم والترجى لموسى وهارون عليهما أى كونا على رجاء التذكير والخشية، فإن الراجى مجتهد والأيسر متكلف فائدة الاجتهاد فى التبليغ بعد علم الله تعالى بأنه لا ينفع قطع المعذرة وإلزام الحجة يوم قالا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ (طه: ٤٥) بأن يعجل فى العقوبة قبل إتمام الدعوة وإظهار المعجزة «أو أن يطغى» أى فيك بأن يقول فيك كلامًا لا يليق بجنابك، قال: ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ (طه: ٤٦) بالحفظ والنصر ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أى أقوالكم وأحوالكم، فأحدث فى كل وقت ما يدفع عنكما شره.

ثم توجها إلى قصر فرعون وكان لفرعون أسد كثيرة فى حديقة حول قصره وكان من عادتهم أن يوردوا الأسد فى النيل فى بعض الأوقات، فأوردوا الأسد إلى الماء فاتفق وصول الأسد إلى موسى وهارون عليها السلام عند الماء فلما رأتهما الأسد ضغت كضغاء الثعالب وعوت كعواء الكلام، ثم أدبرت منهزمة إلى القصر فلم يقدر الساسة على ضبطها، بل تفرقت فى الحديقة والأشجار، وتعجب قوم فرعون من أمرها قالوا: تفرقت من ساحرين، ثم وصل موسى، وهارون عليهما السلام إلى باب القصر، وذلك كان يوم السبت غرة ذى الحجة، ثم بقيا على الباب بقية العشر لم يؤذن لهما فى الدخول، فلما كان العاشر من الشهر المذكور أحضر فرعون جنوده وأركان دولته إلى القصر لمهم له فقيل لفرعون: اليوم فى المجمع فى الباب رجلان عليهما مدرعتان من

صوف يقولان إنا رسولا رب العالمين، قال اللعين: أدخلوهما لعلهما من المجانين نضحك منهما فأدخلا.

ذكر وهب: أن موسى وهارون لما دخلا دار فرعون ووقفا بين يديه لقن الله تعالى موسى دعوة دعا بها فقال: لا إله إلا الله الحليم الكريم وسبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين، اللهم إنى أدْرأ بك فى نحره، وأعوذ بك من شره، وأستعين بك عليه فأكفنيه بما شئت، فتحول ما فى قلب موسى - عليه السلام - من الخوف أمنا، وتحول ما فى قلب فرعون من الأمن خوفًا فمن دعا بهذا الدعاء وهو خائف أمنه الله تعالى ونفَّس كربته وخفّف عليه كرب الموت.

فأوحى الله تعالى إلى موسى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وإنما وحد الرسول فى الشعراء، وثنى فى طه كما هو الظاهر لأنه اتحد المرسل أى الله، والمرسل به أى الشريعة كان فى حكم رسول واحد والرسول فى الأصل مصدر وإن كلا منا رسول.

﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ أى أرسل فإن فى الرسول معنى القول.

﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى ظنهم يذهبوا حيث شاءوا فالإرسال من إرسال الصيد وأهل القيد.

وفى طه ﴿وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أى: بالتكاليف الشاقة ولم يدعوهم إلى الإيمان، لأن تخليص المظلوم من يد الظالم أهم من دعوته إلى الإيمان فقال فرعون: ما اسمكما واسم أبيكما؟ قال موسى: أنا عبد الله وابن عباد الله، وإماء الله، وصاحبى كذلك.

فقال فرعون: من أى بلاد أنتم؟ قال موسى: خلقنا من التراب ثم نَعُود فيه، ثم نخرج منه، فعرف فرعون موسى عليه السلام فقال: أنت موسى قاتل النفس قاطع الطريق الغادر بالسيد والكافر بنعمته فكيف تكون رسولاً.

فبين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ أى فى منازلنا.

﴿وَلِيدًا﴾ أى: طفلاً، وسمى الطفل وليدًا لقربه من الولادة.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ فى قصرنا ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: ثلاثين سنة.

فَمنَّ اللعين عليه بالتربية طفلاً وصبيًا ومراهقًا وبالغًا إلى أشده.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ من النعل.

﴿ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ وهى قتل القبطى، وأبهم للتهويل كما هو عادة الملوك.

﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: بنعمتى، فقدح اللعين على زعمه فى نبوته بقتل النفس وبكفران النعمة.

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ فَعَلْتُهَا ﴾ أى الفعلة.

﴿ إِذًا ﴾ جواب لفرعون لقوله، وجزاء على الغرض، أى إن كان فعلك إحسانًا يكون من قبيل مكافأة الحسنة بالسيئة، لكن فى الحقيقة هذا من قبيل مكافأة السيئة على ما نفصل.

﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى: كنت خاليًا من الحكم والأحكام ولم أكن نبيّا.

فحاصل الكلام أن القتل المذكور كان من جنايات الأسير فى دار الحرب، فلا حرج فيها أصلاً إلا الخوف على النفس فكان المندوب والأولى تركه وتركت المندوب، فكان ذلة يجوز على الأنبياء عليهم السلام.

ومع ذلك قيل الاستثناء فلا قدح فيه أصلاً فدفع فى صدر اللعين.

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ وإنما جمع الضمير هنا مع الإفراد فى (أرسل) و (تمنها) لأن الإرسال والمنة منه فقط، والخوف والفرار منه ومن ملائه.

﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ أى حكمة.

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ثم شرع فى در منته فقال: ﴿ وَتِلْكَ ﴾ التربية ﴿ نِعْمَةٌ ﴾ فى الظاهر.

﴿ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ من الامتنان بدلالة «على» وهى فى الحقيقة.

﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى تعبيدك بنى إسرائيل وتذليلهم وقهرهم، وقتل أولادهم صار سببًا فى حصر لى عندك وإلا كان أهلى قادرين على تربيتى فلا نعمة على فى الحقيقة، بل ما زعمت أنه نعمة فهى فى الحقيقة فلما جاء الحق وزهق الباطل من امتنان فرعون وسمع جوابه الشافى شرع فى الاستفسار عن مرسله.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

قال الإمام الداعى إلى الله تعالى فخر الدين الرازى: إن كان فرعون مجنونًا لا يجوز إرسال الرسول إليه وإن كان عاقلاً فكيف يجوز لذلك اللعين أن يقول: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾.

وقد كان من أجل البديهيات ويعلم ذلك اللعين بالضرورة أنه ما كان موجودًا أو حيا وعاقلاً أيضًا ثم صار موجودًا أو حيًا وعاقلاً، وكان يعلم أيضًا بالضرورة أنه يستعدم ويموت، ويعلم أيضًا بالضرورة أن من هذا شأنه لا بد له من مؤثر، وموجد، فبأى شبهة يدعى الربوبية، ويستفقر عن رب العالمين.

فأجاب لعله دهريًا يعتقد وجوب السمويات وفيه ضعف فالجسمية والتركيب من أول الدلائل على الإمكان، وأجاب أيضًا لعله كان على مذهب الفلاسفة القائلين بأن العلة موجبة والفاعل غير مختار بمعنى صحة الفعل والترك، وأن اللعين كان يعتقد أن من ملك قطرًا من الأرض بقوة طالعة يستحق من أهله العبادة فيكون شبهة فأزال الله تعالى تلك الشبهة بإرسال موسى عليه السلام وبإظهار المعجزة، الحمد لله.

وبيان أن الفلاسفة المحروسين من الإيمان بالأنبياء والباقين فى الضلال ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٤) قد أثبتوا بأدلة العقل وجود الواجب تعالى ووحدته وسائر صفاته العلى لكن وقعوا فى مهلكة عميقة وهى أنهم قالوا: إن الله تعالى مختار بمعنى إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ومقدم الشرطية الأولى واجب الوقوع عندهم لأن وجود العالم خبر والبارى خير فمشيئة الخبر واجب فيشاء البتة فيقع العالم البتة، فيرجع الكلام إلى أن العلة موجبة كالنار للإحراق، لكن المذهب الحق أنه يصح منه تعالى أن يفعل ويصح منه أن لا يفعل، لأنه لا وجوب عليه.

فالله تعالى مختار بمعنى يصح الفعل والترك منه كما أنه مختار بمعنى إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل، فإذا كان كذلك فالله تعالى أوجد عالم الأجسام والأرواح بعد العدم بعدية ذاتية عندهم لأن العالم عندهم قديم وعندنا بعدية ذاتية وزمانية لأن العالم بجميع أجزائه عندنا حادث، وهو الحق.

لكن قالت الفلاسفة: ربط الأسباب بالمسببات فيقع معطلاً حاشاه عن ذلك، فلزم أن لا يكون ربًا للعالمين وكذا قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث لم يقولا: إنا رسول خالق العالمين، فإنه استفسر عن الخالق والصانع.

فحاصل الاستفسار ناسب أن للعالمين خالقًا واحدًا لكن لا نسلم أن لهم ربا واحدًا، بل لا تربية فى البسائط العلوية والسفلية، وأما المركبات فيكفى فى تربيتها

البسائط وبعض المركبات فى بعض فلا حاجة إلى رب واحد للكل فأجاب موسى عليه السلام بما حاصله أن علة الاحتياج إلى الصانع هى الإمكان وهو كما كان وقت الحدوث حتى احتاج إلى العلة يكون عند البقاء، فإن الممكن بالوجود لا يخرج عن الإمكان الذاتى حتى يستغنى عن العلة، فالممكن ممكن دائمًا وما دام ممكنا يكون محتاجًا إلى العلة فإن الورجود عار وعارض فيحتاج إلى المبقى كما يحتاج إلى الموجد.

وما فى الأوهام العامية من أنه يجوز عند الوهم بقاء العالم وأن عدم الصانع قياسًا على البناء، فإن البناء عدم مذ أوقات، وبقى البناء فباطل لأن نسبة الصانع إلى العالمن ليست نسبة البناء إلى البناء فإن البناء معد لكان أجزاء البناء من الأحجار وغيرها وليس علة لوجود البناء، فلو مات البناء عند تحريك الحجر ووضعه فى البناء لبقى البناء غير تام ولا مبنىّ، وأما بعد البناء وتمامه فلا احتياج إلى البناء لأنه معد، وحال المعد ذلك وصانع العالم علة مستقلة موجدة يفيض الوجود على العالم ويبقيه حينًا بعد حين، فالعالم يحتاج إلى الموجد والمبقى وكلاهما واحد وهو رب العالمين.

فسؤال فرعون عن المبقى لا عن الصانع، وقول موسى وهارون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما دل على أن الكلام والنزاع كان فى المبقى لا فى الصانع على ما فصل فأجاب موسى بأن قال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وهو داخل فى العالمين، فالغرض إيراد المثال لإيضاح قاعدة كلية يعنى أن من جملة العالمين هذه الأجرام المحسوسة وهى محتاجة إلى العلة حالة البقاء كما كانت محتاجة حال الحدوث، فالله تعالى يبقيها ويربيها، ويحفظ عليها وجودها العارض المستعار إلى أن يغنيها الله تعالى.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ والإيقان: علم الشىء بالدليل، يعنى دليل الاحتياج فى هذه الأجرام إلى المبقى أظهر شىء فإن كنتم من أهل الإيقان فأيقنوا ذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من عظمناء دولته.

﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ قاله تعجبًا منه.

قيل: سبب التعجب أن ما يطلب به ماهية الشىء وكنهه وأتى موسى بالآثار الخارجة فتعجب منه لكن مراد موسى على هذا أن التحديد والتعريف بالكنه لا يليق بجنابه لأن البسيط الذى لا جزء له فى الخارج والذهن لا يحد فاقتصر الحال إيراد الآثار ليعرف بوجه.

وقيل: سبب التعجب أن الأفلاك والبسائط دائمة ثابتة لا تتغير فلا يحتاج إلى الرب لكن حرره لما مر من أن علة الاحتياج هى الإمكان فما دام الشىء ممكنًا يكون محتاجًا، فالممكن محتاج إلى المبقى أى الرب كما هو محتاج إلى الصانع الموجد فانتقل موسى عليه السلام من مثال خفى إلى مثال واضح لا يكون فيه شبهة الدوام والثبات.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ وتغيركم وتغير آبائكم عدم الثبات ضرورى نعرض فى اللعين شبهة أن التربية فينا يكفى فيها أسلافنا والأفلاك، فإن الآباء والأمهات أسباب فى التربية، وحركات الأفلاك شمسها وقمرها فصحبها وترطبها أسباب فى تربية العالم فلا حاجة إلى رب آخر.

فقال على ما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ﴾ وتسميته رسولاً على السخرية.

﴿لَمَجْنُونٌ﴾ لأنه أتى أيضًا بالآثار وأيضًا غفل عن الشبهة المذكورة فأجاب عن الشبهة بأن السموات مسخرة قدرة قاهرة وإرادة باهرة فشروق الكواكب عن المشرق، وغروبها فى المغرب على نظام وانتظام واتساق نافع فى نظام العالم وبقائه إنما هو بإرادة شاملة وحكمة بالغة وقدرة قاهرة لا بذواتها لإمكان ذواتها وصفاتها والإمكان منبع كل نقص وزوال على ما «قال» أى موسى.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من درجات الارتفاع والانحطاط.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: إن كنتم من أهل العقل تعرفون أنه لا يمكن التحديد فى البسيط الحقيقى وأن الممكنات محتاجة إلى المبقى، والرب كالموجد فلما جن اللعين خاشنه موسى عليه السلام بفرض العقل فيهم كما يفرض المحال.

﴿قَالَ﴾ أى اللعين.

﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ المعهودين فإنه كان له سجن عمقه خمسمائة ذراع فيه حيات وعقارب إذا غضب على أحد غضبًا شديدًا ألقاه. فلذا لم يقل لأسجننك، فعدل اللعين عن الحجاج إلى اللحاج، وعن المقاولة إلى المعاتبة كما هو ديدن المحجوج فأوعده عليه السلام بالحسن المعهود حتى ينتهى عن كلامه.

فأتى موسى عليه السلام بإيعاد فى مقابلة إيعاده أشد منه.

﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ﴾ أى: أتفعل ذلك يعنى أتقدر على ما أوعد، حال مجيء.

﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أى يبين صدق ما قلت من الرسالة وكون الله تعالى فاعلاً مختارًا يفعل ما يشاء.

فالواو فى أولو جئتك للحال، والمبين من أبان المتعدى.

﴿قَالَ﴾ أى اللعين.

﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فى دعواك، فإن الصادق لا بد له من بينتين عادلتين.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ أى حية عظيمة متحركة كحركة الجان من ثعبت الماء فانثعب إذا فجرته فانفجر.

﴿مُّبِينٌ﴾ أى ظاهر ثعبانيته وليس من تمويهات السحرة والمستعبدين.

روى فى عظم الثعبان أنه كان مثل الجمل البختى فى الغلظ.

وقيل: أزيد حتى إلى قدر الميل.

وكان له أربع قوائم قصار غلاظ شداد فارتفع على ذنبه وفغر فاه اثنى عشر ذراعًا وأخذ سرير فرعون بأنيابه فطرح اللعين نفسه عن السرير وانكسر رجله وأحدث فى اليوم أربعين مرة وناداه: الأمان يا موسى، خذها أؤمن بك وأرسل معك بنى إسرائيل وتفرق جنده، وتزاحموا على الأبواب حتى مات فى الزحام خمسة وعشرون ألف نفس وخرجت آسية امرأة فرعون وقالت: يا موسى بحق التربية خذها واجعل لفرعون موعدًا يشاور أمراءه، ثم يجيبك، قال: موعدكم يوم الزينة أى يوم النيروز وأن يحشر الناس ضحى ثم أخذ عصاه فعادت كما كانت ثم قال: يا فرعون انظر إلى يدى فينظر فقال هى يدك لا شيء فيها، ثم أدخلها فى جيبه.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ينظر إليها جميع النظار لا يختص بواحد، ثم أدخلها فى جيبه مرة أخرى فعادت كما كانت.

فدلت المعجزتان على أن الله تعالى قادر على ؟؟؟ وأن آثار الأجسام وأفعالها وعادتها المستمرة ليست ذاتية بل بتكوين الله تعالى وخلقه وضعفه فالتربية فى الحقيقة ليست للأسباب بل هى لسبب الأسباب فثبت كونه تعالى ربًا للعالمين، والحمد لله رب العالمين.

روى أن موسى عليه السلام لما عاد مع هارون من مجلس فرعون أخذهما المطر فى الطريق فباتا فى بيت امرأة من بنى إسرائيل، فأرسل فرعون مردة من جنوده لينتهزوا الفرصة ويقتلوا موسى، فلما وصلوا إلى بيت موسى استقبلتهم العصا، فردتهم وقتلت منهم تسعة أنفس، وانهزموا، فلما أصبح موسى أخبرته المرأة وكانت حادسة لموسى بما فعلت العصا، فشكر موسى وهارون عليهما السلام.

مجلس في:

بيان معارضة السحرة بأمر فرعون لموسى وهارون عليهما السلام

وهى ثمانى عشرة آية من سورة الشعراء.

بسم الله الرحمن الرحيم

في بيان معارضة السحرة بأمر فرعون لموسى وهارون عليهما السلام وهى ثمان عشرة آية من سورة الشعراء(١).

قال المفسرون: ثم إن فرعون جمع جنوده فشاورهم فى أمر موسى، عليه السلام، على ما أخبر الله فى سورة الشعراء.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ أى قال فرعون لأشراف قومه كائنين حوله فنصب «حول» بالقدر ونصب المقدر.

يقال: وفى سورة الأعراف قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ المقول واحد.

فيحتمل أنه لما كان مجلس التشاور والتقاول تكلم بهذا الكلام، فرعون وأمراؤه فحكى فى الأعراف عنهم وفى الشعراء عنه.

---

(١) ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى فائق فى فن علم السحر فلذا أتى بصيغة المبالغة والمراد تنفيرهم عنه.

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ ﴾ ومراده تحذيرهم أن يتبعوا موسى عليه السلام فيقع بين فرعون وبينهم شر فيلجأوا إلى ترك الأوطان الذى هو أشد من القتل.

وهذا الكلام من غاية تحيره فى أمره وشدة رعبه من آيات الله وإلا فكيف يقدر ساحر أن يخرج مثله من سلطانه.

﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ وهذا من شدة تذلله وتخضعه بهيبة الآية العظيمة فطرح رداء الربوبية عن ظهره فخضع لأمرائه وعبيده بزعمه وطلب منهم الأمر ورضى بالإيمار بعد أن كان آمرًا مطاعًا، فكذا حال من خالف ربه واتبع هواه.

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ ﴾ أى آخر أمره وأخاه.

﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ أى كامل فى فن علم السحر.

﴿ عَلِيمٍ ﴾ بعلمه، فقابلوا قوله بسحار بصيغة المبالغة ليسكنوا روعه وقلقه.

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ ﴾ فقيل ثمانون ألفًا أو سبعون ألفًا أو خمسة عشر ألفًا وغير ذلك.

وليس فى القرآن ما يدل على العدد لكن فى المدائن وقوله: ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ يدل على الكثرة المبالغة.

﴿ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى يوم النيروز وكان يوم السبت يوم عاشوراء.

أو الميقات ما يوقت أى معين وهو وقت الضحى ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ والاستفهام للاستبطاء حثًا على المبادرة كأنه قيل: اجتمعوا على الفور.

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ والترجى راجع إلى الغلبة.

والمراد عدم اتباع موسى عليه السلام على الكناية لأنه يلزم من اتباعهم عدم اتباعه، وإلا كيف يمكن أن يتبع فرعون مع دعواه المعروفة سحرة مسخرين له.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ طلبوا الجعل على عملهم.

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ أى إن لكم أجرًا إن غلبتم.

﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ معطوف على ما دل عليه نعم، وإذا ما يقتضيه من الجواب لقول السحرة والجزاء لشرط المذكور فوعدهم اللعين الأجر وضم إليه الجاه

وهو قربه بأن يكونوا أول من يدل وآخر من يخرج من عنده وأن تكون شفاعتهم مقبولة وحاجاتهم مقضية فلما اجتمع السحرة، أمر فرعون فضرب أوطاقه، أى خيمته العظيمة من الديباج.

فقيل: كانت ميلاً فى ميل مثل قصره، وإن كان إسرائيليّا لكن لا يبعد لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الدخان: ٣١) واجتمع جنوده من كل دأب واجتمع من سائر الناس ما يفوق الحصر.

ومراد اللعين من هذا الازدحام شهرة أمره وفضاحة موسى على رءوس الأشهاد لكن أراد الله أن يبلغ أمر موسى من الشهرة مبلغًا كاملاً وفضيحة فرعون فيها بين الناس إلى النهاية فوقع ما أراد الله ـ تعالى ـ وبطل ما أراد فرعون.

وفيه الاعتبار لكل عاقل أن لا يأمن من مكره تعالى ثم إن السحرة كان رؤساؤهم أربعة: ساتور، عاتور، حصحطه، مصفا، وقد كانوا تفحصوا أمر موسى نائمًا فرأوا أن عصاه تحرسه فقالوا لفرعون: إن أمر موسى سماوى لا يمكن معارضته، اعف عنا، فأبى اللعين إلا المعارضة فاصطف جنوده واصطف الناس واصطف السحرة ثم جاء موسى مسكنًا على عصاه معه أخوه والله ناصرهما فراعى السحرة الأدب فقالوا: يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى فخيروا موسى عليه السلام لكن رغبوا فى إلقائهم أولاً فلهذا غيروا الأسلوب وبرعايتهم الأدب معه رزقهم الإيمان والجنة.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ولا يجوز الأمر بالسحر لأنه معصية لكن مراد موسى عليه السلام كشف شبهتهم وإزاحة عذرهم ولا يكون ذلك إلا بأن يلقى كيدهم أولاً ثم يجىء الحق فيدمغ الباطل، فالأمر فى الحقيقة يكشف الشبهة لا بالسحر ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا﴾ أى سفهاؤهم وأصاغرهم لئلا يناقض قوله تعالى فى طه: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾.

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ اعتمادًا على قوة سحرهم وأنهم قد جاءوا بأقصى ما يمكن.

وقال فى سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ (الأعراف: ١١٦) أى موسى وهارون وغيرهما ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى أخافوهم أشد الخوف، كأن الناس طلبوا الخوف من أنفسهم ﴿وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ فعظمه الله تعالى لما فى نفسه من العظيم.

وقال فى طه ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾.

فذا يدل على أخذ عينيه، وكذا قوله تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ (طه: ٦٦ - ٦٩).

وقال هنا: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ (الأعراف: ١١٧).

أى: ما جاء الناس والسحرة ابتلاع العصا.

﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى: ما يصرفونه عن حقيقته.

فـ «ما» موصولة أو إفكهم، فما مصدرية، وهذا الصرف بأن خيلوا إلى الناس الحبال والعصى حيات متحركات، روى أن السحرة كانوا سبعين ألفًا فألقى كل واحد عصا غليظة وجلا طويلاً وأخذوا أعين الناس فأروهم الحيات والأفاعى قد ركب بعضها بعضًا وملأت الوادى، فلما ألقى موسى عصاه ابتلعتها جميعًا وتوجهت إلى الناس فانهزموا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم.

قيل: سبعون ألفًا، وانقلبوا إلى البلدة، كما قال فى سورة الأعراف: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١١٨).

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ ﴾ (الأعراف: ١١٩) أى فرعون وجنوده ﴿ وَانقَلَبُوا ﴾ أى إلى البلدة ﴿ صَاغِرِينَ ﴾ وانهزم فرعون.

﴿ فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ (الشعراء: ٤٦) أى خروا ساقطين على وجوهم وكأنهم ألقوا، ففيه استعارة، أو ألقاهم الله تعالى بما خولهم من التوفيق فسجدوا لله لما رأوا أن عصيهم وحبالهم انعدمت، فقالوا: إن السحر لا يبطل الحقيقة وإنما هو تمويه وتخييل، فلو كان أمر موسى ـ عليه السلام ـ سحرًا لبغى إفكنا فإنما هو أمر إلهى فنفع علمهم وإن كان حرامًا، فالتفرق فى كل علم نافع.

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢١) أخذوا ذلك من قول موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٢) عطف بيان.

ومرادهم عزل فرعون بالكلية عن الربوبية.

وروى أنهم لما سجدوا رأوا فى سجودهم الجنات والنيران وشاهدوا ملكوت الله إلى العرش، فأصبحوا سحرة فجاراً مقسمين بعزة فرعون، وأمسوا بررة أولياء الله مؤمنين برب العالمين.

ثم إن قارون ابن عم موسى ذهب إليه وطلب منه التأخير إلى أربعين يومًا ليشاور مرة أخرى ويجمع جنوده وطلب رفع العصا، فأبى موسى، واستعجل فأوحى الله إليه: يا موسى إنى أنا الحليم الكريم الغفور الرحيم، انظر إلى ما يقول، فذهب إلى معسكر بنى إسرائيل وعصاه خلفه تذهب وتبضبض وتنعر وتتحرك يمينًا وشمالاً وتهزم الناس ثم تلتجئ إلى موسى عليه السلام حتى أتى معسكر بنى إسرائيل، فأخذ عصاه بيده ودخل بيت الله ثم أحضر السحرة بعد أيام:

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ﴾ أى لموسى ـ عليه السلام ـ.

﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (الشعراء: ٤٩) أى لم بادرتم إلى الإيمان، فليس المبادرة إلا لأمرين:

أحدهما مذكور هنا وهو ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ أى أستاذكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فلحق الأستاذية بادر ثُمَّ قبل إذنى إلى الإيمان به وحقى عليكم من حيث إنى ربكم أعظم من حق الأستاذية، ومراده التلبيس والحيلة ولا فما جاء موسى عليه السلام فى مدين إلا بقريب وما كان يعرف السحر.

والأمر الآخر: قوله تعالى فى الأعراف: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ (الأعراف: ١٢٣) واضعتموه فى النيل ووافقتموه لإخراج أهلها ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إجمال فى الوعيد ثم فصله بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ أى من جهة الخلاف الأيدى من اليمين والأرجل من الشمال.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى على جذوع النخل.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ أى لا ضرر فى الحقيقة وإن كان فى ظاهر الدنيا.

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ تعليل لعدم الضرر بأنا شاهدنا ثواب ربنا فى السجدة وتشوقنا إلى لقائه ولا سبيل إليه غير الموت.

فالمضاف محذوف فى «إلى ربنا» أى إلى ثواب ربنا راجعون ومنقلبون.

بقى إشكال منع المعاصى والآثام عن الوصول فعللوا الانقلاب بقولهم: ﴿إِنَّا

نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ مما أكرهتنا عليه من السحر لما ذكر من أمر الليل وأن دعوة السلطان إكراه وغير ذلك من الآثام.

﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل مشهد فرعون أو من القبط لأن إيمان بنى إسرائيل كان أسبق ثم اختلف فى قتل فرعون إياهم، والصحيح عدمه لقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

ثم إن موسى أمهل فرعون أربعين ليلة فشرع اللعين فى جمع جنوده فكلما شرع فى مكر خيبه الله تعالى، ثم طفق فى المشاورة مع الأمراء والعقلاء إطفاء لنور الحق بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

مجلـــس فـــى:

بيان مشاورة فرعون مع الأمراء فى قتل موسى عليه السلام ومنـع جبـريل مـؤمن آل فرعـون منـه ونصحه واتخاذ اللعين رصدًا يرصد فيه إخوان الكواكب

وهى اثنتا عشرة آية:

بسم الله الرحمن الرحيم

فى بيان مشاورة فرعون مع الأمراء فى قتل موسى عليه السلام ومنع جبريل مؤمن آل فرعون منه ونصحه واتخاذ اللعين رصدًا يرصد فيه إخوان الكواكب[1].

وهى آثنتا عشرة آية قال الله تعالى فى الأعراف ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾.

أى: ليذر عبادتك وعبادة الكواكب.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أى نعيد القتل فيهم.

---

(١) ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.

﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾.

وفصل الله تعالى ذلك فى سورة المؤمن فشرعنا فى هذا التفصيل من السورة المذكورة، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أى بعدما شاور أمراءه فى قتل أبناء بنى إسرائيل بقولهم ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾.

فالمشير إلى قتل الأبناء بعد مجيء موسى عليه السلام.

هو اللعين على ما فى الأعراف.

والأمراء أخذوه منه كما فى سورة المؤمن ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ يوهم أن الأمراء كأنهم منعوه فقيل: نعم منعوه لاعتقاد بعضهم فى حقيقة موسى عليه السلام.

وبعضهم قالوا: إنه أحقر من ذلك لأنه ساحر، فإن قتلته أدخلت على الناس يقولون: ما قدر فرعون على الجواب والمعارضة، بل قتل.

وبعضهم كانوا يقولون: موس عليه السلام لإشغال فرعون لأن السلطان إذا اشتغل بعد وسلم أركان دولته من بطنه.

والحق الظاهر أنه منع من الأمراء هنا لأنه كان سفاكًا للدماء قتالاً فى أهون الشيء فكيف بمن يظن أنه يسلم دولته لكن اللعين كان فيه خَبٌّ وكان يخاف من موسى عليه السلام أشد الخوف وكان يعلم أنه إذا قصد قتله لا يتيسر له فيوهم الناس كأن الأمراء منعوه وإلا لكان قتله، وهذا من حيلته وليدع ربه الذى أرسله وهذا أيضًا من شدة خوفه وإلا لما كان يتفوه بالله العظيم، وهذا كقول من يخاف من عدوه.

ويقول: أظهر مظهر الخلد وعدم المبالاة وفى باطنة ببول الدم.

﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ وفى طه: ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ أو﴿ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ بالتغابن والتهارج وأن ينقطع السيل، ويعطل المعاش والمراد بدينهم وطريقتهم المثلى أى العظمى فى زعمهم هو مذهب الدهريين أو الفلاسفة المعطلين.

كما بين الإمام الداعى إلى الله فخر الدين الرازى فى سورة الأعراف فى تفسير: ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال: والذى خطر بالبال أن فرعون إن قلنا إنه ما كان كامل العقل لم يجز فى حكمة الله تعالى إرسال الرسول إليه، وإن كان عاقلاً لم يجز كونه خالقًا للسموات والأرض ولم يخبر فى الجمع العظيم من العقلاء أن يعتقدوا فيه ذلك لأن فساده معلوم بالضرورة بل الأقرب أن يقال إنه كان دهريًا منكرًا لوجود الصانع أو فلسفيًا

قائلاً بالعلة الموجبة لا الفاعل المختار على ما فى سورة طه فى تفسير ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ وكان يقول: مدبر هذا العالم السفلى هو الكواكب.

وأما المخدوم فى العالم للخلق ولتلك الطائفة والمربى لهم فهو نفسه فقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ﴾ أى أنا مربيكم والمنعم عليكم والمطعم لكم.

وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ أى لا أعلم لكم أحدًا تجب عليكم عبادته إلا أنا.

وقال فى سورة القصص: كان يقول لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم، وينقادوا لأمره ولا يشتغلوا بطاعة غيره على ما فى سورة طه.

وهذا هو المراد من ادعائه الألوهية لا ما ظنه الجمهور فخاف اللعين أن يتبدل موسى عليه السلام ملة الصابئين، ودين الفلاسفة أو الدهريين، أو يطيع بعض الناس له فيقع النهار حينئذ فيتذيل الدين إيمان كل الناس بموسى عليه السلام وإظهار الفساد إيمان البعض دون البعض لوقوع التحارب.

وقيل فى المثل: صار فرعون واعظًا.

أى يحذر الناس عن الاختلال فى الدين أو الدنيا.

وقدم أمر الدين لأن عند كل أحد دينه أقدم على الأولاد والمال.

ولما تكلم اللعين بذلك وبلغ ذلك موسى ولم يكن حاضرًا فى مجلسه استعاذ بربه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ أى فى مجلس بنى إسرائيل.

﴿إِنِّى عُذْتُ﴾ أى عوذًا من لدنه مؤكدًا.

﴿بِرَبِّى﴾ الذى بلغنى إلى الرسالة وإلى ما شاء.

﴿وَرَبِّكُم﴾ يا بنى إسرائيل حثًا لكم على الاستعاذة لأن فى تظاهر الأرواح استجابة الدعاء. ولذا شرعت الصلاة بالجماعة.

﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (غافر: ٢٧).

فإذا كان الرجل متكبرًا يقسو قلبه فيأتى بكل ظلم فكيف إذا انضم إليه عدم الخوف من الله فيأتى بكل سوء وعدم التصريح بذكر فرعون للتعميم ولرعاية حق التربية وللإشعار بموجب القول المذكور لفرعون.

ولما استعاذ نبى الله به تعالى بأن ألهم فى قلب بعض خواصه الذب عن موسى:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ (غافر: ٢٨) وهو معطوف على «قال فرعون» وقول موسى معترض بين القولين المتعاطفين لإعلام أنه من استعاذ به أعاذه وهو الرجل هو الرجل المذكور فى سورة القصص فى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ وهو فربيل بن عمر فرعون وولىّ عهده والخازن لخزائن مصر.

﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صفه ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾.

أيضًا روى فى التفسير الكبير عن النبى ﷺ مسباق الأمم ثلاثة: صاحب يس، أى حبيب النجار، ومؤمن آل فرعون، وعلى بن أبى طالب ﷺ.

﴿أَتَقْتُلُونَ﴾ مقول قال والهمزة للإنكار.

﴿رَجُلًا﴾ أى رجل كان وإن لم يكن نبيّا ولا له سابقة تعلق بغير حرم.

﴿أَن يَقُولَ﴾ أى لأن يقول، أو وقت من غير روية.

﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ على الحصر لتقديم ما يدل على الجنس.

﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ (غافر: ٢٨) وقد كفى بينة وجاء هذا بالبينات الحجج المدلولة عليها فى مقاولة فرعون عند قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهى قوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات فى الشعراء، والمعجزتين من العصا واليد البيضاء.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ استدراج لهم إلى الإيمان أى ليس الرب مختصّا به هو ربكم، وأتى بحجة أخرى على طريقة النشر والتقسيم.

وقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا﴾ قدم هذا إشعارًا بعدم التعصب وإنه كلام المصنف كما فى قصة يوسف عليه السلام ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ الآية.

﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أى لا يتخطاه.

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ (غافر: ٢٨) كما هو الواقع.

﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أى لا أقل منه، وإن كان المصيب فى الواقع هو الكل وهو كمال الاتصاف ثم أتى بكلام ذى وجهين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أى مجاوز عن حده.

﴿كَذَّابٌ﴾ أى إن الله هدى موسى عليه السلام إلى البينات ولو كان مدعيًا كذابًا لما هداه، أو إن كان مدعيًا كذابًا لا يهديه الله إلى أن يوقع بين الناس التعادى، وإن وقع فبظلم الحكام وتنفير الناس عنهم فالفريق يتشبث بكل حشيش.

روى أن عقبة بن أبى معيط من كفار قريش رأى رسول الله ﷺ وعلى آله يصلى فى المسجد الحرام فأخذ بثوب النبى ﷺ ولفه فى عنقه وخنقه خنقًا شديدًا فجاء أبو بكر رضي الله عنه فدفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ﴾ الآية.

قال جعفر الصادق: ما فعله أبو بكر رضي الله عنه وقال أوقع فى محزة مما قاله مؤمن آل فرعون، لأنه قال سرًّا أى غير مظهر إيمانه بعد، وإن أبا بكر قال جهرًا أى معلنًا إيمانه، ثم نصح لهم وأحضَّ لهم النصح بإدخال نفسه فيهم.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الأَرْضِ﴾ (غافر: ٢٩) أى أرض مصر.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ (غافر: ٢٩) فبعدما نصح هذا المؤمن، وأتى بالحجج، عاند اللَّعين.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ من الرأى أى لا أسير عليكم، ولا آمركم بأمر إلا بهذا الرأى وهو قتل موسى عليه السلام.

فما مصدرية أو ما أعلمكم إلا ما أعلمه، فما موصولة والرؤية قلبية، قد نافق حيث ادعى تواطؤ قلبه لسانه وكذب لأنه كان مرعوبًا خائفًا من قتل موسى عليه السلام وكان غرضه الجريرة على ما مر.

﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩) أى الصواب والصلاح يعنى أن قتل موسى صواب وصلاح.

فلما رأى المؤمن عناد اللعين وأنه لم ينتصح بنصحه أتى بعد ذلك بالوعيد فى الدنيا وفى الآخرة.

﴿وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ (غافر: ٣٠) والمراد أيام الأحزاب، فالإفراد للأمن عن اللبس بالإضافة أتى الجمع مع البيان الآتى.

والمراد بالأيام وقائعها مجازًا ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط وقوم شعيب.

والمراد مثل جزاء دأب، والمراد من الدأب الكفر الدائب أى الدائم والمستمر.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر: ٣١) هو أبلغ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأن هنا نفى إرادة الظلم، أى لا يريد ظلمًا لعباده بأن يعاقب غير المجرم أو يخلى الظلم بغير انتقام ثم خوفهم مما فى الآخرة فقال.

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ يوم القيامة ينادى الكفرة بالويل والقبور وينادى كل أناس بإمامهم وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار وبالعكس وأصحاب الأعراف كذلك.

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ ﴾ (غافر: ٣٣) حين تروا لهبها وتسمعوا زفيرها.

﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ منهزمين.

﴿ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى من عذابه.

﴿ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (غافر: ٣٣) ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ ابن يعقوب، أى جاء آباءكم ووصل إليكم خبره بالتواتر.

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أى من قبل موسى.

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ مثل تعبير الرؤيا وسائر معجزاته.

﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ ﴾ أى مات.

﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ ﴾ من بعده ﴿ رَسُولاً ﴾.

ضموا إلى الشك فى يوسف تكذيب جميع الرسل من بعده والمراد بالشك مقابل اليقين، أى ضموا بتكذيب يوسف تكذيب من بعده.

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ (غافر: ٣٤) الجواز عن حده.

﴿ مُّرْتَابٌ ﴾ فى البينات لوهمه، أو لانهماكه فى التقليد.

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ بدل من لأنه مجموع المعنى أو بيان له.

﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ (غافر: ٣٥) أى حجة أتتهم.

﴿ كَبُرَ ﴾ أى: من أوجد الهم فالضمير إلى مصدر يجادلون.

﴿ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الطبع.

﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٥).

ولما خوف المؤمن فرعون من مخاوف الدنيا والآخرة وال عناد فرعون ولانت شكيمته فمال إلى إمهال موسى فرأى أن يبنى رصدًا يرصد فيه أحوال الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على تبديل دولته أو تحويل ملكه على ما قال.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لوزيره ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾ (غافر: ٣٦) أى بناء ظاهرًا على موضع عال يرى من بعيد.

﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ أي: الطرق، أتاهم أولاً ثم حصل لتشويق السامع وللتمكين فى ذهنه.

﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أى طرقها وهى دلالات أوضاع الكواكب.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بأنه هل أرسله رسولاً.

﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ فنزل اللعين بإرشاد الرجل المؤمن من الجزم فى التكذيب إلى الظن.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أى مثل ذلك التزيين.

﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى وبواسطة الشيطان.

﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ (غافر: ٣٧) أى: ضياع وهلاك.

فكما أن كيده فى ولادة موسى عليه السلام ضاع وبطل ولم يفد شيئًا سوى الوبال العظيم فإنه قتل الوحا من الولدان المعصومين، وربَّى الله تعالى عدوه فى بيته وعلى يديه، فكذا كيده هذا.

قيل: إن موسى عليه السلام لبث فى بيت فرعون قبل الهجرة ثلاثين سنة أو لبث بعدها جاء إلى مصر ودعا فرعون إلى الله تعالى أيضًا ثلاثين سنة لأن اللعين قصد الرصد وما يتم الرصد إلا فى ثلاثين سنة لأن دور زحل من السيارات فى تمام الفلك فى ثلاثين سنة، ولذا وقع الإمهال فى الظاهر فى ثلاثين سنة لكن ألهاه الهوى.

والله أعلم أن يحصل لفرعون أجر عمله فى الدنيا لأنه ربَّى موسى (عليه السلام) ثلاثين ونصح له موسى ثلاثين سنة، فهو سعى فى التربية الظاهرة، وموسى عليه السلام سعى فى التربية الباطنة النافعة وما قدَّر الله كان.

مجلس في:

بسم الله الرحمن الرحيم

ولما فصل اللعين بين كلامى المؤمن وأمر بالصد فبعد ذلك أتى بالنصح التام وأظهر إيمانه فى تسع آيات من سورة المؤمن[1]، على ما أخبر الله تعالى عنه بقوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ ﴾ أى فى أمر موسى بترك قتله والإيمان.

﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾.

وعرض بأن سبيل فرعون سبيل الغى لا سبيل الرشاد على ما قال فى السابق: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ والرشاد والرشد بالضم والرشد بالتحريك هو الاهتداء لوجوه المصالح فى الدارين.

ثم بين ما أجمل من سبيل بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أى قليل بدلالة التنكير فاستأنف للبيان، وافتتح بذم الدنيا بالقلة والزوال وصغر شأنها، لأنها منبع كل شر وفساد ثم ثنى بمدح الآخرة والاطلاع على حقيقتها بأنها وطن ومستقر فقال:

﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ ثم ثبط عما يتلف ونشط عما يزلف فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ من المعاصى والكفر.

﴿ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ عدلاً من الله تعالى.

فإن قيل: كفر الكافر فى الأزمنة المتناهية وعذابه مخلد فكيف التماثل؟.

---

(١) ﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۝٤٢ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾.

قـلـنـا: إن عاش الكافر أبدًا كان يكفـر أبدًا لاعتقاد حقيقـة، فالخلود المحقق فى التعذيب بمقابلة الخلود المقدر فى الكفر.

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى عملاً من الصالحات.

﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ تقسيم للعمال.

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ حال لبيان الشرط، لأن الإيمان شرط قبول الأعمال.

﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ التصديرية لتعظيمهم.

﴿ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا ﴾ تفصيل للجزاء.

﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فى مقابلة إلا مثلهـا، أى لا بقدر جزاء الحسنة ولا يوزن، ولا يكال، بل يعطى بغير حساب فضلاً منه، فغير الأسلوب فى جانب الفضل وأطنب سبق رحمته على غضبه.

﴿ وَيَا قَوْمِ ﴾ عطف على النداء الأول، وموازنة بين الدعوتين وخشونة بعد اللعين، والملاطفة لإصرارهم على الكفر على ما هو شأن الأنبياء والداعين إلى الله تعالى.

ولا يجوز عطفه على النداء الثانى على ما جـوز البعض، لأن هذا ليس ببيان سبيل الرشاد، بل هذا توبيخ لهم وتقريع وموازنة بين الدعوة إلى الله تعالى والدعوة إلى الكفر بيان ما لهما على ما قال: «ويا قوم» بإضافتهم إلى نفسه.

﴿ مَا لِي ﴾ الاستفهام للتوبيخ لأن أصله أىّ شىء عرض لكم من أمثال الجنون حتى تركـتم الحق وعـدل إلى مـا لى، كأنه يقـول: أنا منكـم، غمكم غـمى، وسـروركم سرورى، وأنا أريد خيركم فامحض النصح ووبخ ثم بين سبب التوبيخ فقال: ﴿ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ يعنى إن غاية دعـوة النجاة من سخط الله تعـالى وغاية دعوتكم سخط الله والنار.

ثم بين الدعوتين بتقديم الأخيرة للاتصاف فقال: ﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ﴾ العطف للتفسير ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ ﴾ أى بربوبيته.

﴿ عِلْمٌ ﴾ والعلم هو اليقين فأشار إلى أن الواجب فى الاعـتقاديات تحصل لليقين ولا يكفى الظن.

وأنتم يا قوم على الجهل المركب فضلاً عن الظن.

والمراد من نفى العلم، نفى المعلوم وهو شائع فـى عرف العرب والعجم حتى إذا

سئل المولى عن صلاح الشاهد وليس فى نفسه؟ يقول: لا أعلم، أى ليس فى نفس الأمر ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أى إلى الله المستجمع لصفات الألوهية من القدرة التامة وما يتوقف عليه القدرة وهو العلم والإرادة لأن القدرة بعد العلم تؤثر على وفق الإرادة والغلبة والقهر الدال عليها كلمة العزيز، ومن التمكن فى المجازات والقدرة على الثواب والعقاب الدال عليه كلمة الغفار.

و «لا جرم» لا رد بما سبق من دعوة الكفار، أى لا أقبل دعوتكم، وجرم بمعنى حق وثبت أى ثبت هنا أمور ثلاثة من عدم الدعوة لآلهتكم لأنها جمادات كما فى الأصنام الموضوعة على صور الكواكب والإله الحق يدعو أولاً خواصه من الملائكة والأنبياء إلى عباده، ثم الخواص يدعون العوام ومراد المراد أى الرجوع لنا ولكم إلى الله تعالى أى إلى حكمه يوم القيامة وعند الموت ومران المسرفين وهم الذين غلب شرهم على خيرهم أو المجاوزون الحد فى سفك الدماء خصوصًا فى القصد إلى قتل موسى النبى عليه السلام الصادق، هم أى المسرفون أصحاب النار فهو رجوع إلى ما بدأ من قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ﴾.

فبين الله تعالى ثبوت تلك الأمور الثلاثة بقوله: ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أى أصل الدعوة إن كان المراد بالموصول الأصنام فلا دعوة لها لأنها جمادات والإله الحق لا بد أن يكون داعيًا على ما مر وإن كان المراد بالموصول فرعون فليس له دعوة مستجابة محقق الصفة، أو استجابة دعوة بحذف المضاف لأن المقبلين على عبادة اللعين فى الظاهر يسبونه فى بواطنهم على ما يشاهد من أمور الجبابرة، فإذا لم يكن الاستجابة فكأنه لم يكن الدعوة فى الدنيا لما مر، ولا فى الآخرة لأن كل العباد يتبرءون من معبودهم الباطلين يوم القيامة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا﴾ بالموت أو فى الآخرة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى ملازموها فكأن الكفرة توعدوا المؤمن المذكور فتوعدهم أيضًا، وفوض أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ من الذكر القلبى، أى تلاحظون صدق قولى وتتأسفون عند الموت أو القيامة أو من الذكر اللسانى، أى بذكر بعضكم بعضًا.

﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ وهو وعيد فى مقابلة وعيدهم.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ﴾ وهو العوذ بالله تعلمه من موسى عليه السلام حيث قال: ﴿عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فسينصرنى ويخذلكم إن شاء الله تعالى وهو آخر كلام المؤمن.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ﴾ أى المؤمن من آل فرعون.

﴿سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ فإن فرعون أراد أخذه وقتله بعد ذلك ففر المؤمن إلى بعض الجبال فأرسل فرعون فى إثره الطلبة فوجدوه فى جبل يصلى وحوله ثلاثة صفوف من الوحش أو خمسة فلم يقدروا أخذه ورجعوا خائبين، فقال المؤمن: اللهم من سترنى ارزقه الإيمان والنجاة من فرعون، ومن كشفنى اجعله مقهوراً، ولما دخلوا على فرعون والملأ حوله قال بعض الطلبة: رأيناه يصلى والوحوش حوله فلم نقدر عليه، وبعضهم أنكر فوجد فرعون وجداً شديداً، قطع أيدى المخبرين وأرجلهم وصلبهم لإثباتهم الكرامة للمؤمن، وأنعم على المنكرين وأكرمهم، لكن كانت امرأة المؤمن ماشطة بنت فرعون وكانت تمشطها فى بعض تلك الأيام فسقط المشط من يدها فقالت: باسم الله وتعس من كفر بالله، فعاتبتها بنت فرعون قائلة: لعلك أردت أبى، فقالت: أنا مؤمنة مع زوجى منذ مائة سنة، فدخلت على أبيها وشكت من الماشطة، وأحضر اللعين الماشطة واستكشف عن إيمانها، فأخبرته، ثم استردها اللعين فأبت، ثم أوقد اللعين تنوراً وجعله كالنار وجيء بالماشطة وابنيها فألقى الكبير إلى النار، ثم لما قصدوا إلقاء الصغير جزعت المرأة تتكلم والصغير كان مرضعًا فقال: يا أماه اصبرى فإنك على الحق، فألقى الصغير ثم ألقيت المرأة.

ورد فى الحديث عن ابن عباس: تكلم أربعة صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف عليه السلام وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام.

وروى فى عرائس الثعلبى: (أن رسول الله ﷺ وجد ليلة المعراج ريحًا طيبًا ليس فى الجنة مثله فسأل جبريل عليه السلام فقال: هو ريح ماشطة بنت فرعون).

ثم بعد ذلك دخل اللعين على آسية وأخبرها الماشطة فقالت آسية الويل لك يا فرعون أهلكت دينك ودنياك، فقال: لعلك على الجنون الذى عليه الماشطة فقالت: الحمد لله أنا مؤمنة بالله، فدعى اللعين أبويها وقال: انصحاها، فقالا: يا آسية أنت خير نساء العمالقة وزوجك خير أهل الأرض، فقالت: قولا لفرعون يجعل لى تاجا الشمس

أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله، فقال اللعين: اخرجا عنها فأخذها بعد أن جعلها عريانة على السحب وجعل فى أيديها وأرجلها بعد مدها مسامير من حديد ثم أرسل عليها الحيات فقالت آسية: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وجعلت تضحك فقال فرعون: انظروا إلى جنونها تعذب وتضحك، فقالت: شاهدت بيتى فى الجنة، وشاهدت منازل الماشطة، فلذا أضحك، فتوفاها الله تعالى طيبة طاهرة إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقال الله تعالى: ﴿وَحَاقَ﴾ أى أحاط.

﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهو أولى بذلك لقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو الفرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ استئناف لبيان الجملة أى بآل فرعون إلخ بهذه الجملة فهذا أولى من جعل النار بدلاً من سوء العذاب وجعل يعرضون حالاً أو استئنافًا، وجعل النار خبر مبتدأ محذوف، والجملة لبيان سوء العذاب، لأن بيان الجملة بالجملة تشتمل على الفوائد المذكورة مع زيادة فهو أولى والعرض على النار إحراقهم بها، فهو من باب القلب كقولهم: عرضت الناقة على الحوض.

﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أى ما دامت الدنيا لأن الغدو والعشى فيها فهو مر باب ذكر الطرفين وإرادة الكل، فهذا العذاب هو عذاب القبر، أى عذاب بعد الموت.

وقيل: البعث على ما فى شرح الطوالع فلا ينافى كونهم مغرقين غير مقبورين، وكذا المصلوب والمحرق والمأكول فى بطون السباع.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى يوم القيامة.

يقال: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى عذاب جهنم أو أشد عذاب جهنم، والعطف فى «يوم تقوم» بدل على المغايرة، أى مغايرة عذاب الآخرة لعذاب القبر صريحًا.

وهذه الآية أدل دليل على إثبات عذاب القبر فمن نازع فيه كابر عقله، وكذا قوله تعالى فى قوم نوح عليه السلام: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ لأن الفاء للتعقيب بلا تراخ.

فالمراد بالنار عذاب القبر.

والآيات والأحاديث فى عذاب القبر بالغة حد التواتر لكن الشأن فى بيان كيفيته

والمعـذب به هل هو الروح أو بعض أجـزاء الجسد أو كـل مع إعادة الروح أو بغـيرها المطلب الشريف فى بيان القبر.

واعلم أن العلماء اختلفـوا: فقالوا: المعذب والمنقم إما الروح فـقط إلى أن يبعثه الله تعالى ويدخله الجـسد يوم القيامة فـهذا هو التلاق، والمعذب المـجموع وهذا هو مختار الإمام الرازى والبيضاوى على تقدير كون الروح مجردة.

وأما إن كانت جسمانية فهو مختار أكثر المتكلمين على ما سيأتى.

وأما هذا الهيكل المحسوس لكن قالوا: هذا سفسطة صرح به الإمام لأنا نشاهد أنه يتمزق ويتفرق وأما بعض الأجزاء الأصلية التى لا تتجزأ أو كلها بإعادة الروح هو مختار الدولنى والنيسابورى على ما سيجىء.

أو بغير إعادة الروح هو مختار التفتازانى.

وإذا لم تعد الروح فبعدم الحياة وهو أيضًـا سفسطة لأن إدراك العذاب والتنعم بغير حياة خروج عن دائرة العقل أو بالحيـاة لكن عدم الحس والحركة لعدم عود الروح وهو فى خير الإمكان.

فلكل ذاهب على ما نفصله إن شاء الله تعالى.

قال البيضـاوى فى تفسير قوله تعالى فـى سورة البقرة: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٤) ما حالهم.

وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالـجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات وإنما هى أمر لا يدرك بالعقل، بل بالوحى.

وعن الحسن ـ ﷺ ـ أن الشـهداء أحيـاء عند الله تعرض أرزاقـهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفـرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوًا وعشـيًّا فيصل إليهم الوجع.

وفى الآية دلالة على أن الأرواح جـواهر قائمة بأنفـسهـا مغايرة لمـا يحس به من البدن تبقى بعد الموت داركة.

وعليه جمهور الصحابة والتابعين وبه نطقت الآية والسنن.

وعلى هذا فـتخـصيص الشـهداء لاخـتصـاصهم بالقـرب من الله ومزيد الـبهـجة والكرامة.

وقال أيضًا عند تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

والآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس بل هو جوهر مدرك بذاته لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه فتألمه، وتلذذه، ويؤيد ذلك قوله تعالى فى حق آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ (غافر: ٤٦) الآية، وما روى ابن عباس ﷺ قال: أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل معلقة فى ظل العرش ومن أنكر ذلك ولم يـر الروح إلا ريحًا أو عرضًا قال: هم أحياء يوم القيامة أو أحياء بالذكر إلى آخره.

وقال أيضًا فى تفسير: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وذلك أى العرض لأرواحهم.

كما روى ابن مسعود: إن أرواحهم فى أجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشيًا إلى يوم القيامة.

وهذا إجمال فصله الإمام الداعى إلى الله تعالى حتى قال الإمام قولاً هذا حاصله: إنه عند أكثر المتكلمين: الروح إلا جسمانى لطيف سار بالبدن سريان النار فى الفحم، والدهن فى السمسم وماء الورد فى الورد.

لكن اختلفوا: فبعضهم قال أجزاء مماثلة لأجزاء البدن لأن الأجسام مماثلة لكن خلق فى أجزاء الروح النورانية واللطافة، وفى أجزاء البدن الكثافة.

وبعضهم قالوا: أجزاء الروح والبدن متخالفة لتخالف أحوالها واتفقوا فى السريان، فقالوا: الإنسان هو هذا الروح لأنه باق من أول العمر إلى آخره وبعد الموت أيضًا ويتلذذ، ويتألم بنفسه فى البرزخ، ثم يعيده إلى البدن يوم القيامة وقال الإمام: قال البعض:

إن الروح جوهر مجرد قائم بذاته يدرك الجزئيات والكليات فهذا المجرد يتألم ويتلذذ بعد المفارقة إلى أن يردها الله إلى الأبدان يوم القيامة فهناك يحصل التلذذ والتألم للأبدان فهذا قول قال به عالم من الناس.

قالوا: وإن لم يقم برهان قاهر على القول به، لكن لم يقم دليل على فساده وإنه مما يؤيد وينص ظاهر القرآن ويزيل الشكوك والشبهات عما ورد فى كتاب الله تعالى من ثواب القبر وعقابه، فوجب المصير إليه، وقالوا: مما يؤكد هذا القول أن ثواب القبر وعذابه إما أن يصل إلى هذه البنية أو إلى جزء من أجزائها.

والأول مكابرة لأنا نجد البنية متفرقة متمزقة فكيف يمكن القول بوصول الثواب والعقاب إليها فلم يبق إلا أن يقال: الله تعالى يجىء بعض الأجزاء الصغيرة ويوصل الثواب والعقاب إليها وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يكون الإنسان هو الروح وأنه لا يعرض له التفرق، والتمزق، فلا جرم يصل إليه الألم واللذة ثم إنه سبحانه وتعالى يرد الروح إلى البدن يوم القيامة حتى ينضم أحوال الجسمانية إلى الروحانية والله تعالى أعلم.

فهذا خلاصة ما ذكره فى سورة البقرة فى آية الشهداء وقال فى آل عمران فى آية الشهداء أيضًا:

اعلم أنه متى تقررت هذه القاعدة أعنى بقاء النفس بعد خراب البدن مدركة متلذذة متألمة بذاتها زالت الإشكالات والشبهات عن كل ما ورد فى القرآن من ثواب وعذاب إذا عرفت هذه القاعدة فنقول:

قال بعض المفسرين: أرواح الشهداء حية وهى تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة.

والدليل عليه ما روى أن النبى ﷺ قال: (إذا نام العبد فى سجود باهى الله تعالى ملائكته ويقول: انظروا إلى عبدى روحه عندى وجسده فى خدمتى).

انتهى كلام.

قال المحدث ابن كثير فى تفسيره عند قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا**﴾ (غافر: ٤٦): هذه الآية أصل كبير فى الاستدلال لأهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ولكن هنا سؤال: وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ.

وقال الإمام أحمد بإسناده عن عائشة ﵂: إن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة إليها بالمعروف إلا قالت لها اليهودية: وقانا الله من عذاب القبر، قالت: فدخل رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: لا، من زعم ذلك؟ قال: هذه اليهودية لا تصنع إليها شيئًا من المعروف إلا قالت: وقاك الله من عذاب القبر، قالت: كذبت اليهودية وهم على الله أكذب دون يوم القيامة، فمكث بعدما شاء الله تعالى أن يمكث فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمرة

عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته القبر كقطع الليل المظلم أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيرًا وضحكتم قليلاً، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حق).

وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وقال رسول الله ﷺ فى رواية: (أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم).

فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ.

والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوًا وعشيًا فى البرزخ، وليس فيه دلالة على إيصال تألمها بأجسادها فى القبور إذ قد يكون ذلك مختصًا بالروح، فإما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنن والأحاديث المرضية.

وروى مسلم: (استعاذة النبى ﷺ من عذاب القبر).

قال التفتازانى فى شرح العقائد النسفية: وأنكر عذاب القبر بعض المعتزلة والروافض لأن الميت جماد لا حياة له ولا إدراك، فتعذيبه محال.

والجواب: أنه يجوز أن يخلق الله تعالى فى جميع الأجزاء أو بعضها نوعا من الحياة قدر ما يدرك ألم العذاب ولذة النعيم.

وهذا لا يستلزم إعادة الروح ولا أن يتحرك ويضطرب أو يرى أثر العذاب عليه حتى إن الغريق فى الماء أو المأكول فى بطون الحيوانات، أو المصلوب فى الهواء يعذب وإن لم نطلع عليه. انتهى.

قال الدوانى فى شرح العقائد العضدية: ومنهم من قال بالإحياء والإعادة معًا ولا يلزم أن يرى أثر الحياة فيه إن المأكول فى بطون الحيوانات يجىء ويسأل، وينعم، ويعذب.

ولا ينبغى أن ينكر لأن من أخفى النار فى الشجرة الخضراء قادر على إخفاء العذاب والتنعيم. انتهى.

قال نظام الدين النيسابورى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾ الآية، فى سورة آل عمران.

وذهب كثير من المحققين إلى أنهم أحياء فى الحال لكن بحياة روحانية وأن

أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة وذلك أن الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه البنية لأن جزاء البدن فى الذريان والانحلال ويعرض لها السمن والهزال والقوة والكلال، وكلنا نجد من نفسه أنه شيء واحد من أول عمره إلى آخره والباقى مغاير للمتبدل ولأن الإنسان يكون عالمًا بنفسه حال ما يكون غافلاً عن جميع أعضائه، وأجزائه.

والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم، ثم ذلك الشيء المغاير لهذا البدن المحسوس سواء كان جسمًا مخصوصًا ساريًا أو جوهرًا مجردًا لا يبعد أن ينفصل بعد موت البدن حيّا وأماته الله تعالى فيعيده حيًا.

وبهذا يثبت عذاب القبر وثوابه وزوال الشبهات ومن تأمل فى الأمور الواردة عليه وجد أحوال النفس مضادة لأحوال البدن ووجد قوة أحدهما مقتضية لضعف الآخر كما أن البدن يضعف وقت النوم، وتقوى النفس على مشاهدة المغيبات ونقوش عالم الأرواح وإذا عرضت النفس عن الطعام والشراب، وأقبلت على مطالعة العالم العلوى زادت سرورًا وابتهاجًا وارتياحًا، وانطبعت فيها الجلايا القدسية وانكشفت لها المعارف الإلهية وأكثر أرباب الشرع على أنهم أحياء فى الحال بحياة جسدانية.

ثم منهم من قال: إنه تعالى يصعد أجسادهم إلى السموات وإلى قناديل تحت العرش ويوصل أنواع السعادات والكرامات إليها.

ومنهم من قال: بل يتركها فى الأرض ويحييها ويوصل هذه السعادات إليها.

ومن الناس من طعن فى هذا القول وقال: إن تجويز كون البدن الميت الملقى فى التراب حيّا متنعمًا عاقلاً عارفًا نوع من السفسطة.

والحق فى هذه المسألة عندى خلاف ما يقوله أهل التناسخ من أن النفس بعد موت بدنها يقبل على بدن آخر تعرض على الأول بالكلية وخلاف ما يقوله الفلاسفة من أن النفس تنقطع علاقتها عن البدن مطلقًا أن ما تلتذ وتتألم هى بما اكتسبت من المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة أو بالعقائد الباطلة، الذميمة، والذى أقوله: إن النفس تبقى لها علاقة مع بدنها لا بالتحريك واكتساب الأعمال، ولكن بالتلذذ والتألم والتعقل ونحوها، وليس بداع أن يتغير التعلق بحسب تغير الأطوار لما كانت تتغير فى مدة العمر بحسب الاستان والأمزجة والتحقيق فيه أن النفس فى هذا العالم جعلت متصرفة فى البدن لأجل

اكتساب الأعمال والملكات وأنها تفتقر إلى تحريك الأعضاء وإعمال الجوارح والآلات وبعد الموت تجعل متفرقة فيه من جهة الجزاء والحساب فكيف ينبغى أن يقاس أحدهما على الآخر، فلعله يكفى بعد الموت أن يكون له علاقة التلذذ والتألم والإدراك فقط إلى أن تقوم القيامة الكبرى.

وهذا القدر لا ينافى كون البدن مشاهداً فى القبر من غير تحريك ولا إحساس ونطق.

ويؤيده ما روى أنه ﷺ وقف على قليب بدر وقال: يا فلان بن فلان، ويا فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقًا، فإنى وجدت ما وعدنى الله تعالى حقًا، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علىَّ أشياء)[١].

وفى حديث عذاب القبر: (أنه يسمع قرع نعالهم).

ولعل السر فى أنه اكتفى بهذا القدر من التصرف أنه كان أكثر من ذلك كما سيكون فى القيامة الكبرى فأوفى تكليف سائر الأحياء، وأفضى الأمر إلى الإلجاء، وهو السر فى آخر حديث عذاب القبر: (فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين).

وأما الشهداء فلا يبعد أن يجازيهم الله تعالى بمزيد التلذذ بنعيم الآخرة كما قتلوا تعجيلاً للثواب كما عجلوا فى الانقطاع عن طيبات الدنيا واستشهادتها، فإن جزاء كل طائفة أن ناسب عملهم فافهم هذه الأسرار، فإنها علق مضنة، وبه ثبت جميع ما ورد فى الشريعة الحقة.

وهذا أحسن ما قيل فى هذا المطلب.

لكن يرد عليه أن جواب الميت للملكين يدل على أن الروح كان متصرفًا فى الغير باستعمال الآلات، فإن النطق بالآية وجوابه ما سيأتى.

قال الفاضل حسن شلبى فى حاشيته شرح المواقف فى هذا المطلب: اتفق أهل الحق على أن الله تعالى يعيد إلى الميت نوع حياة قدر ما يتألم ويتلذذ ولكن توقفوا فى عود الروح وما يتوهم من امتناع الحياة دون الروح وإنما ذلك فى الحياة الكاملة التى معها القدرة على الأفعال الاختيارية، لكن يشكل هذا بجوابه لمنكر ونكير على ما ورد فى الحديث، كذا فى شرح المقاصد.

---

(١) حديث: (وقف عليه قليب بدر...) تقدم تخريجه.

ويدفع الإشكال بأن الجواب للروح بلا آلة الجسد لأن المكلف بالشرائع هو الروح المذكور وهو مبدأ الأعمال فلا بد من حضوره عند المجازاة سواء كان يعود إلى البدن أم لا. انتهى.

فلا محيص عن الإشكال ما لم تثبت بالروح.

قال المحدث ابن كثير فى تفسير آية: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ﴾ حدثنا ابن أبى حاتم بإسناده، عن ابن مسعود ﷺ: أن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تسرح بهم فى الجنة حيث شاءت فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش، وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها. انتهى.

وقد قال عند تفسير آية الشهداء فى سورة البقرة: حدثنا الإمام مالك، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن كعب عن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: نسمة المؤمن من طائر تعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم يبعثه.

ففيه دلالة لعموم المؤمنين. انتهى.

فيحتمل والله أعلم أن يكون الطيور المذكورة مخلوقة من أجزائهم الأصلية لأبدانهم وتعاد الروح إليها فيكون الثواب والعقاب للروح والبدن جميعًا.

مجلس في:

بيان الآيات التسع وهي: العصا، واليد البيضاء

في ثماني آيات من سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهـذا، وما كنا لنهتدى

لولا أن هدانـا الله ومـا توفـيـقى إلا بالله.

فى بيان آيات التسع وهى العصا واليد البيضاء فى ثمانى آيات من سورة الأعراف[1]، وقد مرت الإشارة إليهما، والسنون أى القحط والجدب، ونقص الثمرات وكلها واحدة.

والخمس الأخرى وهى: الطوفان، والجراد، والقمل والضفادع والدم، فبقى واحدة أخرى وهى الطمس وسيجىء إن شاء الله.

وما ذكر هنا ست ومضى غير العصا واليد البيضاء والطمس.

---

(١) ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

وبيان ذلك أن فرعون لعنه الله مع أشباهه من الظالمين ظهر عجزه عن المعارضة لآيات الله فجعل يكيد ببناء الصرح وعمل المرصد ويبطل بما لا طائل تحته، فبقى موسى عليه السلام يعظه ويذكر إلزاما للحجية وقطعًا للمعذرة، فمضى على ذلك عشرون سنة.

وجاء موسى فى هذه السنين بالآيات السابقة.

ومن جملة ذلك: أنه أخذهم الله تعالى بالسنين أى بالجدوب، ونقص الثمرات عامًا بعد عام على ما قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾ مؤكدًا بالقسم.

﴿آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أى بالجدوب والقحط، والسنة تغلب فى سنة الجدب، فإذا اشتق من السنة بمعنى العام يقال: أسنى يسنى إسناء بمعنى مكث سنة.

وإذا اشتق من السنة بمعنى القحط يقال: أسنت القوم أى أصابهم القحط، فيجعلون التاء كأنها أصلية فرقًا بين الاستعمالين.

وأصل السنة واوى، بدليل سنوات.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قيل: السنون لأهل البوادى والنقص لأهل الأمصار والقرى.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لكى يتعظوا وينتبهوا على أن الله تعالى قادر مختار يصيبهم بالنقم لأجل معاصيهم فيتوبوا، أو لبرق قلوبهم فإن البلايا ربما ترقق القلوب.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أي الخصب والسعة، جىء فى جانب الحسنة كلمة «إذا» الدالة على التحقق، وبالماضى الذى مضى وتحقق وبتعريف الحسنة إشارة إلى جنس ما تقدم تقديرًا أى الخصب والسعة فإنهما فهما من السنين ونقص الثمرات، فالتعريف للعهد الخارجى التقديرى، والجنس أى جنس ما سبق من الخصب والسعة.

وقد جعله صاحب الكشاف مضاد المعنى فإذا تحقق مثل تحقق الأمر الماضى جنس الخصب والسعة المعهودين وتحقق الجنس لا شك فيه لكثرته وسعته فلا يكاد يوجد جزء من الزمان إلا وفيه حسنة موجودة فلذا يؤتى فى تحققه بالأدوات الثلاث.

﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أى نحن مستحقوها والمختصون بها لأنها بكسبنا وبسعينا فى تحصيل المعاش.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بكلمة إن التى للشك.

والمضارع الذى لم يتحقق بعد وتنكير سيئة المفيدة المقلة لأن السيئة أى الجدوب والبلايا نادر الوقوع بالنسبة إلى الحسنة.

﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ من المؤمنين على ما هو عادة الكفار والفجار: أى يشأموا بهم.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ رد عليهم أبلغ رد ولذا صدر بكلمة التنبيه وجيء بحرف القصر واسمية الجملة.

والمراد من الطائر سبب الخير والشر وهو القضاء والقدر والمشية والحكم فهو ثابت عند الله، أو سبب شؤمهم وهو أعمالهم الخبيثة محفوظة عند الله يجازيهم عليها فى الدارين.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك وأصل الطائر للتشاؤم.

وما يحكى أن أعراب الجاهلية كانوا إذا أرادوا سفرًا أو جاجة أخرى ذهبوا إلى أوكار الطير فأشاروها فإن أخذ الطائر من اليمين إلى الشمال تفاءلوا به، لأن رميه سهل وسموه السالح، وإذا أخذ الطير من الشمال إلى اليمين تشاءموا به لأن رميه عسير وسموه البارح.

﴿وَقَالُوا﴾ معطوف على «قالوا» الأول، أى جمعوا بين القولين بفرط عنادهم.

﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ﴾ أصل مهما عند البصريين ما الشرطية زيدت عليهما ما للتأكيد فصارت ماما، ثم قلبت الألف الأولى هاءً لدفع الثقلة الحاصلة بالتكرير فصارت مهما، أى أىّ شيء تأتنا به فهو باب الإضمار على شريطة التفسير يجوز فيه الرفع مع الاختيار للسلامة عن الحذف.

والنصب بتقدير أى شيء تحضرنا تأتنا به.

﴿مِن آيَةٍ﴾ بيان لهما، وتسميتهم آية للتطير والاستهزاء يدل عليه ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ والضمير المجرور لهما والتأنيث لبيانه بآية.

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ روى أن موسى عليه السلام قال: يا رب إن عبدك فرعون علا وعثا وطغى، وبغى نسبه بالآية فاجعل عليهم عقوبة نقمة ولمن معى نعمة ولمن بعدنا عظة وعبرة فقال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ أى المطر الشديد والسيل.

روى أنهم أمطروا ثمانية أيام فدخل الماء فى بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى غرفهم فلم يقدروا على الجلوس والمنام ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل قطرة وكان بيوت القبطى والسبطى مشتبكة، فالسيل آية لفرطه واختصاصه بالقبطى دون السبطى آية أخرى، فتفرعوا واستكانوا إلى موسى عليه السلام على ما سيجىء فى النظم.

وبقى بعد انكشاف السحاب بدعاء موسى عليه السلام سبعًا ومضى عليه زمان فنبت العشب والكلأ أكثر مما فى السنين الماضية فقالوا: كان السيل للتأخير فلم يوفوا بالعهد فأرسل الله تعالى بعد ذلك جرادًا كثيرًا أخذ عين ولم يعهد مثله فى الكثرة فدخل بيوت القبط فأكل زروعهم، وحروثهم وأوراق أشجارهم وثمراتهم وكانوا فى أذى كثير على ما قال تعالى: ﴿وَالْجَرَادَ﴾ ثم تضرعوا إلى موسى عليه السلام ووعدوا الإيمان وإرسال بنى إسرائيل معه.

وأخذ موسى عليه السلام عصاه فأشار إلى الشرق والغرب فتفرق الجراد بإذن الله تعالى ثم مكثوا زمانًا ونقضوا العهد وقالوا: هذا أيضًا سحر، فأمر موسى عليه السلام بأن يضرب بعصاه كثيبًا قريبًا عندهم فصار الكثيب بجملته سوسًا وهو الذى يقع فى الحنطة أو براغيث أو القردان وهو القمل فتفرق فى بيوت القبط وصاروا فى مجالسهم، ومراقدهم ومستغرقين فى القمل وأكل القمل سائر أبوابهم أو أروادهم، وأقواتهم، وشواربهم، ودواجنهم ولحيتهم، وأشعارهم، وجلودهم، ولا يدخل بيوت السبطى أصلاً فتضرعوا لموسى عليه السلام وقالوا هذا أشد، ووعدوا الإيمان وتخلية بنى إسرائيل فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم بريح فرقت القمل فى البحر وهو قوله تعالى: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾.

ثم نكثوا العهد ومضى على ذلك زمان ثم أرسل الله تعالى عليهم الضفادع، جمع ضفدع بكسر الضاد والدال.

فخرجت من النيل ودخلت بيوتهم وأوعيتهم وآنيتهم ومجالسهم ومراقدهم، فإذا قعد قبطى يقعد فى الضفادع إلى الذقن، وإذا نام يركبه الضفادع، فلا يقدر أن يتحرك تحتها، وإذا أكل وثبت الضفادع إلى فيه فيدخل وهو قوله تعالى: ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾.

فصاروا فى أذى شديد فتضرعوا إلى موسى عليه السلام بالوعد المذكور، فدعا موسى عليه السلام فتفرق الضفادع فى النيل فنكثوا العهد، ومضى على ذلك زمان فأرسل الله تعالى بعد ذلك الدم، فصارت مياههم دمًا عبيطًا فلا يشربون إلا الدم، ويشرب

السبطى ماء والقبطى دمًا، يأخذ القبطى من يد السبطى الماء فيصير دمًا فى يده، ويجعل السبطى فى فمه ماء فيصيب فى فم القبطى فيصير دمًا وهو قوله تعالى: ﴿وَالدَّمَ﴾.

فتضرعوا إلى موسى عليه السلام كما سيجىء فى النظم مع الموعدتين، فنقضوا العهد.

﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ﴾ حال من الخمس المذكور.

ومعنى مفصلات، مكشوفات ظاهرات لا لبس فيها لأنها فى أنفسها آية، واختصاص القبطى بها آية أخرى، ومفصلات انفصل بعضها من بعض.

إذ روى أن وقوع هذه الآيات فى عشرين سنة.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بها.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ اعتراض بين المبين والبين أى لكان عادتهم الإجرام فلذا استكبروا وبين الاستكبار وإجرامهم واعتيادهم به بأنهم وقت مجىء العذاب من العقوبات المذكورة متضرعين بالموعدتين وفاحوا من أنفسهم النكث عند الانكشاف فقال تعالى:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ اللام للعهد والاستغراق، أى كلما جاءهم رجز أى عذاب من العقوبات المذكورة.

﴿قَالُوا﴾ متضرعين.

﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ما مصدرية والعهد هو النبوة لأن الله تعالى عهد بالإكرام بها للنبى عهدًا يتحمل أعبائها.

والباء إما سببية متعلق بادع، أى ادع متوسلاً بنبوتك، أو قسمية استعطافية، أى ادع لنا بحق نبوتك وحرمتها، أو قسمية، حقيقية جوابها لنؤمن لك مع معطوف عليه.

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ اللام موطئة للقسم المذكور أو المقدر.

﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ أى العذاب أى كل واحد من العقوبات المذكورة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ أى ليس الكشف مؤبدًا بل إلى أجل هو وقت إغراقهم.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أى فأخبتو وقت المكث أى لم يؤخروا النكث إلى أن يتفكروا، بل نكثوا على القدر.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ النقمة هى العقوبة، أى أردنا الانتقام لأن الإغراق عين الانتقام فلا يتوسط بينهما الفاء التعقيبية، أو الفاء تفسيرية لأن مرتبة التفسير بعد المفسر فلا حاجة إلى تقدير الإرادة.

﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أى معظم الماء.

﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا ﴾ بيان سبب لإرادة الانتقام.

﴿ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أى معرضين لا يتفكرون فيها فصاروا كالغافلين، لأن الغفلة ليست باختيارية فيعذر صاحبها.

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ أى بنى إسرائيل بذبح الأبناء والتكاليف الصعبة.

﴿ مَشَارِقَ الأَرْضِ ﴾ أى أرض مصر وهو الظاهر من سوق القصة، ثم الشام بعد مرة.

﴿ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالخصب والسعة يصدق على مصر والشام أيضًا، لأن الخيرات فى مصر أكثر.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أى مضت العدة واستمرت إلى الإنجاز فى قوله فى سورة القصص: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾ إلى آخر الآيتين فى يحذرون.

﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ تأنيث أحسن، وحسنها لأنها نصر للمؤمنين وتمكين للدين.

﴿ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ والصبر مفتاح الفرج على ما ورد فى الآثار: من صبر عند البلاء تكفل الله له بالنصر والفرج ومن جزع وكل إلى نفسه.

وحسبك هذه الآية داعية إلى الصبر.

﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ أى خربنا ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من الأبنية والقصور، والعمارات.

فما موصولة واسم كان ضمير عائد إليه، والمنصوب المحذوف فى يصنع أيضًا عائد إليه وخبر كان، وجمله كان صلة الموصول.

﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ من الجنات والكروم وهو من عرش الكرم إذا رفعه على الأشجار وما كانوا يرفعونه من الأبنية مثل صرح هامان.

تخصيص بعد التعميم.

والحمد لله رب العالمين

مجلس في:

بيان الآية الأخيرة من الآيات التسع
وهى الطمس على الأموال

في سبع آيات من سورة يونس[1] عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبيان ذلك أن الله تعالى لما أعطى موسى ما أعطى من الآيات، وعارض السحرة، وغلبهم وانقلبوا صاغرين وأعطى موسى عليه السلام من الآيات الأخر، فعند ذلك آمن له شبان بنى إسرائيل، وأعرض شيوخهم عن الإيمان خوفًا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم وكانوا يعاملون مع الله تعالى حسن المعاملة من التوكل عليه تعالى والصبر والصلاة بإرشاد موسى عليه السلام على ما قال الله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ أى شبان بنى إسرائيل فى أول أمر موسى عليه السلام، وفى الآخير آمن الكل حتى عبروا به البحر.

والذرية فعلية أو فعولة من الذر وهو التفريق أو الذرء وهو الخلق والمراد بها هنا النسل، والتنكير للتقليل بالنسبة إلى القبط.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الضمير للذرية، والمراد أشرافهم من الشيوخ فإنهم كانوا يمنعونهم كما سبق.

---

(١) ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أى أن يعذبهم بدل من فرعون، وإفراده بالذكر لأنه الأصل فى الظلم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ أى لغالب قاهر.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أى أرض مصر.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى المجاوزين عن الحد فى الكبر حتى ادعى الألوهية والظلم حتى استرق بنى إسرائيل وذللهم بأنواع التكاليف الشاقة وذبح الأبناء وغير ذلك.

والجملتان اعتراض تذييل لتأكيد الخوف.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أى خصوه بالتوكل لتقديم المفعول، والإيمان موجب للتوكل وهو تفويض الأمور إلى الله تعالى فهو شرط لوجوبه.

﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أى مستسلمين منقادين لحكمه مخلصين يحصل منكم التوكل.

فالإسلام بمعنى الاستسلام شرط لحصوله فليس هذا من اشتراط أمر بالشرطين.

﴿فَقَالُوا﴾ أى الشبان لما كانوا مؤمنين مستسلمين.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إنشاء للتوكل وتقديمًا له على الدعاء حتى يستجاب، ثم شرعوا على الدعاء بقولهم:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أى موضع فتنة أى تعذيب، أو حرف عن الدين أو افتتان الغير بنا حين نعذب حتى يقولوا: لو كانوا على الحق ما كان حالهم كذلك.

﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ فإنها العمدة.

﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى من ظلمهم وجوارهم وصحبتهم، فاستجيب دعاؤهم لحصول الشرط وهو التوكل.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون.

﴿أَن﴾ مفسرة لما فى الوحى من معنى القول.

﴿تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا﴾ أى اتخذا لهم مباءة أى مرجعًا فى كل وقت للعبادة والصلاة.

﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أى مساجد فى البيوت.

وسبب ذلك أن بنى إسرائيل كانت لهم مساجد يجتمعون فيها للصلاة على دين جدهم إبراهيم عليه السلام لأن أولاده إلى أن يجىء موسى كانوا على دينه فلما جاء موسى خرب فرعون مساجد بنى إسرائيل وعمالهم ولئلا يكون لهم جمعية فأوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه أن يتخذا لبنى إسرائيل مساجد البيوت كل فى بيته مسجدًا متوجهًا إلى الكعبة لأن قبلة الأنبياء تلك إلى بناء بيت المقدس، وكان موسى أيضًا يصلى إليها وهذا قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ﴾ تلك ﴿قِبْلَةً﴾ أى متوجهة إلى الكعبة بحذف المضاف أى وجوهها إلى القبلة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يا موسى بالنصرة فى الدنيا والجنة فى العقبى.

وتثنية الضمير فى «تبوءا» لأنه يحصل بمشاورتها لأنهما رأسا أهل الدين وجمعه فى الجعل وإقامة الصلاة لأنهما فعل الكل.

وإفراده فى التبشير لأن موسى عليه السلام هو الأصل لكونه صاحب شريعة، فالتبشير والإنذار إليه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً﴾ خى ما تتزين به من المجالس الكريمة والمراكب الفاخرة والملابس البهية وغير ذلك.

﴿وَأَمْوَالاً﴾ وأنواعًا من المال خصوصًا الكنوز التى جمعها يوسف الصديق عليه السلام فى سنين القحط.

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا﴾ تكرير النداء للتأكيد.

﴿لِيُضِلُّوا﴾ من الضلال أو الإضلال على القراءتين.

﴿عَن سَبِيلِكَ﴾ أى دينك واللام للتعليل أى أعطيت ما ذكر للاستدراج وهو جائز فى مذهبنا وهو أن يكون العبد متزايدًا فى الطغيان والله تعالى فى الإحسان أى كلما زاد العبد فى المعصية زاد الله تعالى فى النعمة مكرًا به واستدراجًا إلى النار.

وهذا الكلام مخلص منه عليه السلام إلى الدعاء على فرعون لأن الدعاء على الأمة غير مستحسن من النبى إلا بعد علمه بالتجربة أو بالوحى أن قومه مطبوعون على الكفر لا يجىء منهم الإيمان فحينئذ يجوز منه الدعاء على قومه بالهلاك كما فعل نوح عليه السلام لما أخبر بقوله تعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ دعا عليهم بقوله: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أو بسوء الخاتمة وفساد المعاش كما فعل

موسى عليه السلام ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى أوقع الطمس وهو الهلاك والمحق عليها.

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى أوقع الشد وهو الطبع والإقساء عليها.

وكلمة «على» فى الموضعين لبيان محل الطمس والشد.

كما فى قول الشاعر:

* يخرج فى (عراقيبها)(١) نصلى *

و (على) أبلغ من (فى) لأنها تدل على الاستقرار والثبات.

﴿فَلا يُؤْمِنُوا﴾ جواب لاشدد، أى اقس قلوبهم حتى لا يؤمنوا، وقد علم نبى الله عدم إيمانهم.

وفائدة الدعاء زيادة القسوة لزيادة العذاب.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ هى لا ينفع الإيمان لبأسهم عنه وقد حصل ذلك، أى الإيمان الغير مقبول فى حق فرعون على ما سيجىء فى قوله: ﴿آمَنتُ﴾ وبقوله: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ الآية.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ والداعى كان موسى عليه السلام على ما هو الظاهر من السياق، وكان هارون يؤمِّن، والتأمين أيضًا دعاء، لأنه معنى آمين استجب، وهو دعاء فجعل خزائن فرعون وملائه حجارة منقوشة دراهمها ودنانيرها كلها صحاحًا وأنصافًا وأثلاثًا، وجعل الخازن من عبيدهم وإمائهم أيضًا حجارة على صورهم ولم يجعل أحرارهم كذلك لأن موسى دعا على أموالهم، وجعل الله النخيل والزروع أيضًا حجارة وهى آخر الآيات.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على ما أنتما عليه من التبليغ والوعظ والإنذار وإن لم ينفع فيهم، لأنه يحصل لكم الثواب وإحراز الأجر وينقطع معاذيرهم يوم القيامة.

فالفائدة فيه إحراز الأجر وإلزام الحجة وقطع المعذرة ﴿وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ إذ التبليغ والإنذار وإن لم ينفع فى المبلغ والمنذر بإحراز الأجر وقطع المعذرة وإلزام الحجة.

قيل: مكث موسى عليه السلام فيهم يدعوهم ويبلغهم بعد ذلك أربعين سنة أو أقل، الله أعلم.

---

(١) غير واضحة بالأصل المخطوط.

مجلس في:

بيان إنجاء بني إسرائيل وإغراق فرعون وتمام الكلمة الحسنى على بنى إسرائيل

فى سبع عشرة آية من سورة الشعراء:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبيان ذلك: أن موسى عليه السلام بعدما لبث بمصر يدعو فرعون وملأه إلى الإيمان وإرسال بنى إسرائيل ويظهر لهم الآيات سنين متطاولة، ولم ير منهم إلا زيادة العتو والاستكبار، أمر بأن يسرى ببنى إسرائيل على ما قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ والسرى هو السير فى الليل وإنما أمر بالسير فى الليل ليتيسر لهم الفرار من الظالمين.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أى يتبعكم فرعون بجنوده وقد قدر ما سيقع وعلمه عند الله، وهذا الإسراء والاتباع بتدبير من الله تعالى وتقدير تحته كنور من الحكم.

روى فى الإسرائيليات: أن موسى عليه السلام أمر باجتماع الأسباط وأن لا يبقى أحد منهم بين القبط وأن يخبوا الفطير لكونه أسرع خبزًا، وأن يذبحوا الجداء ويلطخوا أبوابهم بدمائها بعد أن يجتمع أربعة بيوت فى بيت واحد، فإن الله تعالى أمر الملائكة الموكلين بأرواح بنى آدم بقتل الأبكار وجعل لهم علامة دماء الأبواب بأن لا يدخلوا بيتًا ببابه دم ففى تلك الليلة أهلك الله تعالى من أولاد القبط ما شاء.

عن أبى موسى قال: نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه فقال: يا رسول الله ﷺ تعاهدنا؟ فقال له رسول الله ﷺ: ما حاجتك؟ قال: ناقة برحلها وأعنز يحتلبها[1] أهلى، فقال: أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل، فقال له أصحابه:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٧، وتفسير القرطبى ١٣/ ١٠١ وصحيح ابن حيان ٢/ ٥٠٠، والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٣٩، ٦٢٤.

وما عجوز بنى إسرائيل يا رسول الله؟ قال: إن موسى لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق فقال لبنى إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بنى إسرائيل: نحن نحدثك أن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله أن لا تخرج من مصر حتى تنقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: فأيكم يدرى أين قبره؟ قالوا: ما يعلم إلا عجوز بنى إسرائيل، فأرسل إليها فقال لها: دلينى على قبر يوسف عليه السلام، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطينى حكمى، قال لها: وما حكمك؟ قالت: حكمى أن أكون معك فى الجنة، فلأنه ثقل عليه ذلك فقيل له: أعطها حكمها، قال: فانطلقت معهم إلى بحيرة مستنقع ماء فقالت، إذا أصبوا هذا الماء، فلما أن صبوه قالت: احتفروا استخرجوا قبر يوسف عليه السلام، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار. انتهى. ابن كثير.

وخرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل إلى بحر قلزم الذى بين مصر وبين الطور، وبين مكة، فأخبر فرعون بخروج بنى إسرائيل فقال: سنركب عند صياح الديك فلم تصح الديك تلك الليلة إلى شروق الشمس، فلما أصبحوا اشتغلوا بدفن أولادهم وبعده: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ﴾ وكانت ألف مدينة واثنتى عشرة ألف قرية فى ممالك مصر.

﴿حَاشِرِينَ﴾ أى جامعين للعساكر من الأمراء والشرط فكتب لهم كتابًا مضمونه ثلاثة أمور:

أحدها: رفع المانع أى لا مانع من اتباع بنى إسرائيل لقتلهم وذلتهم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ فقللهم وذللهم لأن القلة تستلزم الذلة بأربعة وجوه، لأن الشرذمة فى اللغة الطائفة القليلة وقد وصفها بالقلة وجمع الوصف لاستيعاب الأقسام أى كل حزب منهم قليل وجمع جمع السلامة، الذى هو للقلة فكأنه قال: إن بنى إسرائيل طائفة قليلة غاية القلة التى لا قلة فوقها، فلا مانع من اتباعهم.

والثانى والثالث من الأمور الثلاث: إثبات الداعى والموجب والمقتضى للاتباع وذكر فيه أمرين:

أحدهما: قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أى لفاعلون شيئًا يحرك غيظنا الذى هو شدة الغضب بحيث يحترق القلب فيثور دمه، والشيء المحرك للغيظ خروجهم من مصر ومن حكومة فرعون وملكه فهذا يحرق أفئدة السلاطين.

والأمر الثانى: من الداعى قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ والحذر هو الاحتياط واستعمال الحرم فى الأمور ومن جملته: إذا خرج قوم على السلطان أن يقطع مادة خروجهم على الفور حتى لا يعظم بتجمعهم فلا يمكن التدارك فإنه بعد التجمع العظيم يكون النمل ثعبانًا.

و «حاذرون» صفة مشبهة تفيد الثبات، أى إنا لقوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم، فلا نتركه هنا.

وقرئ حاذرون وهو اسم فاعل يفيد التجدد والحدوث أى لنا الآن تيقظ وحذر، فإنه لم يعهد فى مدة عمره خروج هذه الكثرة عليه، فاللعين قلل بنى إسرائيل بالإضافة إلى القبط.

وإلا فقد روى: كان بنو إسرائيل وقت خروجهم من مصر ست مائة ألف وسبعين ألفًا، أى مقاتلوهم غير الصبيان والنسوان والهرمى، وقد بولغ فى كثرة القبط.

وأحسن ما قيل فيها: خرج فرعون ومقدمته سبع مائة ألف والجيش خمس طبقات: المقدمة، والساقه، والميمنة والميسرة، والقلب.

وفى العادة تكون المقدمة قليلة فيقرب من أربعة آلاف حتى قيل: كان عبيده خلفه ثمان مائة ألف على الحصان مع زينة الملوك من الحجرين والجواهر.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ أى بسبب هذا الرأى وهو مجموع التصور والإرادة وهنا التصور تصور الأمور الثالث من رفع المانع إثبات الداعين فإذا لاحظ اللعين وجنده هذه الأمور تحركت إرادتهم إلى الخروج فحصل الداعى المستلزم للعين، أى الخروج فلما خلق الله تعالى الداعى إلى الخروج، وخلق فعل خروجهم أسند الإخراج إلى ذاته.

﴿مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أية جنات وأية وعيون فالتنكير للتعظيم.

﴿وَكُنُوزٍ﴾ آية كنوز، والكنز لغة المال المدفون وكانت أموالهم ظاهرة، لكن لما لم يؤدوا منها الزكاة سماها كنزًا.

على ما ورد فى الحديث الصحيح: (كل ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت الأرضين السبع، وكل ما لم يؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض).

وما قيل: خص الكنوز لأن أموالهم الظاهرة كانت قد طمست بدعوة موسى عليه

السلام، يرد عليه أن أموالهم الباطنة كانت قد طمست أيضًا لأنه لا مخصص فى قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾.

وأيضًا قد بقى آل فرعون بعد الدعاء والطمس أربعين سنة، فقد جمعوا أموالاً عظيمة بعد الطمس، لأن الطمس من الآيات فيكون وقوعه قبل هلاكهم بزمان كثير كسائر.

﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وهو أبنيتهم الرقيقة ومجالسهم البهية.

﴿ كَـذَلِكَ ﴾ يحتمل النصب، أى إخراجًا مثل ذلك الإخراج، والكاف مقحم فى مثله، والمراد تقحيم الإخراج المتقدم الجر، أى مقام مثل ذلك المقام الذى لفرعون وملائه.

والرفع أى الأمر كذلك فيكون جملة معترضة لأن «فأتبعوهم» معطوف على فأخرجنا وكذلك قوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ معترضة وهذا الإيراث بنى إسرائيل فى الصحيح، لأن موسى ومن معه عادوا إلى مصر وتملكوها على ما هو الظاهر من الآيات فى القصص، والأعراف، والدخان.

وقيل: عاد بعضهم وتملكوا ما كان بيد آل فرعون وهو قول أهل الكتاب.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أى لحقوهم وقت شروق الشمس، من تبعته فأتبعته أى لحقت.

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى رأى القبط السبط، والسبط القبط.

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ والإدراك هو الوصول والإحاطة لجميع أجزاء الشىء، أى يأخذنا القبط ويستأصلونا.

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ كَلَّا ﴾ أى حاشا من الوصول والاستئصال لأن الله تعالى قال:

﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أى يتبعكم القبط، ولم يقل: إنكم مدركون.

فقيل: يا موسى قد أخذ البحر أمامنا فإنهم كانوا قد وصلوا إلى بحر قلزم الذى الطور وراءه بطريق مكة لكن بعد ليال من الإسراء لأن إرسال فرعون فى المدائن يدل على أن اللعين إنما خرج بعد أيام ليجتمع العساكر فغاية الأمر أن الإسراء فى الليلة وأن الاتباع فى وقت الشروق فى أى يوم كان وقد وصل عسكر القبط، فأين النجاة، فقال موسى عليه السلام:

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والنصرة، أى يحفظنى وينصرنى.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى طريق النجاة، فقال مؤمن آل فرعون أو يوشع عليه السلام: أين أمرت يا نبى الله؟ قال: فى البحـر، فضرب فرسه المؤمن أو يوشع حـتى جاوز البحر، ثم رجع، فقال موسى لبنى إسرائيل: سيروا على البحر، فلم يقدروا، فدعا موسى عليه السلام عـند ذلك فقال: يا مـن كل قبل كل شيء والمكون كل شيء والكائن بـعد كل شيء اجعل لنا فرجًا ومخرجًا.

وفى رواية: قال: اللهم لك الحمد وإليك المشـتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ «أن» مفسرة لما فى الإيحاء من معنى القول، فضرب مرة فى موضع أو اثنتى عشرة فى موضع.

﴿فَانفَلَقَ﴾ أى انفرق البحر.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ فيدل كلمة كل على تعدد الطرق.

﴿كَالطَّوْدِ﴾ أى الجبل المتطاول فى السماء ﴿الْعَظِيمِ﴾.

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أى قربنا ﴿ثَمَّ﴾ أى فى موضع الفلق ﴿الآخَرِينَ﴾ عساكر فرعون من عساكر بنى إسرائيل أو بعضهم من بعض، أو من الهلاك.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ من بنى إسرائيل.

﴿أَجْمَعِينَ﴾ فكان هارون ويوشع ومؤمن آل فرعون أمامهم، وموسى عليه السلام خلفهم فدخلوا فى طرق البحر فجاء الصبا وشعاع الشمس فجفت طرقهم وحصل كوى فى جدران الماء كالطاقات يرى بعضهم بعضهم فعـبروا سالمين، وقد وصل فرعون بجنوده إلى الماء فرأوا انفلاق الماء كالجبال.

قـال بعـضـهم: سحر مـوسى عليه السلام، فقال اللـعين: إن هذا من الاتصالات الفلكية والقرانات الكواكبية فكما عبر بنو إسرائيل تعبرون لا تخافوا.

قال تعالى فى سورة النازعات ﴿فَحَشَرَ﴾ أى جنوده عنده عند الماء.

﴿فَنَادَىٰ﴾ هو بنفسه أو مناديه.

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ أى من كل من يلى أمركم من الأمراء والوزراء، فوقعوا على الأرض وسجدوا له ثم ركبوا ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ﴾ أى تنكيلاً بسبب الكلمة

الآخرة وهى تلك ﴿وَالأُولَىٰ﴾ أى بسبب الكلمة الأولى وهى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وبين الكلمتين أربعون سنة فلما جدد طغيانه وجددوا كفرهم أمرهم بالدخول فى طرق الماء ليستأصلوا بنى إسرائيل فخاف الجند ولم يدخلوا فحرك حصانه، فحب الرئاسة والسلطنة وغيظ بنى إسرائيل، فوصل الماء فوجد الشيطان فنهاه عن الدخول، فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ على فرس الحياة بمثال رمكة وديق التى تشتهى الحصان، ففر الشيطان ووجد حصان فرعون الأدهم ريح الرمكة فأخذ اللجام من يد فرعون ودخل الماء على إثر فرس جبريل عليه السلام فاستنكف اللعين عن إلقاء نفسه من الفرس حياء من الناس ورأى أن ﴿الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أى ساكن فقوى قلبه فراح، ثم إن ميكائيل وجنود الملائكة جاءوا إلى عسكر فرعون متمثلين بصورة الحاشرين، فقالوا: إن الأمير راح ودخل الماء فادخلوا أنتم، فدخلوا جميعًا حتى إذا قرب فرس فرعون إلى الساحل ونجا بنو إسرائيل، وهمَّ فرعون بالخروج فعند ذلك أخذ جبريل لجام فرس فرعون وأعطاه فتياه بخطه.

وقصته: أنه لما قرب هلاك اللعين وكان يومًا فى ديوان مظالمه دخل جبريل عليه السلام وبيده فتيا على قرطاس، ما جواب الأمير فى عبد نشأ ونما وربّى فى نعمة مولاه، ثم جحد نعمته وادعى السيادة لنفسه دون مولاه، فكتب فرعون بخطه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: إجزاء العبد الكافر بالنعمة والجاحد لحق مولاه أن يغرق فى البحر.

فلما أخذ فتياه عرفها فعند ذلك قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ على ما فى سورة يونس.

فآمن اللعين بثلاث كلمات: آمنت، وكلمة: أنه لا إله إلا الذى آمنت بنو إسرائيل.

فقد قرئ (إنه) بالكسر على الاستئناف، وقوله: أنا من المسلمين.

لكن لما كانت الأمور مرهونة بأوقاتها وقد فات وقت الإيمان فلم يقبل ولو قال واحدة منها حال الاختبار قبلت، فقال الله تعالى على ما هو الظاهر من الضمائر فى «نُنَجّيك» وفى آياتنا الآتية.

أو جبريل بأمره تعالى: ﴿آلآنَ﴾ أتؤمن الآن، والهمزة للإنكار، لأن هذا الإيمان حال الاضطرار لدفع البأس دون حال الاختبار، فيكون كإيمان الكفرة فى جهنم ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ مدة عجزك.

«وأنت من المفسدين الضالين» المضلين.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أى من قعر البحر ملقى على نجاة من الأرض.

﴿بِبَدَنِكَ﴾ حال أى حال لا روح فيه، أو سالمًا بجميع الأعضاء، أو عريانًا، أو بدرعك فإنه كان له درع من الذهب يعرف به.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ من حيث المكان وهم بنو إسرائيل فإن جسد اللعين ألقى على موضع عال فى ممر بنى إسرائيل كأنه ثوم عريانًا من الثوب عليه درعه فمروا عليه ونظروا إليه بعدما أنكروا على موسى هلاكه.

﴿آيَةً﴾ أى علامة أو من حيث الزمان، أى لتكون آية وعبرة لجميع الظلمة والكفرة فى الأعصار الآتية إلى يوم القيامة.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ مثل ظلمة زماننا دمرهم الله تعالى تدميرًا، وقال تعالى هنا:

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أى قوم فرعون.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أى ما حكى الله تعالى عن فرعون.

﴿لآيَةً﴾ آية.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى أكثر أهل زمانه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز القادر المنتقم، الرحيم الذى يمهل ولا يهمل.

أعاذنا الله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

مجلس في:

بيان عبور بني إسرائيل البحر وإنزال التوراة على موسى عليه السلام

في عشر آيات من سورة الأعراف:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبيان ذلك أنه تعالى قال[1]:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى بعد هلاك فرعون وقومه.

﴿الْبَحْرَ﴾ أى بحر قلزم على ما مر.

﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من العمالقة الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ من تماثيل البقرة المتخذة من جواهر الأرض من

---

(١) ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الذهب والفضة وغيـر ذلك، أى كانوا يعبدونها ويتقـربون بها إلى الله تعالى وهو أصل عبادة البقر.

﴿قَالُوا﴾ أى بنو إسرائيل.

﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ من التماثيل نتقرب به إلى الله تعالى.

﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يتقربون بها إلى الله تعالى.

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة ربكم وتقدسه عن الشركاء.

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ أى العابدون للبقر قوم.

﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك.

﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من الدين.

﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى عملهم من عبادة البـقر فأهلكهم الله تعالى ودينهم وأصنامهم بيد موسى عليه السلام.

﴿قَالَ﴾ موسى

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أى معبودًا من التماثيل.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فى زمانكم بما آتاكم من فلق البـحر والآيات التسع المذكورة.

قال الله تعالى ممتنًا عليهم وملتفتًا إليهم بالخطاب:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم﴾ يا بني إسرائيل.

﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ أى يطلبون لكم.

﴿سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بيان للسوم.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ للخدمة

﴿وَفِي ذَلِكُم﴾ البرم أو الإنجاء.

﴿بَلاءٌ﴾ أى نقمة أو نعمة

﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ثم إن موسى عليه السلام طلب من ربه مـا كان وعده بمصر فإنه كان وعده بمصر أن يؤتيه كتابًا فـيه بيان ما يأتون ويذرون، بعد هلاك فرعون وقومه

فلما أهلك الله عدوهم سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب الموعود فبين الله تعالى تلك القصة فى القرآن العظيم فقال:

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً ﴾ ليلة والمواعدة من الجانبين و «ثلاثين» ظرف قائم مقام المفعول به، ووعد الله بالوحى والتكليم وإنزال الكتاب ووعد موسى بالمجىء إلى الطور والصوم والتخلى للعبادة والاستماع بكلامه، والقبول، فتقدير الكلام: وواعدنا موسى أفعال ثلاثين ليلة وهى شهر ذى القعدة فتطهر موسى عليه السلام وجاء إلى الطور معه سبعون من نقباء إسرائيل، لكن لما وصل إلى الطور بقى سبعون فى ذيل الجبل وصعد موسى عليه السلام فوقه لقوله تعالى فى طه ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ أى السبعين ﴿ قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِى ﴾ أى خلفى ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾.

لكن فى سورة الأعراف التى كلامنا فيها ما نطق الله عن أمر سبعين إلا بعدما حكى اتخاذ بنى إسرائيل العجل، فالتوفيق ما ذكرناه.

ففى إنزال التوراة وطلب الرؤية وخرور موسى صعقًا السبعون غير حاجزين كما يدل عليه ظاهر هذه القصة، فلما جاء موسى الطور وبقى السبعون فى أسفل الجبل ولم يحضروا مع موسى عليه السلام وصام شهر ذى القعدة ليلاً ونهارًا ولم يأكل شيئًا وإنما ذكر الليل لأن عد الشهور عند العرب بالليالى فلذلك خصها بالذكر وإلا لم يأكل ليلاً ونهارًا ولأن مظنة الأكل كانت بالليل فإذا انتفت كان النهار أولى به فبعد الثلاثين تسول موسى عليه السلام لخلوف فمه أى تغير رائحة فمه قال الله تعالى أو بعض الملائكة: كنا نشم من فمك رائحة المسك لصومك، فزاد الله تعالى عشر ذى الحجة على ما قال.

﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ ﴾.

وهو الوقت الذى يعين الأمر وهو ههنا التكليم.

﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وهو حال، أى بالغًا أربعين ليلة وإنما ذكر فتم إلى آخره وكان معلومًا مما سبق لدفع وهم أن يكون العشر من ذى القعدة.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ حال بتقدير قد أى كان عند الخروج إلى الطور قد قال:

﴿ لأَخِيهِ هَارُونَ ﴾ عطف بيان لأخيه.

﴿اخْلُفْنِي﴾ أى كن خلفتمى، ولا ينافيه رسالة هارون، لأن موسى عليه السلام كان أصلاً وصاحب الشريعة والكليم.

﴿فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ أى ما يجب إصلاحه، فحذف المفعول للتعميم، أو كن مصلحًا.

فالمتعدى منزل منزلة اللازم، وهذا الأمر للتهييج والتثبيت وإلا فهارون عليه السلام مصلح.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بمداهنتهم وملاينتهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ وهو وقت التكليم يوم عرفه فى أواخر الأربعين.

واللام للاختصاص، أى اختص مجيئه بميقاتنا.

﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بأن أسمعه كلام القديم القائم بذاته بلا صوت ولا حرف بلا واسطة ملك أو بشر.

ولذا اختص باسم الكليم، وقد سمع كلامه المنتظم المؤلف من الأصوات والحروف الدال على الكلام القديم بخلق الله إياه فى بعض الأجسام كالشجرة فيما مضى أو كالجبل ههنا، لكن من جميع الجهات ولجميع الأعضاء، وهذا أى سماعه لكلامه القديم القائم بذاته ولكلامه المخلوق فى بعض الأجسام مذهب الأشعرى ومن تبعه.

ومذهب أبى منصور الماتريدى: إن كلام الله حقيقة كلامه النفسى، أى القديم القائم بنفسه.

لكن ما سمعه موسى عليه السلام، وما سمعه موسى عليه السلام هو الصوت والحرف المخلوق فى الشجرة مثلاً الدال عليه.

فالشيخان: أى الأشعرى والماتريدى يثبتان لله تعالى الكلام القديم المعنى النفسى القائم بذاته.

وبعد ذلك يقول الأشعرى: سمعه موسى عليه السلام كما سمع الكلام اللفظى.

والماتريدى يقول: المعنى القديم لا يسمع لتنزهه عن الصوت والحرف، وإنما المسموع الكلام اللفظى لكن يقول الأشعرى: كما أن ذاته يرى فى الآخرة بلا كيف يسمع كلامه النفسى بلا صوت ولا حرف وهو الحق.

ومذهب الحنابلة والحشوية: أن كلام الله تعالى صوت وحرف وهى ذلك قديم قائم به.

وهو سخيف كما ترى.

ومذهب الكرامية: أن كلام الله تعالى صوت وحرف حادث قائم به تعالى.

وهذا المذهب باطل، لأن محل الحادث حادث فيلزم حدوثه، تعالى عن ذلك.

ومذهب المعتزلة: أن كلام الله تعالى صوت وحرف حادث غير قائم به تعالى، بل قائم بالشجرة أو غير ذلك.

وهذا أيضًا باطل لأنه كلام صفته، ولا يجوز قيام صفة الشيء بغيره.

فالحق ما أثبته علماء أهل السنة وأن كلام الله هو المعنى النفسى القديم القائم بذاته المتمثل بالصوت والحرف القائم بالشجرة أو غيرها.

فهذا تفصيل المذاهب ذكره الإمام الداعى إلى الله، فهذا المقام.

فالحاصل لما سمع موسى عليه السلام كلامه تعالى ووجد لذة ذلك اشتاق إلى رؤيته:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِى﴾ أى ذاتك، أى مكنى من رؤيتك بأن تتجلى وتزيل الحجاب.

﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أى أراك بلا شبهة والنظر تقليب الحدقة نحو الشيء طلبًا لرؤيته وهو مقدمة لا بعد الرؤية لا فائدة فيه، فيكون الكلام من باب: رأيته بعينى، فالمقصود التأكيد.

وهذا الطلب للرؤية من موسى عليه السلام أول دليل على إمكانها لأن الكليم يعلم البتة ما لا يجوز وما يجوز على الله تعالى وطلبه لأجل قومه أى السبعين على ما قال الخصم.

مردود لأنهم ما كانوا حاضرين على ما يدل سوق هذه القصة، ولأنه يجب عليه أن يجهلهم كما جهلهم فى قولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ ولأنه وصى أخاه بعدم اتباع سبيل المفسدين، فكيف يتبع هو سبيلهم.

﴿قَالَ لَن تَرَانِى﴾ وهذا دليل لنا فى إمكان الرؤية لأن «لن» ليست للتأبيد فى العربية لتقييده باليوم فى قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

فلو كان للتأبيد لزم المنافاة ولتقييده بقوله: «أبدًا» فى قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾.

فلو كان للتأبيد لضاع أبدًا فى الظاهر فلن للتأكيد فى مدخوله وهو هنا نفى كون موسى عليه السلام رائيًا لا نفى كون الله تعالى مرئيًا أى أنت لا تقدر فى هذه النشأة الأولى على رؤيتى.

ولو كان الله تعالى غير مرئى لقال: لن أرى، فدل هذا الكلام على أن المانع من جهة موسى عليه السلام لا من طرفه تعالى.

ومثال ذلك إذا بشىء فى يد رجل وقال الآخر: مكنى من أكله، فإن كان هذا الشىء مأكولاً مثل التفاحة ولكن فى الأكل مانع يقول: لن تأكل وإن كان هذا الشىء غير مأكول كالحجر يقول: لن يؤكل.

﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ أى اترك سؤال رؤيتى والنظر إلىَّ لأن لها مانعًا من جهتك وانظر إلى الجبل وأنا أتجلى له وأجعل له حياة، وإدراكًا ورؤية لى.

﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ أى وقت التجلى.

﴿ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ أى تقدر على رؤيتى.

وهذا التعليق أيضًا دليل إمكان رؤيته لأن التجلى هو الانكشاف والتام فوق الانكشاف العلمى.

وهذا معنى الرؤية، فلو كان غير ممكن فكيف يتجلى غاية ما فى الباب عدم إراقة الرائى فى الحياة الدنيا القصور القوى وعجزها وفى الآخرة سيقع لكمال القوى على ما سنورد فى الأحاديث الصحيحة وتثبتًا للخصم بأن الرؤية تكون فى الشاهد فى المقابلة والجهة والله منزه عن ذلك جوابه إنه قياس الغائب على الشاهد لأنه يجوز أن يرى الله تعالى فى الآخرة بغير مقابلة ولا جهة كما يعلم فى الدنيا بغير مقابلة ولا جهة لأن الرؤية انكشاف تام.

كما أن العلم انكشاف.

﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ أى مغشيًا عليه لقوله: ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أى أنت قادر على الأمور العظام مثل جعل الجبل العظيم ذرات.

﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عن سؤال شىء بلا إذن، لأن سؤال الرؤية كان من الشوق الناشىء من الكلام بلا إذن لا سعف إليه.

﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بأنك لا ترى فى الدنيا.

﴿قَالَ﴾ الله.

﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ فى زمانك حتى على هارون.

﴿بِرِسَالاتِي﴾ أى بأسفار التوراة.

﴿وَبِكَلامِي﴾ أى تكليمى إياك.

﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على هذه النعم وإلا فاتتك نعمة الرؤية فى الدنيا.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ﴾ كانت عشرة فى الصحيح، جاء بها جبريل عليه السلام من ياقوت الجنة أو زمردها وكل لوح عشرة أذرع طولاً وعرضًا، فكتب جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى بالقلم الإلهى.

﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من للتبعيض.

﴿مَّوْعِظَةً﴾ بدل منه أى كتبنا له بعض كل شىء وهو الموعظة وهى ما يرغب فى الطاعة ويتفرغ المعصية فأجمل ما لهم أولاً ثم فصل، لأن الموعظة أهم من الأحكام والأنبياء عليهم السلام مبعوثون بها لأن الاتعاظ عن سنة الغفلة مقوم على جميع الأمور فلا حظ للغافل عن الشرائع كلها.

﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام وكل شىء فى الموضعين مقيد بما يحتاجون إليه.

وقوله: «تفصيلاً» عطف على الجار والمجرور.

﴿فَخُذْهَا﴾ فقلنا خذ الألواح، عطف على كتبنا.

﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ أمر ندب.

﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أى أحسن ما فى الألواح مثل العفو والصبر فإنهما أحسن من القصاص والانتصار وهذا فى حقهم كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ فى حقنا.

ثم وعد موسى وقومه على طريق تغليب موسى عليه السلام فى الخطاب على الأخذ بالأحسن بقوله:

﴿سَأُرِيكُمْ﴾ على طريق الإيراث سأجعلكم وارثين.

﴿ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ فرعون وقومه بمصر والجبارين بالشام.

ويجوز أن يكون وعيدًا لبنى إسرائيل على عدم الأخذ بالتوراة فيكون التفاتًا لأجل الغضب، أى سأريكم دار فرعون، وقومه كيف أقفرت عن أهلها وكيف دمروا لتعبروا فلا تفسقوا.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ أى عن إبطالها والحيلة فى دفعها.

﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ صلة للتكبر، أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل كما فى الكفرة، أو مذهبهم الفاسد كما فى أهل البدعة أو حال عن الفال أى ينكرون ملابسين بما ليس بحق كالافتخار بالأموال، والجاه، والآباء وهم جبابرة الشام وهذا الصرف بإهلاكهم كما أهلك فرعون وقومه فهذا القول تكميل للوعد السابق على تقدير كونه وعدًا وإن كان ما قبله وعيدًا فالمعنى لا يعتبر الكل لأنى سأصرف بالطبع على قلوبهم عن الانتفاع بآياتى المنكرين المذكورين فيكون تكميلاً أيضًا.

﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ إلى آخرها.

بيان لعلامة الصرف بالطبع على الوعيد، أو ذم وبيان استحقاق للإهلاك على الوعد وعطف على الصلة أى يتكبرون.

﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ وهو الاهتداء للمصالح فى الدارين.

﴿ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أى لا يسلكوه.

﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ ﴾ والضلال وهو فقدان ما يوصل إلى المصلحة.

﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أى يسلكوه.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أى التكبير المذكور والعلائم والأوصاف المذكورة.

﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ المنصوبة فى الأنفس والآفاق.

﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أى لا يتفكرون فيها بل يكذبون بغير رؤية، ثم بين مآل المكذبين فى الآخرة بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ ﴾ أى لقائنا فى الآخرة فالمصدر مضاف إلى الظرف، أو لقاء أمور الآخرة فالإضافة إلى المفعول به.

﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ لكفرهم، والكفر محيط بالأجماع.

﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ استفهام للانكار أى لا يجزون.

﴿إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى إلا جزاء عملهم.

ذكر الأحاديث الصحيحة المتواترة المعنى فى الرؤية عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (إنكم سترون ربكم عيانًا).

وفى رواية قال: (كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾) متفق عليه.

وعن صهيب، عن النبى ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة يقول الله تعالى: ترون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار، قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾) رواه مسلم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: (إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾) رواه أحمد والترمذى رحمهما الله.

وعن أبى ذر العقيلى رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة؟ قال: بلى، قال: وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: يا أبا ذر أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليًا به، قال: بلى، قال: فإنما هو خلق من خلق الله تعالى والله أجل وأعظم، رواه أبو داود.

نقل من مشكاة المصابيح بعينه والله الهادى إلى الصواب.

مجلس في:

بيان اتخاذ بني إسرائيل العجل وقتلهم أنفسهم وتوبتهم

فى سبع آيات من سورة طه:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبيان ذلك أن الله تعالى حينما كلم موسى عليه السلام فى الطور أخبر موسى بضلال بنى إسرائيل بعبادة العجل على ما أخبر فى سورة طه[1] بقوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

والمراد بالقوم السبعون الذين تركتم أسفل الجبل أى ألم تركتم خلفك، فسأل من سبب العجل منكرًا إياها قال:

﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أى التقدم يسير.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أى سبب العجلة تحصيل رضاك.

﴿قَالَ فَإِنَّا﴾ أى بسبب عجلتك.

﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ هم المخلفون مع هارون من جمهور بنى إسرائيل، أى قد ابتليناهم.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ من بنى إسرائيل اسمه موسى بن ظفر من قبيلة يقال لها

---

(١) ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

سامرة، كانت أمه قد ألقته من خوف فرعون حين ولدته فى غيضة فرباه جبريل بأن كان يشرب من أصبعيه العسل والسمن ثم بعدما كبر كان مع موسى عليه السلام وكان منافقًا فلما عبر بنو إسرائيل البحر وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم وقالوا: يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، أى تماثيل البشر على ما مر، اغتنم هذا القول منهم، فلما ذهب موسى عليه السلام إلى الطور ومكث أربعين ليلة، وقد كان وعد القوم ثلاثين ليلة، فزاد عشر ليال فى الطور ولم يعلم به القوم ضجروا وتألموا على فراق موسى فقال السامرى: إنما تخلف موسى عليه السلام لأن عندكم فى زينة القبط من الحلى المستعادة بسبب عرش لهم، وفى الزينة أى الذهب والفضة الملقاة على الساحل بعد هلاك آل فرعون والغنائم وإن كانت مباحة لهم بدلالة ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فى الشعراء.

وبدلالة: ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ فى القصص.

لكن كان ترك الأخذ أولى لهم فالتحريم المنقول فى الأحاديث على بنى إسرائيل محمول على الكراهة تنزيهًا توفيقًا بين الأدلة أو كانوا مأمورين بأخذ الأحسن على ما مر.

فتسلق السامرى إلى الحيلة فقال: اطرحوا هذه الحلى ليجىء موسى عليه السلام، فقالوا: كيف نطرحها؟ فقال: نحفر حفرة فنلقى هذه الحلى فيها ونحرقها، فرضوا بذلك، فعمد السامرى إلى حفرة بالليل فصاغ فيها قالبًا للعجل، فلما أصحبوا أتوا بأحمال الحلى وطرحوا فيها وأحرق السامرى فى الحفرة فصاغ لهم بالقالب فأخرج لهم عجلاً من الذهب فقذف فى العجل تربة كان قد أخذها من موطئ فرس جبريل عليه السلام حين جاء يوم البحر وكان قد عرفه السامرى بسبب التربية السابقة، فرأى أن الفرس كلما وطئت أرضًا اخضرت لأنها كانت فرس الحياة، فعرف أن للتربة المقبوضة من أثر الفرس شأنًا، فلما قذف التربة فى جوف العجل المصوغ أعطى الله له حياة ولحمًا ودمًا فجعل يخور كما يخور البقر، فصار جسدًا له خوار، فلما رأت هذه الحالة جماعة بنى إسرائيل افتتنوا به لما فى ضميرهم من حب البقر فقالوا ـ أى السامرى وبعض الأوباش من بنى إسرائيل: ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ أى ترك إلهه هنا وذهب يطلبه على الطور.

فسجد أكثر بنى إسرائيل للعجل واتخذوه إلهًا.

وقال هارون: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أى بالعجل.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ أى مقيمين على عبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فنأخذ برأيه.

وما بقى على الإيمان مع هارون إلا اثنا عشر ألفًا.

فلما أخبر الله موسى عليه السلام بضلال قومه، رجع إلى قومه مع الألواح العشرة غصبان أسفًا، فجاء إلى السبعين فأخبرهم خبر الألواح، وخبر السامرى فرجعوا معه متأسفين على القوم فقال الله تعالى هنا أى فى سورة الأعراف: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ﴾ أى من بعد ذهابه إلى الطور.

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ أى من زينتهم المستعارة والملقاة على الساحل على ما مر، والحُلىّ جمع: حُلَى. كثدى وثدى.

﴿عِجْلاً﴾ أى مصوغًا من الذهب.

﴿جَسَدًا﴾ بدل من (عجلاً) والجسد الذى فيه الروح واللحم والدم.

﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ أى صوت البقر، والمفعول الثانى للاتخاذ محذوف أى اتخذوه إلهًا.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ تنبيه على ضلالهم، فإن الإله يجب أن يكون متكلمًا بكلمات ينفد البحر دونها، وأن يكون هاديًا بالأدلة المنصوبة فى الأنفس والآفاق، إلى سبيل الخير فى الدارين والبقر مثل فى الغباوة فأى ضلال أشد من ضلاله.

من يسوى بين الحكيم العليم وبين البقر الذى هو مثل فى الغباوة.

﴿اتَّخَذُوهُ﴾ أى إلهًا، ابتداء كلام لتقرير الاتخاذ.

﴿وَكَانُوا﴾ دائمًا.

﴿ظَالِمِينَ﴾ أى عادتهم الظلم، وهو وضع الشىء فى غير موضعه، فوضع العادة التى للحكيم العليم فى الأغبى.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى ندموا أشد الندم فهو كناية لأن شأن الندامة تستلزم سقوط الفم لأجل العض على الأيدى، فذكر اللازم وأريد الملزوم مع جواز إرادته، وهذا شأن الكناية.

﴿فِي أَيْدِيهِمْ﴾ قائم مقام الفاعل لسقط.

﴿وَرَأَوْا﴾ أى علموا يقينًا بدلالة أن وقد.

﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا﴾ معتذرين تائبين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزل التوبة ويغفر لنا بمحو الخطيئة.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا أولاهم وأخراهم فشتان ما بين أمة محمد ﷺ فإنهم قد مات نبيهم عليه السلام منذ إحدى وثمانين وألف سنة ولم يقع فى مشارق الأرض ومغاربها من هذه الأمة فى هذه السنين المتطاولة فى أهل سنتهم، ولأن أهل بدعتهم إشراك جسد من الأجساد لله خالق العباد وما بين بنى إسرائيل أخبار الأنبياء وقد رأوا الآيات التسع وفلق البحر وهذه الآيات ملجئة إلى الإيمان.

فمفارقة نبيهم أربعين يومًا وقعوا فى مثل هذه المهلكة.

فالحمد لله على نعمة القرآن والإيمان.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى شديد الغضب أو شديد الحزن، وبيان ذلك: أن الإنسان إذا رأى مكروهًا من أحد فعند ذلك يثور دم قلبه ويغلى إرادة للانتقام، فإن كان ذلك الأحد من دونه يخرج أثر الثوران إلى الظاهر فيقشعر جلده ويحمر وجهه فيبطش، فهذا هو الغضب وإن كان ذلك الأحد من فوقه ينقبض الثوران فى الباطن فينقلب الغضب حزنًا.

ولما رجع نبى الله عليه السلام إلى قومه وجدهم عاكفين على عبادة العجل يرقصون حوله ويدورون وهذا أول ما وقع من الرقص والدوران على زعم العبادة فعند ذلك غضب نبى الله على قومه وأمته حتى قتل منهم كثيرين.

ولما لاحظ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ ونظر إلى العصا صار حزينا وجمع الله بين موجبى العلم والعرفان، فإن من نظر بعين العلم نقم، ومن نظر بعين العرفان رحم.

فهذا هو اللائق بل الواجب على العلماء بالله تعالى.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ ما نكرة مبهمة مفسرة للمضمر فى بئس، أى بئس خلافة خلفتمونيها، والمخصوص بالذم محذوف، أى خلافتكم هذه.

والخطاب إما لهارون وعلماء الدين، والمعنى: بئس الخلافة خلافتكم حيث

وصيتكم بالإصلاح وعدم اتباع المفسدين بقوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ من بعدى أى من بعد ذهابى ومن بعد أن رأيتم منى التصلب للحق وعدم المداهنة.

وقد فسر فى طه بقوله: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ فى أخلاقى من التصلب وعدم المداهنة و (لا) مزيدة.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أى بالإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين.

وإما الخطاب لعبدة العجل أى بئس فعلاً فعلتموه وهو عبادة البقر من بعدى، أى من بعد ذهابى أو بعد ما رأيتم من التوحيد، والنهى عن الشرك.

وتفسيره فى طه قوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بإنزال التوراة.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أى ما طال فإنه ما زاد إلا عشرة أيام.

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ باتخاذ أغبى الأشياء وأعجزها شريكًا لخالق القوى والقدر.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ ضمن أعجلتم معنى بسقتم أى بسقتم الأمر متعجلين.

والأمر إما واحد الأوامر وهو أمره تعالى لبنى إسرائيل بانتظار موسى عليه السلام ثابتين على دينه.

وإما واحد الأمور وهو وعده له بإنزال الكتاب ورجوعه سالمًا.

﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ﴾ أى وضعها على الأرض بسرعة.

فهذا الإلقاء مثل الإلقاء فى قوله: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ فى سورة يوسف عليه السلام.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أى بشعر رأسه ويدخل فيه اللحية لأن الوصف الرأس فى العرف.

﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ فأخذ بيده اليمنى شعر رأسه وباليسرى لحيته يجره إليه غضبًا كأنه توهم التفريط من هارون عليه السلام وقد كان هارون أكبر منه ونبيًا، لكن كان موسى عليه السلام أصلاً فى الرسالة وصاحب شرع فجاز هذا.

﴿قَالَ﴾ أى هارون.

﴿ابْنَ أُمَّ﴾ خص الأمر وقد كانا شقيقين لأب وأم، للاستعطاف لأن شفقة الأم كاملة.

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ أى كانوا يستهزئون بى ويستحقرون قولى وكادوا يقتلوننى لعدم حرمتى عندهم.

وقد اعتذر بعـذر آخر فى سورة طه بقوله: ﴿يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى بالقتال.

فإن القتال يفرق القوم.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى قوله: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ فإن الإصلاح كان فى حفظ الدهماء وعدم تفريق الجماعة حتى تجىء وتصلح برأيك.

فحكى فى كل سورة عذرًا منه عليه السلام.

﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى مقارنًا إياهم فى العتاب والعقاب.

﴿قَالَ﴾ أى موسى عليه السلام بعدما ظهور عذر أخيه بالوجهين.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ فعلى بأخى غضبًا وحمية لدينك.

﴿وَلأَخِي﴾ إن كان وقع منه تفريط.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ منعمًا علينا.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقال موسى عليه السلام فى تضاعيف هـذا القول: إن الله أخبرنى فى الطور بعاقبة المتخذين للعجل إلهًا فقال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ أى عظيم.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ وقد فصل الغضب والذلة فى سورة طـه فى حق السامرى بـقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وهو جبريل عليه السلام.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ أى تربة مقبوضة.

﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى من أثر فرس جبريل.

﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أى زينت وسهلت، فاعترف بذنبه كما اعترف القوم فيما سبق.

﴿قَالَ﴾ أى موسى عليه السلام للسامرى.

﴿فَاذْهَبْ﴾ أى من عندنا طريدًا وحيدًا.

﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ وكان يمشى وحيداً فإذا رأى إنسانًا كان يقول: لا مساس ولا اتصال بيننا، فإذا مسه أحد يأخذه الحمى والماس.

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أى فى الآخرة.

﴿ لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ أى بالنار.

﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾.

وأخبر تعالى عن الغضب والذلة فى حق القوم بقوله فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ أى نقضتم حظوظها فى الآخرة.

بكفركم ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ الذى خلقكم بريئا فى الصوب سليم الأعضاء، أى ارجعوا إلى عبادته من عبادة الأغبى.

وقد أخبر الله تعالى عن توبتهم وندمهم الشديد قبل رجوع موسى عليه السلام.

﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ تمامًا لتوبتكم فإنكم قد فعلتم هذه الشناعة بعد ظهور الآيات الملجئة فحكمكم ليس كحكم سائر التائبين لأن إيمانهم بالغيب من كل وجه فتمام توبتكم ليس إلا قتل بعضكم وهم اثنا عشر ألفًا الباقون على الإيمان.

﴿ بَعْضٍ ﴾ وهم العابدون للعجل.

والتعبير عنه بأنفسكم لأنهم كشخص واحد من حيث النسب والجن الذى هو الدين.

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أى القتل.

﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ من حيث إنه يوصل إلى الحياة السرمدية والبهجة الأبدية.

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ خطاب لبنى إسرائيل فى زمن النبى ﷺ أى فعلتم آباءكم القتل.

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فالفاء فصيحة.

﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ روى أنه قال موسى عليه السلام ليقعد عبدة العجل على الاست واضعين رءوسهم على التركيب شادين أيديهم وأرجلهم بالحبال ويجىء الذين لم يعبدوا العجل مصلين سيوفهم وليضربوا، فمن نظر إلى قاتله أو حل شده أو بكى فعليه لعنة الله ثم فعلوا، فجاء القاتلون، فرأوا أبناءهم وأقاربهم فلم يقدروا على المفتى لحكم الله تعالى فأنزل الله تعالى ضبابة وسحابة فلم ير بعضهم بعضًا فقتلوا إلى

المساء، فدعا موسى وهارون لبنى إسرائيل فكشف الله السحابة وقبل توبة الباقين ورفع القتل فغدا القتلى سبعين ألفًا، فصار المقتولين شهداء والباقون أبرارًا وأخيارًا.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ صغيرة أو كبيرة أو كفرًا.

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ أى من بعد عمل السيئات.

﴿وَآمَنُوا﴾ إن كانوا كفاراً فبإحداث الإيمان وإن كانوا عصاة فبالثبات عليه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر ذنوبهم.

﴿رَّحِيمٌ﴾ ينعم عليهم، فهذا تعميم لسائر التائبين.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ وهذا من الفصاحة والبلاغة بحيث لا يخفى، شبه الغضب لله بالأمير المطاع الآمر والناهى، وسكوته بسكوت هذه الآمر ففى الكلام استعارة مكنية وتصريحية على قول من يجوز كون القرينة فى المكنية تصريحية.

أو الاستعارة تمثيلية أى لما سكن غضب موسى عليه السلام وانطفى عن أخيه ؟؟؟ وعن القوم بالتوبة والقتل.

﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ الملقاة أى الموضوعة على الأرض صحيحة سالمة، فما قيل من انكسار البعض يخالف مظاهر القرآن على ما لا يخفى.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أى فيما نسخ فيها أى كتب.

﴿هُدًى﴾ عن الضلال للضالين بالموعظة والإرشاد.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ للعالمين بالأحكام المفصلة.

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به واللام الثانى لتقوية العمل لتقدم المفعول.

والله الهادى

مجلس في:

بيان اختيار موسى عليه السلام سبعين رجلاً للاعتذار عن عبدة العجل

خمس آيات من سورة الأعراف[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

وبيان ذلك.

قال السدى: إن موسى عليه السلام بعدما تاب بنو إسرائيل عن عبادة العجل، وقتلوا أنفسهم أمر أن يأتى تالى الطور مع سبعين رجلاً من خيار بنى إسرائيل ليعتذروا عن عبدة العجل فأمر موسى عليه السلام أن يخرج من كل سبط ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين رجلاً لأن الأسباط كانت اثنتى عشرة فقال موسى: ليتخلف اثنان فتشاجروا فقال موسى عليه السلام آجر الذهب فتخلف يوشع وكالب، فذهب مع السبعين إلى الطور فقال قوله تعالى:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ أى من قومه على نزع الخافض وإيصال الفعل.

---

(١) ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ﴾ وهذا الميقات ميقات الاعتذار، والميقات الأول ميقات التكليم، وهو غيره فلما جاء وأنزلت سحابة وضبابة فدخل موسى عليه السلام فيها أمر السبعين بالدخول فلما دخلوا سمعوه يأمر موسى وينهاه افعل، لا تفعل، وسجدوا، فلما تم الكلام وحصل المرام وانكشف الغمام.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى: بمجرد قولك بالتكليم.

﴿ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أى معاينة، فقاسوا الرؤية على الكلام قياسًا فاسدًا.

﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ فماتوا جميعًا فبقوا يومًا وليلة وذلك قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى رجفه الموت وماتوا.

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ ﴾ إهلاكنا ﴿ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ بسبب الإغراق فى البحر أو بكيد فرعون أو غير ذلك.

وقد خلتنا بلطفك وكرمك من أسباب شتى فنرجوا كرمك أن تحيى هؤلاء وإلا فما أقول لبنى إسرائيل، فبعد ذلك لا يتابعنى أحد منهم.

فهذا الكلام استعطاف موسى لربه جل جلاله.

﴿ أَتُهْلِكُنَا ﴾ أى لا تهلكنا.

﴿ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ وهم هؤلاء السبعون وفعلهم عنادهم وطلبهم الرؤية المسحتة فى مقابلة وجهه بقرينة جهرة، أو عبدة العجل وفعلهم عبادتهم العجل.

والحاصل يقول: نرجو فى كرمك أن لا تهلكنا بفعل السفهاء وتخلصنا من هذه الورطة.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أى: ابتلاؤك واختبارك.

لأنك قد قلت: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ﴾.

وبيان الابتلاء إمَّا للسبعين فإنهم سمعوا كلامك واشتاقوا إلى جمالك لكنهم أساءوا الأدب وما حفظوا الحرمة حيث قالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ وقالوا: ﴿ جَهْرَةً ﴾ فلهذا عذبوا.

وأما لعبدة العجل فإن السامرى حين ألقى التربة أنت أعطيت الروح للابتداء، وقد تاب العبدة، وقتلوا أنفسهم.

﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ ﴾ ضلاله بترك الأدب فى السؤال وعدم الثباب فى مداحض الأقدام.

﴿وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ﴾ بالتوفيق لحفظ الحُرْمَة والتثبت فى المزالق.

فبعد ذلك أحيا الله تعالى السبعين كما قال فى البقرة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فشكروا الله.

ثم شرع موسى فى الاعتذار والاستغفار لقومه والسبعين قائلاً:

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أى متولى أمورنا والمتكفل لمصالحنا.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بستر الذنوب والصفح عنها.

﴿وَارْحَمْنَا﴾ برفع الدرجة وإنزال النعمة.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ لأنك تغفر وتبدل السيئة بالحسنة.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ أى ثبت واقسم.

﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ توفيق طاعة ووصل معيشة والحياة الطيبة.

﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ الجنة.

والحاصل: سأل عليه السلام سعادة الدارين ثم علله بقوله:

﴿إِنَّا هُدْنَا﴾ أى تبنا ﴿إِلَيْكَ﴾ من هاد يهود إذا تاب، ورجع، وهى كلمة مدح. وليست اليهود مأخوذة منها لأنها كلمة موسى عليه السلام بل هى مأخوذة من يهودا.

فأجاب الله عن سؤاله ما حاصله: إن ما طلبت لا يكون فى تقديرى وقضائى لأمتك بل هى خاصة أمة محمد ﷺ.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ﴾ فى الدنيا والآخرة.

﴿مَنْ أَشَاءُ﴾ من الذين لا يتوبون.

ذكر فى جانب العذاب الإصابة وصيغة المضارع وقيد المشيئة لأن العذاب ليس مقتضى ذاته بل هو بمقابلة العصيان.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ أى أحاطت ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهذه الرحمة التى هى مقتضى الذات والإرادة، وهى إفاضة الوجود وما يتبعه فى الكمالات بالإرادة الشاملة على كل موجود من الجماد وغيره وهى عامة لكل موجود ذكر فى جانب الرحمة الإحاطة وصيغة المضى وكل شيء إشارة إلى قوله: سبقت رحمتى على غضبى.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أى أثبتها فيما يستقبل والضمير للرحمة العامة إن كان المراد الإثبات فى العقبى لأن الرحمة مائة جزء على ما ورد فى الحديث الصحيح(١).

فنزلت واحدة إلى الدنيا ثم يوم القيامة يكمل الله المائة ويخصها للمؤمنين ولا يصيب منها لغيرهم فيها.

وإن كان المراد الإثبات فى الدنيا فيما يستقبل من الزمان على ما هو الظاهر من سوق الآيات، فالضمير للرحمة الخاصة على طريق الاستخدام وهى سعادة الدارين التى سبقت.

فالمعنى فسأكتبها أى أثبت الرحمة أى الخاصة وهى الحسنة فى الدنيا من توفيق الطاعة وحسن المعيشة والحياة الطيبة والحسنة فى الآخرة أى الجنة.

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أى المعاصى كلها.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ التى هى قنطرة الإسلام فلذا خصها بالذكر، فمن أداها كان فاعلاً.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا﴾ أى جميعها، لأن الإضافة للاستغراق.

﴿يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ﴾ بدل من الأول بدل ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ المبلغ لأحكام الله إلى عبادة ﴿النَّبِيَّ﴾ الرفيع القدر عند الله.

﴿الأُمِّيَّ﴾ نسبة إلى الأم أى لا يقرأ ولا يكتب.

فحصوله جميع العلوم فيه معجزة، أو إلى أم القرى، أو إلى أمة العرب، وهو محمد ﷺ.

﴿الَّذِى﴾ بدل أو صفة للرسول.

﴿يَجِدُونَهُ﴾ أى: هو ومخرجه على ما سيجىء فى الحديث.

﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم﴾ (الأعراف: ١٥٧) استئناف لبيان السبب لما ذكر من النعوت.

---

(١) حديث (الرحمة مائة جزء) حدثنا حرملة بن يحيى التجيبى أخبرنا بن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيب أخبره أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثم جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءًا واحدًا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» انظر صحيح الإمام مسلم: ٤/ ٢١٠٨ الحديث رقم (٢٧٥٢).

﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهو ما حسَّنه الشرع.

﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ وهو ما قَبَّحه الشرع.

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ هى ما استلذَّته الطباع السليمة ولم تنفر عنه، أى: طباع أرباب الأخلاق الجميلة، وأهل المروءة، من العرب فى عهد الرسول ﷺ.

﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ ما تستقذره الطباع السليمة وتنفر عنه.

والحاصل: هذا الرسول يحل المنافع، ويحرم المضار.

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ ﴾ أى من أهل الكتابين.

﴿ إِصْرَهُمْ ﴾ والإصر الثقل.

﴿ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ والمراد بالإصر والأغلال الأحكام الشاقة على أهل الكتاب فى قتل النفس عند التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة من الثوب والبدن بالنسبة إلى اليهود، والرهبانية التى ابتدعوها[1]، من عدم أكل الطيبات وترك النكاح وغير ذلك بالنسبة إلى النَّصارى، فمحمد ـ عليه السلام ـ وضع أى: خفف ورفع جميع ذلك.

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أى قووه ونصروه.

﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ ﴾ أى: القرآن.

﴿ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ ظرف لأنزل، أى: مع نبوته أولاً اتبعوا أى يتبعون النور مع اتباعه أى يتبعون الكتاب والسنة.

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى: الفائزون للرحمة الخاصة المذكورة من سعادة الدارين دون غيرهم.

ففى هذا الجواب لموسى عليه السلام الذى ثم هنا مدح الله ـ تعالى ـ عمدًا وأمنه أحسن المدح وأثنى عليهم أحسن الثناء تنبيهًا على أن كمال هذه الأمة فى العقائد والأعمال التى ذكرت وثباتهم على الإسلام، وعدم تزلزلهم إلى آخر الزمان مثل تزلزل

---

(١) انظر إلى قوله تعالى فى الآية رقم (٢٧) من سورة الحديد ونصها: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

بين إسرائيل بمفارقة بنيهم أربعين ليلة وقولهم بحضور نبيهم ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: ٥٥) سبب جالب لما استدعاه موسى ـ عليه السلام ـ من الحسنة فى الدارين.

والحمد لله على ذلك.

فلما ظهر وثبت أن ﴿الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩) أمر نبيه بدعوة الكافة إليه قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾[١] خطاب لجميع بنى آدم ـ عليه السلام ـ المكلفين البالغين العاقلين.

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ ظرف لرسول.

﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير الخطاب.

ففيه دلالة صريحة على إرساله للكل.

﴿الَّذِي﴾ صفة للمضاف إليه أى الله تعالى، وتوسط ظرف المضاف لا يضر لكونه غير أجنبى.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فله التصرف فيها كيف يشاء فأرسلنى إلى كافة من فى الأرض رحمة عليهم لاحتياجهم إلى المرشد فى الإلهيات، وفى ما لا يستقل الفعل فيه من أمور الآخرة.

﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ بدل فى الصلة أى ملك للدلالة على أن نوحده فى الألوهية اقتضى الإرسال إلى الجميع أى كما هو الإله الواحد المتوحد فى ذاته وصفاته فأنا الرسول إلى يوم القيامة لا ينسخ شرعى ولا يتبدل.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بدل أيضًا من الصلة، فكون الإحياء والإماتة له اقتضى إحياء قلوب الميت بإنزال النور أى القرآن واتباع الرسول ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى كتبه ورسله جميعًا.

﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ عطف على «آمنوا» دلالة على أن تحصيل الاهتداء إلى المصالح فى الدارين إنما يكون بالجمع بين الإيمان والاتباع.

---

(١) هذه الآية هى رقم (١٥٨) من سورة الأعراف ونصها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالح الدين، ثم لما ذكر الله تعالى مناقب ومفاخر أمة محمد ﷺ وفيما ذكر فيما قبل مثالب بنى إسرائيل اتبعه بالمدح لبعض بنى إسرائيل فى عهد موسى عليه السلام أو عهد نبينا أو إلى آخر الدهر فقال الله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ﴾(1) هم الذين ثبتوا على الدين مع هارون ـ عليه السلام ـ فى فتنة العجل، أو الذين آمنوا من بنى إسرائيل، أو هم قوم وراء الصين على ما سنفصل.

﴿يَهْدُونَ﴾ أى يرشدون الناس.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أى بكلمة الحق، فالباء للاستعانة أو محقين، فالباء للملابسة.

﴿وَبِهِ﴾ أى بالحق.

﴿يَعْدِلُونَ﴾ إذا حكموا بين الناس، فأثنى الله على بعض بنى إسرائيل ليدل على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر إلى يوم القيامة.

روى أصحاب التفاسير جمة:

أن بنى إسرائيل بعد موسى ـ عليه السلام ـ لما ظهر فيهم البغى والتحاسد وقتلوا الأنبياء والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر تبرأ سبط منهم من أفعالهم وتضرعوا إلى الله فى الخلاص عن صحبتهم وجوارحهم، فجعل الله سربًا ونفقًا فى الأرض من بيت المقدس فأوحى الله إلى نبى فى هذا السبط أن يدخلوا فى السرب فدخلوا بأولادهم، وأتباعهم وبرمهم فى السرب فجعل الله لهم مصباحًا يضىء بالنهار وينطفئ بالليل فيعلمون الليل والنهار من أمر المصباح وجعل لهم نهرًا يسير معهم كقوم طالوت وأعطاهم رزقهم فى السرب كما لبنى إسرائيل فى التيه فساروا سنة ونصف إلى أن خرجوا إلى أرض وراء الصين واسعة كثيرة الخيرات، والبركات من المياه الجارية والثمار الكثيرة منقطعة عن العمارة لا يصل إليه أحد فنزلوا فيها، وبقوا على حكم التوراة إلى أن بعث الله نبينا ﷺ.

ففى ليلة المعراج راح جبريل مع الرسول إليهم فنظر إليهم وإلى أحوالهم ثم اجتمع معهم فقالوا: من أنت؟ قال: أنا الرسول النبى الأمى، قالوا: صدقت فقد أخبرنا موسى عليه السلام بنعتك ومخرجك ثم قالوا: فمن عندك؟ قال: أترونه؟ قالوا: نعم، قال:

---

(1) هى الآية رقم (١٥٩) من سورة الأعراف وقد تحدث أصحاب التفاسير عن قصتهم فيما بيَّن المؤلف وسنبينه فى الصفحات التالية.

هو جبريل ـ عليه السلام ـ ثم آمنوا عن آخرهم بمحمد ـ ﷺ ـ ثم قال لهم الرسول: قد وجدنا أسواقكم خالية، قالوا: نعم لا يقوم لنا سوق لأنا نمطر بالليل ونضحى بالنهار فنزرع ونحصد ؟؟؟ وعلى الكفاية نعطى إخواننا من المحتاجين، قال: لا سلطان لكم ولا قاض؟! قالوا: نعم، نعطى من أنفسنا النصفة فلا نحتاج إلى السلطان والقاضى، قاال: ولا أبواب لبيوتكم، قالوا: نعم لأن السُّرَّاق لا يوجدون فينا، قال: والسباع والهوام؟ قالوا: نمضى لها فلا تضر ولا نفر قال: أتزنون؟ قالوا: من زنى يحصب من السماء، أو يخسف به الأرض، قال: هل تربون؟، قالوا: من آمن يرزقه الله تعالى كيف يربى؟ قال: قد وجدنا قومًا يبكون، قالوا: قد ولد لهم مولود يبكون لأنه لا يدرى على أى دين يموت، قال: وجدنا قومًا يضحكون، قالوا: قد مات منهم واحد يضحكون لأنه ختم له على الإيمان، ثم بعد ذلك أعطاهم الرسول عشر سور من القرآن وعلمهم الفاتحة معها وعلمهم الصلاة والزكاة وأمرهم بالحج فقالوا: كيف الطريق؟ فدعا لهم النبى فجعل لهم ضربًا إلى مكة يجيء كل سنة حجَّاجهم فيقفون فى عرفات ويزورون البيت ثم يدخلون السّرْب).

ولما أخبر رسول الله ﷺ صبيحة ليلة المعراج بأمر هؤلاء القوم، قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كنا نرجو من الله أن لا يفضل أمة على هذه الأمة، فنزل قوله تعالى فى هذه السورة: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أى: من هذه الأمة لأن الكلام فيهم، أو عمومًا فهذه الأمة تدخل دخولاً أوليًا ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فأخبر الله تعالى أنه لا يخلو وجه الأرض إلى يوم القيامة عن القائمين بالحق والناطقين بالصدق والصواب.

جعلنا الله تعالى منهم.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا إسماعيل عن الحريرى عن أبى صخر العقيل، حدثنا رجل من الأعراب قال: (جئت إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعته قلت: لألقين هذا الرجل، فلأسمعن من قال، فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرأها يقرئ بها نفسه عن ابن له قرب من الموت كأحسن الفتيان وأجملهم، فقال رسول الله ﷺ: (أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتبك صفتى ومخرجى؟) فقال برأسه هكذا ـ أى: لا، فقال ابنه: أى: والذى أنزل التوراة إنّا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك

وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: (أقيموا اليهودى عن أخيكم) ثم ولى كفنه، ودفنه، والصلاة عليه).

هذا حديث جيد، قوى، له شاهد فى الصحيحين.

عن أنس ﷺ نقله ابن كثير.

مجلـــس فـــى:

بيان أحوال موسى عليه السلام مع قارون

سبع آيات من سورة القصص[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

عن عمرو بن ميمون الأودى قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: (اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)[2].

الحديث مرسل رواه محيى السنة فى معالم التنزيل.

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾.

وهو: قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام.

فيكون قارون ابن عم موسى عليه السلم وكان ممن آمن بموسى من السبعين المختارين للميقات، ثم نافق كالسامرى.

---

(١) ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾.

(٢) حديث: (اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك...) انظر: المستدرك: ٤/ ٣٤١ الحديث رقم (٧٨٤٦) مصنف ابن أبى شيبة ٧/ ٧٧ الحديث رقم (٣٤٣١٩) مسند الشهاب ١/ ٤٢٥، البيهقى فى شعب الإيمان: ٧/ ٢٦٣، العجلونى فى كشف الخفاء: ١/ ٨٥.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أى على موسى وبنى إسرائيل وبغيه عليهم طلب الفضل عليهم، وأن يكونوا تحت أمره، فقيل: إنه زاد فى ثوبه شبرًا كبيرًا.

وقيل: أمر الله موسى عليه السلام أن يقول لبنى إسرائيل أن يعلقوا فى ذيولهم خيوطًا خضر، كلما نظروا إليها تذكروا السماء فيتذكروا قدرة الله، فخالف قارون وقال: إن هذا من شئون العبيد الآبقين وكانوا يعلقون على عبيدهم لئلا يأبقوا وأمروا بالزكاة عن كل أربعين بواحد، فصَالحه موسى عليه السلام عن كل ألف بواحد فحسبه فاستكثره ولم يعط.

وقيل: إنه حسد هارون للحبورة[1]، فقال: يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست على شىء، وقال موسى عليه السلام: إنه بحكم الله فلم يرض، فأمر موسى السبعين المختارين أن يأتوا بعصيهم فوضعها فى قبة وحرسوا القبة إلى الفجر فلما

---

(١) **الحبورة:** هى (الحبارة) رياسة المذبحة، أورد الثعالبى فى قصص الأنبياء ص ١٢١ قال: «فلما قطع موسى ببنى إسرائيل البحر، جعلت الحبارة وهى رياسة المذبحة، وبيت القربان لهارون فكانت بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هارون، فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله.

فوجد قارون فى نفسه من ذلك، فأتى موسى عليه السلام وقال: يا موسى لك الرياسة والرسالة ولهارون الحبارة، ولست أنا فى شىء من ذلك وأنا أقرأ للتوراة منكما، ولا صبر لى على هذا.

فقال موسى: والله ما جعلتها أنا فى هارون، بل الله جعلها له.

فقال له قارون: والله لا أصدقك فى ذلك حتى ترينى بيانه.

قال: فجمع موسى عليه السلام رؤساء بنى إسرائيل وقال: هاتوا عصيكم، فممن أصبحت عصاه خضراء فهو أحق بالحبارة.

فجمع العصى وجاءوا بها وكتب كل واحد اسمه على عصاه فحزمها موسى عليه السلام، وألقاها فى القبلة التى كان يعبد الله فيها وجعلوا يحرسون عضيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون، وقد اهتزت ولها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز.

فقال موسى عليه السلام: يا قارون ترى هذا من فعلى؟!.

قال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع السحرة.

وذهب قارون مغاضبًا واعتزل موسى بأتباعه، وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما، وهو يؤذيه فى كل وقت، ولا يزيد كل يوم إلاّ عتوًا وتجبرًا، ومخالفة، ومعاداة لموسى.

انظر هذه القصة عند الثعالبى علمًا بأن المؤلف يشير هنا حين أوردها أنها من الإسرائيليات.

ص١٢١ قصص الأنبياء ٦٥٤/ ١.

أصبحوا فتحوا القبة ووجدوا عـصا هارون عليه السلام قد اخضرت وأورقت فقال: هذه الآية على اختيار الله هارون للحبورة، فقال قارون: هذا ليس بغريب من سحرك.

فهذا ما نقل من الإسرائيليات فى تفصيل البغى لقارون.

والله تعالى أصدق قائل وقد بين بغيه هنا على ما نفصل إن شاء الله تعالى.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أى من الأموال المدخـرة، أو من الخزائن، فإن الكنز يطلق على المال المدفون وعلى ما يحرز من المال فى الخزائن.

وهذه الجملة اعتراضية لبيان العلة، أو حالية بتقدير قد لذلك.

﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أى مفاتيح صناديقه على الأول، أو مفاتح أبوابه على الثانى.

والمفاتح جمع مفتح بالكسر هو الصحيح.

﴿لَتَنُوءُ﴾ لتميل لثقلها. من ناء به الحمل أى أثقله، وأماله.

﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ أى الجماعة الكثيرة من عشرة إلى أربعين.

﴿أُولِي الْقُـــوَّةِ﴾ من أجسادهم، و (مـا) موصولة صلته إن مع اسمهـا وخبرها، والموصول مع صلته ثانى مفعول «آتيناه».

حاصل الكلام: قد أعطى الله لقارون من الخزائن قدرًا لا يقدر على حمل مفاتيحه أربعون رجلاً، ونقل عن الإنجـيل: كان يحمل مفاتح خزائنه ستـون بغلاً، فلهذا الغناء المفرط بغى.

والفاء فى «فـبغى عليهم» للتـرتيب على ما قبله على التـعكيس، أى كان الواجب على قارون أن ترتـب الإطاعة والإحسـان على كونه من قـوم موسى عليـه السلام لكن عكس الأمور ورتب البغى عليه.

وهذا الكلام يفيد أشد التوبيخ.

وأما علة البغى فى الحقيقة هو الغنى المفرط على ما بين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ﴾ ظرف لبغى.

﴿قَوْمُهُ﴾ أى موسى عليه السلام والسبعون المختارون نصيحة له ووعظًا.

﴿لا تَفْـرَحْ﴾ بالدنيا وإقبالهـا ولا تذهل عن فنائها وإدبارها والفرح بها ناشئ عن حبها الذى هو رأس كل خطيئة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أى بالدنيا.

والفرح المذموم المنهى عنه الذى يقال البطر وهو خفه تحصل عند الفرح بالدنيا وتفضى إلى ؟؟؟ وهو تحقير الناس برؤية الفضل فى نفسه عليهم وهو رؤية الاستحقاق فى نفسه وإنكار فضل الله، فهذا هو المذموم وإلا فأصل الفرح قلَّ من ينجو منه وأشار إليه فى قوله:

﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٢٣) بالتذييل المذكور.

﴿ وَابْتَغِ ﴾ واطلب.

﴿ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ﴾ من الدنيا بفضله ومشيئته لا بالاستحقاق.

﴿ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ أى الجنة لأنها هى الدار، والنار هى السجن لا الدار لأن فى الدار نوعًا من المدح على ما يقال فى العرف أو السلطان ودار الأمر ولا يقال للسجن الدار.

وهذا الابتغاء بصرف الدنيا بمرضاة الرب.

﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ بأن تتعب نفسك دائمًا ليلاً ونهارًا فى مقاساة شدائد تحصيلها فإن لنفسك عليك حقًا، ولزوجك حقًا، وبأن لا تحصل منها زاد الآخرة.

وقيل: نصيبه هو الكفن، أو قدر الكفاية.

﴿ وَأَحْسِن ﴾ تعميم بعد تخصيص أى: أحسن بمالك، وجاهك ولسانك، وأعوانك.

﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ هذه المذكورات.

﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ بإدخال حب الدنيا فى قلوب الناس، وبالحسد وبمخالفة نبى الله.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بسوء أفعالهم.

﴿ قَالَ ﴾ جواب سؤال أى ما قال فى جواب الوعاظ الناصحين، وما فعل، وبيان للبغى المذكور فى وقت الوعظ.

حاصله أن فى وقت الوعظ نوعين: قوليًا بينه بقوله: قال... إلى الآخر، وفعليًا بينه بقوله: ﴿ فَخَرَجَ ﴾ إلى الآخر.

فلما أتى الناصحون بالكلمات الخمس التى لا نصح فوقها أتى اللعين بالمخالفة قولاً وفعلاً فقال إنكارًا لفضل الله وادعاء للاستحقاق فى نفسه.

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أى المال.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى لأجل العلم، فـ «على» تعليلية على ما فى كتب النحو.

﴿عِندِى﴾ صفة للعلم قحم علمه بالإطلاق والتنكير ثم التقييد.

فحاصل كلامه، أن إيتاء الله إياى لأجل استحقاقى بسبب العلم لا للفضل، فكفر اللعين.

وهذا العلم قيل: هو علم الكمياء تعلمه من موسى ـ عليه السلام ـ لأجل كتابة التوراة بماء الذهب ثم استعمله حتى كثر ماله.

وقيل: إنه وجد كنوز يوسف ـ عليه السلام ـ وقيل: هو على المكاسب وأنواع التجارات.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ أى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم فالهمزة للتقرير، أى قد قرأ وعلم، ففيه توبيخ له.

﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ مثل عاد وثمود وغيرهما ﴿مَنْ﴾ مثل شداد.

﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ فى بدنه.

﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال أو جماعة أى أعوانًا.

﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ للاستعلام أى إن الله تعالى عالم بهم فيجازيهم، وهو يؤكد التوبيخ والتهديد مما قبله.

﴿فَخَرَجَ﴾ أى: بعدما أجاب الناصحين بكفره، وإنكار فضل الله تعالى وادعاء الاستحقاق خرج فى ساعته.

﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ﴾ وهذا الخروج هو البغى الفعلى حرك إقبال الناس على الدنيا والإعراض عن المولى.

قيل: كان يوم عيد لبنى إسرائيل قد اجتمعوا فى مصلاهم وموسى ـ عليه السلام ـ كان يعظهم وهم يستمعون بالحضور التام فخرج اللعين بزينته.

قيل: كان راكبًا على بغلة شهباء سرجها من الذهب وعليه أرجوان وفى يمينه ثلاث مائة غلام على زيه وفى يساره ثلاث مائة جارية على البغال مفرقة من الذهب والفضة والجواهر وخلفه أربعة آلاف جندى كلهم على الحصن مفرقة فى الذهب والفضة فتفرق

بنو إسرائيل عن مجلس موسى عليه السلام للنظر إلى زينة اللعين، فدخل حب الدنيا، وتحركت الرغبة إليها فى قلوب الناس.

كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ من المؤمنين الغافلين.

﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ فأتوا بكلمة «مثل» تفاديًا عن الحسد المذموم.

﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فى الدنيا، وتحريك رغبات الناس إلى الدنيا أشد فسادًا فى الأرض لأنه يؤدى إلى الهرج والمرج.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك، لكنه مستعمل فى الزجر عن الشىء، أى لا ترغبوا فى الدنيا.

﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا﴾ أى كلمة: ثواب الله الآخر، أو الثواب باعتبار المثوبة أى الجنة أو الخصلة، أى الإيمان والعمل أى لا يوفق لها.

﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ عن المعاصى وعلى الطاعات.

وفى الصابونى: روى أن اللعين لما جاء جلس على كرسيه من الذهب بين يدى سرير موسى عليه السلام ووقف أعوانه وخدامه بأنواع العطر والأشربة حوله والناس ينظرون إليه حبًّا للدنيا وموسى عليه السلام وقد خرج هيبة الوعظ من القلوب بحب الدنيا كأنه لما جاء اللعين جاء جميع جنود الشيطان معهم ثم بعد ذلك أمر موسى عليه السلام ونهى على كرسيه فقال: من سرق قطعناه، ومن زنى غير محصن جلدناه ومحصنًا رجمناه، فقال اللعين: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال اللعين: إن بنى إسرائيل يزعمون أنك زنيت ببغية معروفة فيهم، قال موسى عليه السلام: حاشا لله، فاستحضر اللعين البغية فلما رآها موسى عليه السلام علم مكر قارون فى حقه وقال: أيتها الفاجرة أنشدك بالذى فلق البحر وأنزل التوراة وكيت، وكيت أن اصدقى فقالت: يا نبى الله إن قارون أعطانى ألف ألف دينار وطشتًا من ذهب، وأمرنى أن أقذفك بنفسى، فتبت إلى الله وخفت منه، فنزل موسى عن كرسيه، فسجد فبقى فى سجوده فتفرق الناس، وجاء قارون إلى داره فضحك على سريره والأراذل حوله يأكلون ويشربون ويرقصون، ويفرحون.

إذ أوحى الله إلى موسى عليه السلام أنى جعلت الأرض مأمورة لك فأمرها بما شئت، فأخذ موسى عصاه فجاء إلى دار قارون، وقال: يا بنى إسرائيل إن الله أرسلنى

إلى قارون، كما أرسلنى إلى فرعون فمن شاء فليثبت مكانه، فتفرقوا وما بقى معه إلا رجلان فقال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الساق فاستغاثوا بالرحم، فقال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الركب فاستغاثوا، ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأنصاف ثم وثم حتى أطبقت عليهم، فأوحى الله إلى موسى ـ عليه السلام ـ ما أفضلت حتى استغاثوا بك سبعين مرة فلم تجبهم ولو استغاثوا بى مرة لأجبتهم فذلك قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾.

ثم بنو إسرائيل قالوا: إن موسى عليه السلام إنما أهلك قارون ليرث ماله فدعا الله فخسف بداره وأمواله بعد ثلاث ليال على ما قال.

﴿وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ﴾ بدفع العذاب عنه.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهو إن شاء ينصر.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أى الممتنعين من العذاب، أو من المنتقمين فى الله.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ أى صار.

﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ أى مثل مكانه بقرينة السابق.

﴿بِالأَمْسِ﴾ أى منذ زمان قريب فإن جميعه كان فى يوم واحد على ما يدل عليه ظاهر النظم.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ﴾ مركب من وى كلمة تعجب اسم فعل بمعنى أعجب، وكأن للتشبيه، أى أعجب فما أشبه الأمر ﴿اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وقيل: مركب من ويك بمعنى ويلك وأن أى ويلك زجر لطال الدنيا اعلم أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده لا لكرامته.

﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ بديل للمشيئة والفضل.

﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بأنه ما أعطانا مثل ما أوتى قارون.

﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسف به لتولده فينا ما ولده فيه.

﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله ورسله وبنعمته، ثم بقى إشكال وهو أن اللعين أنجز حاله إلى ما ذكر فكيف حاله فى الآخره الله عن نصيبه الجنة فأجاب تعالى على وجه العموم يدخل هو أيضًا فيه بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ أى: التى بلغك وصفها وسمعت خبرها وعلمت محاسنها فالإشارة للبعيد للتعظيم وهى الجنة على ما مر.

﴿نَجْعَلُهَا﴾ مختصة.

﴿لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ﴾ فضلاً عن الفعل.

﴿عُلُوًّا﴾ أى على الله بإنكار فضله كما سبق.

﴿فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ بمخالفة نبيه والـمكر به فإنه يؤدى إلى الهرج والمرج من الخلائق كما أراد قارون.

﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أى الجنة فإنها التى تبتغى أن تكون عاقبة الدنيا.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن أنواع الكنـز، وقارون أراد العلو على الله تـعالى بإنكار فـضله والفساد بالمكر بمـوسى عليه السلام وإدخال حب الدنيا فى القـلوب، وما اتقى الكفر، بل كفر بالله وبرسوله، فلا نصيب له فى الجنة.

وحاصل الآية الثـمان: أن قارون ممـن آمن بموسى ومن أقاربه ثـم عكس الأمر، فبغى خصوصًا وقت الوعظ بالخصال الخمس وسبب بغيه كثرة المال.

وبيان بغـيه إما قولاً فـإنه قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ فأنكر الفضل، ثم وبخه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ الآية.

وإما بيـان بغيه فـعلاً فإنه خـرج على قومه فى زينـته، وحرك رغبـات الناس إلى الدنيا، فكان منهم مبطلون قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ ومنهم محققون قالوا ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ الآية.

فتم بغيه فعلاً وقولاً واستحق تعجيل العذاب.

على ما ورد عـن رسول الله ﷺ: «ليس ذنب أحرى أن يـعجل له العقـوبة فى الدنيا مع ما ادخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم»[1].

---

(١) وعن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعـجل الله لصاحبه العقوبة، مع ما يدخـر له فى الآخرة، من قطيعة الرحـم والخيانة والكذب، وإن أعجل البـر ثوابًا لصلة الرحم، حتى أن أهل البيت ليكونوا فقراء فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا.

قلت: رواه أبو داود باختصار كثير.

رواه الطبرانى عن شيخه عبد الله بن موسى بن أبى عـثمان الأنطاكى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

انظر: الهيثمى: مجمع الزوائد: ٨/ ٢٧٨ الحديث رقم (١٣٤٥٦) وكنز العمال ٣/ ٦٥٨، ٣/ ٨٠٦ الحديث رقم (٦٩٨٦)، (٧٣٧٢).

بإيذاء موسى عليه السلام قولاً وفعلاً، فعجل له الخسف فى الدنيا مع ما ادخر له فى الآخرة من العذاب المخلد المفهوم من قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ الآية.

الحمد لله على ما ألهمنا هذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وما توفيقى إلا بالله.

مجلس في:

بيان أحوال موسى عليه السلام
مع الخضر عليه السلام

ثلاث وعشرون آية من سورة الكهف(1):

بسم الله الرحمن الرحيم

واسمه: بليا بن ملكان بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرقحشد بن سام بن نوح عليه السلام.

---

(1) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٦٠ - ٨٢).

والخضر[1] لقبه، (وإنما سمى به لأنه جلس على أرض بيضاء فاهتزت تحته خضراء)[2].

. عن أبى هريرة ﷺ قال: (حفظت من رسول الله ﷺ وعائين:

أما أحدهما: فبثثته فيكم، وأما الآخر: فلو بثثته قطع هذا البلعوم)[3] يعنى مجرى الطعام. رواه البخارى.

وعن الحسن مرسلاً قال: «سئل رسول الله ﷺ عن رجلين كانا فى بنى إسرائيل أحدهما: كان عالمًا يصلى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير.

والآخر يصوم النهار، ويقوم الليل، أيهما أفضل؟.

قال رسول الله ﷺ : فضل العالم الذى يصلى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذى يصوم النهار ويقوم الليل كفضلى على أدناكم»[4].

رواه الدارمى من مشكاة المصابيح.

---

(١) **الخضر**: عند الصوفية يكنى به عن البسط، كما يكنى بإلياس عن القبض، ولا تظن من هذا أن الخضر، عليه السلام، ليس له معنًى وراء هذا، حتى أنكر بعضهم أنه رجل من الناس، فقالوا: إنه ملَك تصوره مخيلتنا بصورة إنسان جميل الوجه طيب الرائحة، أخضر الثوب، فيراه الخاصة من أولياء الله تعالى فيسمونه الخضر، بل الحق أنه شخص من الناس، والدليل على ذلك ما رواه الصحابة عن النبى ﷺ فى الحديث الذى سيأتى لاحقًا فى الأسطر القادمة، انظر تخريجه.

انظر: القاشانى: معجم المصطلحات والإشارات الصوفية: ١/ ٤٤٤.

(٢) حديث: **(إنما سمى الخضر (خضراً...)**.

أورد ابن حبان بابًا فى صحيحه عن ذكر السبب الذى من أجله سُمّى الخضر خضراً.

الحديث رقم (٦٢٢٢) ١٤/ ١٠٨ رواه أبو هريرة ﷺ ورواه الترمذى فى سننه ٥/ ٣١٣ (٣١٥١) والطيالسى فى مسنده: ١/ ٣٣٢ (٢٥٤٨) والطبرانى فى المعجم الكبير: ١٢/ ٢٠٩ (١٢٩١٤) والديلمى فى مسند الفردوس: ١/ ٣٤٥ (١٣٨١) تحفة الأحوذى: ٨/ ٤٧٣.

(٣) حديث: **(حفظت من رسول الله ﷺ وعائين أمّا أحدهما...)**.

أورده القرطبى فى التفسير أثناء تفسيره للفاتحة ٢/ ١٨٦ وقال: أخرجه البخارى.

والبخارى فى صحيحه ١/ ٥٦ الحديث رقم (١٢٠) وفتح البارى ١/ ٢١٦، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥ وذكره العجلونى فى كشف الخفاء أثناء حديثه عن «أمرنا معاضر الأنبياء أن نخاطب الناس على قدر عقولهم» ١/ ٢٢٦.

(٤) حديث: **«سئل رسول الله ﷺ عن رجلين كانا فى بنى إسرائيل...»**.

انظر: سنن أبى داود: ١/ ١٠٩، الحديث رقم (٣٤٠).

وروى أن موسى عليه السلام قال: يا رب أى عبادك أحب إليك؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى، قال: أى عبادك أقضى؟ قال: الذى يقضى الحق ولا يتبع الهوى، قال: أى عبادك أعلم؟ قال: الذى يبتغى علم غيره إلى علمه لعله يطلع على كلمة تدل على هدى، أو ترده عن ردى(٦)، قال: يا رب، إن كان فى عبادك أعلم منى فدلنى عليه، قال: إن لى عبدًا بمجمع البحرين أعلم منك، قال: كيف لى إليه؟ قال: خذ حوتًا واجعله فى مكتل، وخذ ساحل البحر فحيث حيى الحوت فهو هناك، ففعل موسى كذلك على ما أخبر الله تعالى عنه يقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ يعنى ابن عمران صاحب التوراة على ما يدل عليه إطلاقه، ولو كان غيره لقيده.

﴿لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام وكان يتبعه ويخدمه فكان فتاه ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ يعنى لا أزال أسير.

﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعنى بحر فارس بلدة بالمغرب عند طنجة والروم.

وهذا المجمع عند ستيتة بلدة فى الساحل يجتمع عندها البحران.

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ دهرًا طويلاً ثمانين سنة أو غيرها حتى ينقطع رجائى عن حصول المرام.

فحاصل المعنى: لا أقعد عن السير حتى يحصل أحد الأمرين إما البلوغ بالمجمع أو المضى أى الذهاب دهرًا طويلاً ينقطع الرجاء فيه عن حصول المطلوب.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ بعدما سارا على الساحل مدة.

﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أضيف إلى الظرف توسطًا أى المجمع الواقع بين البحرين بحر المغرب وبحر الروم.

نام موسى عليه السلام عند صخرة بقرب نهر يقال له نهر الذّئب، وكان يوشع ينظر له حى الحوت إرهاصًا ليوشع.

وقيل: معجزة لموسى عليه السلام أو الخضر عليه السلام وفيه أنهما ما كانا

---

(١) حديث «سأل موسى ربه...».
انظر: هناد بن السرى: كتاب الزهد: ١/ ٢٧٦ الحديث رقم ٤٨٨.

عالمين بذلك، ودخل البحر بعدما أكل نصيفه فلمـا استيقظ موسى عليه السلام ما تفقد أمر الحوت ونسى يوشع أن يخبره على ما قال:

﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ حال من المفعول الأول.

﴿ سَرَبًا ﴾ مفعول ثان، أى: مسلكًا كالطاق، حبس الله تعالى عنه جرية الماء فصار كالطاق.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ عن الصخرة وذهبا الليلة إلى الصخرة.

﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ يعنى الحوت.

﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا ﴾ أى بعد المجاوزة عن الصخرة التى المطلوب عندها.

﴿ نَصَبًا ﴾ أى عيًا وكلالاً.

ولم يكن موسى عليه السلام عيّ فى عمره إلا هذا.

﴿ قَالَ ﴾ أى الفتى.

﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ ما أصابنى.

﴿ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ علة الإصابة أمر غريب إليه.

﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدل من الضمير بدل الاشتمال، ونسيان هذه المعجزة مع عظم شأنها لأنه كان ألف بأمثالها فلم يقع فى باله فنسيها بشغل الشيطان له بوسواسه.

أو كان حينئذ مستغرقـًا فى مطالعة الجلال الأقدس فكان الباطن عجابًا على الظاهر فلم يحـفظ أمر الحـوت وهو نقصـان إذا لكمال فـى حفظ الطرفـين فلذلك نسبـه إلى الشيطان.

﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ مفعول ثان.

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ ذَلِكَ ﴾ أمر الحوت.

﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أى نطلب.

﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ يقصان أى يتبعان الأثر قصصًا، أو يقصان أمر الحوت اقتصاصًا.

﴿ فَوَجَدَا ﴾ بعدما وصلا إلى الصخرة.

﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ وهو الخضر عليه السلام.

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

قال المفسرون: المراد بالرحمة، النبوة والوحى، وبالعلم اللدنى علم الغيوب.

لكن يرد عليه أنهما كانا حاصلين لموسى علـيه السلام أكمل مما فى الخضر عليه السلام لأن موسى من أولى العزم وصاحب شريعـة والكليم، والخضر عليه السلام وإن كان نبيّا فهو دون ذلك.

فالظاهر أن المراد بالرحمة والعلم شيء لم يكن لموسى عليه السلام حتى يطلبه.

فالصحـيح أن الرحمة فى الأصل رقة فى القـلب تقتضى الإحسان والمـراد بها هنا واردات غيبته ترد على القلب عند التوجه إلـى الله تعالى للعارفين يخلصهم عن الخوف والحزن مـطلقًا على مـا أشار بقوله تـعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢) وقد حصر الخشية فى العلماء بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

فالخشية دائمًا علامة العلمـاء والتخلص عن الخوف منذ ورود الوارد لا دائمًا حلية الأولياء.

والمراد بالعلم اللدنـى، علم الكاشفات الذى يتبع الوارد بسـبب انحراف الوجود، وهذا المعنى كان عند الخضر عليه السلام.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ استئذان فى الاتباع ﴿عَلَىٰ﴾ شرط:

﴿أَن تُعَلِّمَنِ﴾ حال من الكاف.

﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ علمًا رشداً، وهو الاهتداء إلى مصالح الدارين.

وموسى ـ عليه السلام ـ كان أعلم بأصول الديـن وهى العقائد المنجية عن الخلود فى النار وبفروع الدين وهى الأعمال المنجية عن الدخول فى النار وهما ما بعث به كل نبى ورسول.

وأما علم المكاشفات فلا تعلق له بأمـور الآخرة ولا يجب على أحد من المسلمين وليس من الفروع ولا من الأصول، فليس مما بعث بـه النبى عليه السلام بل هو فضيلة زائدة وجودها كمـال وعدمها لس نقصانًا كـسائر الصنائع، فصار كقـول هدهد سليمان عليه السلام ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ الآية.

فلا ضير فى طلب ذلك موسى عليه السلام عند الخضر عليه السلام.

﴿قَالَ﴾ أى الخضر عليه السلام.

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لأنك نبى متكلم وأنا صموت.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ يعنى أنا أفعل أفعالاً ينكرها الشرع فى الظاهر، ولها تأويل حسن ما خطر ببالك، وأنت ناشر الشرع فتنكرها ألبتة.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام.

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ قيده بالمشيئة لعلمه بصعوبة الأمر.

﴿صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عطف على «صابرًا» غير عارض، فيتقيد الفعل بالمشيئة خرج عن الخلق.

﴿قَالَ﴾ الخضر.

﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ تراه منكرًا.

﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أى: حتى أكون أنا الفاتح لذلك، لا أنت.

ويقال لهذا المعنى: التسليم التام وهو منبع كل سعادة فى طريق الصوفية لكن الشرع لا يرضى به لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)

﴿فَانطَلَقَا﴾ يطلبان السفينة إلى الشام.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ بعدما منعهما أهل السفينة لطلب النول ولا شىء لهما.

قال بعضهم: إن وجوههما وجوه الصالحين، وقد عرفوا الخضر عليه السلام وأنزلوهما فى الطبقة السافلة وترك يوشع عليه السلام بعد الوجدان لأنه تابع موسى عليه السلام فذكره ذكره على ما هو الظاهر فعند الركوب فى الحال.

﴿خَرَقَهَا﴾ أى الخضر، السفينة.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام معترضًا ومنكرًا لما رأى خلاف الشرع.

﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يأخذوا منا النول.

﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أى فعلت.

﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾ أى عظيمًا لأنه مفض إلى هلاك جمع فاسترحم على الناس.

﴿قَالَ﴾ أى الخضر عليه السلام منبهًا على أنه له فيه مصلحة.

﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ وما موصولة،

أو موصوفة أو مصدرية، وكان نسيانًا على ما ورد فى الحديث الصحيح: إن الأول كان من موسى عليه السلام نسيانًا.

﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي ﴾ ولا تفشى.

﴿ مِنْ أَمْرِي ﴾ أى متابعتك.

﴿ عُسْرًا ﴾ بأن تناقشنى النسيان.

﴿ فَانطَلَقَا ﴾ بعدما خرجا من السفينة فى نواحى الشام.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا ﴾ أنظف وأحسن وأجمل لم يبلغ الحلم قريبا منه يلعب مع الصبيان.

﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ أى الخضر عليه السلام بأن وضع رأسه وقتل عنقه وفصل رأسه.

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام منكرًا أشد من الأول لأنه قتل بالفعل وكان الأول تسبب إليه.

﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ من الزنا طاهرة من سائر الذنوب حال كون القتل.

﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى لم يقتل أحدًا حتى يقتص، والقتل الشرعى إنما يكون بأحدهما.

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ أى منكرًا أعظم من الأول.

﴿ قَالَ ﴾ الخضر عليه السلام منبهًا على أن له فيه مصلحة وقد فعله بأمر الله.

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ ﴾ زاد فى مقابلة نكرًا.

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام بعدما علم أن المتابعة ورؤيته المنكرات أمر صعب واستحيى من مخالفته مرتين.

﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى بعد ذلك الكرب.

﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ وإن سألتك صحبتك.

﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ لأن العذر عدم الصبر قد وجد.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ أنطاكية[1].

---

(١) **أنطاكية**: قال الهيثم بن عدى: أول من بنى أنطاكية «انطيخس» وهو الملك الثالث بعد الإسكندر.

=

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ إعاده الأهل للتنصيص على لومهم، جواب إذا على ما هو الظاهر.

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أى أن يجعلوهما ضيفًا وقد كانوا أخبث قوم لعدم الإحسان إلى الأضياف سيما الأنبياء عليهم السلام.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ طوله في السماء مائة ذراع.

﴿يُرِيدُ﴾ أي يقرب، استعارة تبعية.

﴿أَن يَنقَضَّ﴾ أى يسقط.

﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر إما بالتعمير أو بالعمارة أو بنقضه وبنائه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام، جواب سؤال على الاستئناف.

﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ﴾ واتخذ أصله وخذ بمعنى أخذ.

﴿عَلَيْهِ﴾ أى على البناء.

﴿أَجْرًا﴾ والمراد تحريضه على أخذ الأجر أو التعريض بفعل ما لا يعنى.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام.

﴿هَٰذَا﴾ أى هذا الوقت وقت ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أى بالخبر الباطن من المنكرات المذكورة.

= وذكر يحيى بن جرير المتطبب التكريتي أن أول من بنى أنطاكيـة انطيغونيا فى السنة السادسة من موت الإسكندر، ولم يتمها، فأتمها بعده سلوقوس، وهو الذى بنى اللاذقية، وحلب، وأفامية، لم تزل أنطاكية قصـبة العواصم من الثغور الشامـية، وهى من أعيان البلاد وأمهاتهـا، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير. . . وقال ابن بطلان فى رسالة كتـبها إلى بغداد إلى أبى الحسن هلال بن المـحسن: أنطاكية وبينهمـا يوم وليلة فوجدنا المسافة التي بين حلب وأنطاكية عامرة لا خراب فيها أصلا، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون، قـراها متصلة ورياضها مزهرة ومـياهها منفجرة، يقطعهـا المسافر فى بال رخى وأمن وسكون، وأنطاكـية بلد عظيم ذو سور وفـصيل، ولسوره ثـلاثمائة وستـون برجًا، يطوف عليـها بالنوبة أربعـة آلاف حارس ينفذون من القـسطنطينيـة من حضرة الملك يـضمنون حراسة البلد سنة، ويستبدل بهم في السنة الثانية.

انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان: ١/ ٢٦٦.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ إخوة عشرة: خمسة زمنى وخمسة ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ لا أن أغرق أهلها.

﴿وَكَانَ﴾ حال بتقدير وبها يتم السبب.

﴿وَرَاءَهُم﴾ قدامهم لأنه من الأضداد وخلفهم إذا رجعوا.

﴿مَّلِكٌ﴾ ظالم اسمه جلند بن كركره لعنه الله.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أى صالحة.

﴿غَصْبًا﴾ فلم يأخذها الظالم لخرقى إياها وإذا اعترض أمران شنيعان يجب تحمل الأهون وهو الشرع.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ اسمه حنون.

﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ أى بالخضر ـ عليه السلام ـ أو بنبى آخر.

﴿فَخَشِينَا﴾ بتعليم الله تعالى.

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ بأن يعذبهما بطغيانه وكفره، بأن يرضيا بكفره وفسقه فيكفرا.

﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ بدل الغلام الهالك.

﴿رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ أى طهارة من الذنوب.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أى مرحمة على والديه فأبدلهما بنيًا تزوجها نبى فجاء من نسلها سبعون نبيًا.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ﴾ اسمهما احرم وصريم.

﴿يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أنطاكية.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ من العلم والمال، واليتيمان لا يعرفان ووصيهما العارف بذلك غائب.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ قيل: سبعة آباء واسمه كاشح.

﴿صَالِحًا﴾ وكان من السياحين.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ بإقامة الجدار.

﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أى رشدهما بعد البلوغ.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ فيتعلما ما فيه من العلم وينتفعا بما فيه من المال.

قيل: كان لوحًا من ذهب مكتوب فيه:

[عجبًا لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبًا لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، عجبًا لمن أيقن بالرزق، كيف يتعب، عجبًا لمن أيقن بالحساب، كيف يغفل، عجبًا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله].

وفى الجانب الآخر مكتوب:

[أنا الله لا إله إلا أنا وحدى لا شريك لى خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير فأجريته على يديه، والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه].

﴿ **رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ** ﴾ مفعول له للإرادة.

﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُ** ﴾ أى جميع ما مضى.

﴿ **عَنْ أَمْرِي** ﴾ أى لأجل رأيى وإنما فعلته بأمر الله تعالى.

﴿ **ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾.

قيل: عند مفارقته موسى عليه السلام وصى إليه أن يا موسى لا تتعلم العلم لتتكلم به، بل تعلم لتعمل به، ويا موسى قلبك وعاء فانظر ماذا تجعل فيه، ويا موسى الدنيا ليست بدار قرار فاطلب البلغة فيها، ويا موسى أمك ألقتك فى البحر بأمر الله فلم تفرق وكذا خرقى السفينة، وأنت قتلت القبطى قبل أمر الحق، وأنا قتلت الغلام بأمر الله، وأنت لما سقيت لابنتى شعيب عليه السلام سألت الأجر من الله، وكذا أنا فى بناء الجدار، ثم تفرقا.

وفوائد هذه القصة لا تحيط بها مجلدات، بعضها مذكور فى التفاسير والله الحاكم.

مجلس في:

بيان أحوال البقرة وأصحاب البقرة مع موسى عليه السلام

سبع آيات في سورة البقرة[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ واذكر الحادث والقصة إذ قال موسى عليه السلام.

﴿لِقَوْمِهِ﴾ حين استفتاهم في أمر القتل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا﴾ بأن تذبحوا.

﴿بَقَرَةً﴾ أي ثوراً بدليل قوله: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ لأن إثارة الأرض وسقي الحرث من أعمال الثيران، فالتاء في البقرة للوحدة فالبقر جنس والبقرة واحدة منه كالحمام والحمامة وتأنيث الضمائر فيما سيجيء بالنظر إلى اللفظ.

وقصته: أنه كان في بني إسرائيل رجل موسر اسمه عاميل وكان له ابن عم فقير فقتله ليرث ماله وطرحه على باب مدينته فجاء إليهم يطلب ديته فرفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام وسألوا منه أن يدعو الله تعالى فيكشف عن أمر القاتل، فدعا الله موسى عليه السلام فأمرهم أن يذبحوا بقرة ثم يضربوا ببعض منها المقتول، فإذا فعلوا ذلك

---

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٦٧ - ٧٣).

يحيى الله المقتول فيخبر عن قاتله، فتعجب بنو إسرائيل منه، واستخفوا بهذا الأمر على ما سيجيء.

واعلم أن مراد الله من البقرة كان بقرة ما من جنس البقر لإطلاق اللفظ أى لفظ البقرة للحديث المروى مرفوعًا وموقوفًا على ابن عباس ﷺ أنه قال: [فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم][1] والتشديد بعد بيان السنة بقوله ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ونسخ الحكم قبل الفعل جائز، فنسخ بتشديدهم، لكن بقى الحكم فى الجملة إذ المعينة الموصوفة فى جملة أفراد البقر، فلم يغير الحكم كليًا بل فى الإفراد المغايرة لها.

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا﴾ يا موسى.

﴿هُزُوًا﴾ أى مكان الاستهزاء أو أهله أو مهزوءًا بنا أو نفس الهزء لفرطه، وإنما قالوا تخفيفًا بالأمر إذ ظنوا أن موسى عليه السلام يستهزئ بهم لأن الحياة من الميتين أى البقرة المذبوحة، والمقتول غير معتاد ولا معقول.

وهذا الظن من بنى إسرائيل بأنبيائهم ليس أول كسر فى الزجاج.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فنفى الاستهزاء بأبلغ وجه، فكنى عن الهزء بالجهل لأن الهزء فى مقام الإرشاد والتبليغ من فعل الجهال، فالجهل لازمة ولم ينف صريحًا استعاذ منه استقطاعًا له، فلما علم بنو إسرائيل أن الأمر جد.

فاستقصوا السؤال لزعمهم أن مراد الله بقرة معينة لخروجها عن المعتاد على ما أخبر الله بقولهم:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ والسؤال بما عن الحقيقة بقوله بقرة فالظاهر كيف هى ليكون سؤالاً عن الوصف، لكن لما وجدوها محالفة لسائر البقر استجهلوها وسألوا عن حقيقتها ومراد الوصف عن السؤال فلذا بين سنها.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام.

---

(١) أورده سعيد بن منصور فى سننه ٢/ ٥٦٥ الحديث رقم (١٩٣).

وانظر: مجمع الزوائد للهيتمى ٦/ ٣١٤.

وقال أيضًا: رواه البزار، وفيه عباد بن منصور، وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات، والبيهقى فى السنن ٦/ ٢٢٠ الحديث رقم (١٢٠٢٨).

﴿إِنَّهُ﴾ أى الله تعالى.

﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ﴾ كبيرة السن قد فرضت سنها.

﴿وَلا بِكْرٌ﴾ فى أول العمر من البكورة هى أول الشىء.

﴿عَوَانٌ﴾ أى وسط فى السن.

﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أى ما ذكر من فارض وبكر فوجد التعدد فأضيف بين إليه.

﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أصله ما تؤمرون به، حذف الجار ثم الضمير تدريجًا.

وقيل: دفعة.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ بعد بيان السن.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ﴾ صفة صفراء ﴿لَّوْنُهَا﴾ فاعل فاقع، ومعنى الفاقع شديد الصفرة ولونها هى الصفرة.

فحاصل الكلام شديدة الصفرة صفرتها فيكون من قبيل: جد جده، وجن جنونه.

﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ لأن النظر إلى شديد الصفر يورث السرور، ومنه قول على كرم الله وجهه: من لبس نعلاً صفراء قلَّ همه.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أى هل هى مسخرة للعمل أم مسلمة متروكة من العمل، فالسؤال أولاً عن سنها، ثم عن لونها ثم عن عملها.

﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ المنعوت بالنعوت والصفرة.

﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرة أفرادها وعدم قطع الاحتمال.

﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ جملة معترضة بين اسم إن وخبرها للدلالة على أن أفعال العباد واقعة بمشيئته وإرادته، أى إنا إن شاء الله اهتداؤنا إلى البقرة ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ وفى الحديث: «لو لم يستثنوا ـ أى لم يقولوا إن شاء الله ـ لما بينت لهم آخر الأبد»[1].

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ﴾ صفة بقرة، أى غير مذللة للعمل.

---

(١) حديث: (لو لم يستثنوا ما أُعطوا...) أورده الديلمى فى مسند الفردوس ٣/ ٣٥٥ الحديث رقم (٥٠٧١) وقال: رواه أبو هريرة فتح البارى ٦/ ٤٤٠.

وابن كثير فى التفسير ١/ ١١٢ وقال: رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر.

وفى تفسير الجلالين ١/ ١٥.

﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ صفة ذلول.

﴿وَلا تَسْقِى الْحَرْثَ﴾ معطوف على (تثير) و (لا) مزيدة للتأكيد أى إن البقرة غير مذللة أى غير مسخرة لإثارة الأرض وكريها، ولا تسقى الحرث بأن تكون من النواضح.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن العمل، أو عن العيوب مخلصة.

﴿لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ أى لا لون فيها غير الصفرة فإن جلدها أصفر بتمامه حتى القرن والظلف.

﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أى بالبيان التام وبينت حقيقة الأمر ورفعت الشبهة بالكلية لأنهم عرفوا بالأوصاف أنها عجلة اليتيم وقصته: أنه كان شيخ صالح فى بنى إسرائيل وله امرأة صالحة وابن صغير وعجلة صفراء، فأتى الشيخ بعجلته إلى الغيضة فاستودعها الله لابنه فمات الشيخ فكبر الغلام ابن الشيخ فصار من العابدين يخدم ثلث الليل أمه، ويعبد الثلث لربه وينام الثلث فإذا أصبح يحتطب فيتصدق بالثلث وينفق على أمه بالثلث وعلى نفسه، وكبرت العجلة فى الغيضة، وصارت وحشية فقالت أم الغلام: يا بنى إن أباك قد وضع لك عجلة فى الغيضة فأت بها وبعها وانتفع به لكن إذا رأيت البقرة قل: يا إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ردها علىَّ فإنها وحشية، فراح الغلام فأبصرها، فدعا الله بالكلمات المذكورة فجاءت إلى الغلام فأخذ بعنقها يجرها فقالت: اركبنى يا غلام، قال: إن أمى ما أمرتنى بذلك، قالت: إن ركبتنى لم تقدر علىَّ لمخالفة الأم، اذهب أيها الغلام البار بأمه، إذا أشرت إلى الجبال لسارت معك ببركة البر بالأم، فجاء بها إلى أمه قالت: بعها بثلاثة دنانير، وكانت قيمة البواقر إذ ذاك ثلاثة دنانير، لكن كل من يشتريها يجىء بها إلى فذهب بها إلى السوق، فأرسل الله ملكًا ليرى ملائكته بر الغلام بأمه، فاشتراها الملك بثلاثة دنانير فقال الغلام: الشرط ذهابك إلى أمى، قال الملك: لك ستة لا تذهب بى إلى أمك، قال: أشاور أمى قالت: بعها بستة لكن جئ بالمشترى إلىّ، قال الملك: لك اثنا عشر لا تذهب بى إلى أمك، قال: أشاور أمى، قالت: يا ابنى المشترى ملك من ملائكة الله يختبرك فى برك لأمك فقل له: كيف تصنع بالبقرة، فجاء إليه فقال: احفظ البقرة يجئ إليك موسى عليه السلام وبنو إسرائيل ليشتروها منك، فبعها بملء مسكها ذهبًا.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ الفاء فصيحة، أى حصلوها فذبحوها.

﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها أو لخوف الفضيحة أو لتطويل الكلام وتكثير السؤال والجواب وعدم المقاربة للفعل فى وقت والذبح فى وقت آخر متأخر عنه فلا منافاة.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ هو أول القصة أخر عنها لتكثير التوبيخ على اليهود لأن ما سبق يدل على استحقاقهم بأمر نبيهم وعدم مبالاة لهم به، وعدم مسارعتهم للإساءة به وهذا يدل على وجود القتل والبدار.

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ والمراد بالتدارء الاختصام لأن التدافع لازم الاختصام فكنى به عنه أو حقيقة بأن طرح بعضهم القتل على بعض ودفع الآخر والبعض الآخر أيضًا طرح ودفع.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ أى مظهر.

﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مفعول مخرج وعمل لأنه حكاية مستقبل ماض كما أن ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حال ماضية.

وهذه الجملة معترضة بين المعطوفين.

﴿فَقُلْنَا﴾ معطوف على قتلتم.

﴿اضْرِبُوهُ﴾ أى الشخص أو الإنسان فلذا ذكر.

والمراد النفس المذكورة.

﴿بِبَعْضِهَا﴾ أى اللسان أو عضو آخر فضربوا بلسانها بعد ذبحها فحيى الميت وقعد، وأوداجه تشخب دمًا فقال: إن ابن عمى فلانًا قتلنى، ثم خر ميتًا.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ لأنه لا فضل بين ميت وميت، فلما قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الكل.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته دلائل القدرة وكان الله قادرًا على إحياء المقتول ابتدأ نفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل وبركة بر الوالدين وعلى التقرب عند الدعاء وعلى جعل المتقرب به أحسن كما أن عمر ﷺ ضحَّى بختية قيمتها ثلاث مائة دينار.

وعلى أن المؤثر هو الله والأسباب أمارات وغير ذلك من الفوائد.

وفيه حكمة عظيمة من الحكم ينبغى أن تعلم وتعمل بها وهى: أنه إشارة إلى

مقامات النفس فى السلوك وبيانه أن الله تعالى خلق الإنسان من التراب وأرسل إليه روحًا من عالم الأمر، كما قال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (الإسراء: ٨٥).

وجعل لكل من الجسد خادمًا يخدمه وحافظًا يحفظه، فخادم الجسد هى النفس البهيمية، أى الشهوة، وخادم الروح القلب فباشتهاء الطعام وأكله يترقى الجسد فى مراتب الشهوة وبملاحظة الآيات وتفكرها تترقى الروح فى مراتب القرب إلى الله تعالى كما قيل: [. . .][١]: لكن باشتغال الروح من أول سن الصبا للمشتهيات لتكميل الجسد الذى به كمال القلب أعرض التى هى معراج المؤمن وذكر رب العالمين عن ملاحظة الآيات والتفكر فيها فصار الإنسان فى جميع الأوقات حتى فى مناجاة ربه فى الصلاة التى هى معراج المؤمن وذكر رب العالمين مستغرقًا فى وجوه مشتهياته فيقوم إلى الصلاة، ويناجى ربه بلا شعور.

وقد قال رسول الله ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٢].

الأول مقام المشاهدة، والثانى مقام المراقبة، الإحسان فى الصلاة التى هى عماد الدين بسبب الغفلة التى هى موت القلب، لأن حياة القلب عبارة عن ملكة راسخة فى القلب إذا ذكر الله أو تليت آياته توجه إلى الله تعالى وانقطع عن غيره لقوة فيصير كأنه يداه ويناجيه فى المخاطبات، أو يراقب جناب كبريائه ويلاحظ عظمة جلاله فى تلاوة آياته وينكشف هذا المعنى بالإدمان والمداومة على الطاعات.

وهذه الحياة فى القلب إنما تحصل من الرياضة والمجاهدة فأشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى كيفية تلك الرياضة فى ضمن هذه القصة وبيانه: أنه وجد القلب قتيلاً بالغفلة

---

(١) ما بين المعقوفتين بيت شعر بالفارسية وغير واضح. . .

(٢) حديث: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**».

انظر: صحيح البخارى: ١/ ٢٧ الحديث رقم (٥٠) و ٤/ ١٧٩٣ الحديث رقم (٤٤٩٩) عن أبى هريرة، وصحيح مسلم ١/ ٣٦، ٣٩، ٤٠ الحديث رقم (٨، ٩، ١٠) عن أبى هريرة أيضًا، والترمذى ٥/ ٦/ ٢٦١٠ والنسائى ٨/ ٩٧/ ٤٩٩٠ وابن ماجه ١/ ٢٤/ ٦٣ ومسند أحمد بن حنبل: ١/ ٢٧، ٢٥، ٥٢، ٥١ وابن خزيمة ٤/ ٥/ ٢٢٤٤ وابن حبان ١/ ٣٧٥/ ١٥٩ والطبرانى فى الكبير: ١٢/ ٤٣٠ والبيهقى فى شعب الإيمان ٧/ ٣٤٠ وغير ذلك كثير.

فتدار النفس أى الشهوة والدنيا والشيطان فى هذا القتيل، فأمر الآن بأن تذبح بقرة الشهوة بسكين الرياضة بعد أن تم شبابه وبلغ أشده وخرجت بقرة النفيس من سن البكر ولم تدخل فى سن الفارض لأن الرياضة تعسر على الصبى والشيخ فصارت عوانًا بين ذلك، فصارت صفراء، أى حطت عليها سيما الصالحين من صفرة الوجوه ويبوسة الشفاه لكن صفرة شين وذلك إنما يكون عند تجرد الإنسان وعدم اشتغال بقرة النفس بإفادة أرض الدنيا بسبب التأهل بالاكساب المانعة عن الرياضة وعدم سقى حرث الأمال بماء الوجه والوجاهة لتحصيل الوظائف عند الناس.

فإذا ذبح الإنسان بقرة النفس البهيمية أى الشهوة بسكين الرياضة التى هى عبارة عن تقليل الطعام والكلام والمنام عندما ذكر من الشرائط والقيود وضرب القلب الميت، أى الغافل باللسان الذى هو لسان البقرة المعهودة بإدمان الذكر والتلاوة حيى القلب، لأن الذكر اللسانى يحيى القلب على ما هو المأثور فى الأخبار والمشاهد من الإبراد فعند ذلك إذا قام إلى الصلاة قام غير كسلان ولا غافل، ولا ساه، ولا لاه، فيدعو الله فيجيبه ويستكشف شبهته فيكشفها بل يكشف بلا استكشاف كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾.

أى عن الشبه وجميع المضائق ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾.

جعلنا الله من الواصلين إلى العين دون السامعين للخير. آمين.

مجلس في:

بيان سير موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة وما وقع من أمر التيه

ثمان آيات في سورة المائدة(١):

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المفسرون: لما استقر موسى - عليه السلام - وبنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون، أمر الله - تعالى - موسى - عليه السلام - بأن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة، وقال: إني كتبتها لكم دارًا وقرارًا، وإنها مسكن الأنبياء قبل وبعد، فاخرجوا من مصر وسيروا إليها وقاتلوا من كان فيها من الجبابرة الكنعانيين، وإني ناصركم.

---

(١) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ١٢).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٠ - ٢٦).

فخرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل برمتهم وساروا حتى قربوا منها، أمر موسى عليه السلام بأن يأخذوا نقباء شهداء على بنى إسرائيل ويأخذ على بنى إسرائيل ميثاق الجهاد وذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ على الجهاد، والميثاق هو العهد المؤكد بالإيمان.

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ من كل سبط نقيب وكانوا اثنى عشر سبطًا على عدد أبناء يعقوب عليه السلام فكان فى زمن موسى عليه السلام.

أولاد كل ابن ليعقوب عليه السلام سبطا.

وأسامى نقباء الأسباط مذكورة فى بعض التفاسير[1] وكان منهم يوشع بن نون فتى

(١) أسماء النقباء: أخذ موسى عليه السلام منهم اثنى عشر نقيبًا، اختارهم من الأسباط كفلاء على قومهم بما هم فيه على الوفاء بعهده وميثاقه، وأخذ من كل سبط منهم خيرهم وأوفاهم رجلا - يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ فسار بهم موسى إلى الأرض المقدسة بأمر الله، حتى إذا نزل التيه بين مصر والشام، وهى بلاد ليس فيها خمر ولا ظل، دعا موسى ربه حين آذاهم الحر فظلل عليهم بالغمام، ودعا لهم بالرزق فأنزل الله عليهم المن والسلوى، وأمر الله موسى فقال: أرسل رجالا يتحسسون إلى أرض كنعان التى وهبت لبنى إسرائيل، من كل سبط رجلا، فأرسل موسى الرءوس كلهم الذين فيهم، فبعث الله جل وعز من برية فاران بكلام الله، وهم رءوس بنى إسرائيل، وهذه أسماء الرهط الذين بعث الله جل ثناؤه من بنى إسرائيل إلى أرض الشام، فيما يذكر أهل التوراة ليجوسوها لبنى إسرائيل: من سبط روبيل: شامون بن زكور، ومن سبط شمعون: شافاط بن حرى، ومن سبط يهوذا: كالب بن يوفنا، ومن سبط أس: يجائل بن يوسف، ومن سبط يوسف وهو سبط أفرائيم: يوشع بن نون، ومن سبط بنيامين فلط بن رفون، ومن سبط زبالون: جدى بن سودى، ومن سبط منشا ابن يوسف: جدى بن سوسا، ومن سبط دان: حملائل بن جمل، ومن سبط أشر: ساتور بن ملكيل، ومن سبط نفتالى: نحى بمن وفسى، ومن سبط جاد: جولايل بن ميكى.

فهده أسماء الذين بعثهم موسى، عليه السلام، يتحسون له الأرض، ويومئذ سمى هوشع بن نون: يوشع بن نون، فأرسلهم وقال لهم: ارتفعوا قبل الشمس فارقوا الجبل وانظروا ما فى الأرض، وما الشعب الذى يسكنونه: أقوياء هم أم ضعفاء؟ أقليل هم أم كثير؟ وانظروا أرضهم التى يسكنون: أسمينة هى أم هزيلة؟ أذات شجر أم لا؟ اجتازوا واحملوا إلينا من ثمرة تلك الأرض، وكان ذلك فى أول ما أشجن بكر ثمرة العنب. انظر: تفسير الطبرى: تفسير الطبرى: سورة المائدة آية ١٢/ ص٤/ ٤٨٨.

موسى عـليه السلام من سـبط يوسف عليـه السلام وكالـب من يوقا من سبـط يهوذا، وعشرة آخرين من الأسباط العشرة الباقية.

والتقيب الذي ينقب أي: يفتش أحوال الناس ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي بالنصر إما في الدنيا وإما في الآخرة.

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي هم على الإيمان.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الصدقات النافلة ووجـوه البر وصلات الأرحام فهذه خمس شرائط.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي أزيل عنكم العقاب.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي أوصل إليكم الثواب.

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الاشتراط وإيضاح الحجة ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي الدين القويم ضلالاً لا شبهة فيه بخلاف من ضل قبل ذلك فإنه يجوز أن يعتذر بعدم البيان.

ثم إن موسى ـ عليـه السلام ـ أمر النقبـاء بأن يذهبـوا إلى مدينة الجبـارين: مدينة أريحا شرقي بيت الـمقدس ويتحسـسوا أحوالهم ويجيئـوا بأخبارهم فذهبـوا أي النقباء متنـكرين في صور الجـواسيس أو معلنـين في صور الرسل فـلاحظوا أحوال الجـبابرة وكانوا من أولاد كنعـان أبي نمرود، وكانوا مـتسلطين على الناس ببلاد الشـام، وكانوا رجالاً أقوياء على الحرب وكـانت أجسامهم عظامًا بالنسبـة إلى سائر الناس في زمانهم لسائر الأزمنة.

وأما ما يحكى من المـبالغة في طول قامـتهم الخارجة عن الاعتـدال الإنساني وما يحكى عن أمر عوج بن عنق مشهوراً بين الناس.

قال ابن كثير في تفسيره: كله من موضوعات اليهود الذين هم أكذب الناس.

فرجع النقباء إلى بني إسرائيل بعدما مكثوا أربعين ليلة.

فقال كـالب ويوشع: لا تخبروا إلى بني إسرائيل بما رأيتم من شـدة بطشهم وقوة أجسادهم لئلا يخيبوا، لكن أخبروا مـوسى عليه السلام ليرى لهم مصلحة فنكث النقباء عهودهم غير يوشع وكالب فأخبـروا أقوامهم وثبطهم عن الحرب وأجبنوهم، فلما سمع

موسى عليه السلام بذلك جمع بنى إسرائيل ووعظهم وذكرهم بآيام الله على ما قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أى اذكر الحادث والقصة إذ قال موسى لقومه بنى إسرائيل.

﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ﴾ متعلق وظرف لنعمة لأنها بمعنى الإنعام.

﴿فِيكُمْ أَنبِيَاءَ﴾ كثيرين لأن الجمع جمع كثرة والتنكير للتكثير، فقد أوحى إلى موسى عليه السلام بكثرة الأنبياء فى بنى إسرائيل بعد زمانه وقد سبقه بعضهم قبل موسى عليه السلام وبكثرة الأنبياء فيهم يستشرفون ويسترشدون.

وتلك نعمته ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أى فيكم من يملك فأسند حال البعض إلى الكل مجازًا لكن لم يسلك فى الأنبياء هذا المسلك لأن أمر النبوة خطير ولما خلصكم من أيدى القبط وأسرهم صرتم كالملوك أو كل من له دار واسعة، وفيها ماء جارية فهو ملك خصوصًا إذا كان له زوجة صالحة وخادم مستقيم، ومركب فارس.

ويشهد له قوله ﷺ: «من أصبح منكم آمنًا فى سربه، معافى فى جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له»(١) أى جمعت.

﴿وَآتَاكُم﴾ من الآيات المخصوصة مثل فلق البحر وغيره.

﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ فما موصولة مخصوصة أو هو على عمومه، والمراد بالعالمين عالمى زمانهم فلا يلزم التفضيل على أمة محمد ﷺ التى هى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ولما ذكر بنعمة الله صرح بالمقصود.

وقال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس وما حوله.

﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فى اللوح وقدرها لكم بدعوة إبراهيم عليه السلام.

---

(١) حديث: «من أصبح آمنا فى سربه...».

انظر: سنن الترمذى: ٤/ ٥٧٤ الحديث رقم (٢٣٤٦) وابن حبان فى صحيحه: ٢/ ٤٤٥/ ٦٧١ البخارى فى الأدب المفرد: ١/ ١١٢ الحديث رقم (٣٠٠) والطبرانى فى الأوسط ٢/ ٢٣٠ الحديث رقم (١٨٢٨) والبيهقى فى شعب الإيمان ٧/ ٢٩٤ الحديث رثم (١٠٣٦٢) وانظر أيضًا العجلونى فى كشف الخفاء: ٢/ ١٣٧٤ الحديث رقم (٢٣٧٧) وانظر: تخريج أحاديث الإحياء: ٣/ ١٣٥.

إذ روى أنه صعد جبل لبنان فأوحى الله تعالى إليه أن ما وقع عليه بصرك فهو مقدس وميراث لذريتك.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ راجعين إلى مصر، أو لا ترتدوا عن الدين.

﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ من سعادة الدارين.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا﴾ أى فى الأرض المقدسة.

﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أوالجبار من جبر بمعنى أجبر كل من يجبر الناس على مراده وهم الكنعانيون.

﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ إنا ضعفاء نقدر على مقاتلتهم ومقاومتهم.

﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بدعاء عليهم وإهلاكهم كما فعل بفرعون.

﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ أى يوشع وكالب.

﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويتقونه.

﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالثبات على الإيمان والتوفيق، هذه الجملة صفة أخرى لرجلان.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أى جاهدوهم وحاصروهم وادخلوا مدينتهم قهرًا.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ البتة بدلالة إن واسمية الجملة، وإنما بتا الأمر لقول موسى عليه السلام: كتب الله لكم، وقول النبى صدق وحق، أو لما شاهدا إعادة الله تعالى فى نصر موسى عليه السلام أو لما رأيا من ضعف قلوب الجبابرة وخوارهم وغاية خوفهم من بنى إسرائيل حيث قالا: أجسادهم قوية لمن قلوبهم ضعيفة.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ به مصدقين لوعده.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ أكدوا عدم الدخول بلن وأبدلوا من أبد ما داموا بدل البعض من الكل.

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ ظاهره العطف على فاعل اذهب، قيل: كانوا الحسمه يجوزون الذهاب على الله فكفروا.

وقيل: قالوه استخفافًا بالله ورسله فكفروا أيضًا.

وقيل: اذهبا بمعنى أريد القتال ففسقوا بالمخالفة لنبى الله.

﴿فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ غير راجعين إلى مصر بل ننتظر كما قال موسى عليه السلام.

﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي﴾ هارون عطفًا على نفس، أو فاعل لا أملك.

وأما الرجلان فلم يعتمد عليهما لما رأى من تلون قومه.

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ بالحكم لنا بما نستحق وعليهم بما يستحقون.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا﴾ أى الأرض المقدسة بسبب دعائك.

﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ مؤبدًا فلا يدخل أحد وإنما يدخلها أولادهم.

﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ﴾ أى يحيرون ويترددون.

﴿فِي الأَرْضِ﴾ فى أرض يقال لها دار التيه.

فاربعين ظرف ليتيهون هو الظاهر.

فندم موسى عليه السلام على دعائه وقال: يا رب أردت أخف منه، فقيل: ﴿فَلا تَأْسَ﴾ أى لا تحزن.

﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وقد نسميهم فاسقين.

روى أن موسى وهارون عليهما السلام سجدا ودعى موسى وأمَّن هارون بالدعاء السابق وخرق الرجلان لباسهما وقالا: يا بنى إسرائيل لا تخالفوا نبيكم إن الله ناصركم، فتفرق بنو إسرائيل من مجلس موسى عليه السلام ورجعوا فى فورهم إلى مصر فلم يبق إلا موسى وهارون عليهما السلام والرجلان فراح بنو إسرائيل إلى الماء وساقوا مطاياهم واجتهدوا فى السير غاية الجهد خوفًا من الجبابرة الكنعانيين.

فلما أمسوا وجدوا أنفسهم عند موسى عليه السلام فى مكانهم الأول فتحيروا وفى الغد جدوا فى الارتحال والسير حتى أمسوا وجدوا أنفسهم عند موسى فى مكانهم الأول وكذا وكذا فى أيام متعددة فأيسوا من النجاة وعلموا أن الله عذبهم بالحبس فى ستة فراسخ، أو فى تسعة فراسخ وتيقنوا عقوبة الله، فعند ذلك سلموا أنفسهم على الحبس، وانقادوا لموسى عليه السلام فكان الحبس عليهم عقوبة، ولموسى وهارون وللرجلين نعمة فبقوا أربعين سنة فى ذلك المكان.

مجلس في:

بيان الآيات الحاصلة لموسى عليه السلام في التيه

في ثلاث آيات من سورة الأعراف(1):

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فهذا مجلس في بيان الآيات الحاصلة لموسى عليه السلام في التيه في ثلاث آيات في سورة الأعراف، قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أي: صيّرنا قوم موسى عليه السلام.

﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مفعول ثان.

﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من اثنتي عشرة، لا تمييز، لأن تمييز ما فوق العشرة إلى المائة مفرد منصوب، فيكون كل واحدة من اثنتي عشرة سبطًا على أن السبط بمعنى القبيلة لا ولد الولد فلذا أنّث عشرة.

قال في القاموس:

السبط ولد الولد، والقبيلة من اليهود.

وقيل: تمييز بناء على أن السبط ليس بمعنى القبيلة فيكون كل واحدة من اثنتي عشرة أسباطًا أي قبيلة لا سبطًا فيكون الجمع أي أسباطًا بمعنى المفرد أي قبيلة وهو مختار الزمخشري.

---

(1) ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٠ - ١٦٢).

﴿أُمَمًا﴾ بدل من (أسباط) فيكون كل واحد من اثنتى عشرة أمة أى جماعة كثيفة.

والحاصل أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بنى إسرائيل اثنتى عشرة فرقة على عدد أبناء يعقوب عليه السلام ليسهل عليه أمر السقى وسائر الأمور.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ لما عطشوا فى التيه.

﴿أَنِ اضْرِب﴾ أن مفسّرة لما فى أوحينا من معنى القول.

﴿بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وكان حجرًا معنا مكعبًا على مقدار رأس إنسان كان يحمله موسى عليه السلام وسبب ذلك أن موسى عليه السلام كان ستّيرًا حبيسًا لا يكشف جسده عند الناس وكان يغتسل فى الخلوة وكان بنو إسرائيل يغتسلون فى المجامع كالحمامات ينظر بعضهم إلى جسد بعض.

وكان بنو إسرائيل يقولون: إن فى جسد موسى عيبًا كالبرص، ولذا يتستر، فاغتسل موسى ذات يوم واضعًا ثيابه على حجر، فلما فرغ من غسله أقبل على ثوبه فَفرَّ الحجر بثوبه فأخذ عصاه واتبع أثر الحجر قائلاً: ثوبى يا حجر.

والظاهر أنه كان مستور العورة حتى أتى الحجر على ملأ بنى إسرائيل فرأوا جسد موسى عليه السلام أطيب ما يكون، فوقف الحجر، فأخذ ثوبه فلبس وضرب الحجر ضربات أثرت فيه.

وجاء جبريل عليه السلام قال: احمل الحجر فإن لله تعالى فيه قدرة، ولك فيه معجزة وذلك قوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ أى بعيب فى جسده ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ أى من مضمون مقولتهم ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب: ٦٩) أى ذا قرب.

فلما استسقى موسى عليه السلام لقومه فى التيه قيل: اضرب بعصاك الحجر المعهودة فضرب: ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ فالفاء فصيحة والنكتة فى حذف (فضرب) الإشارة إلى أن موسى عليه السلام لما امتثل الأمر بسرعة كان كأن الانبجاس تفرع على الوحى فى غير الضرب، وإلى أن لا تأثير فى الأسباب فكان الضرب لم يكن والانبجاس والانفجار من وأد واحد أى «خرجت منه» أى من الحجر.

﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد الأسباط من كل وجه للحجر ثلاث عيون سوى الفوق والتحت فإنه لا ينفجر منهما شىء.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أى كل سبط.

﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ فتخرج اثنتا عشرة عينًا يأخذونها فى جداول الحياض يستسقون منها.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ فى التيه لدفع حر الشمس لأنه ما بقى لهم كن ولا ستر يواريهم.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ أى على قوم موسى عليه السلام فى التيه لدفع جوعهم.

﴿الْمَنَّ﴾ هو الترنجبين كان ينزل كل يوم سوى من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس مثل الثلج فيأخذ كل واحد صاعًا.

﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ قيل: هو السمانى.

وقيل: طائر آخر يشبهه كان الجنوب يجيء كل يوم بالسلوى مقطوعة الرءوس ممعطة الشعور منظفة البطون، مطبوخة فينزل ميلاً فى ميل.

فأخذ كل واحد قدر ما يكفيه وكانوا يأخذون حصة السبت يوم الجمعة.

﴿كُلُوا﴾ أى قلنا لهم كلوا.

﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ والطيب هو اللذيذ المشتهى أو الحلال الذى لا شبهة فيه.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أى ظلموا بالإدخال لأنهم كانوا مأمورين بترك الادخار سوى يوم السبت فغلب عليهم الحرص فادخر بعضهم أواخر التيه، فظلموا أنفسهم فانقطع المن والسلوى بقول الله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بنقص النعمة المذكورة.

قيل: لما مر سنى التيه تسع وثلاثون سنة جاء أجل هارون عليه السلام فقال يومًا لموسى عليه السلام: سر معى نحو هذا الجبل، لجبل هناك، وكان موسى وهارون ويوشع وكاب عليهم السلام غير محبوسين فى التيه يخرجون حيث أرادوا لكن كان حضورهم مع بنى إسرائيل فى التيه لأجل الإرشاد والتبليغ فسار موسى مع هارون إلى صوب الجبل، فرأيا فى الجبل شجرة مظلة تحتها سرير وعليه كل الروائح والبسط، فقال هارون: يا موسى أريد أن أنام على السرير لكن أخاف من صاحبه، قال موسى عليه السلام: نم أنا أجيبه، فنام هارون فأخذه الموت فذهبت به الملائكة على السرير إلى الجنة، فبكى موسى عليه السلام ثم جاء إلى القوم فسألوه عن هارون قال: مات،

قالوا: قتله موسى لحب الناس إياه فلما سمعه موسى دعا الله فأرسل سرير هارون إلى الناس فرأوه على السرير وكلمهم بأنه مات وما قتله أحد، ثم دفنته الملائكة ولم يعلم قبره، وبعد سنة خرج موسى عليه السلام من التيه وحده تسير فرأى الملائكة فى صورة الآدميين يحفرون قبرًا لم ير مثله في النظافة والتطيب بالروائح وفرش البسط فقال موسى عليه السلام: لمن هذا القبر؟ قالوا: لعبدٍ كريم على الله، قال موسى عليه السلام: يا ليته كان لى، قالوا: أتريد أن يكون هذا القبر لك؟ قال عليه السلام: أريد، فقالوا: اضطجع فيه، فاضطجع فمات إلى روح وريحان فدفنته الملائكة ولم يظهر قبره ثم بعد ثلاثة أشهر ثم أمر التيه ومات المتخلفون كلهم وما بقى غير يوشع وكالب ونشأ أولاد بنى إسرائيل وكبروا وكان موسى استخلف عليهم يوشع عند خروجه إلى قبره فسار يوشع عليه السلام بالشبان من بنى إسرائيل، فنزلوا على قرية الجبابرة ببيت المقدس، وحاصروهم ستة أشهر، ثم بعد ذلك نقبوا السور ودخلوا فى بلد الجبارين، وقاتلوهم وهزموهم وكان ذلك يوم الجمعة، فلما قرب غروب الشمس ودخول ليلة السبت قال يوشع عليه السلام: اللهم رد الشمس حتى نفرغ من القتال فرد الله الشمس وزاد فى النهار حتى فرغوا من أمر الجبابرة فقتلوهم وأسروهم فحصل الفتح.

ثم بعد ذلك أمر الله تعالى يوشع عليه السلام بأوامر حيث قال:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا﴾ أى على لسان يوشع عليه السلام.

﴿هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس أى: اجعلوها دار سكنى لا ترتحلوا بعدها.

﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أى من ثمرات القرية.

﴿حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا﴾ عند الدخول من بابها، وكان للقرية سبعة أبواب أمروا أن يدخلوا من باب واحد وهو باب الحطة.

﴿حِطَّةٌ﴾ أى مسألتنا منك يا رب حطة، أى أن تحط ذنوبنا أى أن تغفر، والحطة من الحط كالجلسة من الجلوس فقولهم هذا استغفار وخضوع باللسان.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ المذكور.

﴿سُجَّدًا﴾ أى خاضعين متطائعين وهذا هو الخضوع بالإنكار فأمروا عند الدخول بالخضوع اللسانى والخضوع الأركانى البدنى شكرًا لنعمة الفتح كما كان أصحاب نبينا ﷺ يصلون صلاة الفتح عند الفتوح.

وقد صلى سعد بن أبى وقاص[١] ثمانى ركعات عند فتح إيوان كسرى.

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ وهذا للمخطئين.

﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ استئناف جوابًا عن سؤال ماذا للمحسنين غير المخطئين، فأجيب بأن لهم زيادة الثواب.

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى من بنى إسرائيل ما قيل:

﴿ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ بأن قالوا، عند الدخول عزورًا بالفتح وطربًا وفرحًا هنطا سمقانا أى حطة حمراء، فلم يسألوا من الله الحطة وغفر الذنوب بل سألوا من الحنطة ولم يدخلوا الباب سجدًا أى خاضعين، بل دخلوا رافعى رءوسهم كبرًا وخيلاء واغترارًا بقوتهم وشوكتهم ناسين لنعمة الله تعالى.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا ﴾ هو ما يعاف عنه الطبع وهو الطاعون.

﴿ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى مقدرًا من جهتها.

﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ بالتبديل، فمات عنهم فى ساعة سبعون ألفًا، فندموا وتابوا، ثم جمع يوشع عليه السلام الغنائم فى حظيرة لأنها كانت مكروهة عليهم كما مر، فلم تنزل النار وكانت النار تنزل على الغنائم فتحرق.

فأوحى الله تعالى إلى يوشع عليه السلام أن فيهم غلولاً، فأمر يوشع بالنقباء الاثنى عشر أن يبايعوه فالتصق يد رجل بيده فقال: إن الغلول فى سبطك فجاء هذا السبط فبايعوه فالتصق يد رجل بيده فجاء هذا الرجل برأس ثور من ذهب مكلل بالجواهر

---

(١) (سعد بن أبى وقاص) واسمه مالك بن أهيب، ويقال: وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهرى، أبو إسحاق، أسلم قديمًا وهاجر قبل رسول الله ﷺ، وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، روى عن النبى ﷺ وعن خولة بنت حكيم، وروى عنه أولاده: إبراهيم، وعامر، وعمر، ومحمد، ومصعب، وعائشة ـ أم المؤمنين ـ وابن عباس وابن عمر وجابر بن سمرة، وغيرهم، وكان مجاب الدعوة مشهورًا بذلك، وكان أحد الفرسان من قريش، الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ فى مغازيه، وهو الذى كوَّف الكوفة، وتولى قتال فارس، وفتح الله على يديه القادسية، وكان أميرًا على الكوفة لعمر، ثم عزله، ثم أعاده، ثم عزله، وقال فى مرضه: إن وليها سعد فذاك، وإلا فليستعن به الوالى، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة. ومناقبه كثيرة جدا، مات رضي الله عنه سنة ٥١ هـ. انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٣/ ٤١٩، وتقريب التهذيب: ١/ ٢٣٢، والمزى فى تهذيب الكمال ١٠/ ٣٠٩ الترجمة رقم (٢٢٢٩).

فجعل الـذهب مع الرجل على الغنائم ثم جاءت المار فأحـرقتها، ثم فـتح يوشع عليه السلام جميع بلاد الشام على التدريج وقتل أحدًا وثلاثين من الملوك وأنزل الأسباط فى بلاد الشام وصـار نبيًا فيـهم سبعًـا وعشرين سنة، ثم توفـاه الله تعالى طيبًا واسـتخلف عليهم كـالب بن يوقا واسـتنبأه الله تعالى ثم لمـا مات عليه السـلام استخـلف عليهم يوفنادس وكان جـميلاً على مثـال يوسف عليه السلام وكـان الناس يجيئـون للنظر إليه فقال: يا رب غير حسنى مع سلامة الأعضاء لئلا يفتن بى الناس، فقبل الله تعالى دعاءه فغير جماله بالجدرى مع سلامة الحواس، فبقى فيهم ما شاء الله تعالى ثم مات، ووقع الهرج والمرج فى بنى إسرائيل وعظمت فيهم الأحداث وشاعت فيهم المنكرات إلى أن بعث الله تعالى حزقيل عليه السلام.

تمت عرائس موسى عليه السلام عشرين مجلسًا.

والله أعلم، الابتداء فى سلخ محرم يوم الجمعة من سنة إحدى وتسعين وألف.

والانتهاء يوم الجمعة الخامس عشر فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

مجلس فى:

بيان أحوال حزقيل بن بوزى وهو «ذو الكفل» عليه السلام - وهو من المرسلين

فى ثلاث آيات من سورة البقرة[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على التوفيق ونسأله هداية الطريق أما بعد...

فهذا مجلس فى بيان أحوال حزقيل بن بوزى، وهو ذو الكفل، عليه السلام، وهو من المرسلين فى ثلاث آيات من سورة البقرة.

ويقال له: ابن العجوز، لأن أمه عجوز سألت من الله ولدًا فوهب لها فى كبر سنها[2].

وقد اتفق أن اليهود حبست سبعين نبيًا للقتل فتكفل للأنبياء وأخرجهم من السجن ثم قال: اهربوا وامضوا حيث شئتم، قالوا: نخاف أن تقتلك اليهود، قال: قتلهم لى خير من قتلهم سبعين نبيًا، فهرب الأنبياء وتفرقوا.

ثم بعد ذلك قالت اليهود لحزقيل: أين الأنبياء؟.

---

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٣ - ٢٤٥).

(٢) أخرج ابن جرير عن وهب بن منبّه، إن كالب بن يوقنا لما قبضه الله بعد يوشع خلف فى بنى إسرائيل «حزقيل بن بوزى» وهو ابن العجوز لأنها سألت الله تعالى الولد، وقد كبرت فوهبه لها، وهو الذى دعا للقوم الذين ذكر الله فى كتابه فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ انظر: السيوطى: الدر المنثور ١/ ٧٤٣.

قال: لا أعرف مضوا حيث شاءوا، فهمُّوا بقتل حزقيل عليه السلام فأنجاه الله تعالى من شرهم، فقيل له: ذو الكفل، لكفالته للأنبياء.

ثم بعد ذلك كان فى بنى إسرائيل نبى يحكم بينهم فأصابه الكبر فجمع بنى إسرائيل فقال: من تكفل لى بثلاث خصال: يصوم النهار لا يفطر، ويقوم الليل لا يفتر، ويقضى بين الناس ولا يغضب، فإنى أستخلفه فقال حزقيل: أنا، ثم تفرق الناس وفى غد كذلك وبعد غد كذلك، ثم استخلفه النبى فقام بالأمر ووفى بالعهد سنين فكان لا يأكل إلا وقت العشاء ولا ينام إلا وقت القيلولة ثم إن الشيطان أتاه وقت القيلولة فدق عليه الباب فخرج حزقيل عليه السلام فرأى شيخًا على الباب فقال إبليس: شيخ ضعيف لى على قوم أشداء خصام دين لا يعطوننى فاقض لى فجلس حزقيل مجلس الحكم فذهب الشيخ ليجىء بالخصوم فلم يجئ وذهب وقت القيلولة ثم فى اليوم الثانى عند القيلولة دق الشيخ اللعين الباب فخرج حزقيل، فقال: إن خصومى قوم شداد إذا علموا جلوسك للحكم اعترفوا وإذا قمت جحدوا حقى فالآن أجىء بهم فاقض بيننا بالحق، فجلس حزقيل عليه السلام للحكم، وانتظر فغاب اللعين حتى ذهب وقت القيلولة، ففى اليوم الثالث قال حزقيل لبوابه: لا تدع أحدًا يدق علىّ الباب، فجاء اللعين فمنعه البواب فدخل من الكوة على حزقيل فدق الباب من داخل فقال حزقيل: يا بواب من يدق؟ قال: ليس الدق من قبلى فانظر من فى الدار فنظر فإذا الباب مغلق والشيخ اللعين فعرف الشيطان فقال اللعين: أعجزتنى وأعييتنى وما قدرت على إغضابك فلا أجىء إليك أبدًا.

فقيل له عنده: ذو الكفل، أيضًا لذلك لأنه تكفل بالخصال الثلاث فوفى بها فجعله الله نبيًا مرسلاً.

فتوطن فى سبط من أسباط بنى إسرائيل يعلمهم ويرشدهم.

ثم بعد ذلك ظهر عدو لبنى إسرائيل من الكفار فأمرهم حزقيل عليه السلام بالغزو والجهاد فخرجوا وعسكروا وبعد ذلك جبنوا فتعللو فقالوا: يا نبى الله إن بأرض العدو طاعونًا فلا نذهب إليها إلا بعد سكونه، فرجعوا إلى بلادهم فدعا حزقيل عليه السلام فقال: يا رب إبراهيم واسحاق ويعقوب وإله موسى عليهم السلام أرهم فى أنفسهم آية، فوقع الطاعون فيهم وكثر الموتى، ثم هربوا جميعًا وخرجوا من ديارهم، فلما نزلوا فى

واد أفسح وناموا أرسل الله تعالى ملكين أحدهما من أعلى الوادى والآخر من أسفل الوادى فقالا: موتوا بإذن الله تعالى فماتوا ميتة رجل واحد، وماتت دوابهم وكانوا سبعين ألفًا وجاء أهالى القرى القريبة منهم فعجزوا عن دفنهم فجعلوا عليهم حفرة ومر عليهم ستون ثم بعد ذلك مر عليهم حزقيل عليه السلام فنظر إليهم وقد عريت عظامهم وتفرقت، فقال: يا رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإله موسى عليهم السلام: إن هؤلاء كانوا يسبحونك ويقدسونك وقد بقيت وحيدًا فقال الله تعالى: ناد فيم يقوموا، فقال حزقيل عليه السلام: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجمعى، فإذا هو بالعظام يطير بعضها إلى بعض فاجتمعت، ثم قال: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تكسى لحمًا وعصبًا وجلدًا فصارت كذلك، ثم قال: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجعى إلى أجسادك فقاموا قائلين: «سبحانك اللهم وبحمدك» فعاشوا إلى آجالهم ولم يذهب ريح الموت عنهم، بل بقى فى نسلهم.

قال العلماء: فذلك الموت كان عقوبة لهم ولم يكن موت الأجل فلذا حسوا.

وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للتقرير أى الحمل على الإقرار بمدخول النفى، أى الرؤية وهى بصرية فتضمن النظر فلذا جىء بإلى بعده.

وفائدة التضمين أن النظر فعل اختيارى وهو تقليب الحدقة نحو الشىء للأبصار والإبصار بعده ضرورى، والمراد من التقرير التعجب والتوبيخ على الغفلة وهو إنما يكون على الفعل الاختيارى.

والمقصود: ألم تسمع وإنما جىء بصيغة الرؤية إشعارًا بأن تلك القصة قد صارت بسبب الشهرة والشيوع كالبصر المتطور إليه.

والخطاب لكل واحد، وقد يخاطب به من لم يره ولم يسمع للإشعار بأنه ينبغى لكل أحد أن يسمع القصة ويتعجب منها.

فالمعنى: ألم تسمع أيها العاقل هذه القصة سماعًا كالرؤية لتعجب منها وتعتبر بها.

وقيل: إن الرؤية علمية وكلمة «إلى» لتضمن الانتهاء أى لم ينته علمك بالسماع من أهل العلم.

﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ من قوم حزقيل عليه السلام وهم بالشام وكانوا سبطًا من أسباط بنى إسرائيل.

نقل هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما والكلبى وابن مقاتل، وهلال بن يسار[1]، والسدى فى رواية عنه.

وما اتفق عليه أكثر المفسرين من أنهم أهل «داوردان» قرية قرب واسط.

فيرد عليه أن بنى إسرائيل لم يكونوا حينئذ ببابل وإنما صاروا إليه زمن بخت نصر، بعد حزقيل بقريب من ألف سنة، فيلزم أن تكون هذه القصة غير واردة على بنى إسرائيل.

وهذا وإن جاز لكن المذكور من السلف كما مر أنها واردة على بنى إسرائيل فاخترنا قول السلف، الله أعلم.

﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ يعنى سبعين ألفًا، وقيل: أربعين ألفًا، وقيل: ثلاثين، والألوف جمع كثرة للألف وتنكيرها أيضًا للتكثير فاعتبار الأكثر أولى.

وما روى من الأعداد القليلة من عشرة آلاف وما دونها مخالف لظاهر القرآن.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أى الطاعون.

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أى ملائكته، ففى الإسناد مجاز والمعتبر عند المعتبرين أن لا قول ثمة بل المقصود تمثيل سرعة نفاذ قدرته وإرادته وتأثيرهما فى موتهم بسرعة إطاعة المأمورين المطيعين بقول الأمر المطاع كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل: ٤٠).

فماتوا جميعًا ميتة رجل وبقوا سنين وقيل: ثمانية أيام.

﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بدعاء حزقيل عليه السلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم.

﴿عَلَى النَّاسِ﴾ على السامعين والمسموعين فأحياهم الله تعالى ليعتبروا ويستبصروا

---

(١) **هلال بن يسار**: هو: هلال بن زيد بن يسار بن بولا البصرى، أبو عقال، مولى النبى صلى الله عليه وسلم، ويقال: مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، سكن عسقلان، روى عن أنس بن مالك، وروى عنه: إبراهيم بن سويد بن حيان، وداود بن عجلان، وأبو صدقة صخر بن صدقة اليمامى، قال البخارى: فى حديثه مناكير، وقال النسائى وأبو حاتم: منكر الحديث، زاد النسائى: ليس بثقة، وذكر له أبو أحمد بن عدى أحاديث، ثم قال: وأبو عقال هذا عامة أحاديثه ما ذكرت وهذه الأحاديث غير محفوظة روى له ابن ماجه حديثًا واحدًا فى فضل الطواف فى المطر.
انظر: المزى: تهذيب الكمال: ٣٠/ ٣٣٤ الترجمة رقم (٦٦١٨).

ويستكملوا آجالهم وقص أحوالهم ليعتبر السامعون ويعلموا أن الحذر لا يغنى عن القدر فلا يجبنوا على قتال الكفار لكن آخذين حذرهم.

• ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى: لا يعتبرون به ولا يشكرونه حق شكره.

وروى أن عمر ﷺ خرج إلى الشام فلما كان بسرغ[١] موضع قريب منه استقبله أمراء الأجناد أبو عبيدة وأصحابه وأخبروه أن بالشام طاعونًا فسأل عن الصحابة هل عندكم علمه، فأخبره عبد الرحمن بن عوف ﷺ أنى سمعت رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به ـ أى الطاعون ـ بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه»[٢].

فرجع أمير المؤمنين إلى المدينة فصار امتثاله لأمر الرسول ﷺ خيرًا له من فتح جميع الدنيا، ﷺ.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»[٣] رواه البخارى.

وعن أبى هريرة أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا هامة، ولا صفر» فقال أعرابى: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها، فقال رسول الله ﷺ (فمن أعدى الأول)[٤] رواه البخارى.

---

(١) (سرغ): موضع أول الحجاز وآخر الشام. انظر: معجم البلدان ٣/ ٢١٢.

(٢) حديث: «**إذا سمعتم به ـ أى: بالطاعون ـ بأرض فلا تقدموا عليه...**» ورد فى الدر المنثور أنه قال: أخرجه الإمام أحمد، والإمام البخارى، والإمام مسلم، وأبو داود، والنسائى كلهم عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ انظر: السيوطى، الدر المنثور ١/ ٧٤٤.

(٣) حديث: «**لا عدوى ولا طيرة...**» أورده السيوطى فى جامع الأحاديث قال: رواه الإمام أحمد ابن حنبل، والبخارى عن أبى هريرة ﷺ، انظر: السيوطى جامع الأحاديث الحديث رقم (٢٦١٦٨) ٧/ ٣٧٣.

(٤) حديث: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة...**» رواه أحمد بن حنبل، وابن ماجه عن ابن عمر ﷺ.

انظر: السيوطى: جامع الأحاديث ٣/ ٣٧٣ الحديث رقم (٢٦١٦٧) وانظر أيضًا الحديث رقم (٢٦١٨٦) ٧/ ٣٧٦ وفيه رواه الطبرانى، وأبو نعيم فى الحلية ومسند الفردس وابن عساكر فى التاريخ والشيرازى فى الألقاب، كلهم عن عمير بن سعد الأنصارى، وما له غيره حديث صحيح.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا هامة، ولا غول، ولا صفر»[(١)] رواه مسلم.

وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: (كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبى ﷺ: إنا قد بايعناك فارجع»[(٢)] رواه مسلم.

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم فوضعها معه فى القصعة فقال: «كل ثقة بالله وتوكل عليه»[(٣)].

رواه ابن ماجه.

قال النوريشتى: العدوى هنا مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره.

يقال: أعدى فلان فلانًا من خلقه أوفى علة به وذلك على ما يذهب إليه المتطببة فى علل سبع: الجذام، والجرب، والجدرى، والحصبة، والبخر، والرمد، والأمراض الوبائية.

وقد اختلف العلماء فى التأويل فمنهم من يقول: بأن المراد منه نفى ذلك وإبطاله على ما يدل عليه ظاهر الحديث والقرائن المسوقة على العدوى وهم الأكثرون ومنهم من يرى أنه لم يرد إبطالها فقد قال ﷺ: (وفر من المجذوم كما تفر من الأسد)[(٤)].

ألا لا يوردن ذو عاهة على مصح، وإنما أراد بذلك نفى ما كان يعتقده أصحاب

---

(١) حديث: «**لا عدوى، ولا هامة، ولا غول، ولا صفر**» وفى رواية (ولا نوء) ورواه أبو داود عن أبى هريرة، رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ورواه الإمام مسلم فى صحيحه عن (جابر بن عبد الله ﷺ) انظر: السيوطى: جامع الأحاديث ٧/ ٣٧٣ الحديث رقم (٢٦١٦٠).
أمّا حديث (ولا نوء) فهو رقم (٧٢/ ٢٦) ٧/ ٣٧٤

(٢) حديث: «**كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم...**».
انظر: كنز العمال: ١٠/ ٣٠٦ الحديث رقم (٢٨٣٣٨) و ١٠/ ١٧٢ الحديث رقم (٢٨٥٠٦) ومشكاة المصابيح ٢/ ٥٣٧ الحديث رقم (٤٥٨١) وابن ماجه ٢/ ٢٧٢ الحديث (٢٨٥٥).

(٣) حديث: «عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم...».
انظر: كنز العمال: ١٠/ ١٧٢ الحديث رقم (٢٨٥٠٥) ومشكاة المصابيح ٢/ ٥٣٨ الحديث ٤٥٧٥.
وانظر ضعيف أبى داود: ١/ ٣٨٨ الحديث (٨٤٧) ضعيف الضعيفة ١١٤٤ ضعيف الجامع الصغير ٤١٩٥، ضعيف الترمذى ١٨٩٣/ ٣٠٧ ضعيف ابن ماجه ٣٥٤٢/ ٧٧٦.

(٤) تقدم تخريجه أول المجلس.

الطبيعة فإنهم كانوا يرون أن العلل المعـدية مؤثرة لا محالة فأعلمهم بقوله هذا أن ليس الأمر على ما يتوهمون، بل هو متعلق بالمشيئة إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن.

ويشير إلى هذا المعنى قوله ﷺ : (فمن أعدى الأول).

أى إن كنتم ترون أن السبب فى ذلك هو التعدية لا غير فمن أعدى الأول.

وبين بقولـه: «وفر من المجـذوم» وبقوله: «لا يوردن ذو عاهـة على مصح». أن مدناة ذلك من أسباب العلـة فليتقه اتقاءه من الجدار المائل، والسفينة المعيوبة.

وقد رد الفرقة الأولى على الثانية فى استدلالهـم بالحديثين أن النهى فيها إنما جاء شفقة على مباشر أحد الأمرين فيصيـبه علة فى نفسه أو عاهة فى إبل فيعتقد أن العدوى حق.

قال: وأرى القول الثانى أولى التأويلين لما فـيها من التوفيق بين الأحاديث الواردة فيه، ولأن القول الأول يفضى إلى تعطيل الأصول الطبـيعية ولم يرد الشرع بتعطيلها بل ورد بإثباتها والعبـرة بها على وجه لا يناقض أصول التوحيد ولا مناقـضة فى القول بها على الوجه الذى ذكرناه.

وأما استدلالهم بالقرائن المسوقة عليـها فإنا قد وجدنا الشارع يجمع فى النهى بين ما هو حرام وبين ما هو مكروه وبين ما ينهى عنه لمعنى وبيـن ما ينهى عنه لمعان كثيرة ويدل على صحة ما ذكرنا قوله ﷺ للمجذوم المبايع: قد بايعناك فارجع.

وفى حديث شريد بن سـويد وهو مذكور بعد، وقوله ﷺ للمـجذوم الذى أخذ بيده، فوضعها معه فى القصـعة: كل ثقة بالله وتوكلاً عليه، ولا سبيل إلى التوفيق بين هذين الحديثين إلا من هذا الوجه يبين بالأول التـوقى من أسباب التلف وبالثانى التوكل على الله تعالى فى متاركـة الأسباب ليثبت بالأول التعرض للأسباب وهـو سببه وبالثانى ترك الأسباب وهو حال المتوكل.

قوله ﷺ : «ولا طيرة» الطيـر بكسر الطاء وفتح الياء وقـد يسكن، وهى التشاؤم بالشىء، قوله ﷺ «ولا هامـة» قال أبو داود فى سننه: سـألت محمـد بن راشد عن قوله: «ولا هامة» قال: كـان أهل الجاهلية يقولون: ليس أحد يمـوت فيدفن إلا خرج من قبره هامة.

قال النووى: هى بتخفيف الميم على المشهور.

وقيل: بتشديدها، وفيها تأويلان:

أحدهما: أن العرب كانت تتشاءم بها وهى من طير الليل، وقيل: هى البومة قالوا: كانت إذا سقطت على دار أحدهم فيراها ناعية له نفسه أو بعض أهله، وهو تفسير مالك.

وثانيهما: كانت تعتقد أن عظام الميت ـ وقيل: روحه ـ تنقلب هامة تطير.

وهذا تفسير أكثر العلماء وهو المشهور.

ويجوز أن يكون المراد النوعين معًا وإنهما باطلان.

قوله ﷺ «ولا صفر».

قال أبو داود: سألت محمد بن راشد عنه قال: وكانوا يتشاءمون بدخول صفر فقال ﷺ «لا صفر».

قال النووى: قيل: كانت العرب تعتقد أن فى البطن دابة تهيج عند الجوع، وربما قتلت صاحبها، فكانت تراها أعدى من الجرب.

وهذا التفسير هو الصحيح وبه قال مطرف، وابن وهب وأبو عبيدة وغيرهم.

وقد ذكره مسلم عن جابر رضي الله عنه راوى الحديث فتعين اعتماده.

عن يحيى بن عبد الله بن بجير قال: أخبرنى من سمع فروة بن مُسَيْك[1] يقول:

---

(١) **(فروة بن مسيك)** ويقال: فروة بن مسيكة ـ ومسيك أكثر ـ ابن الحارث بن سلمة بن الحارث بن كريب الغطيفى ثم المرادى، أصله من اليمن، قدم على رسول الله ﷺ فى سنة تسع فأسلم، روى عن النبى ﷺ روى عنه البراء بن عبد الرحمن وأبو هانئ سعيد بن أبيض بن حمال المأربى وعامر الشعبى، عن فروة بن مسيك الغطيفى قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم؟ قال: «بلى» ثم بدا لى فقلت: يا رسول الله لا بل أهل سبأ، فهم أعز وأسد قوة، فأمرنى رسول الله ﷺ وأذن فى قتالهم، فلما خرجت من عنده أنزل الله فى سبأ ما أنزل، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل الغطيفى؟» فأرسل إلى منزلى فوجدنى قد سرت فردنى، فلما أتيت رسول الله ﷺ وجدته قاعدًا ومعه أصحابه، قال: فقال: «بل ادع القوم، فمن أجاب فاقبل منه، ومن لم يجب فلا تعجل عليه حتى تحدث إلىَّ» قال: فقال رجل من القوم: يا رسول الله أخبرنا عن سبأ، أرض هى أم امرأة؟ قال: «ليست بأرض ولا امرأة، ولكنه ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة».

انظر المزى: تهذيب الكمال: ٢٣/ ١٧٦ الترجمة رقم (٤٧٢٠) وانظر: الاستيعاب ١/ ٣٩٠ وأسد الغابة ١/ ٨٩٦، والإصابة ٥/ ٣٦٨ الترجمة رقم (٦٩٧٥).

قلت: يا رسول الله، عندنا أرض يقال لها: أبين وهى أرض ريعنا وميرتنا وإن وباءها شديد، فقال: دعها عنك، فإن من القرف التلف»(١).

رواه أبو داود.

قال فى النهاية: أبين بوزن أحمر قرية إلى جانب البحر ناحية اليمن.

وقيل: اسم مدينة العدن.

والريع: هو الزرع هو الحصب.

والميرة: الطعام المجلوب.

والقرف: ملابسة الداء ومداناة المرض.

والتلف: الهلاك.

قيل: ليس هذا من باب العدوى وإنما هو من باب الطب، فإن استصلاح الهوى من أعون الأشياء على صحة الأبدان، وفساد الهوى من أسرع الأشياء إلى الأسقام.

ذكره الطيبى فى شرح مشكاة المصابيح.

والأحاديث كلها من مشكاة المصابيح فى باب الفأل والطيرة سوى قدوم الشام فإنه من معالم التنزيل فى تفسير هذه الآية.

ولما شجع المسلمين ببيان القصة المذكورة وحثهم على التوكل أمرهم بالجهاد وقال: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أى فى دين الله لرضائه لتكون كلمة الله هى العليا، ومن قاتل للمغنم، أو للجاه أو للذكر فليس فى سبيل الله.

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ لأقوال المتخلفين والسابقين ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بنياتهم.

ولما حرض على القتال ولا يكون إلا بالمال حرض الأغنياء على الإنفاق على المجاهدين وقال: ﴿**مَن ذَا**﴾ مبتدأ وخبر.

﴿**الَّذِى**﴾ صفة ذا.

﴿**يُقْرِضُ اللَّهَ**﴾ صلة الموصول، والإقراض إعطاء المال ليقضى فشبه به تقديم العمل لنيل الثواب.

---

(١) حديث: (**دعها عنك فإن من القرف التلف...**) أورده الطيبى فى شرح أحاديث المشكاة الحديث رقم (٤٥٩٠) ٩/ ٢٩٨٦/ ٤٥٩٠ الفصل الثانى الحديث الثامن، وانظر: السيوطى جامع الأحاديث قال: رواه أحمد بن حنبل فى مسنده وأبو داود فى السنن والبيهقى فى الشعب كلهم عن (فروة بن مُسَيْك) الحديث رقم (١٢٠٩٤) ٤/ ١٤٦.

﴿قَرْضًا﴾ أى إقراضًا مصدر بحذف الزوائد.

﴿حَسَنًا﴾ بأن يكون بإخلاص النية ومن المال الحلال، وقيل: القرض اسم ما يقرض، أى يعطى.

﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾ أى جزاؤه بحذف المضاف.

﴿لَهُ﴾ للمقرض.

﴿أَضْعَافًا﴾ حال من المضاف المحذوف أى أمثالاً.

﴿كَثِيرَةً﴾ لا يعلم قدرها إلا الله.

وقال فى تفسير ابن كثير: هذه المضاعفة تكون فى الإنفاق فى سبيل الله أى الجهاد وفى الانفاق على العيال، وفى الذكر المخصوص وهو ما رواه عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير كتب الله له ألف حسنة ومحا عنه ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتًا فى الجنة»[1].

رواه الترمذى وابن ماجه.

وقال الترمذى: هذا حديث غريب.

فى شرح السنة: من قال فى سوق جامع يباع فيه بدل من دخل السوق.

قوله ﷺ من دخل السوق الحديث إنما خص السوق بالذكر لأنه مكان الاشتغال عن الله وعن ذكره بالتجارة، والبيع، والشراء.

فمن ذكر الله تعالى فيه دخل فى زمرة من قيل فى حقه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (النور: ٣٧) قال الشيخ العارف أبو عبد الله الحكيم الترمذى[2]: إن أهل الأسواق قد افترض العدو منهم حرصهم وشحهم فنصب كرسيه وركز رايته وبث جنوده فرغبهم فى هذا الفانى فصير قاعدة وسلاحًا لنفسه بين فى كيل، وطائش فى

---

(١) حديث: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له...».
انظر: الترمذى: ٥/ ٤٩١ الحديث رقم (٣٤٢٨) وسنن الدارمى ٢/ ٣٧٩ الحديث (٢٦٩٢) الحاكم فى المستدرك: ١/ ٧٢١ الحديث رقم (١٠٧٤) وانظر: العجلونى: كشف الخفاء: ٢/ ١٤٦٩ الحديث رقم (٢٤٧٢) وأبو نعيم فى حلية الأولياء ٢/ ٣٥٥.

(٢) أبو عبد الله الحكيم الترمذي: هو: محمد بن على بن الحسن الترمذى، وكنيته: أبو عبد الله، أما الترمذى فنسبة إلى ترمذ، لقى أبا تراب النخشبى وصحب يحيى بن الجلاء وأحمد بن خضرويه وله مؤلفات كثيرة، ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى وتوفى فى آخره على أصح تقدير، من أهم كتبه: ختم الأولياء ونوادر الأصول فى أحاديث الرسول ﷺ، والأكياس =

ميزان، ومنفق السلعة بالحلف الكاذب جهل عليـهم جملة جملة فهزمهم إلى المكاسب الردية وإضاعة الصلاة، ومنع الحقوق فما داموا فى هذه الغفلة فهم على خطر من نزول العذاب، فالذاكر فيما بينهم يرد غـضب الله تعالى ويهزم جند الشيطان ويتدارك بدفع ما حث عليهم من تلك الأفعال.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

فـيدفع بالذاكـرين عن أهل الغفلة وفـى تلك الكلمات نسخ لأفـعال أهل السـوق فـبقـوله: لا إله إلا الله، ينسخ ولـه قلوبهم لأن القلوب منهم ولهت بالـهوى قـال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: ٤٣).

وبقوله: وحـده لا شريك له، ينسخ ما تعلقـت قلوبهم بعضهـا ببعض فى نوال أو معروف.

وبقوله: له الملك، ينسخ ما يرون من تداول، أيدى المالكين، وبقوله: وله الحمد ينسخ ما يرون من صنع أيديهم وتصرفهم فى الأمور.

وبقوله: يحيى ويميت، ينسخ حركاتهم ومـا يدخرون فى أسواقهم للتتابع فإن تلك حركات تملك واقتدار، وبقوله: وهو حى لا يموت، ينفى عن الله تعالى ما ينسب إلى المخلوق.

ثم قال: بيده الخير أى إن هذه الأشياء التى تطلبونها فى الخير فى يده.

وهو على كل شىء قدير فمثل أهل الغفلة فى السوق كمثل الهمج والذباب يجتمعن على مزبلة يتطايرون فيها على الأقذار.

فعمـد هذا الذاكر إلى مكنسة عظيمـة ذات شعور وقوة فكنس هذه المـزبلة ونظفها من الاقـذار، ورمى بها وجـه العد، وهزمـهم، وطهر الأسـواق منهم قال الله تعـالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أى بالوحدة.

﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٦) فجدير لهذا الناطق بأن يكتب له الحسنات ويحى عنه السيئات ويرفع له الدرجات، والله أعلم.

= والمغترين وغير ذلك. انظر ترجمته فى: كحالة: معجم المؤلفين: ١٠/ ٣١٥، الجامى: نفحات الأنس: ٣٩٦، الدكتور عبد الفتاح بركة: الحكيم الترمذى ونظرية الولاية، المقدمة، الهجويرى: كشف المحجوب ١٦٩، المناوى: الكواكب الدرية ١/ ٥٨٦، القشيرى: الرسالة: ٢٤.

قال النووى: رواه الحاكم أبو عبد الله فى المستدرك على الصحيحين.

وفيه من الزيادة قال الراوى: قدمت خراسان وأتيت قتيبة بن مسلم فقلت: أتيتك بهدية فحدثته بالحديث وكان قتيبة يركب فى مركبه حتى يأتى السوق فيقولها، ثم ينصرف.

ذكره فى الأذكار، ذكره شرف الدين الطيبى، ثم لما حرض الأغنياء على الإنفاق دفع وسوسة الشيطان بنفاد المال عند الإنفاق بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ أى يقتر لمن يشاء.

﴿وَيَبْسُطُ﴾ أى يوسع لمن يشاء فلا تخافوا من الفقر عند الإنفاق لأن الفقر والغنى بمشيئته وتقديره لا بتدبير العبد.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ والحال أن رجوعكم إليه دون غيره.

فيجازيكم على إحسانكم، صدق الله العظيم.

روى أن غنيًا احتج فى فضل الأغنياء على الفقراء بأن الله يستقرض منا، فقال فقير: إن الرجل يستقرض من غير الحبيب ولا يستقرض إلا لأجل الحبيب انظر إلى درع النبى المرهون عند يهودى فى استقراض الشعر فممن استقرض ولمن استقرض.

وروى أن أبا الدحداح قال: يا رسول الله: «ربنا الغنى يستقرض منا؟ قال: نعم، لإعطائكم الجنة» أى لنفعكم، فقال: لى حديقتان أقرضهما لربى، قال: لا أجعل إحداهما نفقة لعيالك والأخرى قرضًا عند ربك، قال: أجعل أكبرهما وفيه ستمائة نخيل قرضًا عند ربى، فذهب إليها فوجد زوجته وصبيه فيها وقال: يا أم الدحداح جعلت الحديقة قرضًا لربى اخرجى إلى الحديقة الأخرى، فقالت: نعمت التجارة الرابحة، فأخرجت ما فى جيوب الصبيان وفى أفواههم من التمر فارتحلوا إلى الحديقة الأخرى[١].

---

(١) **حديث أبى الدحداح:** انظر: مسند أحمد بن حنبل ٣/ ١٤٦ الحديث رقم (١٢٥٠٤) وابن حبان: ١٦/ ١١٣ الحديث رقم (٧١٥٩) والحاكم فى المستدرك: ٢/ ٢١٩٤ والبيهقى: شعب الإيمان ٣/ ٢٤٩ الحديث رقم (٣٤٥١) الهيتمى فى مجمع الزوائد ٧/ ٣٨ الحديث (١٠٨٧٠).

مجلس في:

بيان قصة إلياس النبي عليه السلام

في عشر آيات من سورة الصافات[1]:

أما بعد...

بسم الله الرحمن الرحيم

فهذا مجلس بيان قصة إلياس عليه السلام في عشر آيات من سورة الصافات.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو إلياس بن ياسين بن فنحاس بن عيذار ابن هارون بن عمران من سبط لاوى وكان أسكن سبطه يوشع ببعلبك من بلاد الشام فلما مات حزقيل عليه السلام وامتد الزمان اتخذ بنو إسرائيل أصنامًا عبدوها وكان سبط قد اتخذوا صنمًا يقال له: «بعل» وكان ملكهم «بك» فركَّبوا فصار «بعلبك» فوضعوه اسمًا لبلدتهم.

وكان وقت إلياس عليه السلام ملك بعلبك رجل اسمه أجب وكان له امرأة اسمها ازبيل، وكانت بنت ملك قد تزوجت سبعة ملوك وكانت فاجرة قتالة للأنبياء وكان لها كاتب رجل صالح له الكفاية والأمانة، وكان خلص من يدها ثلاث مائة نبي سوى الذين قتلتهم، وكانت تبرز للناس وتقضي بينهم إذا غاب زوجها أجب، وكان لأجب جار رجل صالح يقال له: «مزدكي» وله جنينة متصلة بدار الملك أجب وهو يعمرها ويعيش عليها وكان «أجب» وامرأته يشرفان على الجنينة ويأكلان ويشربان فيها وكانت أزبيل اللعينة تريد غصب الجنينة من مزدكي وكان «أجب» يمنعها، فاتفق سفر «لأجب»

---

(١) ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات: ١٢٣ - ١٣٢).

فاغتـنمت المرأة الفرصـة فأقامت شهـود الزور على مزدكى بأنه سب الـملك وكان فى حكمهم الـقتل على سابِّه فـقتلته على مـجمع من الناس، وغَـضِبَتْ الجنينة فلمـا جاء الملك أخـبرته الخـبر فلم يـرض الملك أجب وكان مـا كان فـقالت المـرأة: حكمت بحكمك.

ثم إن الله تعالـى أرسل إلياس إلى أجب وامرأته فـقال: أيها الملـك إن الله تعالى يقول: حلفت بعزتى وغضبْت للرجل الصالح لإن لم يتب أجب وامرأته ولم يرد الجنينة على ورثة مزدكى لأقتلن أجب وامرأته، وأتركن حتفهما فى الجنينة حتى تعرى عظامهما ولحومـهما فـغضب أجب، وكان قـد آمن قبل ذلك بإليـاس، فقال: يا إليـاس، أَمْرُك باطل، ولست على الحق، فهؤلاء الملوك ببلاد الشام يعبدون الأصنام، ويأخذون أموال الناس ويعـيشون، فمـا بالنا تتغـلّظ علينا، ثم خرج إلـياس ـ عليه السـلام ـ من عنده واستشعر أن اللعـين يريد قتله، فلحق برءوس الجبال يأكل الورق وثمـر الأشجار ويعبد الله الملك الجبار.

ثم إن الله أخذ ابنًا لأجب اللعـين بالمرض الشديد وكان أحَبَّ أولاده إليـه فتضرع اللعين إلى بعل الصنم، وكان طوله عشـرين ذراعًا، وكان من الذهب وله أربعة أوجه، وكان يخدمه أربـعمائة سادن، وكانوا يقولون لـهم أنبياء بعل، فاستشـفع أجب للسدنة ليشفعـوا عند البعل ليشفى ابنه وكـان الشيطان قبل ذلك يدخل فى جوف الـبعل فيلقى شريعة الضلال فيأخذها السدنة فيلقونها إلى الناس.

فبعد إرسـال إلياس عليه السلام ما جـاء الشيطان إليه فلما طال سـكوت البعل قال السدنة لـلملك: إن البعل غـضوب عليك لتـركك قتل إلياس علـيه السلام فـلا يجيب فأرسلنا إلى الآلـهة ببلاد الشام لتـشفع إلى البعْل ليـشفى ابنك، فأرسلهم فـلما توغلوا الجبال أمر الله تعالى إلـياس عليه السلام بأن يبرز إليهم ويأمرهم وينهـاهم فظهر عليهم واستـوقفهم فدخـل الرعب فى قلوبهم فقـال: أيها الناس إن الله يأمـركم بخلع الانداد والأصنام وبالإيمان للملك العلام وبرسوله عليه السلام فبلغوا إلى الملك والقوم رسالتى وقد حلف الله تعالى لئن لم يؤمن أجب ليميـتن ابنه على الفور ويقول: أيها الملعونون تتركون خالق الكائنات وتطلبون الشفاء من الجمادات، فلم تقدر السدنة رد الجواب من الهيبة الإلهية فـانقلبوا صاغرين وجاءوا إلى الملك فأخبروه الخـبر وعجزهم وخوفهم،

فاحتـال اللعين فأرسل خـمسين رجلاً من الأقـوياء وعلمهم المكر فتوغلوا فى الـجبال ينادون: يا إليـاس يا رسول الله إن الملك وقـومه آمنوا بك وتركـوا الأصنام، ابرز إلينا وعلمنا الدين، واكسر الأصنام، فلما سمع إليـاس عليه السلام كلامهم قال: يا رب إن كانوا صـادقين فـأذن لى بالبروز، وإن كـانوا كاذبين فأحـرقهم بالصـاعقـة، فرمى الله بالصاعقـة فأحرقتهم، ثم إن الملك اللعـين فعل مثل ذلك مرة بعد أخـرى فدمَّرهم الله تدميرًا، ثم إن اللعين أرسل كاتب امرأته الرجل الصـالح فقال: قد آمنا بإلياس فأتنى به نتخـذه إمامًا فى الديـن ونعبد ربه، فـجاء الكاتب إلى الجـبال فنادى إلياس فـأمره الله بالبروز للرجل الصـالح فخرج إلياس عليه السـلام وتعانقا، فقـال: ما وراءك؟ قال: إن اللعين يحتال يـريد قتلك فأمرنى بما تريد إن شئت أكـون معك، وإن شئت أجاهدهم، فأوحى الله تعـالى إلى إلياس عليـه السلام أن اذهب مع الرجل الصـالح، أنا أحفظك، فتـوجه إليـاس مع الكاتب فلما دخلا علـى الملك أخذ الله ابنه بالمـوت وجزع الملك وأعوانه، واشتغلوا عن إلياس فلحق بالجبـال، فلما مات ابن اللعين وسكن جزعه سأل الكاتب عن إليـاس عليه السـلام فقال: دخلنا عـليك ورأيته ووقع موت ابـنك والجزع فشغلنا عنه فصدقه وترك الكاتب.

ثم إن إلياس عليه الـسلام اشتاق إلى الناس فنزل ودخل بيت امـرأة من سبطه يقال لها: متى أم يونس ذى النون عليـه السلام، فمكث عندها ستة أشهـر وكان يونس عليه السلام رضعًا ثم التحق بالجـبال فمات يونس عليه السلام فاستخفـته أمه متى والتحقت بإلياس عليـه السلام فى الجبال فـقالت: إن ابنى مات واشتد جـزعى فادع الله أن يرده إلىَّ، فأوحى الله إليه أن اذهـب مع المرأة إلى جنازته وادع أخيه وكـان فراق المرأة عن جنازته سبعة وراحا سبعة أخرى فـوصلا إلى يونس عليه السلام فدعا إلياس عليه السلام فأحياه الله تعالى ثم إن إليـاس لحق بالجبال وكان كئيبًا مغمـومًا فأوحى الله إليه ما هذا الغم؟ إنك صفوتى وحجتى، قال: يا رب ألحقنى بآبائى قال: ما جاء وقت خلو العالم عنك، قـال: فأعطنى ثأرى من بنى إسـرائيل، قـال: ما هو؟ قـال: سبع سنين كـسنى يوسف عليه الـسلام يجوعـوا ويعرفوا ربهم، قـال: إن رحمتى أوسـع، أعطيتك ثلاث سنين فـما نزل قطرة من السـماء ومـا نبت نبت وكان يجىء برزق إليـاس عليه الـسلام جماعة من الطير من البلاد.

ففى سنين القحط دخل إلياس عليه السلام بيت احطوب أبى اليسع النبى عليه السلام فكان عنده أيامًا ثم التحق بالجبال ولم يفارقه اليسع بعد، ثم لمَّا تم سنون القحط أوحى الله تعالى إلى إلياس أن ذكر الناس وادع لهم بالمطر، فإن رحمتى وسعت كل شىء، فجاء إلى أهل بعلبك وقال: أيها الناس، إن الشدة قد تم فاخرجوا بأصنامكم إلى الصحراء وادعوهم فإن أجابوكم وإلاَّ فأنا أدعو لكم فإن حصل المطر فآمنوا وصدقوا، فخرجوا بأصنامهم ثلاثة أيام مع شيوخهم وصبيانهم داعين فلم يحصل المرام.

فقالوا: يا إلياس ادع إن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، فبسط نبى الله يده فما جمعها حتى أنشأ الله سحائبه جانب البحر مثل الترس ثم أطبقت السماء فجاء المطر أكثر ما يكون، ثم بعد ذلك نكثوا العهد كقوم فرعون.

فقال إلياس: يا رب خلصنى منهم، فأوحى الله تعالى إليه احضر موضع كذا يجىء إليك مركب فاركبه فحضر مع اليسع ذلك الموضع فجاء فرس من نار فركبه إلياس عليه السلام وطار فى الهواء وألقى كساه إلى اليسع فكأنه علامة لاستخلافه ثم لم ير إلياس أحد بعد ذلك.

ثم أرسل الله تعالى عدوًا قويًا على أجب وحاصر حصن بعلبك أشد الحصار وفتحه وقتل أجب وامرأته فى جنينة مزدكى كما قال الله تعالى وبقيا حتى عرى عظامهما.

قصة: إليسع عليه السلام(*)

ثم إن الله تعالى أرسل «اليسع» عليه السلام[1] إلى بنى إسرائيل وأطاعوه وعظموه إلى أن التحق بآبائه الصالحين.

وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله تعالى، وهذا إجمال فصله بقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ الهمزة للإنكار، وبعلاً صنمهم المعروف المذكور أى أتعبدون وتطلبون منه الحاجات كشفاء ابن الملك ونزول المطر.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أى المقدرين تقديرًا، فالخلـق هنا بمعنى التقدير وهو أصله لا بمعنى الإيجاد إذ الموجد للكل واحد.

﴿اللَّهَ﴾ بدل من أحسن.

﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ صفة الله، يعنى أن العـبادة والدعاء لا يليق إلا لمن له الإنعام والإحسان التام ولا يطلب الحاجات إلا عنده.

روى الإمام فخر الدين عن الـكاتب رشيد الدين وطواط[1] أنه قال: لو كان النظم أتدعون بعلاً وتدعون أحسن الخالقين لوقع الجناس اللفظى وهو فى المحسنات البديعية فما الحكمة فى تركه؟.

فأجاب الإمام بأنه قد شاع فى كلام الفـصحاء ذكر «تدع» فى ترك الشىء قبل العلم بحاله «وتذر» بعد العلم، وكان بنو إسرائيل عالمين بالله وصفاته فتركهم بعد العلم فلذا اختير «تذر» فالمحسن الذاتى البلاغى أبلغ من المحسن العرضى، أى: البديع.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بلا تردد وتفكر، فالفاء للتعقيب بلا تراخ.

﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أى: فى العذاب لأن العرف خص محـضرون بالشر، والفاء للتسبب.

(*) هذا العنوان من المـحقق لتداخل الـقصتين عنـد المؤلف وعدم وجود إشـارة للفصل بينهـما. (المحقق)

(١) هنا أدخل المؤلف قصة نبى الله «اليسع» عليه السلام الذى أرسله إلى بنى إسرائيل فأطاعوه. ولم يخصص المؤلف مجلسـا خاصًا له عليه السلام كما فعل مع المـجالس الأخرى. ربما لتداخل الأمر كما هو ظاهر هنا المحقق.

(٢) (رشيد الدين وطواط) لم أقف على ترجمته.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من واو فكذبوه لا من المحضرين، وإلا يلزم أن يكذبوا ولم يحضروا وهو باطل.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أى على إلياس.

﴿فِى الآخِرِينَ﴾ فى الذين يجيئون إلى يوم القيامة هذه الكلمة وهى قوله: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ لغة فى إلياس كسيناء وسنين.

وقيل: جمع إلياس مرادًا به هو وأتباعه والمحبون والمهلون وفيه ضعف، إذ العلم إذا جمع يعرف باللام.

وقيل: جمع إلياسى أى المنسوب بحذف الياء كالاشعرين والأعجمين وهو أيضًا ضعيف لأنه لا يفهم منه إلا جمع إلياس.

وقرئ: آل ياسين، فياسين أبو إلياس.

وقيل: ياسين محمد ﷺ أو القرآن يرده عليه فى السابق وبه فى اللاحق لأن الضمير لإلياس ألْبتة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ فالسبب لمحبة جميع الناس، وسلامهم عليه إحسانه وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، على ما فى الحديث.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى سبب الإحسان هو الإيمان ففيه تشريف لأهل الإيمان بأنه مدح للمرسلين وتفصيل حياة الخضر وإلياس ومماتهما هو أن الحق أن أحدًا لم ير وفاتهما إذ المذكور فى القرآن آخر عهد موسى مع الخضر عليهما السلام.

والمسطور فى الآثار آخر عهد اليسع بإلياس عليهما السلام على ما ذكر.

لكن العلماء اختلفوا: فالإمام النووى وابن صلاح وغيرهما ذهبوا إلى أنهما حيان يصومان رمضان كل سنة فى بيت المقدس، ويحضران موسم الحج، وسندهم حكايات من مشايخ الصوفية أنهم رأوهما، وقد بلغت تلك الحكاية من الشهرة إلى مبلغ عظيم.

لكن يحتمل أن يكون ما رأوا أمثالهما، كما رأى الصحابة ﷺ مثال جبريل عليه السلام فى حديث الإيمان والإسلام وهو مشهور.

وقال ابن كثير فى تفسيره: وما استدلوا عليه من الأحاديث كلها ضعيفة، وأصح ما جاء فيه حديث النضرية وهو ضعيف أيضًا.

وقال الآخرون: إنهما ميتان كسائر الرسل الكرام لقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ**﴾ (الأنبياء: ٣٤) الآية.

ولقوله ﷺ في أهل بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض»[1].

وهو صحيح والسند القوى فى ذلك إنهما لو كانا حيين لزارا رسولنا ﷺ ولو زاراه لاشتهر والله أعلم بحقيقة الحال.

---

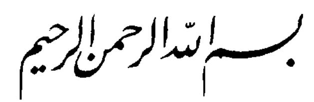
(١) **«اللهم إن تهلك هذه العصابة...»**.

حدثنا هناد بن السرى حدثنا ابن المبارك عن عكرمة بن عمار حدثنى سماك الحنفى قال: سمعت ابن عباس يقول: حدثنى عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر ح وحدثنا زهير بن حرب، واللفظ له، حدثنا عمر بن يونس الحنفى، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنى أبو زميل، هو سماك الحنفى، حدثنى عبد الله بن عباس قال: حدثنى عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبى الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد فى الأرض» فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ فأمده الله بالملائكة، انظر: صحيح مسلم ٣/ ١٣٨٣ الحديث رقم (١٧٦٣) والترمذى ٥/ ٢٦٩ ومسند أحمد بن حنبل ١/ ٣٠ ومجمع الزوائد ٦/ ١٠٧.

مجلس في:

بيان قصة يونس عليه السلام

من سورة الصافات في عشر آيات[1]



أما بعـــــد:

فهذا مجلس في قصة «يونس» عليه السلام من سورة الصافات في عشر آيات.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو يونس ابن متى على وزن «شتى» اسم أمِّه أو أبيه، ابن حنونا من أولاد هارون عليه السلام من سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام أرسل بعد إلياس واليسع عليهما السلام.

وذلك قد خرج ملك سوى بلدة بأرض موصل وجاء بعسكر كثيف إلى أرض الشام، وقتل بني إسرائيل، وسبى منهم تسعة أسباط ونصف سبط، ونفى في الشام سبطين ونصف سبط.

ثم إن الله تعالى أوحى إلى شعيب النبي عليه السلام أن قل لحزقيل ملك بني إسرائيل يرسل نبيًا إلى ملك نينوى ليذكره فيؤمن به، ويرسل معه أسرى بني إسرائيل، فاختار الملك حزقيل يونس النبي عليه السلام فقال يونس عليه السلام: الله يعينني قال: إن في الشام معي خمسة أنبياء فألحَّ عليه حزقيل وشعيب النبي عليه السلام وجاء جبريل عليه السلام وأمره بالخروج على العجلة حتى ما تركه لأخذ الفرس ولأخذ نعل الرجل فقال: الأمر أعجل من ذلك، فخرج حافيًا راجلاً مع امرأته وابنين له حتى دخل

---

(١) ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الصافات: ١٣٩ - ١٤٨).

«نينوى» ونصح الملك وأهل البلدة وأمرهم بإرسـال أسرى بنى إسرائيل والإيمان بالله، وخوَّفهم بالعذاب كـعذاب فرعون، فقال الملك وحواشيـه: إنا قد دخلنا عليكم بلادكم وقتلـناكم وسبـيناكم فلمـا قدرتم على إنذارنـا فبعـد أن دخلتم علينـا وأنذرتمونا فلـما نصدقكم، فـما طالت المدة للدعوة واشـتدت شكيمتهم دعـا الله لينجيه من صحـبتهم فأوحى الله تعالـى إليه بأنه يجيء العذاب بعد ثـلاث ليال فأخبر القـوم، فكذبوه، ففى الليلة الثالثة خرج يونس عليه السلام بعياله وراح إلى جبل فانتظر عذابهم، ففى صبيحة تلك الليلة ادخن السماء وتغيم، وجاء دخان عظـيم حتى غشى بيوتهم وسطوحهم فعند ذلك تيقن القوم أن العذاب يأتيهم، فـدخل الرعب فى قلوبهم، فذهبوا إلى بيت يونس عليه السـلام فلم يجدوه، واشتد رعـبهم بفقده، وعـلموا أن العذاب يأتيهـم، فوجدوا شيـخًا من أصحـابه عليه الـسلام فأمـرهم بالإيمان، وإعـتاق أسرى بنى إسـرائيل ورد المظالم، والتوبة، والتضرع إلى الله، فخرجوا جـميعًا إلى الصعد، وردوا المظالم حتى إن رجلاً كان يقلع حجرًا معضوبًا فى أسّ بيته فينهدم بيته ويرد الحجر إلى باب صاحبه، ففى الصعيد فـرقوا بين الأمهات والأولاد، وبين الضأن والجمل، والبـقر والعجاجيل، والإبل والفصيلان، فتضرعوا وضـجوا وحنت الأولاد إلى الأمهات وارتفعت الأصوات فرحمهم الله وقبل توبتهم وإيمانهم، وكان دعاؤهم بتعليم الشيخ المذكور: يا حىّ حين لا حىّ، يا حى يحيـى الموتى يا حى لا إله إلا أنت خلصنا مـن العذاب، فكشف الله عذابهم وأخر آجالهم.

فذلك قوله تعـالى فى سورة يونس: ﴿**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ**﴾ (يونس: ٩٨) أى: أهلها وفى تقديم معنى النفى أى ما كانت قرية أى أهلها.

﴿**آمَنَتْ**﴾ قبل مـعاينة الـعذاب، بل وظهـور أماراته ﴿**فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا**﴾ بكشف العذاب عنهم.

﴿**إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ**﴾ استثناء من أهل قرية متصلاً ﴿**لَمَّا آمَنُوا**﴾ عند رؤية العذاب قبل معاينته ولم يؤخروا الإيمان كما أخر فرعون.

﴿**كَشَفْنَا عَنْهُمْ**﴾ بأن أخرنا ومنـعنا عنهم ﴿**عَذَابَ الْخِزْيِ**﴾ فلم يحل بهم ﴿**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ ففى الآخرة بالطريق الأولى.

﴿**وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ إلى آجالهم.

وانتظر يونس عليه السلام فى الجبل هلاك القوم ولم يعرف حالهم، وتوبتهم، وكشف العذاب عنهم فخاف على نفسه من القتل لأنهم يقتلون الكاذب فلم يرجع إليهم وذهب إلى الشام مغاضبًا على قومه ولم ينتظر الوحى، ولم يتحر فى أمر القوم، فكان مهاجرته لهم قبل الأمر ذلة فانسد الوحى فذهب حتى أتى بحر الروم، فطلب السفينة ليذهب إلى سواحل الشام فجاء مركب ـ أى سفينة ـ فركبها أهله فحال الموج بينه وبين أهله فراح المركب، ثم جاء موج فأخذ ابنه الأكبر وجاء ذئب فأخذ ابنه الأصغر، فبقى وحيدًا فجاءت مركبه، فلما توسطت البحر وقفت واضطربت وكادت أن تغرق من غير ريح ولا سبب آخر فقال البحار والملاحون: بيننا عبد آبق، فقال يونس: أنا العبد الآبق اطرحونى فى البحر فاذهبوا سالمين، قالوا: معاذ الله أنت رجل صالح، فاستهموا أى اقترعوا ثلاث مرات، ففى كل ذلك خرجت القرعة على يونس عليه السلام فألقى نفسه إلى البحر وكان هناك حوت عظيم فاغرًا فاه فابتلعه وذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**﴾ والإباق فرار العبد من سيده، فهنا استعارة، شبَّه فرَاره من قومه بفرار العبد من سيده، ووجه الشبه كونه بغير إذن مولاه وهو مشترك بين الفرارين.

وقيل: هو من قبيل ذكر المقيد وإرادة المطلق كالمرسن أى هرب.

والمشحون: المملوء.

﴿**فَسَاهَمَ**﴾ أى اقترع مع القوم، مأخوذ من السهم لأنهم كانوا يقترعون بالسهام.

﴿**فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**﴾ أى المغلوبين فى القرعة.

وأصله من الدحض وهو الزلق، فكأن زلق رجله عن الظفر.

﴿**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ**﴾ بعد رمى نفسه.

﴿**وَهُوَ مُلِيمٌ**﴾ نفسه على الفرار من القوم قبل الأمر، فالهمزة للتعدية أو داخل فى الملامة، فالهمزة للصيرورة، أو آت بما يلام عليه فالهمزة للإتيان بما يوقع عليه المأخذ.

﴿**فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾ أى الذاكرين كثيرًا بالتسبيح بالنسبة إلى مدة عمرة أو فى بطن الحوت وهو قوله فى سورة الأنبياء: ﴿**فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ (الأنبياء: ٨٧) أى الظلمة المتكاثفة كأنها ظلمات، أو ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت.

﴿**أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ**﴾ أنزهك عن الظلم أى ما ظلمتنى.

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ نفسى بالهرب قبل الأمر.

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ حيين أو ميتين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ بأن يسجن فيه حيين، أو يكون بطنه قبرًا له إلى يوم القيامة.

فالحاصل: أن تسبيحه فى الرخاء خلصه من البلاء على:

الوجه الأول:

وورد فى الحديث القدسى: «اذكرنى عبدى فى الرخاء أذكرك عند الشدة»(١).

بخلاف فرعون حيث آمن عند الغرق بالله فقيل له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٩١).

وعلى الوجه الثانى:

روى أنه لما دخل بطن الحوت حرك رجليه فوجد نفسه حيًا فنادى بالتسبيح المذكور.

وفى الحديث: «أنه الاسم الأعظم ما دعا به مكروب إلا كشف كربته»(٢).

فقالت الملائكة: إنا نسمع صوتًا ضعيفًا فى مكان غريب يقدسك، قال تعالى: «ذلك عبدى يونس عليه السلام حبسته فى بطن الحوت، قالت الملائكة: ربنا كانت ترفع له الأعمال الكثيرة قبل الحبس فخلص عنه، فقُبلت شفاعتهم قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ وهو أفاد النبذ لا ذاته وهو فعل الحوت إسنادى مجازى إلى الحاصل أى حملناه على النبذ.

---

(١) حديث «**اذكرنى عبدى فى الرخاء أذكرك فى الشدة**»: لم أقف عليه بهذا اللفظ، وربما وقع فى بعض الأحاديث القدسية، وإنما المشهور: عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء فى الرخاء» وبهذه الرواية أيضًا: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لى رسول الله ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ـ أمامك ـ تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئًا لم يرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا أن يصرفوا عنك شيئًا أراد الله أن يصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فاسأل بالله، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، واعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن» هذا حديث صحيح الإسناد احتج البخارى بأبى صالح، وأبو عامر الألهانى ـ أظنه الهوزنى ـ وهو صدوق، انظر الحاكم فى المستدرك: ١/ ٧٢٩ الحديث رقم (١٩٩٧) ٣/ ٦٦٢٤ الحديث رقم (٦٣٠٤).

(٢) حديث: (إنه الاسم الأعظم ما دعى به مكروب إلاَّ كشف كربته) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

والعراء هو المكان الخالى عن البناء والشجر.

روى الإمام فخر الدين الرازى: أن الحوت لما ابتلعه ذهب إلى النيل رافعًا رأسه ليدخل الريح على يونس عليه السلام فيتنفس به لأن الله تعالى ما جعله طعمة له، فلما دخل النيل ذهب إلى بلاد الحبشة فينشعب فى النيل شعبة إلى بحر الهند حتى جاء إلى «عبادان»[1] فدخل فى شط العرب، أى الفرات حتى انشعاب دجلة، فدخل فيها حتى أتى نصبين بلدة قريبة من موصل، فنبذه الحوت هنالك وذلك كله فى أربعين يومًا.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ضعيف كالفرخ الممقط لا حراك به.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ حال.

﴿شَجَرَةً﴾ قدمت عليها لتنكيرها أى كائنة فوقه مظلة عليه.

﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾ أى الدباء ويدل عليه قوله ﷺ : «أنا أحب القرع لأنه شجرة أخى يونس»[2].

والشجرة تطلق على ما له ساق، وقد تطلق على ما لا ساق له أيضًا.

وشجرة اليقطين ظلها كثيف لعظم أوراقها والذباب لا يجتمع عليها.

---

(١) **عبادان:** عبادان بتشديد ثانيه وفتح أوله، قال البلاذرى: كانت عبادان قطيعة لحمران بن أبان مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه قطيعة من عبد الملك بن مروان، وبعضها فيما يقال: من زياد، وكان حمران من سبى عين التمر، يدعى أنه من النمر بن قاسط، فقال الحجاج يومًا، وعنده عباد بن حصين الحبطى، ما يقول حمران؟ لئن انتمى إلى العرب ولم يقل: إنه مولى لعثمان لأضربن عنقه، فخرج عباد من عند الحجاج مبادرًا فأخبر حمران بقوله، فوهب له غربى النهر وحبس الشرقى، فنسب إلى عباد بن الحصين، وقال ابن الكلبى: أول من رابط بعبادان عباد بن الحصين، قال: وكان الربيع بن صبح الفقيه مولى بنى سعد جمع مالا من أهل البصرة فحصن به عبادان، ورابط فيها، والربيع يروى عن الحسن البصرى، وكان خرج غازيًا إلى الهند فى البحر فمات، فدُفن فى جزيرة من الجزائر سنة ١٦٠، والعَبَّاد الرجل الكثير العبادة وأما إلحاق الألف والنون فهو لغة مستعملة فى البصرة ونواحيها، انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان: ٤/ ٧٤.

(٢) حديث: **«أنا أحب القرع...»** لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما فى أحاديث الإحياء روى: كان رسول الله ﷺ يحب القرع ويقول: «إنها شجرة أخى يونس» أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث أنس: كان النبى ﷺ يحب القرع، وقال النسائى: الدباء، وهو عند مسلم بلفظ: تعجبه، وروى ابن مردويه فى تفسير من حديث أبى هريرة فى قصة يونس، عليه السلام: فلفظته فى أصل شجرة وهو الدباء، انظر أحاديث الإحياء ٢/ ٢٩٣ الحديث رقم ٨.

فاسـتظل باليـقطين وأرسل الله وعلة [. . .][١] كثـيرة اللبن تعطيـه اللبن كل يوم مرتين إلى أربعين يومًـا، فلما قوى جسده ذهـب إلى الغائط، فجاء فوجـد اليقطين قد يبس فحزن وبكى فأوحى الله إليه: تحزن على شـجرة ولا تحزن على مائة ألف تركتهم في يد الشيطان.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ﴾ ثانيًا بعد أمر الحوت على ما هو الظاهر من سوق القصة.

﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ أهل نينوى وهذا العدد لمكلفهم.

﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي في مرى الناظر لأن أو للترديد والشك، وهو على الله محال.

فيحتمل على أن المعنى: لو نظر إليهـم إنسان لقال لفرط كثرتهم إنهم مائة ألف أو هم يزيدون، فالمقصود وصفهم بالكثرة المفرطة.

روى أنه عليه السلام لمـا قوى راح إلى الموصل فوجد غلامًا راعـيًا فقال: اذهب إلى نينوى فـقل: إني رأيت يونس عليـه السلام، قـال: يا نبي الله إن لم يجـدوك هنا يقتلوني، قال: إن هذا الحجـر وهذا الشجر لجسمين هناك يشـهدان لك فذهب الغلام إلى الملك وأخبره، وأرسل معه جمعًا فجاءوا إلى المحل المعهود فلم يجدوه، فاتهموا الغلام بالكذب فاستشـهد الغلام بالحجر والشجر فشـهدا له بأنه رأى يونس عليه السلام فراح الجـمع بالغلام إلى الملك وأخبـروه فأخذ الملك بيـد الغلام فأقـعده مكانه فكان فيهم ملكًا أربعين سنة.

ثم وجدوا يونس عليه السلام فجددوا الإيمان بمحضره فذلك قوله: ﴿فَآمَنُوا﴾ أي جددوا الإيمان، وإلا فابتداء الإيمان منذ ثلاثة أشهر تقريبًا.

﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يمـوت كل منهم عند أجله، ثبتنا الله تعـالى على الدين القويم.

---

(١) هامش مستدرك بكلمتين غير واضحتين بالمخطوط.

مجلـــــس فـــى:

بيان قصة إشمويل[1] النبى عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعـــــد:

فهذا مـجلس فى قصة «إشْمَـوِيل» النبى عليه السلام وهو بكسر الـهمزة، وسكون الشين، وفتح الميم وكسر الواو وسكون الياء.

ابن بالى بن علقمة بن الرخان بن يهوذ بن يصهر بن علقمة بن ماهب بن عذريا بن صفيـة بن علقمة، بن ياسف، بن ثارون، بن يصهر، بن قـاهث، بن لاوى بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم أجمعين.

روى أن بعد موسى عليه السلام صار يوشع نـبيًا ثم كالب، ثم ذو الكفل (حزقيل) ثم اليسع ثم يونس عليهم السلام، وفى رواية: ثم انقطعت النبوة فى بنى إسرائيل بسبب عظم الأحداث حتى عـبدوا الأصنام فسلَّط الله عليهم عدوًا جالوت وقـومه، وكانوا من العمالقة، وكانوا يسكنون سواحل الشام، وغـزة، وعسقلان، وسائر السواحل إلى مصر فخرجوا على بنـى إسرائيل فغلبوا عليهم وسلبوا منهم الملك فـأخرجوهم من ديارهم، وأسروا أولادهم ونساءهم حتى أسروا أربعمائة وأربعين من أبناء الملوك، ووضعوا على بنى إسـرائيل الجزية ثـم إن بنى إسرائيل جـاءوا إلى امرأة حـبلى من زوجـها قـتل فى

---

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦ - ٢٤٨).

الحرب من بنات الأنبياء من سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام فقالوا: نرجو أن تلد نبيّا يقيم أمرنا، فحبسوها فى بيت لئلا تبدل ولدها نبيا بابن[١] فانتظروا ولادتها فدعت المرأة ربها، وطلبت ولدًا ذكرًا فقالت: اسمع إيل ـ وإيل هو الله فى لغتهم ـ أى أجب دعائى، فلما ولدت ذكرًا سمته «إشمويل» فأخذوا منها الغلام بعد الفطام فجعلوها عند الحبر جاءه جبريل عليه السلام فدعاه بمثل صوت الحبر، فقال: يا أبت دعوتنى، فخاف الحبر عليه فقال: ثم ناداه جبريل عليه السلام بذلك الصوت أيضًا، فقال: دعوتنى فقال: قم، وتوضأ، وصل فإن دعاك فقل: أنا حاضر وما تبيت.

ثم جاء جبريل عليه السلام فقال: نَبَّأَكَ الله وأرسلك إلى بنى إسرائيل ففى الغد أخبر الغلام فقالوا: عجلت، ثم لمَّا أيقنوا بنبوته اجتمعوا عنده وطلبوا منه نصب ملك وأمير للحرب على ما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ﴾ تفصيل البحث فى (ألم تر) قد مضى فى قصة حزقيل عليه السلام.

والملأ جماعة يجتمعون للمشاورة.

﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ من للتبعيض.

﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ فى بعد موسى، أى فى زمان بعد موسى عليه السلام.

ومن إذا دخل على الظروف يكون بمعنى فى، نص على ذا الرضى.

﴿إِذْ قَالُوا﴾ أى اذكر فقالوا.

﴿لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ الأظهر الأشهر أنه إشمويل على ما مر وقد بعث فى سنة أربعمائة وستين بعد موسى عليه السلام.

﴿ابْعَثْ لَنَا﴾ أى أقم وانصب.

﴿مَلِكًا﴾ أى أميرًا للحرب.

كما كان رسول الله ﷺ يبعث الأمراء على السرايا.

يدل على فى جواب الأمر: ﴿نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أو ملكًا يتصرف فى أمورنا، فى الحضر والسفر، يدل عليه ظاهر لفظة ملك، واستبعادهم الآتى.

فإن الأنبياء بعد موسى عليه السلام كانوا يسددون والملوك يدبرون، ففى كل عصر نبى وملك.

---

(١) أى تبدله بابن آخر لا يكون نبيّا؟!!.

﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا ﴾ معناه: هل المتوقع منكم وهو جبنكم وترككم للقتال متحقق.

والاستفهام للتقرير أى التثبيت أى هذا متحقق منكم البتة والشرط معترض بين عسى وخبره جزاؤه ما يدل عليه الخبر، أى إن كتب عليكم القتال بأن نصب لكم أمير الحرب فإن القتال حينئذ يحب لأمر النبى لا تقاتلون لجبنكم كما هو ما قولى منكم.

﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا ﴾ السؤال عن الدواعى أو الغرض، أى: أىّ داع لنا.

﴿ أَلاَّ نُقَاتِلَ ﴾ وأى غرض لنا فيه، وحذف الجر عن أن قياس والمشهور فى مثله ترك بأن كقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فى سورة يس على الحالية لكن هنا لما كان المعنى على الاستقبال لدخول إن ليختص المضارع بالاستقبال فاحتيج إلى تقدير حرف الجر.

﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا ﴾ حال تقرر عدم الداعى، فإن الاستفهام للإنكار.

﴿ مِن دِيَارِنَا ﴾ ثم بأن غلبوا عليها وسلبوها منا.

﴿ وَأَبْنَائِنَا ﴾ أى أفردنا منهم، والإفراد من الأهل لازم الإخراج من الديار فتعلق فى «أبنائنا» باعتبار هذا اللازم.

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ ﴾ بنصب طالوت ملكًا وخرجوا إلى العدو بجند عظيم على ما سيجىء.

﴿ تَوَلَّوْا ﴾ عن القتال.

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أصحاب بدر.

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وعيد لهم، أى يجازيهم على تصلقهم الباطل.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ روى أن الله تعالى أرسل إلى إشمويل عصا يقيس بها الناس، ودهنًا فى قرن، فقال: إذا ساوى رجلاً العصا وغلا عند دخوله الدهن فى القرن فادهن رأسه به فهو ملك.

وكان إشمويل يقدر الناس بالعصا فلم يجدا أحدًا يساويه وكان طالوت فقيراً، مكاريًا، راعيًا للحجر من أولاد بنيامين بن يعقوب عليه السلام.

فأضل طالوت ذات يوم حمره فسعى فى طلبها فجاءت إلى بيت إشمويل النبى عليه السلام فقال فى نفسه: إن دخلت على النبى وأخذت دعاء لعلى أجد حمرى، فلما

دخل رأى نبى الله أن الدهن فى القرن غلا ولم يكن غليـانه إلى هذا الآن فقاس نبى الله قامـته بالعصـا فوجدها مسـاوية له فقال: يا طالوت، ادن رأسـك منى فادهنه من دهن القدس، وقال: إنك ملك بنى إسرائيل وعلامته إذا حبئت بيتك وجدت حمرك فيه فهذا هو بعث الله طالوت ملكًا.

﴿ **قَالُوا أَنَّىٰ** ﴾ أى كيف أو من أين.

﴿ **يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا** ﴾ استبعدوا ملكه تعجبًا لا إنكاراً وإلا كفروا، التعجب عدم استحقاقه لا وراثة ولا مكنة وقد بينوه بالحالين وهما قول: ﴿ **وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ** ﴾ لأن الملك كان من سبط يهـوذا بن يعقوب عليه السلام ولـم يـكن طالوت منهما بل من سبط بنيامين، ولم يكن فيهم النبوة ولا الملك، وكان من السبطين خلق عظيم.

﴿ **وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ** ﴾ أى كثرة ووفرة عنه كما هو ديدن الملوك.

يقولون: كيف يكون طالوت ملكًا إذ هو غير نسيب ولا غنى واستحقاق الملك إنما يكون بهما البتة والواو الأولى حالية، والثانية عاطفة فالجملة الثانية أيضًا حال.

قال النبى عليه السلام فى جوابهم ودفع شبهتهم وتعجبهم أولاً:

﴿ **قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ** ﴾ بالملك لا أنا ففى بناء الخبر الفـعلى على المبتدأ المعرَّف قصر، نحو: أنا سعيت فى حاجتك أى لا غيرى، ودخول إن لا يعتبر لأنها ذو أجل إما للمبتدأ والخبر، فإذا المصطفى وهو عالم بالمصالح.

ففيه حكم شتى.

وثانيًا: ﴿ **وَزَادَهُ بَسْطَةً** ﴾ أى: وقوة كثيرة.

﴿ **فِي الْعِلْمِ** ﴾ بما فى الحروب والديانات حتى إن طالوت نبى أوحى إليه وبسطة.

﴿ **وَالْجِسْمِ** ﴾ حتى كان لا يبلغ أحد رأسه إلاَّ بمدّ يده.

فأشار النبى ﷺ إلى أن العز فى الملوك كثرة العلم بما فى الحروب والديانات، إذ الجاهل يكون فرقه فى الدين أعظم من نفعه.

ويكون مزدريا فى العيـون، والجسامة: عظم الجسـد، والقوة ليجعلونه مهـيبًا فى الصدور، فالعالم القادر أحق النسب الغنى.

وثالثًا: ﴿ **وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ** ﴾ أى الملك لا لغيره على ما يدل عليه إلاّ ما قد فيؤتيه من يشاء: طالوت.

ورابعًا: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: واسع فضله وعطاؤه، فيوسع عليه متى شاء فيغنيه.

وخامسًا: ﴿عَلِيمٌ﴾ تكميل حسن يدفع الوهم فيما سبق، أى عليم بالمصالح فلا يفعل إلاَّ ما يقتضيه الحكمة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بعد دفع الشُّبَه «شبهتهم».

﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أى آية تطمئن لها قلوبكم بضم العيان إلى البيان كما فى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أى: الصندوق، وكان صندوقًا قد وضع فيه موسى عليه السلام التوراة وثيابه، ورضاض الألواح، وعمامة هارون عليه السلام وغير ذلك.

وكانوا يقدمونه فى الحروب، ويستفتحون به، ففى أوقات عصيانهم لله تعالى غضب الله وسلط العدو على التابوت فأخذه جالوت، وكان عندهم وكانوا قد وضعوه فى بيت أصنامهم، ووضعوا الصنم الأكبر عليه وقد وجدوا ليلة أن الصنم تدحرج عن التابوت وانكسر فوضعوا عليه صنمًا آخر وربطوه بالمسمار، فقد وجدوا فى الغد الصنم منكسرا منكبًا على رأسه فأخرجوه من بيت الأصنام، فدفنوه فى مزبلة فكل من تغوط فيها أو بال يأخذه الباسور والقولنج، فأخرجوه فجعلوه فى «قبرية» فى موضع مهان فوقع فيهم الوباء فهلكوا جميعًا، فهكذا إلى خمس قرى فعجز عن أمره.

فقالت امرأة فى أولاد الأنبياء مأسورة فيهم: ضعوه على ثورين وحشيين حتى يخرجا فى دياركم، فجاءوا بثورين متنفرين عن الناس فربطوه على ظهورها فطردوهما، فجاءه أربعة من الملائكة فساقوا الثورين إلى بيت طالوت فلما خرج وقت السحر من داره فى ليلة وجد التابوت على بابه فأخذه وحمد الله سبحانه وتعالى.

فهذا إتيان التابوت، وقيل: كان قد وقع فى السماء عند وفاة موسى عليه السلام فجاءت به الملائكة علينا حتى وضعوا عند طالوت فى مجمع ﴿فِيهِ﴾ أى: فى الإتيان.

﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تسكن به نفوسكم وليطمئن به قلوبكم ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ أى: تقوية وبقية.

﴿مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ أى: أولادهما أو أتباعهما فإنهم فى الآل، والمراد بالبقية الشريعة، ففى إتيان التابوت سلوّ واطمئنان للقلوب، وتقوية، وتأييد للشريعة.

وقيل: الضمير «فيه» للتابوت أى: فى التابوت سكينة وبقية.

والمراد من السكينـة صورة كانت فيـها رأسهـا وذنبها كـرأس الهرة، وذنبهـا ولها جناحان، وكانت الصورة فى زبرجدة أو ياقوتة.

وقيل: الصورة كانت صورة إنسان.

وقيل: كانت صورة الأنبياء عليـهم السلام من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا ﷺ فإذا جاء رب بنى إســرائيل فعند نزول النصر كانت سكينة تأن وتَصـوت، وكان التابوت يسرع نحو العدد فينزل.

﴿ **تَحْـمِلُهُ الْمَـلائِكَةُ** ﴾ إمَّا بسوق الثورين، فكأنهم الحاملون أو بالجـمل حقيقة فى الإنزال فى السماء كما مرّ.

﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ أى: فى إتيان التابوت بحمل الملائكة.

﴿ **لآيَةً لَّكُمْ** ﴾ تطمئن بها قلوبكم وتسكن.

﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ أى: تعتبرون بهـذه الآية وتعلمون ملك طالوت وصدق قولى وتقاتلون ولا تفرون.

صدق الله العظيم.

مجلس في:

بيان ذهاب طالوت بجنوده إلى الحرب وقتل داود نبي الله جالوت وهزمهم للكفار

في أربع آيات في سورة البقرة[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

أما بعد. . .

فهذا مجلس في بيان ذهاب طالوت بجنوده إلى الحرب وقتل داود نبي الله جالوت وهزمهم للكفار في أربع آيات في سورة البقرة.

وبيـان ذلك: أنه لما جاءت الملائكة بالتابوت فرح بنو إسـرائيل واستعدوا للقتال، وقال طالوت: لا يخرج مـعي إلا الشاب النشيط الفارغ، لا يخرج معي رجـل مشغول بالتجارة، ولا بالبناء ولا بالتزوج وغير ذلك فخرج على شرطه ثمانون ألفًا.

وذلك قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ**﴾ أي انفصل عن البلد، فإن فصل فصلاً متعد لغة، وفصل فصولاً لازم مبالغة أخرى.

وهنا المراد هو اللازم.

---

(١) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩ - ٢٥٢).

وقيل: أصله متعد فلما كثر استعماله بحذف المفعول أجرى مجرى اللازم، ثم استعمل فصل فصولاً ﴿ بِالْجُنُودِ ﴾ أى مضاجعهم.

﴿ قَالَ ﴾ طالوت مخبرًا عن الله لأنه استنبئ وجعل نبيًا فى رواية، أو بإخبار إشمويل عليه السلام.

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ قيل: كان الابتلاء بعد اقتراح القوم يعنى طلبوا نهرًا يجرى معهم لأنه كان الوقت وقت القيظ والحر.

والصحيح المفهوم من القرآن كون الابتلاء ابتدأ من غير اقتراح.

ويجوز أن يبتلى الله عباده بما شاء، كما ابتلى أصحاب السبت بإتيان حيتانهم يوم سبتهم شُرّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم(١).

والابتلاء هو الامتحان، وهو يكون ممن لا يكون عالمًا بالعواقب، والله سبحانه وتعالى عالم بالجميع فالمراد فى الابتلاء مثل معاملة المختبر ليظهر العمل فالله تعالى يجازى بعلمه، بل يعمل المكلف ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ ﴾ أى «بالكوز» لأن «من» لا تدخل إلا على المبتدأ القريب، فإذا جعل النهر مبتدأ قريبًا بدخول «من» على ضميره، يلزم أن لا يتوسط شىء من الكوز وغيره.

﴿ فَلَيْسَ مِنِّى ﴾ أى من أتباعى بحذف المضاف، أو من المصاحبين المتصلين بى فى السفر بأن تكون «من» للتبعيض ويستلزم التبعيض الاتصال فذكر الملزوم، وأريد اللازم مجازًا.

﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ أى: يذقه خالصًا بأن لم يشرب الماء أصلاً، أو ممزوجًا بأن لا يخلطه بالمطعوم كالخبز وغيره.

﴿ فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ فى التبعية أو فى الاتصال.

﴿ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ استثناء منقطع من قوله: ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ ﴾ ورخصة فى الاغتراف.

وإنما قدم ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ لأنه العزيمة وبيان حال الأخذ بالعزيمة أهم من بيان

---

(١) انظر الآية رقم (١٦٣) من سورة الأعراف ونصها: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

الأخذ بالرخصة فلذا تقدم فصارت الأقسام ثلاثة: الشرب «كرْعًا»[١] وهو المنهى، وعدم الذوق أصلاً وهو العزيمة، والاغتراف بيده وهو الرخصة.

وقيل: قوله: ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ متصلاً بأن يجعل من شرب منه عامًا فى الكرع ليبقى الاستثناء على أصله.

لكن يرد عليه أنه كما أن الأصل فى الاستثناء الاتصال كذلك الأصل والحقيقة فى من شرب منه الكرع، فإخراج المتأخر عن أصله لأجل المتقدم أولى من عكسه.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أى كرعًا.

﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ وهم الآخذون بالعزيمة الغير الذائقين من النهر أصلاً، والمغترفون باليد الأخذون بالرخصة.

قال رسول الله ﷺ «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما لعزائمه»[٢].

وهؤلاء القليلون هم المستثنى فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: ٢٤٦) وعددهم كعدد أصحاب بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر على ما ورد فى الحديث.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أى النهر ﴿هُوَ﴾ أى طالوت.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى القليلون المذكورون.

فيفهم خروج الشاربين كرعًا عن الإيمان لمخالفتهم نبى الله مع الاستحلال.

﴿مَعَهُ﴾ متعلق بجاوز أو بالكائنين المقدر حالاً ﴿قَالُوا﴾ أى المنحرفون الشاربون كرعًا الباقون على شط النهر لأنه روى أنه من شرب كرعًا اسودت شفته وغلب عليه العطش ولم يقدر المجاوزة فى النهر، ومن اغترف باليد للرخصة روى بالغرفة هو ودوابه وملأ قربته معجزة لنبيهم.

كما وقع لنبينا ﷺ تكثير الماء القليل.

﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وإنما قالوا اعتذارًا فى التخلف ولغلبة الجبن

---

(١) (الكرع) وهو التضلع بالماء وهو المنهىّ عنه وهذا رمز الآخذ الكامل من الدنيا. . .

(٢) حديث: (إن الله يحب أن تؤتى رُخَصُه...) رواه أحمد بن حنبل فى المسند، وابن حبان فى صحيحه، والبيهقى فى الشعب، كلهم عن ابن عمر رضي الله عنه، الحديث رقم (٥٥٨١) انظر: السيوطى: جامع الأحاديث ٢/ ٣٤٦.

عليهم لمخالفة نبيهم، وقيل: ضمير قالوا للمجاوزين لقربهم، فالمؤمنون المجاوزون صاروا فرقتين: فرقة تفقهوا بهذا وغرضهم الترغيب فى الشهادة، والفوز بالجنة يعنى تبرأنا من حولنا وقوتنا، وسلمنا نفوسنا لربنا ووطنا أنفسنا على الموت.

وقال فرقة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ إلخ، يعنى نرجو من الله النصره كالشهادة لبعضنا.

فكل من الفرقتين صحيح الإيمان.

وقيل: الفرقة الأولى فى المجاوزين ضعاف الإيمان والفرقة الثانية كمل الإيمان تكلم على حسب إيمانه ومبلغ علمه.

قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ أى: المجاوزون بأمرهم، أو الكُمَّل الإيمان منهم، أو الراجون النصر وسعادة الدارين.

وإن كان المراد من ملاقاة الله تعالى ملاقاة ثوابه أو الختم بالشهادة، فالظن على حقيقته وإن كان المراد المصير إلى الآخرة فالظن بمعنى اليقين.

والمجوز الرجحان فيهما والمرجح الإشعار بأن الواجب على المكلف العلم الاستدلالى لا علم المكاشفة، والاستدلالى لا يخلو عن الهواجس والخواطر كالظن.

﴿كَم﴾ خبرية محلها الرفع على الابتداء.

﴿مِّن فِئَةٍ﴾ مميز كم و «من» زائدة للفصل بينه وبين المفعول فيما ذكر الفعل المتعدى كقوله تعالى: ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ﴾ بينت ثم عمم.

﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ والفئة الفرقة من فاء لوفاء، فوزنه «فعة» أو قلة.

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تيسير أسبابه وتهيئته وحكمه.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: نصرة ومثوبة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ أى: المؤمنون المجاوزون.

﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وكان جالوت عملاقيًا طويلاً عظيم الجثة.

قيل: كانت بيضة درعه أربعمائة رطل من حديد، وجنوده كانوا مائة ألف.

﴿قَالُوا﴾ أى: المؤمنون ملتجئين إلى الله تعالى ومتضرعين له.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾ أى: صُبَّ بكثرة الإفراغ الدلو.

﴿صَبْرًا﴾ الذى هو ملالنا أمر الحرب.

وحق الحق: أى مطلوب الرب من العباد.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ من مداحض الحرب حتى لا نفر وهو متفرع على الصبر وحق الحق أيضًا.

﴿وَانصُرْنَا﴾ وهو مرتب على الأمرين السابقين، وهو حظ النفس، فرتبوا الأمور على ترتيبها وقدموا ما هو حق الحق على حظ النفس.

﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بالله، ولم يقولوا: على أعدائنا، بل على أعدائك.

فلما قاموا لله بالله وراعوا أحسن الأدب فى الدعاء تقبل الله دعاءهم وفرع القبول على الدعاء المذكور بالفاء فقال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كما قالوا فى السابق.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ وهو داود بن إيشا بن عويذ بن سلموان بن باعر بن يحشون ابن غمياد بن رام بن حضروم بن فارض بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام كان مع أبيه وستة من إخوته من المؤمنين المجاوزين للنهر، فبرز جالوت بنفسه إلى الحرب وطلب المبارز طالوت أو غيره فجبن طالوت والمؤمنون كلهم لقوة اللعين، فأوحى الله إلى إشمويل عليه السلام أو طالوت بأن الله يقتله على يد أحد أبناء إيشا، فطلب طالوت أبناء إيشا فجاء إيشا بأبنائه الستة، ولم يجئ بداود لصغره سنًّا وجسمًا، بل تركه عند غنيمة له استصحبها فى السفر فنظر النبى عليه السلام إلى أبنائه فلم يجد العلامة التى أخبر الله فيهم، فقال لإيشا: أليس لك ابن آخر؟ قال: لا، قال: كذبت وصدق الله، وقد أخبر بأنه يقتله ابنك، فقال إيشا: نعم لى ابن آخر لكن هو أضعف أبنائى وأصغرهم، فركب طالوت إلى داود فوجده يأخذ بيديه شاتين شاتين فيجاوزهما عن الوادى رقى لها فقال طالوت: هو أحق بالملك لأن من يرحم البهائم كان أرحم للناس فأردف داود خلفه، فقال: يا داود ألك قوة لمبارزة جالوت؟ قال: نعم إن شاء الله، قال: وما علامة ذلك؟ قال: يجىء الأسود إلى الغنم فأخذ بكفيها وأخرقهما إلى الخلف، قال طالوت: نعم العون أنت، ثم نزل داود عن فرس طالوت، قال: يا داود أتهرب؟ قال: لا ولكن هذا الحجر ينادينى خذنى وألق إلى الكافر فجعله فى مخلاته، ثم مرَّ بحجر آخر فناداه فأخذه، ثم بآخر فأخذه، فجعل الأحجار الثلاثة فى مخلاته، ثم لمَّا جاء إلى العسكر ألبسه طالوت درعًا، وأعطاه السلاح والفرس، وأمره بالمبارزة، ثم إن داود رجع وقال: قد عرض لى رأى هو أن الأجل إن حضر فلا نفع فى السلاح، أو الدرع فأخرجهما، وأخذ مقلاعه، وجعل للأحجار المذكورة فيه وراح إلى عدو الله

فقال اللعين: أيها الصبى، جئت بالمقلاع كأنك تحارب الكلاب، قال داود: نعم إنك كلب أقتلك إن شاء الله تعالى كما تقتل الكلاب، فأدار مقلاعه على رأسه وأرسل الحجارة إلى اللعين، وأمر الله الريح بالتقوية فوصل أحد الحجارة إلى دماغه، والآخر إلى فؤاده، والآخر إلى خاصرته، وكل الحجارة تجاوز عن اللعين إلى جنده فسقط اللعين ميتًا وثلاثون من جنده كذلك فحمل المؤمنون على الكفار دفعة فهزموهم بإذن الله تعالى ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ بعد سبع سنين من ذلك فإن طالوت قاتل عدوًا له مع عشرة بنين، وكان داود غائبًا فقتل طالوت مع بنيه العشرة فاجتمع بنو إسرائيل على تمليك داود.

﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى النبوة، فاجتمع له الملك والنبوة.

﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ أى بعض ما يشاء داود ويطلبه ويسأله، لا ما يشاء الله، لأن ما يشاء الله يقع كله لا بعضه، وذلك البعض مثل سرد الدروع وكلام الطير والدواب وغيرهما.

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أى الكفار بالمؤمنين كما دفع داود والمؤمنون جالوت وجنوده ﴿ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ بغلبة الكفار وتخريبهم البلاد والديار، أو بشؤم كفرهم يخربها.

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فيدفع بجهاد المؤمنين غلبة الكفار واستيلاءهم على البلاد.

قال الإمام فخر الدين الرازى: المدفوع بعض الناس والمدفوع به بعضهم والمدفوع عنه إما بالدين أو الدنيا، فإن كان الدين فالمعنى فيدفع الله تعالى بالنبى ثم بالخلفاء الراشدين ثم بالأئمة المهدبين، ثم بالعلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فى كل عصر الشرور مثل الكفر والمعاصى عن الدين فلا يعم الكفر والفسق حتى يهلكهم الله تعالى بشؤمهما.

وإن كان المدفوع عنه الدنيا فالمعنى فيدفع الله بالنبى عليه السلام ثم بالخلفاء ثم بملوك المسلمين فى كل ... وتخريهم البلاد ... [1] بسالة.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل المخطوط وستدرك على الهامش فالكلمتان غير واضحتين (المحقق).

ولذا قال رسول الله ﷺ : «الدين والسلطان توأمان، والدين أس والسلطان حارس»[١] فلا نفع فى أس بلا حارس كما لا جدوى فى حارس بلا أس كثر الله الملوك العادلين الصالحين فى الدنيا.

تلك القصص من قصة الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وقتل داود عليه السلام جالوت آيات الله المنزلة المعجزة للجن والإنس ببلاغتها ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ بتلاوة جبريل عليه السلام.

﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالصدق ومطابقة الواقع وقد وجدها أهل الكتاب موافقة لما عندهم من الكتب السماوية.

﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لأنك أخبرت بالكلام المعجز الذى يسقط دونه مقدرة الثقلين فى غير تعلم ولا مراجعة أهل الكتاب فهو من عند الله بالوحى آمنا به وصدقناه.

اللهم اكتبنا مع الشاهدين.

---

(١) حديث: (الدين والسلطان توءمان...) لم أقف عليه.

مجلس فى:

بيان الكرامات والإنعامات العشرة التى خص الله بها داود عليه السلام

فى أربع آيات من سورة (ص)[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

أما بعد . . . فهذا مجلس فى بيان الكرامات والإنعامات العشرة التى خص الله بها داود عليه السلام فى أربع آيات من سورة (ص).

روى أن عمر رضي الله عنه لما اجتمعت صناديد قريش عند أبى طالب عم النبى ﷺ فقالوا: أنت سيدنا ورئيسنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء فاقض بيننا وبين ابن أخيك فأحضر رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إن قومك يطلبون منك شيئًا فلا تمل عليهم كل الميل، قال: ما هو؟ قالوا: ارفضنا ذكر آلهتنا ندعك وإلهك، قال: أعطونى كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم، قالوا: وعشرا، قال: قولوا لك إله إلا الله، فقاموا عن المجلس وقالوا: كلمات سخيفة حكاها الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ (ص: ٤) أى من عدادهم بشرًا أو أميًا عربيًا مثلهم.

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل على كفرهم.

﴿هَذَا سَاحِرٌ﴾ فيما يأتى به من المعجزات.

﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يدعيه على الله.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ (ص: ٥) بأن قال وادعى التوحيد فى الألوهية.

---

(١) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص: ١٦ - ٢٠) كما فسرها داخل المجلس.

﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ لمخالفة ما أطبق عليه أكثر الناس لأن الشرك كان شائعًا في زمانهم.

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ ﴾ أى عن مجلس أبى طالب قائلين.

﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ أى على عيادتها.

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أى أمر محمد الله ﷺ.

﴿ لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ (ص: ٦) مما أراد الله فى المصائب من ريب الزمان.

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ التوحيد.

﴿ فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ﴾ أى ملة عيسى عليه السلام لأن النصارى يثلثون يقولون بالأب والابن وروح القدس، وهذا يوجد.

﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾ (ص: ٧) أى كذب مفترى من عنده.

﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ (ص: ٨) أى الوحى والقرآن ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وفينا من الأغنياء جماعة كثيرة وهو فقير غير متبوع، ثم بعد آيات حكى قولهم الآخر[1]:

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ أى قسطنا ونصيبنا من النار أو الجنة أو قرطاس أعمالنا ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾.

قالوه استهزاء، ثم أمر الله نبيه بالصبر وقال: ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من الكفريات.

﴿ وَاذْكُرْ ﴾ بقلبك فى نفسك أخاك.

﴿ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ وما أعطيناه من التكريمات العشر ثم بدله حضرت إليه بالملائكة حتى وبَّخوه بالتمثيل والتعريض بالنسبة إلى البغى والظلم حتى تصون نفسك عما يشينك فلا تستعجل فى الدعاء عليهم، ولا تترك النصح لهم ولا تخرج من بينهم بغير إذنى ليصيبك ما أصاب داود من الحزن الواجب والغم الدائم.

(١) بدأ المؤلف بشرح الآيات (من ٤ - ٨) من سورة ص ليمهّد للدخول فى شرح الآيات الخمس الأخرى التى بدأها بالآية رقم (١٦) وختمها بالآية عشرين (٢٠) ثم حين ذكر المجمل قال فى أربع آيات من سورة (ص) والصحيح أنها خمس آيات أضف إليها خمس آيات أخرى من الآية رقم (٤ - ٨) ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ (ص: ٤ - ٨) فكلها عشر آيات.

أو اذكر بلسانك للكفار وأهل الطغيان من الظلمة عبدنا داود، والكرامات والإنعامات التى ما أعطيناها أحدًا غيره ثم نزله بزلّة يسيرة كيف عرّض ومثل ووبخ حتى يتفكروا فى أحوالهم ويعلموا أن الله يمهل ولا يهمل وأن الله تعالى يجازى كل أحد بما صنعه، والتكريمات العشر:

إحداها: فى (اذكر) لأن سيد المرسلين لما أمر بتذكر حاله للاقتداء كان ذلك تكريمًا كاملاً له.

والثانية: فى إضافة (عبدنا) خصوصًا غير الواحد المضاف إليه بصيغة الجمع للتعظيم.

والثالثة: فى قوله ﴿ **ذَا الأَيْدِ** ﴾ والأيد مصدر «يد» مجرد ذا يد، وهو بمعنى القوة أى ذو القوة فى الدين بحيث مع تقيده بأمور الجمهور وكفاية المهمات كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وهو خير الصيام بشهادة نبينا ﷺ ويقوم نصف الليل أو ثلثه وهو خير القيام، وكان قد قسم زوجاته الطاهرات وكن مائة على ساعات الليل والنهار فلا تمض ساعة إلا وفيها جماعة من أزواجه قائمات عابدات.

والرابعة: ﴿ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ أى رجَّاع إلى مرضاة الله وهو دليل على أن المراد من الأيدى القوة فى الدين.

والخامسة: قوله: ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ** ﴾ أى مع تسبيحه متعلق بقوله: ﴿ **يُسَبِّحْنَ** ﴾ وهو حال من الجبال، أو استئناف لبيان وجه التسخير وإيثار المضارع على مسبحات وهى الأصل فى الحال للدلالة على الاستمرار التجددى فى التسبيح أى كانت الجبال توافقه فى دوام التسبيح ﴿ **بِالْعَشِيِّ** ﴾ أى بعد العصر.

﴿ **وَالإِشْرَاقِ** ﴾ هى وقت الضحى، لأن الإشراق صفاء وضياء الشمس بارتفاعها، يقال: شرقت الشمس ولما تشرق أى طلعت وما صفاء ضيائها بارتفاعها.

وعن النبى ﷺ أنه دخل مكة بيت أم هانى أخت على بن أبى طالب رضي الله عنه فاغتسل وصلى ثمانى ركعات خفيفات صلاة الضحى وقال: «هذه صلاة الإشراق».

والسادسة: قوله ﴿ **وَالطَّيْرَ** ﴾ معطوف على الجبال ﴿ **مَحْشُورَةً** ﴾ أى مجموعة جمعتها الملائكة بأمر الله واختار اسم المفعول، لأن الحشر جملة أدل على القدرة.

والسابعة: قوله ﴿ **كُلٌّ** ﴾ من الجبال والطير ﴿ **لَهُ** ﴾ أى تسبيحه ﴿ **أَوَّابٌ** ﴾ أى رجاع

إلى التسبيح وهو كناية عن كل مرجعًا للتسبيح لأن المرجع للتسبيح رجاع إليه بذكره ثانيًا أو مسبح.

فالمراد بالأواب الرجاع إلى مرضاة الله تعالى وهو يستلزم التسبيح فهو كناية أيضًا.

والثامنة: قوله: ﴿وَشَدَدْنَا﴾ أى قوينا.

وقرئ بالتشديد لتكثير وجوه الشد.

﴿مُلْكَهُ﴾ قيل بكثرة الرجال، لأنه كان يحرس محرابه كل ليلة أربعة آلاف مستم، أى تام السلاح فلا يرجعون إلى سنة، وكثرة الرجال لا تكون إلا بكثرة المال وهى لا تكون إلا بعمارة الأرض وتكثير الرعايا وهما لا يكونان إلا بالعدل وتخليص المظلومين من أيدى الظلمة.

وقيل: بدعاء المستضعفين.

وقيل: بالوزراء الصالحين وقبول الحق من كل واحد.

وقيل: بصنعة الدرع، وسيجيء بيانها إن شاء الله تعالى.

وقيل:: بالسلسلة والهيبة التامة فى قلوب الناس وذلك أن غلامًا من بنى إسرائيل استعدى على رجل من عظائمهم عند داود عليه السلام بأن هذا غصب ثورًا لى فقال نبى الله: البينة للمدعى واليمين على المدعى عليه، فعجز الغلام فى البينة واستحلف خصمه وحلف وانقطع المدعى، ثم إن المدعى عليه لطم الغلام لطمة بمحضره فذهبوا وفى الليل أمر نبى الله فى منامه بقتل المدعى عليه، فلما أصبح قال: إنه منام لا يجوز القتل به، ثم جاءه الملك بالوحى أن اقتله، فأحضر الغلام والمدعى عليه فأمر نبى الله بقتل المدعى عليه فقال العلماء من وزرائه، وكان لقمان الحكيم منهم قال: لا يجوز قتل نفس بسبب لطمة، فقال: قد أوحى إلىّ وأنا لم أفعله ألبتة، فقال المدعى عليه: صدق الله وصدقتَ يا نبى الله إنىّ قتلت أبا هذا الغلام غيلة وأخذت بقرته فقتل الرجل ورد البقرة إلى الغلام فاستعظمت هيبته فى قلوب الناس.

ثم إن الله أعطاه سلسلة ممدودة من السماء إلى الأرض ورأسها عند المجرة، فإذا الخصمان ذهب إلى السلسلة فكل من كان محقًا يأخذ السلسلة والمبطل لا يقدر على أخذها فبها كان يحكم عليه السلام فبعد وفاته أودع ملك جوهرة عند ملك، فراح إلى السفر، وبعد مجيئه طلب الوديعة فقال المودع: إنّى رددته إليك فتحاكما إلى السلسلة

فقال المودع: إن لم يرد إلى وديعتى أعطنى السلسلة يا رب، فأخذ السلسلة فقيل للآخر خذ السلسلة وكان قد عمد إلى عصاه فثقبه وجعل فيه الجوهرة فعندما جاء إلى السلسلة قال لخصمه خذ عصاى واحفظها حتى جىء إلى السلسلة، فأخذ خصمه عصاه والجوهرة فيه لكن لا يعلمها، فقال: يا رب إن كان خصمى قد أخذ جوهرة أعطنى السلسلة فأخذها فقالت الناس إن السلسلة قد ظلمت فرفعها الله ورد إلىَّ البينة واليمين.

والتاسعة: قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ وهى العلم بالأشياء كما هى، وهى الحكمة النظرية، والعمل على ما ينبغى وهى الحكمة العملية.

والعاشرة: قوله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ الفصل مصدر بمعنى الفاصل أو المفصول كرجل عدل للمبالغة، والخطاب الكلام الموجه نحو الغير للإفهام وإضافة الفصل إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف على التأويل المشهور عند البصريين، أى الفصل من جنس الخطاب.

فالمعنى على المفصول أى آتيناه كلامًا مفصولاً تبينه عند كل أحد ولا يلتبس ولا يشكل عليه لأنه كان يراعى مظان الفصل والوصل والحذف والذكر والإطناب والإيحاء والتصريح، والكناية، والمجاز وتحقيقه وغيرها من أسرار البلاغة.

والمعنى على الفاعل: آتيناه كلامًا فاصلاً بين الحق والباطل والمحق والمبطل، وبين المقصد والمقدمة بقوله أما بعد، وهو أول من تكلم بها وكان إذا تكلم بكلام ذى شأن، افتتح بالحمد والسلام على أنبياء الله تم يقول: أما بعد، فصلاً بين المقدمة، والقصد، ثم يجىء بمقصده.

وقيل: فى فصل الخطاب البينة للمدعى واليمين على من أنكر، وقيل: فصل الخطاب بمعنى قصد الخطاب أى الكلام المتوسط بحيث لا يكون إشباعًا مملاً ولا إيجازًا مخلاً، وقد ورد فى مدح نبينا ﷺ: كلامه فصل أى متوسط لا نذر أى قليل، ولا هذر أى كثير.

مجلس في:

نبأ تحاكم الخصم حين تسور هم ودخولهم على داود

في ست آيات من سورة (ص)[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

أما بعد فهذا مجلس فى نبأ تحاكم الخصم حين تسورهم ودخولهم على داود فى ست آيات من سورة ص.

وتثبيت ذلك أنه ابتلى داود عليه السلام كما ابتلى آدم عليه السلام بأكل الشجرة، وموسى عليه السلام بقتل القبطى، وسائر الأنبياء عليهم السلام.

وبيان ذلك أنه كان فى بنى إسرائيل عادة معروفة مشهورة وهى الاستنزال من النساء وهو أنه إذا رأى رجل زوجة آخر - ولم يكن من دينهم حجاب - وتعلق قلبه بها طلب من زوجها أن ينزل عن زوجته أى يطلقها فيطلق ذلك الرجل زوجته، فبعد العدة يتزوج المرأة ذلك الرجل ويعدون ذلك من المكرمات كالنزول فى ديننا وهو أن المهاجرين لما كثروا فى المدينة ولم تكن نساء يتزوجوهن فواسى الأنصار المهاجرين بالنزول أن نزلوا عن نسائهم حتى يتزوجن المهاجرين، فمن كان له امرأتان طلق واحدة ومن كان له

(١) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (من الآية: ٢١ - ٢٦).

ثلاث طلق اثنتيــن وعلى هذا القياس لكن من غـير طلب من المهاجـرين، فالنزول فى ديننا مكرمة كما أن النزول بعد الاستنزال فى دين اليهود مكرمة.

فبناء على هذا استــنزل داود عليه السلام «أوريا بن حنانيا» عن زوجـته فنشائع بنت شائع على ما هو المعنى فطلقها «أوريا» وتزوجها داود عليه السلام بعد العدة وولدت له سليمان بن داود عليهما السلام وكان لداود عليه السلام تسع وتسعون زوجة منكوحة فلم يرض تعالى باستنزاله وإن كان مبــاحًا عندهم، لأن عنده الغنا عن ذلك لأنه كان له تسع وتسعون فى المـهارى ولم يكن لأوريـا غير واحــدة، فأرسل الله المـلائكة: جبـريل وميكائيل مع جمع من الـملائكة عليهم السلام فى صورة الخصوم مـن الآدميين فجاءوا بالتعريض والتمثيل على ما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ هذا الاستفهام تشويق إلى الخبر الآتى وتعـجب على ما يدل عليه الذوق الصحيح لأن مثل هــذا الاستفهام لا يكون إلا فى خبر مجـيب وفيه إشعار بأنه يجب أن يتعلمه المــخاطب وبعده ينشره فى الناس.

﴿نَبَأُ﴾ تحاكم ﴿الْخَصْمِ﴾ وهو فى الأصل مـصدر يصح إطلاقه علـى الجمع، وهم الملائكة المذكورون فى المشهور.

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ متَعلق بالتحاكم.

يقال: تَسوَّرَ البيت أى علا سوره وجداره، كما يقال: تسنم الإبل أى علا سنامه.

فتصـعد المـلائكة المذكورون سور المحراب، أى المصلى الذى يتـعبد فيه داود، عليـه السلام، وكـان نبى الله قـد جزأ أيامـه أربــعة أجــزاء: يومًا للقـضـاء، ويــومًا للوعظ، أو يومًا لنسائه الـمائة، ويومًا يخلو فيه للعبادة فى مـحراب غلق بابه والحرس على الباب لا يتركـون أحدًا يدخل، ففى يوم العبادة نزل الملائكة من فـوق البيت عليه لما قال:

﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ بدل من الأول.

﴿عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم نزلوا من فوق، والحرس على الباب.

﴿قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أى نحن خصمان، فوجان يختصمان، وسمى مصاحب الخصم خصمًا.

﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والتحـاكم والاختصـام والبغى من الملائـكة ليس على

حقيقته، بل المراد هو التمثيل وتصوير المسألة فى أنفسهم، أى مثلاً إن كان كذلك فما الحكم[(١)].

﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أى بالعدل.

---

(١) وهذه قصة أخرى وردت فى الدر المنثور للسيوطى فأردت أن أوردها هنا كاملة كما هى، يقول: وأخرج ابن جرير والحاكم عن السدى قال: إن داود، عليه السلام، قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يومًا يقضى فيه بين الناس، ويومًا يخلو فيه لعبادة ربه، ويومًا يخلو فيه بنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يقرأ من الكتب قال: يا رب أرى الخير قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى، فأعطنى مثل ما أعطيتهم وافعل بى مثل ما فعلت بهم، فأوحى الله إليه: إن آباءك قد ابتلوا ببلايا لم تبتل به، ابتلى إبراهيم بذبح ولده، وابتلى إسحق بذهاب بصره، وابتلى يعقوب بحزنه على يوسف، وإنك لم تبتل بشىء من ذلك، قال: رب ابتلنى بما ابتليتهم به وأعطنى مثل ما أعطيتهم، فأوحى الله إليه: إنك مبتلًى فاحترس، فمكث بعد ذلك ما شاء الله تعالى أن يمكث إذ جاءه الشيطان قد تمثل فى صورة حمامة حتى وقع عند رجليه، وهو قائم يصلى، فمد يده ليأخذه فتنحى، فتبعه فتباعد حتى وقع فى كوة، فذهب ليأخذه فطار من الكوة، فنظر أين يقع فبعث فى أثره فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل الناس خلقًا فحانت منها التفاتة فأبصرته فالتفت بشعرها فاستترت به، فزاده ذلك فيها رغبة، فسأل عنها فأخبر أن لها زوجًا غائبًا بمسلحة كذا وكذا، فبعث إلى صاحب المسلحة يأمره أن يبعث إلى عدو كذا وكذا، فبعثه ففتح له أيضًا، فكتب إلى داود، عليه السلام، بذلك فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا فبعثه فقتل فى المرة الثالثة، وتزوج امرأته، فلما دخلت عليه لم يلبث إلا يسيرًا حتى بعث الله له ملكين فى صورة إنسيين فطلبا أن يدخلا عليه فتسوروا عليه المحراب، فما شعر وهو يصلى إذ هما بين يديه جالسين، ففزع منهما فقالا: لا تخف، إنما نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط، يقول: لا تحف واهدنا إلى سواء الصراط، إلى عدل القضاء، فقال: قُصَّا علىَّ قصتكما، فقال أحدهما: إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحد ة، قال الآخر: وأنا أريد أن آخذها فأكمل بها نعاجى مائة، قال: وهو كاره، قال: إذًا لا ندعك وذاك، قال: يا أخى أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك ضربنا منك هذا وهذا ـ يعنى طرف الأنف والجبهة ـ قال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتلته وتزوجت امرأته، فنظر فلم ير شيئًا، فعرف ما قد وقع فيه وما قد ابتُلى به فخر ساجدًا فبكى، فمكث يبكى أربعين يومًا لا يرفع رأسه إلا لحاجة، ثم يقع ساجدًا يبكى، ثم يدعو، حتى نبت العشب من دموع عينيه، فأوحى الله إليه بعد أربعين يومًا: يا داود ارفع رأسك قد غُفر لك، قال: يا رب كيف أعلم أنك غفرت لى وأنت حكم عدل لا تحيف فى القضاء؟ إذا جاء يوم القيامة أخذ رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دمًا، يقول: يا رب سل هذا فيم قتلنى؟ فأوحى الله إليه: إذا كان ذلك دعوت أوريا فأستوهبك منه فيهبك لى، فأثيبه بذلك الجنة، قال: رب الآن علمت أنك غفرت لى، فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء، حياء من ربه حتى قُبض ﷺ، انظر السيوطى الدر المنثور: ٧/ ١٥٩.

﴿ وَلا تُشْطِطْ ﴾ أى لا تجر، ولا تجاوز عن حد الشريعة تأكيد السابق.

﴿ واهْدنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى وسط هو تأكيد أيضًا.

.﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ بقوله جبريل مشيرًا إلى ميكائيل عليهما السلام.

﴿ أَخِي ﴾ فى الدين والصحبة.

﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ هى الأنثى من الضأن.

﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أى ملكنيها واجعلنى أكفل لها.

﴿ وَعَزَّنِي ﴾ أى غلبنى فى الخطاب أى فى المخاطبة والمحاجة لأنه أقدر عليها منى لقوته البدنية والمالية.

فهذه استعارة تمثيلية من الملائكة بأن ينبهوا حال داود عليه السلام مع أوريا فى استنزاله إياه عن زوجته مع أنه كان لداود عليه السلام تسع وتسعون من الزوجات، ولأوريا لم تكن غير واحدة بحال خليطين يكون لأحدهما تسع وتسعون شاة ولم يكن للآخر إلا شاة واحدة فطلب الأول الشاه الواحدة من الآخر وغلب عليه فى الاختصام فأخذها وتملكها بالبيع والهبة.

والمفردات على حقيقتها وفى التمثيل تعريض لداود عليه السلام وإنما لم يجيئوا بالتصريح لأن التمثيل والتعريض أبلغ فى التوبيخ وأشد تأثيرًا فى القلب وأجلى للحياد فى التصريح، ولأن فيه سترًا على نبى الله تعظيمًا لجانبه.

وقيل: كلمة النعاج ونعجته استعارة للنساء أو كناية عنهن، وفيه ضعف لعدم مناسبة ذكر الخلطاء فى كلام داود عليه السلام حينئذ لأن الخلطة تكون فى الشاة لا فى المرأة، ولأن الاستعارة فى المركب أبلغ من الاستعارة فى المفرد.

﴿ قَالَ ﴾ داود عليه السلام.

﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ أكد الكلام بتقدير القسم واللام وقد يكون ذلك الطلب طمعًا باردًا لا يليق بأصحاب المروءة.

﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ السؤال مصدر مضاف إلى المفعول وهذا السؤال سؤال مطالبة ومغالبة كسؤال الشرطة أموال الرعايا لا سؤال تخضع بدلالة ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ مضيفًا.

﴿ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ من النعاج، والأراضى أو غيرهما.

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وفيه تسلية للمظلوم أى صاحب نعجة واحدة بأن عامة الخلطاء ذلك فهون على نفسك.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يبغون وفيه تخصيص للظالم، أى صاحب النعاج بأن يكون مثلهم.

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ هو كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣) لكن هنا بالغ فى قلتهم بأن تقدم الخبر وأفرد لأن الأصل قليلون، وتكره للتقليل وجيء بما زائدة للتعجب فى قلتهم.

كقول امرئ القيس:

*** وحديث ما مر على قعره ***

فبعدما حكم ضحكت الملائكة وقالوا: حكم الرجل على نفسه، ثم غابوا.

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ﴾ أى أيقن فاستعير الظن لليقين لشركهما فى المرجحات.

﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أى ابتليناه بالذنب وهو الطمع فى الاستنزال، وإن كان مباحًا لأن هذا الطمع مع كثرة الزوجات بارد لا يليق بمنصب النبوة.

وقيل: ابتليناه بتلك الحكومة هل يتنبه لحاله.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ بالاعتذارات الواردة فى الآثار على الأرض.

﴿وَخَرَّ﴾ أى سقط على الأرض.

﴿رَاكِعًا﴾ أى ساجدًا، فاستعير الركوع للسجود بقرينة (خر) بجامع الانحناء فى الظاهر والخضوع فى الباطن.

واستدل أبو حنيفة رحمه الله لهذا على قيام الركوع موضع سجود التلاوة لأنه تعالى عبر به عنه لإغنائه وقيامه.

وقيل: خر للسجدة راكعًا أى مصليًا تسمية للكل باسم الجزء بأن أحرم بركعتى التوبة.

فإنه ورد عن نبينا ﷺ «إنَّ من أذنب ثم تاب فتطهر وصلى ركعتين واستغفر، غفر له»[1].

---

(١) حديث: «**إن من أذنب ثم تاب فتطهر...**» عن عمرو بن ميمون قال: سمعت عثمان بن عفان وكان قليل الحديث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ كما أمر وصلى كما =

﴿وَأَنَابَ﴾ أى رجع إلى الله تعالى بالتوبة.

وقد ورد الدعاء الطويل فى استغفاره وجوده يذكر بعد ذلك.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ أى ما استغفر عنه من الاستنزال والطمع البارد وإن كان مباحًا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربة عظيمة.

﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى مرجع فى الجنة فهو فائز بالسعادتين والجنتين: روحانية وهى الزلفى وجسمانية وهى الجنة.

قلنا بعد المغفرة: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ منا أو فى الأنبياء المتقدمين.

﴿فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى بحكم الله فإنه حق.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أى حظ النفس.

﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى بأن يكون سبب لضلالك.

﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وسبيله دلائله المنصوبة على الحق شرعًا وعقلاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا﴾ بنيانهم ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ فما لم ينس يوم الحساب لا ضلال.

فالأصل هذا النسيان.

وأما ما قيل فى بيان ذلة داود عليه السلام أنه وقع فى يوم طائر من ذهب وجناحاه من زبرجد وياقوت بين رجليه فهمَّ أن يأخذه لصبى له فطار حتى وقع على كوة فذهب ليأخذه

= أمر خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» ثم استشهد رهطا من أصحاب النبى ﷺ فقال: هل سمعتم رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قالوا: نعم هذا حديث تفرد به زياد عن محمد، وفى مسند عبد بن حميد: عن معبد الجهنى عن حمران قال: رأيت عثمان توضأ فأتم وضوءه ثم استضحك فقال أتدرون مم ضحكت قلنا لا قال فإنى رأيت رسول الله ﷺ توضأ فأتم ضوءه ثم استضحك فقال «أتدرون مم ضحكت» قلنا الله ورسوله أعلم قال فإن العبد المسلم إذا توضأ فأتم وضوءه ثم دخل الصلاة فأتم صلاته خرج من ذنوبه كما ولدته أمه، وفى كنز العمال: وإن العبد إذا قام يتوضأ فغسل كفيه خرجت ذنوبه من كفيه، ثم إذا مضمض واستنشق خرجت ذنوبه من خياشيمه ثم إذا غسل وجهه خرجت ذنوبه من وجهه وسمعه وبصره ثم إذا غسل ذراعيه خرجت ذنوبه من ذراعيه ثم إذا مسح برأسه خرجت ذنوبه من رأسه ثم إذا غسل رجليه خرجت ذنوبه من رجليه ثم إذا قام إلى الصلاة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه انظر: مسند عبد بن حميد: ١/ ٤٩ الحديث رقم ٥٩ وانظر أبى نعيم حلية الأولياء: ٥/ ٨ كنز العمال ٧/ ١٣٥٩.

فطار إلى حديقة لأوريا، فنظر داود عليه السلام موقعه فرأى امرأة جميلة تغتسل فى الحوض فلما أحست به حركت رأسها فغطى شعرها جسدها فعشق بها وكان زوجها أوريا فى غزوة بلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود عليه السلام فكتب إلى أيوب أن قدم أوريا على التابوت حتى فتح ثم كتب: وثم حتى قتل، ولم يجزع عليه ثم تزوج زوجته.

فهذا ونحوه افتراء على نبى الله يكذبه القرآن لأنه ليس فيه غير السؤال والطلب على ما مر، بل ليس فيه ما يدل على التزوج غير «وعزنى فى الخطاب».

فمن حدث بذلك يحدث بحديث الفرية على الأنبياء وهو مائة وستون سوطًا على ما قال علىٌّ رضي الله عنه.

وقد حدث بذلك عنه عمر بن عبد العزيز فقال رجل من أهل الحق: إن كان الأمر ما ذكر فى القرآن فحديثك فرية بلا شك، وإن كان الأمر ما ذكرت فقد ستر الله على نبيه فلم تعهد الشر، فقال عمر: هذا خير لى مما طلعت عليه الشمس.

وقيل: بيان الزلة أن أوريا خطب تلك المرأة ثم خطب داود عليه السلام فزوجه أولياء المرأة فعوتب لخطبته على خطبة أخيه المسلم.

وفيه ضعف لعدم ملائمته لنظم القرآن، لأن قوله تعالى: ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ﴾ لا يلائمه.

وأجيب بأنه يحمل على المجاز بحسب الأول.

ورد بأن شرط حسنه الانتهاء كما فى عصر خمرًا وكذا قوله: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ لا يلائم هذا التوجيه لأن هذا الخطاب لا يليق إلا بأولياء المخطوبة، قال أبو منصور الماتريدى:

إن الله تعالى غفار ستار يستر للمذنبين وقد حسب رسول الله ﷺ بالستر حيث قال: «من ستر لأخيه المسلم ستر الله عليه»[1] فلم كشف الله.

وأخبر عن زلات رسله الكرام فى القرآن يقرءون فى الجوامع بصوت رفيع إلى يوم القيامة نجوا به أن فيه حكمًا كثيرة منها:

تنبيه العباد على أنه إذا عوتب الرسل العظام بأدنى زلة فكيف حالكم بالذنوب التى كالحيل، وعلى أنه إذا كان معاملة الرسل فى الزلات اليسيرة الاستغفار، والبكاء الدائم،

---

(١) حديث: «من ستر أخاه المسلم...» عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من ستر أخاه المسلم ستر الله عليه يوم القيامة».

انظر: مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٥٥٢ الحديث رقم (١٠٧٧١) ٢/ ٢٩٦ الحديث رقم (٧٩٢٩).

والحزن الواصب، فكيف تصوركم فى الدعاء والتضرع، والاستغفار مع هذه الذنوب العظام.

ومنها: الرد على المرجئة الذين يقولون: كما لا ينفع مع الكفر الطاعة لا يضر مع الإيمان المعصية بأنه قد تضر بالأنبياء بأدنى زلة حتى عوتبوا بالتمثيل والتعريض ولينبهوا إلى الظلم والبغى فكيف بأصحاب الكبائر والخطايا.

ومنها: الرد على أرباب من أصناف الصوفية يقولون: قلوبنا عند الله عاكفة وإنما تخوض إلينا رإدتنا، ولا يضرنا شىء من المعاصى بأنه إذا ضر ذلك بالأنبياء العظام فكيف بكم، أيها المغرورون.

ومنها: ... [1] الحجارة أفواه السلاطين الظلمة كما يحكى أن الوليد بن عبد الملك ابن مروان كان من أعظم الخلفاء والملوك فأحضر يومًا الزهرى، وعمر بن عبد العزيز، وإبراهيم أبا زرعة، فقال امرؤ عن خبر مشهور بين الناس هو: أن الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا يكتب عليه ... هل له أصل فى دين الإسلام، أو ورد فى الكتب السالفة؟.

وكان إبراهيم أبو زرعة قد قرأ الكتب السالفة، فأجاب عمر بن عبد العزيز، وقبل إبراهيم أبو زرعة وقال: يا أمير المؤمنين أنت أكرم عند الله أم داود عليه السلام رسول الله؟.

قال: أكرم فأكرم.

قال عمر: إن الله قد أوعده بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾.

مع عظم شأنه، فكيف بأمثالكم، فكأن ألقمه الحجر، ثبتنا الله على الصراط المستقيم آمين يا رب العالمين.

وقد روى محيى السنة، ومعالم الرتبة عن ابن عباس وكعب الأحبار وغيرهما ﷺ أجمعين دعاء داود عليه السلام فى سجوده وهو هذا، يردد هذا الدعاء تعظيمًا الذنب الحقير، وتواضعًا للرب الكبير وهو اللائق بحال الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) ما بين المعقوفتين غير واضح فى المخطوط لسوء التصوير.
ولعلها «إلقام الحجارة أفواه السلاطين الظلمة» وهى عبارة مقبولة.

وكان فى دعائه فى سجوده يقول:

سبحان الملك الأعظم الذى يبتلى الخلق بما يشاء.

سبحان خالق النور سبحان الحائل بين القلوب، سبحان خالق النور.

إلهى: خلّيت بينى وبين عدوّى إبليس، فلم أقم لفتنته أتنزل بى سبحان خالق النور.

إلهى: أنت خلقتنى وكان فى سابق علمك ما أنا إليه صائر، سبحان خالق النور.

إلهى: الويل لداود إذا كُشف عنه الغطاء، فيُقال هذا داود الخاطىء، سبحان خالق النور.

إلهى: بأى عين أنظر إليك يوم القيامة، وإنما ينظر الظالمون بطرف خفى، سبحان خالق النور.

إلهى: مِمّن يطلب العبد المغفرة؟ من له غير سيده؟ سبحان خالق النور.

إلهى: لا أطيق موت بعدك فكيف أطيق صوت جهنم؟ سبحان خالق النور.

إلهى: الويل لداود فى الذنب العظيم الذى أصاب، سبحان خالق النور.

إلهى: برحمتك اغفر لى ذنبى ولا تباعدنى عن رحمتك لهوانى، سبحان خالق النور.

إلهى: أعوذ بنور وجهك إليك [...][1] ذنوبى التى [...][1] سبحان خالق النور.

إلهى: فررت إليك بذنوبى، واعترفت بخطئى فلا تجعلنى من القانطين ولا تخزنى يوم الدين، سبحان خالق النور.

إلهى: الويل لداود، الويل لداود، سبحان خالق النور.

إلهى: الويل لداود إذا نصب الموازين بالقسط، سبحان خالق النور.

إلهى: الويل لداود ثم الويل الطويل لداود حين يؤخذ بذنبه فيدفع إلى المظلوم، سبحان خالق النور.

إلهى: الويل لداود ثم الويل الطويل لداود حين يُسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور.

فأتاه نداء من السماء: يا داود قد غفرت لك ذنبك، ورحمت بكاءك فاستجبت لك، وأقلتُ عثرتك.

---

(١) الكلمات فيما بين المعقوفتين غير واضحة فى نسخ الأصل المخطوط.

قال: يا رب كيف، وصاحبى لم يعفُ عنى.

وهذا لأنه كان قد آثر الاستنزال فى «أوريا» وكان قد مات وقت نزول.

قال: يا داود أعطيه يوم القيامة من الثواب ما لم تر عيناه، ولم تسمع أذناه، فأقول له: رضيت عبدى.

فيقول: يا رب من أين لى هذا ولم يبلغه عملى.

فأقول: هذا عوض من عبدى داود، فأستوهبك منه فيهبك لى.

قال: يا رب الآن قد عرفت أنك غفرت لى.

وعن ابن عباس ﷺ قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة فسجدتُ فسجَدَت الشجرة لسجودى فسمعتها تقول: اللهم اكتب لى بها عندك أجرًا، وضع عنى بها وزرًا واجعلها لى عندك زخرًا، وتقبلها كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام[1].

قال ابن عباس ﷺ: فقر له النبى سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة».

رواه الترمذى، وابن ماجه إلاَّ أنه لم يذكر (وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود).

وقال الترمذى: هذا حديث غريب.

الحديث مذكور فى مشكاة المصابيح.

---

(١) حديث: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ.

انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٨٣ وانظر: تفسير البغوى: ١/ ٨٤ وسنن الترمذى ٢/ ٤٧٢ الحديث رقم (٥٧٩) و ٥/ ٤٨٩.

مجلس في:

حكم داود وسليمان عليهما السلام

في خمس آيات من سورة الأنبياء[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

أما بعـــــد. . .

فهـذا مجلس في حكم داود وسليـمان عليهـما السلام في خـمس آيات من سورة الأنبياء.

وبيـان ذلك أنه رعت ليلا بـلا راع غنم قوم زرع جـماعـة أو كـرمهم، قـد تدلت عناقيده، فدخلوا على داود فحكم برقبة الغنم لأصـحاب الزرع وكان قيمة الغنم مسلوبة لما أفسدته ثم خرجوا فـقال لهم سليمـان، وهو بالباب ابن إحدى عشـرة سنة: كيف حكم أبي؟ فأخـبروه فقال: غيـر هذا أرفق بالفريقين، أو قال: لو ولّيتُ حكـمت بغير هذا، فأخبر داود عليه السلام بذلك فدعاه فقال: يا بني لو وليت كيف كنت تحكم، أو أخبرني بحق النبوة والأبوة، أي حكم أرفق بالفريقـين؟ فقال: أن تعطى الغنم لأصحاب الحرث ينتفعون بألبانها وصوفهـا ونسلها وأن يقوم أصحاب الغنم على الحرث ويعمروه حتى إذا عاد الحرث في الـعام القابل إلى حالتها الأولى يرد الغنم لأصـحابها والحرث لأصحابه، فقال داود: القضاء ما قضيت فحكم بذلك، وهو قوله:

---

(١) ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٨ - ٨٢).

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أى: اذكرهما ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ بدل منهما، بدل الاشتمال إذ الأعيان تشتمل على ما فيها والحكم ماض بدلالة إذ، وصيغة المضارع لاستحضار الحال الماضية للاستغراب.

﴿فِي الْحَرْثِ﴾ أى فى شأنه وهو إما الزرع على ما هو الظاهر من لفظ الحرث، وإما الكروم على ما روى عن الصحابة أنه الكرم قد تدلت عناقيده.

﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ ظرف ليحكمان، والنفش بالتحريك الرعى بلا راع فى الليل والعمل فى النهار.

﴿فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أى لحكم الحاكمين لهم وعليهم، وإضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول رفعة لأن المراد فى الإضافة الاختصاص وهو مشترك بينهما، وكان للدوام، أى كنا للحكم المختص لهم.

﴿شَاهِدِينَ﴾ عالمين، وهذه جملة معترضة لأن ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ معطوف على يحكمان، وفائدة الاعتراض تقرير الحكم السابق، لأن شهود الحكم يقرره ففهمناها أى الحكومة، أو الفتوى.

﴿سُلَيْمَانَ﴾ وتخصيصه يدل على أنهما اختبرا فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما السلام لأن الاجتهاد على الأنبياء يجوز وهو الحق.

ويجوز الخطأ منهم لكن لا يقررون على الخطأ، بل ينبهون عليه كما ههنا.

﴿وَكُلاًّ﴾ من داود وسليمان.

﴿آتَيْنَا حُكْمًا﴾ وهى الحكمة أى العلم المؤيد بالعمل.

﴿وَعِلْمًا﴾ بشرائع الدين فكان اجتهاد داود عليه السلام ممن علم وهدى ولم يكن على هدى فالخطأ لا يضره بل هو مأخوذ فيه لاجتهاده وهذه الجملة تكميل واحتراس لدفع وهم أن الخطأ فى مثل هذا يضر.

وحاصله أنهما جميعًا كانا جامعين لشرائط الاجتهاد وكان حكم كل منهما شرعيًا ونظير حكم داود عليه السلام فى شرعنا.

قال أبو حنيفة رحمه الله: فى العبد الجانى على النفس أو الطرف خطأ أنه يدفع مولى العبد العبد ولى الجناية، أو يعطى أرش الجناية.

ونظير حكم سليمان فى شرعنا ما حكم الشافعى رحمه الله فى ضمان الجعولة من

أنه إذا غصب أحـد عنه فأبق عند الغاصب فـيحكم بأن يدفع الغاصب قـيمة العـبد إلى مولاه فينتفع بالتجارة بها، فإذا ظهر العبد يتردان أى الغاصب بعبد والمولى القيمة.

وأما حكم هذه المسـألة فى شرعنا، فعند أبـى حنيفة لا ضمـان بالليل ولا بالنهار وفى نفش الغنم ورعـيهـا إذا لم يكن صاحـبهـا عندها لقوله ﷺ (جـرح العجـماء جبار)[1].

والعجماء البهائم لعدم نطقها، والجبار الهدر أى باطل.

وعند الشافـعى إذا كان بالليل يضـمن وإذا كان بالنهار لا يـضمن لأن النبى ﷺ حكم على أصـحاب المواشى بحـفظها فى الليل، وعلى أصـحاب الزرع بحـفظها فى النهار، ودلت هذه الآية الكـريمة على أن المجـتهد قد يـخطئ دون يصيب، وعلى أن المخطئ معذور بل هو مأجور وعلى أن الحق فى المسألة والاجتهاد واحد.

واعلم أنَّ الاجتـهاد لا ينقص الاجتهـاد فى شرعنا والظاهر أنه كذلك فى شـرعهم فرجـوع داود عليه السـلام فى حكمه كـان بالوحى إليه بأن تأخـذ بحكم سليمـان عليه السلام فلا يرد شيء، وقريب من هـذه القصة المذكورة فى القرآن ما أخـرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهـما عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما جاء الذئب فأخذ أحـد الاثنين فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان عليه السلام فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: رحمك الله وهو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى»[2].

وهكذا القـصة التى أوردها الحـافظ أبو القاسم ابن عـساكـر عن ابن عـباس ﷺ موقوفًا: أن امـرأة حسناء فى زمن داود راودها عن نفسها أربعـة من رؤساء بنى إسرائيل فامتنعت عن كل منهم فاتفقوا فيما بينهم عليها فشهدوا عليها عند داود عليه السلام أنها

---

(١) **جرح العجماء** انظر: تفسير الطبرى: ١١/ ٢٦٩ وفتح القدير ٣/ ٥٩٨ وموطأ مالك: ٢/ ٨٦٨ الحديـث رقم (١٥٦٠) ٣/ ٢٨/ ١٦٧٦ وصحيح الـبخارى ٢/ ٥٤٥ الحـديث رقم (١٤٢٨) وصحيح مسلم ٣/ ١٣٣٤ الحديث رقم (١٧١٠).

(٢) حديث: «**بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب...**».

انظر: تفسـير ابن كثـير ٣/ ٢٥٠ وقال رواه الإمـام أحمد فى مـسنده، وانظر مسنده ٢/ ٣٢٢ الحديث رقم (٨٢٦٣) وانظر: البـيهقى فى السنن الكبـرى ١٠/ ٢٦٨ الحديث رقم (٢١٠٧٧) والنسائى فى السنن ٣/ ٤٧٣ الحـديث رقم (٥٩٦٠) وصحيح مـسلم ٣/ ١٣٤٤ الحديث رقم (١٧٢٠).

مكنت من نفسها كلبًا قد عودته ذلك منها فأمر برجمها، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله فانتصب حاكمًا فتزايا أربعة منهم بزى أولئك وآخر بزى المرأة وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبًا لها فقال سليمان: فرّقوا بينهم، فسأل أولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود، فعزله واستدعى الآخر فسأله فقال: أحمر، وقال الآخر: أعبس، وقال الآخر: أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم فحكى ذلك لداود عليه السلام فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا فأمر بقتلهم.

ولما أخبر الله تعالى بما يشتركان فيه من الحكم والعلم أخبر بما يخص كل واحد منهما ليكون دليلاً على اختصاص سليمان عليه السلام بدقة الفهم فيما حكى عنه وهو أنه تعالى سخر لداود عليه السلام كشف الأشياء وهو الحجر بإعادة التسبيح معه والحديد بالإلان فى يده لصعنة الدرع وسخر لسليمان عليه السلام ألطف الأجسام وهو الريح يحملها كرسيه والشياطين بغوصهم واستخراجهم جواهر البحر، وعملهم الصنائع الغريبة فصنعة كل دلت على لطافة علمه فلما كان ما سخر لسليمان وعمل لها لطف كان علمه ألطف.

فلذا حكم بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فقال تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ﴾ أى تابعًا له فى التسبيح فلم يكن فيه نفع له غير خرق العادة، فلذا لم يجئ باللام ﴿الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ حال من الجبال، أو استئناف لبيان كيفية التسخير.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه.

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ مثل ذلك الخارق للأنبياء فلم يكن بدعاء منا وهو تذييل بما أخرج مخرج المثل، أو قادرين على ذلك التسخير، فذكر الفعل وأريد القدرة عليه مجازًا.

أو هو أيضًا تذييل بالوجه الخاص.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ أى داود عليه السلام.

﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ أى لباس وهو الدرع يلبس فى الحرب ﴿لَّكُمْ﴾ أى لأجلكم يا أمة محمد، متعلق بعلمناه ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أى الصنعة وهو بدل اشتمال من لكم بإعادة الجار.

﴿مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ أى جرحكم فى الحرب.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أى فاشكروا، وإنما أخرج مخرج الاستفهام الإنكارى للمبالغة والتقريع.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أى سخرنا له، وإنما جىء باللام هنا لأن أمر الريح مع كونه خارقًا للعادة تابع له لحملها ساعة إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق النفس.

﴿عَاصِفَةً﴾ أى شديدة فى أول هبوبها لتستقل بكرسيه، ثم تجرى رخاء لئلا تؤذى أحدًا وكان عليه السلام قد عمل له الإنس والجن كرسيًا من الخشب على أعمدة فرسخًا فى فرسخ، فإذا أراد غزوًا، أو سفرًا حمل عليه أحماله، وأثقاله، وجنوده والدواب، والجمال، والبغال، والخيام وجميع آلات الحرب وأسبابها، فيأمر الريح العاصفة فترفع الكرسى، ثم تجىء الريح الرخاء بلا أذية لراكبها وبلا إثارة الغبار وتنفير الطائر وغير ذلك.

فتجرى بهم غدوها شهر ورواحها شهر تجرى بأمره كيف يريد لإتمام غزوه وسفره.

﴿إِلَى الأَرْضِ﴾ هى أرض الشام وبيته كان فى تدمر بلد فيها.

﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بخيرات الدارين.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ فعلمنا أن سليمان عليه السلام كان أهلاً لذلك الإنعام، فإنه مع تلك الدولة العظيمة كان لا يرفع رأسه تعظيمًا لربه، وهو تكميل أيضًا.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى سخرنا من الشياطين، كفار الجن من موصوفة صفتها.

﴿يَغُوصُونَ لَهُ﴾ فى قعر البحار ويستخرجون جواهرها ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ عطف على يغوضون صفة أيضًا.

﴿عَمَلاً﴾ أى كثيرًا لأن التنكير للتكثير.

﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ أى مجاوز من الغوص أى سواه فى بناء المدن والقصور والصناعات الغريبة كبناء الحمام وعمل النورة وبناء الطواحين وعمل القوارير، وعمل الصابون ولم يكن شىء منها قبل ذلك.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ﴾ أى للشياطين.

﴿حَافِظِينَ﴾ أى من أن يزيغوا من أمره أى يخالفوه، أو يهربوا منه، أو يفسدوا ما عملوه لأن عادتهم إفساد ما عملوا فى النهار بالليل.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (سبأ: ١٢) وهو أيضًا احتراس وتكميل لدفع وهم سوء مغبة الشياطين على ما هو دأبهم.

أعاذنا الله تعالى من شرورهم.

مجلـــس فـــى:

بيان وفاة داود عليه السلام وقيام سليمان عليه السلام مقامه وحشر جنوده وإتيانهم على واد النمل

في خمس آيات من سورة النمل(١):

بسم الله الرحمن الرحيم

وسلام على عباده الذين اصطفى

أما بعـــــــد....

فهذا مجلس فى بيان وفاة داود عليه السلام وقيام سليمان عليه السلام مقامه وحشر جنوده وإتيانهم على واد النمل، فى خمس آيات من سورة النمل.

قال الله تعـالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أى نوعًا من العلم فـالتنكير للتنويع، أو علمًا عظيمًا فالتنكير للتعظيم وهذا العلم علم الحكم والأحكام.

فالأول: علم المبدأ والمعاد أى العلم بالله وصفاته علمًا جليًا بحيث يصير صاحبه مستغرقًا فيه لا يعرض فيه له شبهة ولا يغفل عنه لحظة.

والثاني: هو الحكمة العملية المسماه بالفروع والفقه وعلم الشرائع.

﴿وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والمعطوف عليه محذوف، فالواو فصيحة، أى مرنا على فعل الطاعة وترك المعصية فهو عمل القلب وفعلا جميع أنواع الطاعات وتركا جميع أصناف المعاصى فهذا عمل الجوارح.

---

(١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٥ - ١٩).

﴿ وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهذا عمل اللسان، فقد آتينا جميع أفراد الشكر بالقلب والجوارح واللسان على ما قال الشاعر:

أفـادتـكم النَّعْـمـاء منى ثلاثة يدى ولسانى والضـمير المحجَّبا

وقيد الكثير لأن فوق كل ذى علم عليم، إن ينتهى إلى الله تعالى فقد أفاد هذا القيد أنهما وإن فضلا على كثير فقد فضل عليهما البعض وهو نفسه كثير واحتمال المساوات ساقط فى مثل هذا المقام للعرف، فإذا قيل: لا أفضل منه فى البلد يفهم منه بحسب العرف أنه أفضل من الكل.

وقيد المؤمنين لسقوطه غيرهم عن درجة الاعتبار، وهم الذين لم يؤتوا مثل علمهما وفيه تنبيه على شرف العلم إذ لم يحمد إلا عليه مع أنهما قد أوتيا من الملك والمال ما يفوت عن الحصر، وعلى أن العالم يجب أن يعتقد أنه وإن فضل على البعض فقد فضل عليه كثير.

وأن يتواضع بتسليم العلم إلى الله تعالى.

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ روى لما أنه بلغ داود عليه السلام مائة سنة من عمره وملكه أربعين سنة آتاه خبر من السماء أن استخلف ابنك سليمان واسأله خمس عشرة مسألة وعمره إذ قال: ثلاث عشرة سنة.

فاستحضر داود عليه السلام علماء بنى إسرائيل وكبراءهم وأحضر سليمان عليه السلام فقال: يا بنى الله تعالى أمرنى أن أسألك مسائل إن أجبت أستخلفك على الناس، فقال سليمان عليه السلام: سل وما توفيقى إلا بالله، فقال داود: ما أقرب الأشياء إلى الإنسان؟ وما أبعدها؟ وما آنسها؟ وما أوحشها؟ وما أحسنها؟ وما أقبحها؟ وما أقلها؟وما أكثرها؟ وما القائمانلله وما الساعيان؟ وما المشتركان؟ وما المتباغضان؟ وما المتحابان؟ وما الذى آخره محمود؟ وما الذى آخره مذموم؟.

فقال سليمان عليه السلام: أقرب الأشياء إلى الإنسان الآخرة وأبعدها الدنيا ما فات من الدنيا وأنسها جسد فيه الروح، وأوحشها جسد لا روح فيه، وأحسنها الإيمان بعد الكفر، وأقبحها الكفر بعد الإيمان، وأقلها اليقين وأكثرها الشك، والقائمان السماء والأرض، والساعيان الشمس والقمر، والمشتركان الليل والنهار، والمتباغضان الموت والحياة، والمتحابان الجسد والروح، والشىء المحمود آخره الحلم والعفو بعد الغضب، والشىء المذموم آخره إجراء الغضب.

ثم صعد داود عليه السلام المنبر فقال: أيها الناس إن الله تعالى قد ملك عليكم ابنى سليمان فأطيعوه.

وكان لداود عليه السلام تسعة عشر ابنًا، فقال الناس: يا داود إن سليمان صغير والمستحقون للملك كثيرون، فقال داود عليه السلام: إن هذا الأمر وهبى لا كسبى فأعطونى عصيكم سأريكم آية، فكل من كان فى رأسه دعوى الرياسة أتى بعصاه وأتى سليمان أيضًا بعصاه، فجعل داود عليه السلام العصا فى بيت وأحاطوا به إلى الصباح ثم فتحوا باب البيت ووجدوا عصا سليمان عليه السلام تهتز فقد اخضرَّت وأورقت وأثمرت فعند ذلك استقر بنو إسرائيل واطمأنوا لسليمان عليه السلام.

فبعد ليال جاء ملك الموت إلى داود عليه السلام على ما أخبر رسول الله ﷺ: «كان داود غيوراً يغلق الأبواب على نسائه كلما دخل أو خرج فذات ليلة دخل داود عليه السلام وأغلق الأبواب ودخل مضجعه ثم جاءت جارية قالت: يا نبى الله فى وسط الدار رجل قائم فخرج داود عليه السلام فقال: من أنت؟ لم دخلت دارى بغير إذنى؟ قال: أنا الذى لا يهاب الملوك ولا يمتنع من الحُجَّاب، فقال: أنت ملك الموت؟ قال: نعم، جئت راعيًا أم ناعيًا، قال: ناعيا، قال: فلم لم تخبرنى قبيل حتى أستعد للموت؟ قال: أخبرتك مرات: بموت أبيك، وأمّك، وأختك وأولادك، وجيرانك، فبسط داود بساطًا هناك فاضطجع فانتقل إلى جوار الله تعالى.

ففى الغد جهز سليمان أباه ثم خطب الناس وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ النبوة والعلم دون المال، لأن مال الأنبياء لا يورث، بل ما تركوه صدقة ولأنه لو كان المراد ميراث المال لورث بنو داود عليه السلام وكانوا تسعة عشر، وزوجاته وكن مائة.

فإن قيل: النبوة لا تورث بل هى عطية مبتداة.

قلنا: المراد من الإرث قيام سليمان مقام أبيه أى لم يقم مقام داود عليه السلام فى النبوة والملك إلا سليمان دون بنيه الآخرين.

وقال فى خطبته للناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ بأن آتاه الله تعالى قوة قدسية إذا صاح طير علم بها أن هذا الصوت لأى غرض ولأجل خيال نشأ فيخبر الناس بخبره، وهذا العلم خارق للعادة ومعجزة، فهذا ادعاء للنبوة وإظهار المعجزة.

﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ والمراد من الكل الكثرة لا استيعاب الأشياء وهو الملك، والسلطنة فقد قام مقام أبيه فى النبوة والعلم اللازم لها والملك.

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ المذكور من النبوة والملك.

﴿ لَهُوَ الْفَضْلُ ﴾ لنا على الناس به نستحق التقدم والرياسة.

﴿ الْمُبِينُ ﴾ الظاهر كونه فضلاً.

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ ﴾ أى جمع من كل أوب ومن كل ناحية.

﴿ مِنَ الْجِنِّ ﴾ قدم لكون تسخيره أشق.

﴿ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ ﴾ دل النظم على عدم تسخير الوحوش لأن استيعاب الأقسام قد حصل.

﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى يمنعون ويكفون بأن يحبس أوائلهم فى المسير من يلتحق أواخرهم لكى يجتمعوا أو يكونوا يداً واحدة على أعدائهم والاجتماع يكون أحسن فى الهيئة، وأعظم فى الهيبة أو يمنعون من التظالم بأن يكون لكل قبيل أمراء يمنعون أتباعهم عن الظلم ومعصية الله فتكون إشارة إلى أن جنود سليمان عليه السلام كانوا مسوسين غير مهملين.

قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزع بالسلطان أكثر ما يزع بالقرآن»[1].

﴿ حَتَّىٰ ﴾ ابتدائية غاية فى المعنى للمسير المفهوم فى يوزعون، لأن الوزع فى المسير أى ساروا.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا ﴾ فيدل يوزعون دلالة ظاهرة على أن الجنود كانوا يسيرون على الأرض سواء كان قبل تسخير الريح أو بعده.

وكذا ظاهر قوله: ﴿ أَتَوْا ﴾ وكذا قوله: ﴿ يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾.

---

(١) حديث: «يزغ بالسلطان أكثر ما يزغ بالقرآن...».

ورد أنه من كلام الحكماء وليس بحديث، قالها أثناء توضيح فكرة استخدام السيف لنشر الدعوة إذا رأى ولى الأمر ذلك، فقال: لما تبين للعقلاء عنادهم سقط لذلك إرشادهم ووجب حملهم على السيف وجهادهم فقد يفعل الله بالسيف واللسان ما لا يفعل بالبرهان ومن كلام الحكماء يزغ الله بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن فأعرض العقلاء عنهم. انظر: الكتاب: الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تأليف: محمد بن أحمد بن أبى بكر ابن فرح القرطبى، أبو عبد الله، تحقيق: د/ أحمد حجازى السقا، طبعة: دار التراث العربى - القاهرة ١٣٩٨م.

﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ وكلمة «على» لأن إتيان الوادى كان من فوق بأن نزلوا من الجبل على الوادى.

أو تقول العرب: أتى عليه، أى قطعه وأنفده، لكن المراد فى القطع إرادته لأنه لا حطم بعد القطع فالمعنى إذا أرادوا قطع وادى النمل بأن دخلوا فيه وأرادوا النزول من غبايته.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ اسمها طاخيت وهى مؤنثة لقوله (قالت) ولو كان ذكرًا لقال: قال نملة، لآن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر والأنثى والفرق بالضمير أو بالوصف أو باسم الإشارة حماميه ذكرًا أو أنثى أو هو، أو هى، أو هذا، أو هذه، كذا أجاب الإمام الأعظم رحمه الله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ فإنها صاحت وقرّت ونبهت من بحضرتها وشبهت هذه الهيئة بهيئة القول والدخول فاستعيرت لها تمثلية.

ويجوز أن يعطيها الله العقل والنطق.

﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ فهى بدل، بدل الاشتمال عن الأمر ومعناه: لا تكونوا بحيث يحطمنكم جنود سليمان.

وقيل: نفى جواب للأمر، ونون التأكيد لأن المعنى على النهى كما سبق.

﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ حال إذ لو شعروا لما يحطمونكم، لأن سليمان عليه السلام نبى معصوم وجنده مسوّسون غير مهملين فعلمت النملة تقوى سليمان وتقوى جنده.

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ أى فسمع سليمان من ثلاثة أميال كلام النملة ففهمه فتبسم.

فإن قيل: كان قد علم سليمان منطق الطير والنملة ليست بطير؟.

قيل: كان لها جناحان على ما فى النمال فكانت كالطير.

والصحيح كان هذا معجزة مبتدأة فسماعه عليه السلام لمنطق الطير وفهمه على العموم وسماعه لكلام النملة وفهمه على الخصوص.

﴿ضَاحِكًا﴾ أى ساراً أو داخلاً فى حد الضحك لأنه كان يبستم كثيرًا على ما هو شأن الأنبياء، ولا يدخل فى حد الضحك إلا هنا دخل فى حد الضحك، فضاحكًا، حال مؤكدة.

﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ أى لأجل قولها: وإنما ضحك فرحًا بما آتاه الله من شيوع حيث

عرف حتى ما يتفوه به الحيوانات العجماء على ما فهم من قولها: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ ومسرورًا بما علمه الله من كلام النمل وفهمه.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أى وفقنى وألهمنى، وحقيقته اجعلنى وازعًا: أى راضيًا إذا شكرت وسابقًا لذهابه عنى ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من تعليم منطق النملة وإشاعة صيت العدل وغير ذلك.

﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ بالإيمان والعلم والنبوة وغيرها لأن النعمة على الوالد نعمة على الولد خصوصًا فيما يتعلق بالآخرة لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (الطور: ٢١).

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ والعمل داخل فى الشكر فهو تخصيص بعد التعميم.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ فإن دخول الجنة فضل من غير إيجاب.

﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ داخلاً فى عدادهم، حال من المفعول فى أدخلنى أى أدخلنى حال كونى فى عدادهم الجنة بفضلك لا بعملى والصلاح باستقامة الأقوال والأفعال على وجه الكمال فلذا يطلبه الأنبياء.

وحكايات مناطق الطير من الإسرائيليات مذكور فى التفسير فلنذكر ههنا.

روى أن سليمان عليه السلام أخبر بما تقصده الطيور فى أصواتها فقال: يقول [. . .][1] للحوت وأتوا للحراب [. . .] لمن يخلقوا، ويقول الطاوس: كما تدين تدان.

ويقول الهدهد: من لا يرحم لا يُرحم.

ويقول الطير: واستغفروا الله يا مذنبين.

ويقول الطوطى: كل حى ميت وكل جديد بال.

ويقول الحصان: قدموا خيرًا تجدوه.

وفى رواية: يقرأ الفاتحة ويمد الضالين.

وتقول الحمامة: سبحان ربى الأعلى ملء سمواته وأرضه.

ويقول القمرى: سبحان ربى الأعلى.

قال الغراب: يدعو على العشاء.

وتقول الحدأة: كل شىء هالك إلا الله.

(١) ما بين المعقوفتين غير واضح فى المخطوط.

ويقول القطاة: من سكت سلم.

ويقول الببغاء: ويل لمن للدنيا قوة.

ويقول الضفدع: سبحان ربى القدوس.

ويقول البازى: سبحان ربى وبحمده.

ويقول الدراج: الرحمن على العرش استوى.

ويقول البلبل: فعلى الدنيا العفاء.

ويقول القنبر: اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد.

ويقول الديك: اذكروا الله يا غافلين.

ويقول الحمار: اللهم العن العشَّار.

ويقول الفرس: إذا التفت الصفات: سبوح قُدُّوس رب الملائكة والروح.

ويقول الزوزور: اللهم إنى أسألك قوت يوم ويوم يا رزاق.

ويقول النّسْر: يا بن آدم عش ما شئت آخره الموت.

ويقول العقاب: من صار حتى الغد من الناس أنس.

وقال مقاتل ﷺ: نسجت الشياطين لسليمان عليه السلام بساطًا فرسخًا فى فرسخ ذهبًا فى أبريسيم وكان يوضع له ميسرة من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه، وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضة يقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة، وعوام الناس، وحول الناس الجن والشياطين وتظل الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع الريح الصبا مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح، ومن الرواح إلى الصباح.

وقال ابن عباس ﷺ: كانت النملة إذ ذاك كالذباب والكلاب.

وقال مجاهد: كانت غلاً ذوات أجنحة.

وفى تفسير الشيخ أبى القاسم بن حبيب عن وهب قال: قرأت فى بعض الكتب أن سليمان عليه السلام ركب ذات يوم مركب الريح فلما قرب من وادى النمل سمع قول النملة وكان يسمع قولها من ثلاثة أميال فأمر الريح حتى وقفت فقال للنملة: ما قولك لا يحطمنكم وأنا على الهوى، فقالت: إنى لم أرد حطم الأرجل إنما أردت حتى لا ينظروا إلى ملكك فيتمنوه فيكون ذلك حطمًا لقلوبهم.

وفى رواية: قالت: خفت أن تستغلوا بالنظر إلى ذلك فيغفلوا عن تسبيح الرب، ثم قالت: يا سليمان ما سألت ربك؟ قال: سألته ملكًا لا ينبغى لأحد.

قالت: فما أعطاك؟ قال: أعطانى خاتمًا جعل ملكى فيه، قالت: إنه يقول لا تفخر به فإنه حجر، قالت: وما أعطاك أيضًا؟ قال: أعطانى مركب الريح، قالت: ركبت مركبًا غدوها شهر ورواحها شهر فأين أنت من مركب يوصلك فى ساعة إلى العرش، ثم قالت: إن جندى المطيع لى من جندك لك، قال: ولم؟ قالت: لأنهم يريدون منك الرزق ويعصون ربهم فعندى مطيعون لله ولا يسألون منى الرزق، ثم قالت: يا نبى الله، أتدرى لم صار اسم أبيك داود واسمك سليمان؟ قال: لا، قالت: لأن أباك داوى جرحه مود، وأنت سليم إن لك أن تلحق بأبيك فعند ذلك تبسم ضاحكًا من قولها.

وفى رواية: قالت له: كما سخرت الريح فزوالها فى يدك كزوال الريح.

وعن أبى صديق الناجى قال: ركب سليمان يومًا فعدل عن الطريق وأخذ فى غيره فقيل له فى ذلك قال: جاءت خطافة فقالت: إنى أخرجت فراخى أعلمها الطيران وإن أخذت على طريقك حطمتهن، فعدلت عن الطريق لأجلهن.

وحكى: أن الناس قحطوا على عهد سليمان عليه السلام فجمع سليمان الناس فخرج بهم للاستسقاء فلما رجعوا مروا على نملة رافعة يديها تدعو الله وتقول: لا تحبس عنا أرزاقنا بخطايا بنى آدم، فأوحى الله إلى سليمان عليه السلام أنى قد استجبت لهذه النملة فأمطر الناس فقالوا: هذه بدعوة نبى الله سليمان، فقال لهم سليمان عليه السلام: إنها ليست بدعوة سليمان ولكن الله استجاب للنملة.

ثم إن داود عليه السلام عند موته قد وعظ سليمان فقال: يا بنى إياك والهزل فإن نفعه قليل وهو يهيج العداوة بين الإخوان، وإياك والغضب فإنه يسخف بصاحبه، وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شيء، وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورث سوء الظلم، واقطع طمعك عن الناس فإن ذلك هو الغناء، وإياك والطمع فهو الفقر الحاضر وإياك وما تعتذر منه من القول والفعل، وعود لسانك الصدق والزم الإحسان وإن استطعت أن يكون يومك خيرًا من أمسك فافعل، وصل صلاة مودع، ولا تجالس السفهاء، ولا ترد على عالم، ولا تماده فى الدين وإذا غضبت فالزق نفسك الأرض وتحول من مكانك وارتج رحمة الله فإنها وسعت كل شيء.

مجلس في:

بيان عرض الصافنات الجياد على سليمان عليه السلام وفتنته ودعائه واستجابة دعائه

في إحدى عشرة آية في سورة (ص)[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد..

فهذا مجلس في بيان عرض الصافنات الجياد على سليمان عليه السلام وفتنته ودعائه واستجابة دعائه في إحدى عشرة آية في سورة ص.

قال الله تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ** ﴾ أي سليمان لقربه ولأن ما بعده في أحواله.

﴿ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ أي رجّاع إلى مرضاة الله بالأعمال الصالحة أو إلي بالتوبة، أو إلى التسبيح أي مرجع له، أو كلما شغله شيء عن الأكوان يفر إلى الملكوت ولا يرى شيئًا إلا ويرى الله بعده أو معه أو قبله فهو على كل تفسير علة للمدح.

﴿ **إِذْ عُرِضَ** ﴾ ظرف لنعم أو أواب أو اذكر مقدرًا.

﴿ **عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ** ﴾ بعد الظهر.

﴿ **الصَّافِنَاتُ** ﴾ جمع صافن وهو الخيل ما إذا قام قام على ثلاث قوائم وسنبل الرابعة وهي صفة مدح في الفرس.

---

(١) ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (ص: ٣٠ - ٤٠).

﴿الْجِيَادُ﴾ جمع جواد وهو فى الخيل السريع فى الجرى والركض فجمع بين صفتين محمودتين فى الخيل وهما السكون والاطمئنان عند الوقوف وهو المراد فى الصفوف، والسرعة عند العدو وعند السير وهو المراد من الجودة.

روى أنه غزا دمشق ونصيبين وأصاب من الكفار ألف فرس جياد فقعد على كرسيّه يومًا بعد الظهر وعرض عليه تلك الأفراس فنظر إليها وتفحص أحوالها فى الصحة والمرض ليعطى الغزاة ويقيم الغزوة فى سبيل الله فاشتغل بإعداد آلة الجهاد ونسى خلوة العصر حتى غابت الشمس.

ويحتمل أنه كان فى وجه العدو كما وقع لنبينا ﷺ فى غزوة الخندق كما قال: شغلونا أى الكفار عن صلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا فلا خير فيه إذ النسيان بسبب الاشتغال بإعداد الشباب للجهاد خصوصًا فى مقابلة العدو لا يعد عيبًا.

فلما غابت الشمس وتنبه نبى الله سليمان عليه السلام تضرع إلى الله وابتهل وأناب إليه لأنه كان أوابًا على ما قال ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وتقرب إليه بإنفاق لحوم الخيل بعد ذبحها على فقراء جنده وإنما تقرب بها لأنها شغلته عن مولاه وكانت أحب أحواله إليه كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: ٩٢).

مع أنه قطع للأسباب وتوكل على مسبب الأسباب لأن تلك الأفراس كانت أسباب الظفر على ما قال الله تعالى فقال أى بعد العرض وفوت صلاة العصر مبتهلاً ومتضرعًا ونادمًا وتائبًا.

﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ﴾ أى أنبت بالتضمين.

﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أى محبة الخيل.

وسمى نبينا ﷺ الخيل خيرًا لأنها معقود بنواصيها الخير، أى الأجر أو الغنيمة إلى يوم القيامة.

﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أى صلاة العصر.

﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لا تنبت المضمن.

﴿تَوَارَتْ﴾ أى الشمس لإنعامها من العشى.

﴿بِالْحِجَابِ﴾ شبه الشمس بالمخدرة الداخلة فى الحجاب، ففى الكلام استعارة مكنية وتخييلية أو استعارة تبعية.

﴿رُدُّوهَا﴾ جواب لسؤال أى فما قال بعد هذا الابتهال: أجيب بأنه قال تتميمًا لابتهاله وتضرعه: ردوا الصافنات.

﴿عَلَيَّ﴾ ولم يقل ذلك تهورًا وتجبرًا، فردت إليه فأمر بذبحها، وتصدق بلحومها تقربًا إلى الله على ما سبق، وهو قوله: ﴿فَطَفِقَ﴾ يمسح ﴿مَسْحًا﴾ بالسيف أو السكين.

﴿بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ والباء مزيدة كما فى قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ (المائدة: ٦) أى قطع سوق الصافنات، وأعناقها، أما قطع الأعناق للزكاة الشرعية وأما قطع السوق فلئلا تفر لأنها كانت كالوحش لشدة عدوها.

وفسر الإمام تفسيرًا آخر لا يلائمه ظاهر النظم والمشهور من التفسير وإن كان أدخل فى عصمة النبى المعصوم فتركنا ذكره.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ﴾ بيان لفتنا.

﴿جَسَدًا﴾ لا روح فيه على ما هو الظاهر من لفظ جسد ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾.

والصحيح فى هذه الفتنة ما أخرجه الشيخان البخارى والمسلم عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قال سليمان عليه السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهم فلم تحمل إلا واحدة منهن فجاءت بشق رجل فوالذى نفسى بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا»[(١)] انتهى.

فحملته الاظهار فألقينه على كرسيه فتنة على خطابه فى ترك إن شاء الله، فأناب أى رجع إلى الله بالتوبة لأنه كان أوابًا على ما قال إنه أواب فيكون نظير حال نبينا عليه السلام فى تركه إن شاء الله تعالى عند سؤال قريش لتعليم يهود عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين وعن الروح فقال: أخبركم غدًا، ولم يقل إن شاء الله فمكث

---

(١) حديث: «قال سليمان عليه السلام لأطوفن الليلة على سبعين امرأة...».

انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ١٠٨ وتفسير القرطبى: ١٥/ ١٥٢ والدر المنثور ٧/ ١٨٢، صحيح البخارى ٣/ ١٠٣٨ الحديث رقم (٢٦٦٤) وصحيح مسلم: ٣/ ١٢٧٥ الحديث رقم (١٦٥٤) والترمذى فى السنن: ٤/ ١٠٨ (١٥٣٢) والنسائى: ٧/ ٢٥ (٣٨٣١) ومسند أحمد ابن حنبل ٢/ ٢٧٥ الحديث رقم (٧٧٠١) وفى سنن البيهقى الكبرى: ١٠/ ٤٤ الحديث رقم (١٩٦٩٤).

الوحى خمس عشرة ليلة، فندم رسول الله ﷺ، وأدبه الله تعالى بقوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣، ٢٤) ثم نزل الأجوبة.

وما يدور فى خاطرى أن بيان نسيان سليمان صلاة العصر وبيان فتته بترك الاستثناء لتسلية نبينا ﷺ فيما وقع له وسيقع لأن صلاة العصر كان فى المدينة وهذه السورة مكية والله أعلم.

وما يقال فى بيانها أنه ولد له ابنٌ فخاف عليه من الجن فأمر الريح فحملته إلى السحاب فكان يربى ضعيف لأن الخوف من الجن باق فى السحاب لأن الجن يصعدون إليه.

وما يقال من خبر صخر الجنى على ما ذكر فى أكثر التفاسير فإسرائيلى قبيح لا يجوز أن يذكر.

﴿قَالَ﴾ جواب سؤال أى فماذا قال بعد إنابته؟ أجيب ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ زلتى فى ترك إن شاء الله.

وأيضًا قال: يا رب أبق على ملكى الذى ما أعطيت مثله أحدًا من عبادك وسمى الإبقاء هبة لأنه كالابتداء هبة من الله، وأخذ هذا الدعاء بالمغفرة وإبقاء الملك فى حال ابنه بعد الزلة والاستغفار حيث قال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أى ما أصاب من الزلة ثم قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ (ص: ٢٦) كما مر.

فطلب سليمان عليه السلام على ما عرف من كرم الله تعالى الغفران وإبقاء ملكه العظيم الذى ما أعطى مثله أحدًا قبله ولا بعده.

وقد مر بيان الملك العظيم فى قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم فى قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ ثم فى قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وهذا قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي﴾ أى لا يتسهل ولا يتحصل لأحد.

﴿مِّنْ بَعْدِي﴾ أى من دونى، وإن كان فى عصره.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطى ما تشاء لمن تشاء.

فاستجاب الله دعاءه وزاد فى ملكه بتسخير الريح وكل بناء وغواص، والمقرنين فى القيود من الشياطين فجنود الجن كانوا مسخرين قبل الدعاء والعملة بعده على ما قال:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾ أى حين السير والجرى كانت الريح رخاء لنية طيبة لا تزعزع راكب الكرسى ولا تثير الغبار ولا تضر أحدًا، وحين حمل الكرسى كانت عاصفة شديدة تحمله بقوة ثم تجرى ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أى أراد وقصد.

يقال: أصاب الصواب أى قصده فأخطأ الجواب.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الريح.

﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ يبنون له ما يشاء.

﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يغوصون له فى البحر ويستخرجون اللآلئ والمرجان.

﴿وَآخَرِينَ﴾ عطف على كل ومجموع المعطوفين بدل من الشياطين بدل الكل، لأن المراد من الشياطين المقهورون.

﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أى قرن بعضهم ببعض.

﴿فِي الأَصْفَادِ﴾ وهو القيد لدفع شرورهم ولتأديبهم وبما ذكرنا فى أن المراد من الهبة فى قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ الإبقاء لا الهبة المبتدأة ومن ملك الموصوف بقوله: ﴿لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ﴾ ملكه السابق على الفتنة يندفع ما قيل من أن هذا الاستيهاب كان ينبغى أن يكون فى ابتداء الملك، والمشهور أن الفتنة كانت بعد عشرين سنة من ملكه وبقى فى الدنيا عشرين أيضًا.

ويندفع أيضًا ما شم البعض لفساد حاسة رائحة الجسد ولا حاجة فى الجواب عن هذه الرائحة من أن مراده طلب المعجزة على ما خالفه لأنه كان قد ربى فى بيت النبوة والسلطنة فطلب المعجزة على ما ألفه ولأنه يرد السؤال الأول، ولأنه قد أعطى المعجزة فى قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ كما قال تعالى لأبيه بعد الزلة: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ﴾ من دونى، أى أبق على ملكى الذى أعطيتنى ولم تعط غيرى.

وأيضًا معنى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ أبقينا خلافتك بعد الزلة، لكن لما كان الزلة مظنة دفع الغفل عرف الله لداود ـ عليه السلام ـ بقاء الملك بعد الزلة بقوله: جعلناك خليفة كأنه جعل مبتدأ.

وهذا المعنى من مواهب ربى فله الحمد وله الشكر أى هذا ما قال الله تعالى.

﴿هَذَا﴾ أى الملك المذكور.

﴿عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ أى أعط من تشاء ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ أى امنع من شئت.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل: متعلق بقوله: عطاؤنا، أى عطاء غير محصور لا يدخل تحت الحصر والحساب.

ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أى المن والمنع مفوضان إليك لا حساب فيهما عليك يوم القيامة.

ويجوز أن يقال (هذا) أى تسخير مردة الجن (عطاؤنا فامنن) أى أطلق من شئت منهم من القيد والعمل (أو أمسك) فى القيد والعمل (بغير حساب) أنت فى المن والإمساك أى لا تحاسب أنت فى الإمساك والإطلاق.

﴿وَإِنَّ لَهُ﴾ أى مع الملك المذكور فى الدنيا.

﴿عِندَنَا﴾ أى فى الآخرة.

﴿لَزُلْفَىٰ﴾ أى قربة أى قربة.

﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: مرجع فى الجنة، فالزلفى الجنة الروحانية، وحسن مآب الجنة الجسمانية كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦، ٤٧).

مجلس في:

بيان تفقد سليمان عليه السلام الهدهد ومجيئه من سبأ بنبأ يقين

في تسع آيات في سورة النمل[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس في بيان تفقد سليمان عليه السلام الهدهد ومجيئه من سبأ بنبأ يقين في تسع آيات في سورة النمل.

وبيان ذلك أنه: روى أن سليمان عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج، وتوجّه بحشمه وجنوده وكرسيه تحمله الريح إلى مكة شرفها الله تعالى فغدا من بيت المقدس ونزل رواحًا بمكة وأقام بها ما شاء وينحر كل يوم مدة إقامته خمسة آلاف ناقة وذبح أيضًا خمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاة، تم ارتحل عنها يؤم سهيلاً متوجهًا إلى اليمن فخرج من مكة صباحًا، ونزل بصنعاء قبيل الظهر فلما نزل سليمان عليه السلام.

حلق هدهد سليمان عليه السلام واسمه «يعفور» فرأى هدهدًا من جنسه اسمه

---

(١) ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل: ٢٠ - ٢٨).

«عنقير» وهو هدهد اليمن فنـزل إليه فى بستان لبلقيس فقال هدد اليـمن لهدهد سليمان عليه السـلام: من أين؟ قال: من الشام مع سليـمان عليه السلام فـوصف هدهد اليمن بلقيس وملكها، وهدهد سليمان إياه وملكه، فـقال هدهد اليمن: تعال انظر إلى بلقيس وملكها فراح هدهد سليمان معه فرأى بلقيس وما هى فيه من الملك العظيم واطلع على دينها ودنياها ورى قومـها، ثم رجع إلى سليمان عليه السلام ونبـى الله سليمان لما نزل فى أرض صنعاء فرأى أرضًا فـيها أزهار، وأنوار، وأشجار بماء الأمطار فلـبث فيها إلى وقت الظهر، فلما حضـرت الصلاة طلبوا الماء والمتوضأ، فـلم يجدوه وطلبوا الهدهد لأنه كان قناقنه يعرف الماء ويراه تحت الأرض كمـا تراه فى الزجاج فينهى إلى سليمان فيأمر الشياطين فيستخرجونه.

فلما لم يجد سليمان الهدهد تعرف حاله وذلك قوله:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ يحتمل أن تكون اللام للجنس، فـيكون المعنى تفحص وتأمل جنس الطير فلم يجد فيها الهدهد، والتفقد طلب المفقود، وتعرف حاله.

ويحتـمل أن اللام للعهد الذهنى أى تـعرف وتأمل حال طيـر من الطيور وهذا هو الظاهر.

﴿فَقَالَ﴾ بيان لتفقد، فالفاء تفسيرية، ويدل هذا على أن اللام للعهد الذهنى.

وعلى تقدير الـلام للجنس تكون الفاء فى «فقـال» فصيـحة أى فلم يجـد الهدهد فقال:

﴿مَا لِيَ﴾ أى أى شىء عرض لى.

﴿لا أَرَى الْهُـدْهُدَ﴾ حال من الضمير أى أهو حـاضر هنا ولا أراه لسبب من ستر ساتر أو زيغ بصرى عنه.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى: بل.

﴿كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ كأنه لاح له أنه غائب فأضرب عن السابق واستفهم عما لاح له أهو صدق، ثم أوعد فقال:

﴿لأُعَذِّبَنَّهُ﴾ جواب قسم محذوف.

﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وهو صحبتا الأضداد أى لأحبسنه مع ضده فى قفص ولا عذاب أشد منه.

كما قيل: أضيق السجون معاشرة الأضداد، وقيل: العذاب الشديد تفريقه عن إلفه أو تغييبه عن وطنه أو أمره بخدمة الأقران أو طرده عن خدمته وكل ذلك عذاب روحانى.

وقيل: العذاب الشديد نتف ريشه وإلقاؤه فى الشمس أو فى قرية النمل وهذا عذاب جسمانى.

﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ ذبحًا معروفًا.

وأو بينهما للتخيير أى أفعل أحد هذين إن لم يجئ بعذر، وإن جاء به فلا أفعلهما، وهو قوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ﴾ أى بعذر وحجة.

﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر، و «أو» فيه للترديد بينه وبين الأولين وليس القسم الثالث محلوفًا عليه، لأنه فعل آخر ولا حلف عليه لكن لما كان ما يوجد فى الخارج أحد أمور هذه الثلاثة جعله محلوفًا عليه تغليبًا.

وانظر أيها العاقل أن سليان عليه السلام تفقد طيرًا ضعيفًا ولم يهمل أمره والملوك والأمراء السوء فى زماننا يخربون عالمًا بظلمهم فلا يتفقدونه، فإلى الله المشتكى.

وانظر إلى أن الهدهد بغيبته عن خدمة سليمان عليه السلام نصف يوم بل أقل استحق بهذا الوعيد فكيف بالعصاة الذين غابوا عن خدمة الرحمن طول عمرهم.

ثم قال سليمان لعريف الطير وهو النسر: أين الهدهد؟ فقال: ليس عندى علمه، فقال لسيد الطير وهى العقاب: علىَّ به الساعة فارتفعت إلى السماء فرأته يجىء من قبل سبأ فانحطت نحوه فأقسم عليها بحق الله الذى أقدرك علىَّ لا تؤذينى، وقالت: ثكلتك أمك إن نبى الله سليمان توعد عليك قال: ألم يستثن؟ قال: بلى، قال: إذن لا ضير فجاء بعد العصر سليمان عليه السلام فأرخى ذنبه وجناحيه وقرب منه فأخذ سليمان برأسه فجره إليه فقال: يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله، فارتعدت مفاصله فتركه واستخبر عن حاله فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أى زمانًا غير مديد ظرف لمكث ودل على سرعة مجيئه خوفًا من سليمان عليه السلام وعلى شده تسخير سليمان عليه السلام للطيور وعلى أن اللائق للعصاة رجوعهم إلى بارئهم سريعًا، فقال فى جواب استخبار سليمان عليه السلام:

﴿أَحَطتُ﴾ أى علمت علمًا كاملاً من جميع الجهات ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أى من

حال بلقيس وقومها فإنه قد أحاط علمها بملكها وعرشها بالإحساس وأحاط بدينها ودين قومها وسوء أعمالهم بالفهم فلم يكن بالحسن فقط حتى يقال لا كمال فيه ولا نقص فى عدمه فإن من أحسن علم ومن لم يحس لم يعلم فلما كافح سليمان عليه السلام بهذا النفى مع أن الواجب على سليمان كان أن يتفحص عن أحوال أهل اليمن ويأمرهم بعبادة الله وينهاهم عن عبادة الشمس فلحكمة خفية أخفى الله حالهم عليه مع أنه سلطان أهل الأرض وعنده الجن والعلماء بأحوال الناس من الإنس فنبه الله تعالى سليمان على لسان هذا الطائر أن لا يهمل فى أحوال العالم وإقامة مراسم الأمر والنهى وأن لا يعجب بعلمه فإن الإعجاب بالعلم من أعظم أدلة العلماء.

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ هو اسم رجل (سبأ بن يشحب بن يعرف بن قحطان) ثم جعل اسمه للحى العظيم فى أولاده ثم جعل اسمًا لبلدهم وهو مأرب بثلاث مراحل من صنعاء وهو الآن خراب.

﴿بِنَبَإٍ﴾ أى خبر له شأن من عظم المخبر به ومن صدقه، فهو أخص من الخبر، وبين سبأ ونبأ جناس خفى مزدوج من البديع، وفى النبأ زيادة معنى ففيه محسن ذاتى وعرضى.

﴿يَقِينٍ﴾ تأكيد لما فهم من النبأ.

﴿إِنِّى﴾ استئناف لبيان النبأ.

﴿وَجَدتُّ امْرَأَةً﴾ وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان إلى أربعين أبًا كلهم ملوك اليمن، وما ترك شراحيل غير بلقيس من الأولاد فملكوها عليهم وساست بحسن سيرتها جميع اليمن أحسن سياسة.

﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ أى سبأ وأهله.

﴿وَأُوتِيَتْ﴾ تلك المرأة.

﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ والمراد الكثرة.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ عظيم بالنسبة إلى حالها فإنها كانت ملكة اليمن فقط، أو بالنسبة إلى سائر الملوك ويجوز أن يكون لسليمان عليه السلام مثله فإنه قد يكون لبعض الأمراء شىء لا يكون لسلطانه.

قيل: كان عرشها من الذهب والفضة مكعبًا ثلاثين فى ثلاثين، أو ثمانين فى

ثمانين، وقوائمه أيضًا من الذهب والفضة مكللاً بالجواهر، وكان عليه سبعة بيوت كذلك، وكان هذا العرش فى بيت ضخم له ثلاثمائة وستون طاقًا فى الشرق وكذا فى المغرب وكان ذلك البيت على تل عظيم فكانت الشمس تطلع فى كل يوم فى طاق وتغرب فى طاق فى مقابله فإذا طلعت أو غربت يسجدون لها.

﴿ وَجَدتُّهَا ﴾ استئناف لبيان دينهم بعد بيان دنياهم.

﴿ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ مجاوزين الله فإنهم كانوا يشركونها بخالقها فى العبادة كما هو دأب المجوس.

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة من الزنا وغيره ومن جملتها الشرك.

﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى سبيل الله وهو الدين القيم.

﴿ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ فالتزيين سبب الصد، والصد بسبب عدم الاهتداء.

﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا ﴾ متعلق يزين أو صد، أى زين أو صد لئلا يسجدوا أو لا يهتدون على زيادة لا أى لا يهتدون إلى أن يسجدوا.

﴿ لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ أى الخفى بمعنى المفعول.

﴿ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ من المطر والنبات، والأقدار والأرزاق والأقضية والاحكام بل المنشآت والمبتدعات كلها، وهو وصف له تعالى بالقدرة الذاتية الكاملة.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ وصف له تعالى بالعلم الذاتى الكامل، وهاتان الصفتان موجبتان لاستحقاق العبادة لا الشمس التى هى مسخرة تحت القدرة القاهرة، وذكر كلمة الخبأ يدل على أنه من كلام الهدهد، لأن صفته كانت علم المخبوء تحت الأرض من الماء، وكل أحد إذا تكلم، تكلم بما هو صفته غالبًا.

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ نتيجة لما سبق من إثبات الصفتين الكاملتين.

﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ بالنسبة إلى جميع أجرام العالم فبين العظيمين بوزن عظيم بعيد.

﴿ قَالَ ﴾ سليمان عليه السلام فى جواب الهدهد: ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ أى نتأمل فى صدقك ونستخبر أهل الأرض حتى نعلم صدقك لأن خبر الواحد يحتمل الصدق والكذب ولا نعمل بمجرد قولك كما قال تعالى: ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾

(الحجرات: ٦) فنعرف: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ غير الأسلوب للمبالغة، لأن الكذب على تقدير وقوعه فى مثل هذا النبأ مع هذا النبى المكرم عظيم البينة.

فلما تأمل سليمان عليه السلام وتفحص واستخبر ممن له خبرة وعلم صدق الهدهد كتب كتابًا إلى أهل سبأ فأرسله مع الهدهد فقال:

﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أى المرأة وقومها.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض واختف فى مكان لا يرونك وأنت تراهم.

﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ فى الجواب الكتابى، من رجع القول، فذهب الهدهد بكتابه فرأى أن بلقيس جالسة على عرشها وحولها أهل مشورتها وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أمراء، كل واحد منهم على عشرة آلاف فرفرف ساعة فوق رأسها حتى نظروا إليه جميعًا ثم رمى الكتاب على حجرها ثم اختفى فى كوة حتى ينظر إلى رد جوابهم.

وقص الله تعالى على هذا الأسلوب فيه حكم لا تحصى فيها ما مر من الفوائد ومنها: أن الواجب على العالم مكافحة الجبارين بالكلام الحق وغير ذلك.

وتكلم هذا الحيوان بهذا الكلام غير بعيد عن قدرة الله، ومن معجزات الأنبياء، فالمنكر كافر البتة، نعوذ بالله من شر الشيطان.

مجلس في:

بيان إلقاء الهدهد كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس ومشاورتها مع قومها وإرسال الرسول إلى سليمان عليه السلام وغير ذلك

في تسع آيات في سورة النمل[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس في بيان إلقاء الهدهد كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس ومشاورتها مع قومها وإرسال الرسول إلى سليمان عليه السلام وغير ذلك في تسع آيات من سورة النمل.

بيان ذلك أن الهدهد لما حمل كتاب سليمان جاء إلى رجل بلقيس في روايته وجدها نائمة مستلقية على سريرها ثم اختفى في كوة فلما انتبهت وجدت الكتاب فارتعدت من رؤية ختم سليمان على الكتاب لأن ملكه كان فيه فأرسلت إلى أشراف قومها فجاءوا إليها فلما اجتمعوا عندها:

﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ**﴾ أي الأشراف.

---

(١) ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (النمل: ٢٩ - ٣٧).

﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه وما فيه من الكتابة والزينة، أو لكرم صاحبه ومرسله أو لختمه، فإن كرم الكتاب أن يختم وكان نبى الله سليمان عليه السلام قد ختمه بالمسك، أو لغرابة شأنه لأن إلقاءه الهدهد كان خارقًا للعادة ومعجزة، فقال الملأ ممن هو؟ قالت: ﴿إِنَّهُ﴾ أى الكتاب.

﴿مِن سُلَيْمَانَ﴾ فقوله من سليمان على هذا يكون من كلام بلقيس لا من الكتاب ليرد لم قدم اسمه على اسمه تعالى وإنما عرفت كونه من سليمان من الختم.

فقالوا: وما فى الكتاب؟ قالت: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى ما كتب فيه، فالضمير للكتاب على طريق الاستخدام لأن المراد من الضمير الأول نفس الكتاب أى القرطاس المكتوب وفى الضمير الثانى: ما كتب فيه مبدأ.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ للتبرك.

﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أن مفسرة لما فى الكتاب من معنى القول أى قيل بشىء هو لا تعلوا على.

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أى نهى وأمر، فعلى هذا يكون أن فى كلام المرأة أو نقول: لما سأل الملأ عن المرسل والمرسل قالت: إنه أى العنوان الذى يقال له فى هذا الزمان الإمضاء لفظ من سليمان فنظرت أولاً إلى عنوان الكتاب أى إمضائه فى آخر الكتاب فأجابت عن سؤال ما فى الكتاب بقولها: وإنه أى مضمون الكتاب مبدأ بسم الله الرحمن الرحيم إلى آخره.

وقيل: «فى أن لا تعلوا» مصدرية فيكون من كلام سليمان، ولا تعلوا نهى صلة لأن المصدرية على ما هو المذهب لصاحب الكشاف نقلاً عن سيبويه غير ميال باجتماع الناصب والجازم للكون بجازم فى نفس الفعل والناصب فى لا مع الفعل.

وقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ عطف على النهى على كلا التقديرين، لكن المبتدأ له محذوف فى كلام سليمان عليه السلام ونظم الكتاب هكذا بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ الكتاب للتبرك، ومقصودى ومطلوبى منكم هو أن لا تعلوا علىَّ أى عدم استكباركم على الحق وعدم امتناعكم عنه وإيتاؤكم إلىّ مؤمنين لأن الإسلام والإيمان واحد وهو التصديق بالجنان والإقرار باللسان، أو منقادين لى فى جميع ما أقول، وهذا أيضًا يستلزم الإيمان، لأن الانقياد للنهى فى جميع ما قال، أى أن هذا كتاب فى غاية

الوجازة ومع ذلك مشتمل على جميع المقاصد من الدعوة لأن البسملة مشتملة على ذكر ذات الله مع جميع صفاته التزامًا وتصريحًا، فإن كلمة الجلالة اسم اللذات مستجمع لجميع الصفات، والصفتان دالتان على إنعامه جلائل النعم ودقائقها، فإن الإنسان عبيد الإحسان.

والنهى عن الاستكبار الذى هو أم الرذائل كلها نهى عن السيئات مطلقًا والأمر بالإسلام الذى هو أس الفضائل كلها بالطاعات مطلقًا فلا ترى كتابًا أوجز من هذا، فلله دره.

وإلقاء الهدهد الكتاب معجزة خارقة للعادة فاقترن دعوى النبوة ودعوتهم إلى الحق بالمعجزة فلا يلزم الاكتفاء بالتقليد.

﴿قَالَتْ﴾ بلقيس وأنا كرر الفعل للاعتناء بالمقول لأن القائلة علجة يتحرك ثدياها ومع ذلك لا أعقل منها فى حال شركها وإسلامها فلامها فى عين العرفان.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى﴾ والفتوى هى الجواب الجديد فى حادثة مشتقة من الفتا.

﴿فِى أَمْرِى﴾ وهو أن سلطان الإنس والجن والطير قد دعانا إلى دينه وعزم أن يعزونا إن لم نؤمن ولا شىء أكبر من هذا الأمر.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ أى فاصلة.

﴿أَمْرًا﴾ من الأمور.

﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أى تحضرون مجلسى وتشاورونى وتشيروا على، وإنما قالت كذلك تطييبًا لقلوبهم واستمالة لهم على رأيها.

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ ذاتية بقوة الأجساد بكثرة الجنود والآلات.

﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى شجاعة ونَجَدَة وهى ملكة فى القلب بها يدخل الإنسان فى المهالك.

فادعوا قوة فى الجسد وقوة فى القلب ثم أحالوا الأمر إليها بقولهم:

﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى﴾ أى تفكرى.

﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ نأخذ به، فجاءوا بتدبير فى المشورة لا يرى أحسن منه حيث قووا قلبها بشجاعتهم وقوتهم ثم أحالوا الأمر إليها، فأمراؤها مثلها فى الحزم والرأى.

ثم لما رأت ميلهم إلى الحرب قالت تزييفًا لرأيهم فى تقديم الحرب.

﴿قَالَتْ﴾ العرب آخر الدواء الكى، وآخر الحبل السيف.

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ﴾ غير الأنبياء.

﴿إِذَا دَخَلُوا﴾ عنوة.

﴿قَرْيَةً﴾ من القرى.

﴿أَفْسَدُوهَا﴾ خربوها.

﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ مقهورين بالأسر والقتل.

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تذييل إن كان من كلام المرأة أى كذلك عادتهم المستمرة لأن المضارع للاستمرار، وإن كان من كلام الله فهو اعتراض تصديقًا لها.

وقيل: ضمير «يفعلون» لجنود سليمان عليه السلام فخصص بعدما عممت.

وحاصل كلامها أنه على تقدير الحرب يقع التخريب فى ملككم ثم الحرب ذات وجهين والعاقبة مجهولة فلله درها ما أحسن عقلها.

﴿وَإِنِّي﴾ عطف على «إن الملوك».

﴿مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ إلى سليمان عليه السلام وجنده.

﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ عظيمة لأن التنكير للتعظيم.

﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ من حاله وصفته أهو نبى فنؤمن به، أم ملك فنحاربه.

وصفة هديتها مذكورة فى الإسرائيليات فلا بأس بذكر بعضها.

قيل: أرسلت خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة من فضة وخمسمائة غلام، وخمسمائة جارية وخمسمائة حصان، وخمسمائة رمكة والعبيد والجوارى والأفراس مزينة بزينة لا مزيد عليها وألبست الغلمان لباس الجوارى والجوارى لباس الغلمان، لكن الغلمان على الحصن والجوارى على الرمك، وأرسلت تاجًا مكللاً بالجواهر وأرسلت حُقّة فيها درة عذراء غير مشقوقة وجزعة معوجة الثقب، وأرسلت أميرًا عاقلاً اسمه منذر بن عمرو على جيش وقالت لمنذر: إن كان نبيًا ينظر إليك باللطف ويميز بين الغلمان والجوارى ويثقب الدرة العذراء بلا واسطة الجن والإنس، ويسألك فى الجزعة الخيط، وإن كان ملكًا ينظر بالعنف ويعجز عن الأمور المذكورة.

فرجع الهدهد بجميع ما ذكر، فأمر سليمان الجن بأن يفرشوا سبعة فراسخ لبنات

ذهب وفضة ويربطوا عليها أحسن ما يوجد من الأفراس فى البر والبحر ويجمعوا له من أولاد الجن خلقًا عظيمًا، ثم جلس على كرسيه فى زى وزينة لم ير مثلها، وفى جموع من الجن والإنس لم يعهد نظيرها.

فلما جاء المرسلون ورأوا لبنات من الذهب والفضة فأبت الحصر استحيوا فرموا ما معهم من اللبنات مخافة التهمة بالسرقة ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ أى الرسول، والرسول مصدر فى الأصل يطلق على الواحد والكثير.

فالمراد المرسلون.

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ﴾ والهمزة للإنكار.

﴿بِمَالٍ﴾ أى الهدية.

﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ الفاء للتعليل أى علة الإنكار للإهدار أن ما أتانى الله من النبوة والملك الذى لا مزيد عليه.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ لكن أنتم جاهلون بذلك فالإنكار يرجع إلى الجهل المذكور.

﴿بَلْ﴾ إضراب عن الأول أى الإنكار لا بمعنى الإبطال بل بمعنى النقل من إنكار الجهل الذى هو قبيح إلى ما هو أقبح منه، وهو قياس حالى على حالكم فى الفرح بالهدية وهو قوله:

﴿أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ الهدية اسم ما يهدى كالعطية اسم ما يعطى ولكونها بمعنى الفعل قد تضاف إلى المفعول، وقد تضاف إلى الفاعل فإن أريد الإضافة إلى المفعول فالمعنى أنتم بهديتكم أى بما يهدى إليكم.

﴿تَفْرَحُونَ﴾ لا أنا فقستم حالى على حالكم وهو أقبح من جهل حالى.

وإن أريد إضافته إلى الفاعل فالمعنى: أنتم بهديتكم أى بما أهديتم الآن تفرحون وتفتخرون على الملوك بأنا قد قدرنا على مثل هذا الإهداء.

أو المعنى: أنتم حقا بهديتكم لأنكم تفرحون بها فيكون الكلام كناية عن الرد.

فقياس الحال على الحال فى الإضافة إلى المفعول فحسب فهى الراجحة.

﴿ارْجِعْ﴾ خطاب للرسول على التأويل المذكور.

﴿إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ الفاء للتعقيب تأثر على عقب رجوعك، واللام للقسم، وعدم الحنث والكذب لأنه شروط بعد الإسلام كما مر فى «وأتونى مسلمين».

﴿بِجُنُودٍ﴾ أى بأصناف جنود من الجن والإنس والطير.

﴿لاَّ قِبَلَ﴾ أى لا طاقة، من المقابلة.

﴿لَهُم﴾ لأهل سبأ.

﴿بِهَا﴾ أى بجنودى.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ أى من بلدة سبأ.

﴿أَذِلَّةً﴾ داهى الملك والعز.

﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ مقهورون داخلون فى الأمر والقيد.

ثم إن الرسول لما بلغ وبلغ أرسلت إلى سليمان عليه السلام: إنى قادمة عليك بأمراء جندى والسلام.

مجلس في:

بيان قدوم بلقيس على سليمان عليه السلام وإتيان من له العلم بعرشها قبل مجيئها وغير ذلك

في سبع آيات من سورة النمل[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس فى بيان قدوم بلقيس على سليمان عليه السلام وإتيان من له العلم بعرشها قبل مجيئها وغير ذلك فى سبع آيات من سورة النمل.

وبيان ذلك أنه لما وصل رسول بلقيس إلى سليمان، وأخبره بقدومها ارتحل سليمان من صنعاء إلى بيت المقدس ووصل إليه فى يوم، ثم إن بلقيس أمرت بعرشها فجعل فى آخر بيت من البيوت السبعة فى آخر دار من الدور السبع، وغلقت الأبواب وجعلت عليه الحرس، وأوثقت منه بما يمكن، ثم إنها أمرت المنادى فنادى إنى قادمة على سليمان فليحضر معى من كان من جندى فخرجت فى اثنى عشر فيل، مع كل فيل ألوف من الجند حتى قربت من بيت المقدس فما بقى إلا مرحلة وقيل: فرسخ، فجمع سليمان عليه السلام أشراف جنده من الجن والإنس ثم.

---

(١) ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٣٨ - ٤٤).

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وأراد أن يريها معجزة تدل على قدرة الله تعالى وصدق دعواه فى النبوة وأن يختبر عقلها، إذ قالت الجن: هى ضعيفة العقل، خوفًا أن ينكحها فتلد منه فيبقون فى التسخير دائمًا.

زاد قوله مسلمين لأن إسلامهم يمنع وضع اليد على عرشها بغير رضاها، ولما كان مراده عليه السلام إظهار المعجزة واختيار عقلها لا الطمع فى مالها فلا منافاة بين طلب عرشها وبين ما سبق من رد الهدية فى قول ولا بين ما أتانى الله خير مما آتاكم.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ أى مارد خبيث ولما كانت العفريت يطلق على الإنس وهو الخبيث المنكر الذى يعفر اقرانه أى يمرغهم فى التراب بينه بقوله: ﴿مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ﴾ فعل مضارع أو اسم فاعل ﴿بِهِ﴾ أى بالعرش.

﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أى من مجلسك للحكومة، وكان يجلس إلى قريب الزوال،

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ أى على حمله.

﴿لَقَوِيٌّ﴾ قادر ﴿أَمِينٌ﴾ غير خائن لا أختزل منه شيئًا.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ هو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام، هو المشهور وعليه الأكثر.

وعلمه أى مأخوذ من الكتاب أى جنس الكتاب من الله، علمه باسم الأعظم الذى إذا دعى به استجابه وهو فى المشهور الذى عليه الجمهور.

قوله: يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

وقيل: غير ذلك.

وقيل: المراد بالعلم المذكور جبريل عليه السلام أو ملك موكل بتأييد سليمان عليه السلام.

والمراد بالكتاب على هذين هو اللوح المحفوظ.

أو الخضر عليه السلام أو سليمان نفسه كأنه تحداهم أولاً ثم أظهر المعجزة، والتعبير عنه عليه السلام بالذى عنده علم دلالة على شرف العلم والخطاب على هذا فى آتيك وما بعده للعفريت، وفى بعض التفاسير قال آصف: أنا آتيك قبل ارتداد طرفك،

قال سليمان: هات، قال: يا نبى الله أنت النبى المرسل ودعاؤك مستجاب فادع أنت، قال سليمان عليه السلام: صدقت، فدعا واستجيب له فكأنه أراد بآتيك سببًا بتذكر سليمان الدعاء والاستجابة.

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ والطرف تحريك الأجفان للنظر وهو مقدمة النظر، فأريد به النظر الذى هو مقدمة الرؤية، فحاصل المعنى: قبل أن يرتد إليك نظرك وهو تقلب الحدقة نحو الشيء للرؤية.

ولما كان شعاع البصر يمتد نحو المرئى على قول الرياضيين وصف الطرف أى النظر فى قول الشاعر:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا ما أتعبتك المناظر

بالإرسال.

ووصف بالارتداد هنا والرؤية والإبصار عبارة عندهم عن خروج الشعاع عند النظر وامتداده نحو المرئى ووصوله إليه فما وقع عليه الشعاع يرى وما لا فلا كان هذا المذهب كان العرب عند وضع اللغة.

وأما عند الطبيعيين فالرؤية إنما تكون بانطباع حاسة الرائى فلا يناسبه وضع العرب.

والحاصل: قال العالم المذكور: انظر يا سليمان نحو شيء يمتد إليه شعاع بصرك، فقبل ارتداد شعاعك إليك وهو إنما يكون بغض الأجفان يحضر العرش عندك، فدعا آصف وسليمان بالاسم الأعظم فحضر عرش بلقيس من مسيرة شهرين فى طرفة العين عند سليمان عليه السلام ببيت المقدس ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا﴾ أى غير مضطرب بأن وصل فى طرفة العين وانقطع تحركه واضطرابه بسبب الحركة.

﴿عِندَهُ قَالَ﴾ على شاكلة المخلصين.

﴿هَذَا﴾ أى إحضار العرش.

﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أى من تفضله على من غير استحقاق منى.

﴿لِيَبْلُوَنِى﴾ ليعاملنى معاملة المختبر، فإنه عالم بالعواقب وإنما مراده بالاختيار إظهار حال المختبر للملائكة، والثقلين، وإخراج الفعل من القول إلى الفعل.

﴿أَأَشْكُرُ﴾ بعد رؤيتى نفسى فى البين وبالقيام بالواجب والحقوق.

﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ برؤية النفس فى البين وعدم القيام بالواجب والحقوق والفعلان إما بدلان من ياء المتكلم فى ليبلونى، وإما مفعولا ثانيًا لفعل البلوى المنزل منزلة العلم لكونه مقدمه.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أى نفعه إليه إذ الشكر قيد للصد وصيد للمزيد وخروج عنه عهدة الواجب ورجوع من النعمة الحقيرة إلى المنعم العظيم خلاص من عبودية النعمة إلى حرية الوصول إلى الله تعالى.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره بل عن العالمين.

﴿كَرِيمٌ﴾ منعم على الكافر بالنعمة كما ينعم على الشاكر لا يقطع رزقه.

وأمّا الشبهة فى أن السّرعة على هذا الحد هل هو ممكن فى الأجسام أم لا؟ فجوابها أنه قد ثبت فى علم الأجرام والإبعاد فى الهيئة أن كرة الشمس مثل كرة الأرض مائة وستة وستين مرة ونصف وربع وثمن، ومع ذلك فإذا طلع قرن الشمس من الأفق فقبل مضى ثالثه يصل طرفها الأسفل مكان طرفها الأعلى فقد تحركت الشمس فى مقدار ثالثة مسافة وهى مثل مسافة الدنيا من الشرق إلى الغرب مائة وستة وستين مرة، والمسافة بين اليمن إلى الشام تكون جزءًا من ألفين وستمائة جزء من مسافة الشمس عند الطلوع فتغرب فى الطرفة فإمكان سرعة الحركة على هذا الحد ثابت، وأما الشمس عظيمة وعرش بلقيس صغير فلا اعتداد به لأنه ثبت فى الكلام تماثل الأجسام فما أمكن فى الكبير أمكن فى الصغير والله تعالى قادر على كل الممكنات فقادر على المكنات، فقادر على هذا الإحضار.

والقرآن المعجز الصادق أخبر عن وقوعه فحكمنا به حكمًا يقينًا الحمد لله.

﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام للملائكة من الجن.

﴿نَكِّرُوا﴾ بتقديم بعض الجواهر وتأخيره عن مواضعه.

﴿لَهَا﴾ أى لاختيارها فى عقلها.

﴿عَرْشَهَا﴾ فإن إظهار المعجزة إنما تحصل بإظهار العرش من مسافة بعيدة واختبار العقل بالتنكير.

﴿نَنظُرْ﴾ جواب الأمر.

﴿أَتَهْتَدِى﴾ إلى الإيمان برؤية المعجزة وإلى الجواب الصواب بكمال العقل.

﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ إلى المقصدين بكمال حمقها.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ ولم يقل أهذا عرشك، لئلا يكون تلقينًا بل زادوا كاف التشبيه لإلقانها فى الشبهة أى يشبه هذا عرشك لئلا يكون.

فلما نظرت علمت لكمال فطنتها أنه عرشها وعلمت قدرة الله فى الإحضار ومعجزة سليمان عليه السلام لكن لما كان نوع شبهة بالتنكير احتمل احتمالاً ضعيفًا أن يكون غيره فلم تلق الاحتمال إلى جانب ولم تبت فى الحكم كما هو شأن العقل الكامل فى مظان الاحتمال.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولم تقل هو هو للاحتمال المذكور ولم تقل: هو ليس به للظن الغالب أنه هو بل قالت: كأنه هو، ولفظ كأنه إنما يذكر عند الظن الغالب فلله درها ما أحسن عقلها.

ثم قالت: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بقدرة الله وبنبوة سليمان عليه السلام.

﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أى من قبل هذه المعجزة أو هذه الحالة بالمعجزات المتقدمة.

﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قبل إتيانها قولها و «أوتينا العلم» إلى آخره يشير إلى أنها عرفت المقصدين من إحضار العرش وتنكيره.

ولما ورد سؤال أنه إذا كان عقلها على هذا الحد فلم أشركت قبل ورود الهدهد؟.

أجاب الله: «وصدها عن دين الله» والواو للاستئناف.

﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ أى عبادتها.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الشمس، فما مصدرية.

ويجوز أن تكون موصولة أو موصوفة.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ تعليل لعبادتها الشمس إذ نشأت بين أظهر قوم كافرين وتقليد الآباء داء قديم.

وقيل: وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بحذف حرف الجر.

وقيل: قوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ إلى قوله ﴿كَافِرِينَ﴾ من كلام سليمان عليه السلام وقومه، عطفوا كلامهم على كلامها ومقصودهم الشكر.

فإنه لما أجابت المرأة بالجواب الصواب وظهر كمال عقلها وإسلامها حيث ظنت ظنا قريبًا من اليقين بحضور عرشها من اليمن ولا يكون ذلك إلا بالمعجزة شرعوا

يحمدون على المرأة وعقلها، وحسن إسلامها ثم قالوا: الحمد لله ونحن قد علمنا قدرة الله وصدق النبى قبل هذه المرأة وكنا دائمين مسلمين ولم نزل عن الإسلام، ثم قالوا: وصد هذه المرأة عن الدين عبادتها الشمس لأنها كانت من قوم كافرين.

ثم إن سليمان عليه السلام تزوجها ثم بعد النكاح أمر ببناء صرح أى قصر وصحنه من الزجاج الأبيض بحيث لا يرى الزجاج ويرى ما وراءه على ماء راكد مثل غدير عظيم فيه أنواع السمك والضفادع، ثم جلس على سريره فى صدر القصر وغرضه من بناء القصر المذكور إلى ساقها لأنه قيل له: إن ساقها أشعر ورجلها كحافر الحمار فأراد أن ينظر إلى ساقها ليعالجها إن كان صحيحًا ثم أرسل إليها.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ أى القصر على سليمان.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أى الصرح يعنى الصحن ففيه استخدام.

﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أى ماء عظيمًا لأن الزجاج لا يرى وإنما يرى الماء وحيوانه من السمك والضفدع.

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ على ما هو عادة الإنسان طبيعية عند الوصول إلى الماء وذهل عن سليمان مع أنه بمرأى منها فنظر سليمان عليه السلام إلى أحسن قدم وساق ولكن فيه بعض الشعر.

قال: لا تخافى.

﴿إِنَّهُ صَرْحٌ﴾ أى صحن ﴿مُّمَرَّدٌ﴾ أى أملس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج.

﴿قَالَتْ﴾ بلقيس متضرعة إلى الله معتقدة والدعاء مستجاب فى مجلس الصالحين.

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بشركى فيما مضى أو بسوء الظن بسليمان حيث إنها لما وصلت إلى اللجة بزعمها ظنت أن سليمان عليه السلام يريد أن يغرقها.

﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ أى انقادت.

﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ أى مصاحبة إياه.

وهذا يدل على تزوجه لأن الصحبة مع الأجنبية لا تجوز.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بأسلمت، أى أطعت الله رب العالمين فى جميع ما أمر عباده ثم إن سليمان دخل بها بعد إزالة شعرها بالنورة والحمام بناها له الجن وولدت

منه وملكها عـلى ملكها وكان يذهب نبى الله كل شـهر مرة ويمكـث عندها ثلاث ليال وأمر أميرًا باليمن اسمه زريعة أن يبنى لها ما أرادت، فبنى ثلاثة قصور وحصون سلجين ويبنون دغمدان ثـم إن سليمان عليه السلام لـم يلبث أن مات فبعده بأيام مـاتت بلقيس فسبحان الذى لا يموت.

وذكر فى أخبار الدول وآثار الأول أنه حفرت خربة فى زمن سليمان بن عبد الملك بعد نبينا ﷺ فى «تدمر» فوجد قبـر بلقيس وعند رأسها لوح مكتوب فيه: إنه تابوت بلقيس بنت شراحبيل زوجة سليمان عليه السلام ملكة اليمن وكذا وكذا، وبلقيس مزينة بأثواب كأنهـا فى ليلة الزفاف ثم أمر سليـمان بن عبد المـلك بإخفاء القصـة عن أعين الناس والله أعلم.

مجلس في:

بيان إسالة عين القطر لسليمان عليه السلام وبناء الجن له ما يشاء ثم في بيان وفاته وأكل دابة الأرض منسأته وتبين الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المبين

في ثلاث آيات من سورة سبأ[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذي اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس في بيان إسالة عين القطر لسليمان عليه السلام وبناء الجن له ما يشاء ثم في بيان وفاته وأكل دابة الأرض منسأته وتبين الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المبين.

في ثلاث آيات من سورة سبأ.

وبيان ذلك ما قال الله تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي سخرنا له، والواو لعطف قصة سليمان عليه السلام على قصة داود عليه السلام في هذه السورة أي سورة سبأ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ أي على سائر الأنبياء في بني إسرائيل غير أولي العزم بالصوت الحسن، والملك، وإلانة الحديد.

(١) ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١١ - ١٣).

﴿يَا جِبَالُ﴾ بدل من أتينا بتقدير قلنا.

﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ رجعى التسبيح.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ مفعول معه لأوبى.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ من غير إحماء ولا طرق.

﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ أى أمرنا بأن اعمل.

﴿سَابِغَاتٍ﴾ أى دروعًا واسعة.

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أى فى نسجها بحيث تناسب الخلق.

﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ الضمير لداود عليه السلام وأهله.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أى جريها بالغداة مسيرة شهر، فالغدو مصدر غدا عليه أى جاء بكرة فالجرى مأخوذ من مفهوم الغدو، فلا حاجة إلى تقدير مضاف ويقدر المضاف فى الخبر.

﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أى جريها بعد الظهر إلى المساء مسيرة شهر، كان يغدو من دمشق فيقبل فى اصطخر فارس وما بينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، وكذا ما بين اصطخر وكابل، ويبيت بكابل كما مر تفصيله.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ هو النحاس المذاب فبعد إذابته تحت الأرض كان ينبع ينبوع الماء ويسيل بقدرة الله تعالى ليكون معجزة.

وإيقاع الإسالة على العين مجازى مثل جرى النهر كان سيل النحاس المذاب ثلاثة أيام فى كل شهر باليمن، فإسالة عين القطر لسليمان عليه السلام نظير إلانة الحديد لأبيه، بل أبلغ.

﴿وَمِنَ الْجِنِّ﴾ حال متقدمة.

﴿مَن يَعْمَلُ﴾ عطف على الريح.

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى بحضرته.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى رب سليمان عليه السلام وإذنه وتيسيره.

﴿وَمَن يَزِغْ﴾ أى يعدل.

﴿مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أى مأمورنا وهو إطاعة سليمان عليه السلام، وكلمة الرب فيما

سبق لكونه مقام الإنعام واللطف، ونون العظمة هنا لكونه فى مقام القهر.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يوم القيامة أو فى الدنيا فإنه تعالى كان قد سلط على الجن ملكًا بيده سوط من حيث لا يرى فيحترق.

﴿يَعْمَلُونَ﴾ استئناف تفصيل للإجمال فى «يعمل بين يديه».

﴿لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ المحراب فى الأصل الرجل الكثير الحرب وكذا المحراب فيطلق على محراب الجامع تسمية للمكان باسم صاحبه فإن الإمام يحارب الشيطان فى إقامة الصلاة بالقلب والقالب، وكذا يطلق على المسجد الجامع تسمية للكل بالجزء.

فعلى هذا المراد بالمحاريب المسجد الأقصى والتعبير عنه بالجمع لكونه مسجدًا عظيمًا كأنه المساجد أو لكونه قبلة المساجد لبنى إسرائيل.

أو المراد بالمحاريب الحصينة والمجالس الكريمة وإطلاق المحاريب عليها لأنه يحارب عليها ويذب عنها وبها فلما بين مجالسته شرع فى بيان نقوشها بقوله:

﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ وهى صور الملائكة، والأنبياء، والصالحين من أحوال تعبداتهم ليراها الناس ويرغبوا فى العبادة وكان التماثيل مباحة لهمْ وحرمها شرع جديد، فشرع فى بيان مجلسه بقوله: ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة كان يجلس على كل جفنة ألف رجل.

﴿كَالْجَوَابِ﴾ جمع جابية وهى الحوض الكبير.

قال الأعشى:

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقى تفهق

ولما ورد أن هذه من أين تمتلئ أجاب عنه بقوله:

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ أى ثابتات فهى كناية عن عظمها لأنها كانت الأثافى منها وكانت تطبخ فى كل قدر ألف شاة، وكانت تلك القدور باليمن.

ولما كان داود عليه السلام مشتغلاً بالحرب والقتال أو يعمل آلات الحرب بقوله: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ ولما لم يكن المقاومة والمقاتلة مع سليمان عليه السلام لأحد وضع الحرب أوزارها أمر بالإنعام والإطعام بعد بيان آلات مجلسه بقوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ﴾ حكاية لما قيل لهم.

﴿شُكْرًا﴾ مفعول به لاعملوا على طريقة المشاكلة لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ كقوله أى الشاعر:

قالوا اقترح شيئًا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

أو مفعول له أو حال بمعنى شاكرين.

أو مصدر من غير لفظ لأن اعملوا بمعنى اشكروا.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ أى الصالحين.

﴿الشَّكُورُ﴾ أى المبالغ والمتوفى على أداء الشكر بقلبه وقالبه ولسانه فى أكثر الأوقات والأحوال، وقلته لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكر آخر وهلم جرا.

فيلزم العجز.

ولذا قيل: علم العد يعجزه عن الشكور شكر.

وروى «إن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وأشكر نعمة منك؟ قال: يا داود الآن شكرت».

روى: «أن داود عليه السلام أسس بناء المسجد الأقصى فى موضع فسطاط موسى المتوارث بين الأنبياء فإنهم كانوا يبنون هذا الفسطاط فى بيت المقدس تبركًا وكانوا يتبركون به وكانوا يعبدون فيه، فبنى داود عليه السلام المسجد الأقصى فى هذا المكان أربع سنين فلم يتم فأوحى إليه أن بناءه وإتمامه قُدِّر على يدى سليمان ابنك، فلما مات أوحى إليه بإتمامه، ثم إن سليمان بعد أربع سنين من ملكه شرع فى إتمامه فأتم فى ست وثلاثين فإنه أمر الجن بإحضار الحجارة والجواهر والذهب والفضة من معادنها، وحصل شىء كثير ثم أمَرَ بنحته وبناء الجامع فبنوا المدينة من الرخام الأبيض، فَجَعلوها اثنى عشر أرباضًا، فأسكن بنى إسرائيل الاثنى عشر كل سبط فى ربض، ثم أمر ببناء المسجد من الرخام الأبيض والأصفر، والأخضر فلما تم البناء وأمر بالألواح من الذهب والفضة فضربوها فى الجدران والسقف، ثم أمر بالجواهر من الياقوت والماس واللعل وغيرها، ففضضوا الألواح بها ثم اتخذوه عيدًا، فأحضر جار بنى إسرائل رؤساءهم فقال: إن هذا البيت بنيته لله تعالى فهذا وكل ما فيه لله ثم دعى بالدعوات الثلاث.

روى عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «دعا سليمان بثلاث

دعوات، فأعطى اثنتين وأرجو أعطى الثالثة، سأل من ربه حكمًا يصادق حكمه فأعطى، فسأل ملكًا لا ينبغى لأحد فأعطى، وسأل أن كل من صلى فيه ركعتين أن يغفر له كيوم ولدته أمه، فقال رسول الله ﷺ: أرجو أن يكون قد أعطاه».

ثم بعد ذلك كان يعتكف فى المسجد شهرًا وشهرين وأكثر على وصية أمه فإنها أوصته قالت: يا بنى لا تكثر النوم بالليل فإن من كان كثير النوم بالليل كان فقيرًا يوم القيامة.

وكان ينبت كل يوم شجرة فى المسجد فيسأل عن اسمها ونفعها فتخبر، ثم يأمر فيغرس فى حائطه، ثم فى يوم تنبت شجرة فسأل عن اسمها قال: جرومه، قال: إن خراب بيت المقدس يشتم منك، وما هو إلا بموتى فعلم موته.

ثم إنه أمر الجن ببناء بيت له من الزجاج من غير باب، فبنى فدخل البيت فدعا ربه بنعمة موته ليتم بناء بيت المقدس فإنه قد بقى منه بعض المتممات وليعلم الجن عدم علمهم بالغيب ثم إن يومًا جاءه ملك الموت وهو متكئ على عصاه فقال: أمرت بقبض روحك، قال: دعنى أوصى، قال: لا زمان، قال: دعنى أقعد، قال: لا زمان فقبضه متكئًا على عصاه فبقى سنة والجن يعملون ينظرون إليه وهو قائم فسلط الله الأرضة على عصاه فأكلت سنة، فلما انقطع العصا خر سليمان عليه السلام فوجدوه ميتًا منذ زمان، فلم يعرفوا وقت موته فوضع الأرضة على موضع من العصا فأكلت يومًا فحسبوا به فوجدوه ميتًا منذ سنة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ بعدما أحكم بنيان ملكه بما ذكر فى مجلسه وآلات مجلسه وتسخير الجن والطير له ليعلم أن شخصًا لا ينجو من الموت.

﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أى الجن ليناسب لاحقه.

﴿عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ أضيف إلى فعلها فإنه يقال: أرضت الأرضة الخشبة أرضًا أى أكلت فأرضت بالكسر الخشبة أرضا بالفتح أى تأثرت كقولهم أكلت القوادح الأسنان أكلاً بالسكون فأكلت أكلاً.

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ أى عصاه فإنها آلة النساء أى الطرد والتأخير.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أى سقط سليمان عليه السلام.

﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ فتبين إما لازم أى ظهرت الجن فقوله: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ بدل اشتمال من الجن، وإما متعد بمعنى علمت.

والمراد من الجن عامتهم فرن عوامهم كانوا يعتقدون أن خواصهم يعلمون الغيب.

أو المراد منهم مدعو الغيب أى علم المدعون علم الغيب من الجن عجزهم وعدم علمهم بالغيب «وإن كانوا عالمين» بحالهم.

وقيل: ذلك فالمراد التهكم كقولهم لمدعى الباطل إذا دحضت حجته: هل علمت فساد قولك وإن كان عالمًا بحاله قبل ذلك.

﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أى التسخير، فقوله: «إلى العذاب المهين» يدل على أنهم كفار كما دل عليه قوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (ص: ٣٧) روى أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

وبقى فى ملكه أربعين سنة وهو ابن ثلاث وخمسين وبناء بيت المقدس ستًا وثلاثين سنة.

والله أعلم.

مجلس فى:

بيان أحوال لقمان الحكيم ومواعظه ونصائحه وحكمه

فى ثمانى آيات من سورة لقمان(1):

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس فى بيان أحوال لقمان الحكيم ومواعظه، ونصائحه، وحكمه، فى ثمانى آيات من سورة لقمان.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ هو لقمان بن باعورا من أولاد ناخور ابن تارخ يعنى آزر أبا إبراهيم عليه السلام.

وأمه أخت أيوب عليه السلام بن أموص من أولاد عيص بن إسحاق بن إبراهيم، عمَّر عمرًا طويلاً حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم.

وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث داود عليه السلام ترك الفتوى، فقيل له: لم تركت؟ قال: أفلا أكتفى إذا كفيت.

والحكمة فى عرف العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية.

---

(1) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (17) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: 12 - 19).

وقيل: هى تحقيق العلم وإتقان العمل.

وقيل: هو توفيق العمل بالعلم.

والحاصل أن الحكمـة هى العلم النافع مع العمل الصـالح قد أخبـر الله تعالى أنه أعطى لقمان الحكمة.

والجمهور على أنهـا ليست النبوة، فليس لقمان بنبى عند الجمهـور خلافًا لعكرمة عن ابن عباس بل كان حكيمًا.

ومن حكمه أنه صـحب داود عليه السلام شـهورًا فرآه يسرد الدرع فـأراد أن يسأله فمنعته الحكمـة فلما أتم داود عليه السلام ولبسه فقال: نعم لبـوس الحرب أنت فعرفه لقمان وقال: الصمت حكم وقليل فاعله، فقال داود عليه السلام: بحق سميت حكيمًا.

ومنها أن داود عليه السلام سأله يومًا فقال: كـيف أصبحت؟ فقال: أصبحت بيدى غيرى، فصعق داود عليه السلام صعقة.

ومنها أن داود عليه السلام قال: اذبح شاة وهات أطيب مضـغتين منها فجاء بقلبها ولسانها، ثم بعد ذلك قال داود عليه السلام: يا لقـمان اذبح شاة وهات أخبث مضغتين منها، فجـاء بقلبها ولسانها، فسـأله داود عليه السلام فقال: إذا طاب هاتان المـضغتان طاب الجسد كله، وإذا خبثتا خبث الجسد كله.

ومن حكمه أنه قـال لابنه: يا بنى إنى صحبـت أربعمائة نبى فـحفظت منهم ست خصال فـخذها منى: إذا كنت فى الصلاة فاحفظ قلبك، وإذا كنت فى مـجلس فاحفظ لسانك، وإذا كنت فى دار الغير فاحـفظ عينيك، وإذا كنت على مائدة فاحفظ حلقك، وانس إحسانك إلى الناس، ولا تنس إحسان الناس لك.

ومنهـا أنه قال لابنه: إذا دخلت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ـ أى السلام ـ ثم اجلس فى ناحية ولا تنطق فإن أفـاضوا فى ذكر الله فاجعل سهمك مـعهم، وإن شرعوا فى غيره فتحول عنهم.

ومنها أنه قال: يا بنى إن الله يحفظ من استودعه.

ومنها أنه قال: يا بنى لا تقنع فإنه مخوفة بالليل ومذمة بالنهار.

ومنها أنه قال: يا بنى إن الحكمة تجلس المساكين مجالس السلاطين.

وكان ذات يوم فى بـيته عند القـيلولة إذ دخلت عليـه الملائكة يسمـع صوتهم ولا

يراهم فسلموا عليه وقالوا: إنا رسل ربك جئنا بك ليجعلك خليفة فى الأرض، قال: إن عزم على ربى فله السمع وله الطاعة وإنه يعيننى ويسددنى، وإن أعفانى اختار العافية.

وهى الخمولة وكون الإنسان فى الدنيا خمولاً غيـر معروف خير له من كونه حاكمًا يحكم بين الناس، فإن الحكم بأشد المنازل وأكدرها فتعجبت الملائكة من قوله ورضى عنه الرب، فلما نام بعد العشاء أرسل الله تعالى عليـه نعاسه فأفاض عليه حكم الأولين والآخرين فانتبه بعد ذلك وقد جرى ينابيع الحكمة فى قلبه على لسانه فكان بعد ذلك لا يلقى أحدًا إلا وعظه وذكره، وكـان الناس يقبلون على وعظه إقبالاً عظيمًا، ويجـتمعون عليه ويقبلون كلامه وكان يومًا يعظ الناس وهم يجـتمعون عليه، فمر عظيم من عظماء بنى إسرائيل فنظر إليـه فعرفه فـقال: ألست لقمان؟ قـال: نعم، قال: ألست راعى بنى فلان؟ قال: نعم، قـال: فما بلغك إلى هذا الشأن؟ قال: صـدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنى.

وقد قص الله تعالى بعض حكمه فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن هى المفسرة والأمر فى اشكر تكوينـى لا تكليـفى والإلزام أن يكون كل الناس حكيـمًـا لأنهم مـأمـورون بالشكر، فالمعنى جعلناه شاكرًا فجعله شاكرًا تفسير لإيتائه الحكمة.

فيلزم أن يكـون الشكر هى الحكمة ويجـوز أن تكون أن مصدرية بـه لا مع صلته عن، فيكون الشكر المطلوب بيـانًا للحكمة فقد أشار الله تعـالى بل صرح بأن الحكمة المعتبرة فى الشرع هى العمل والعبادة للمعبود بالحق.

وقد فسر العلماء بأنه فعل شىء، تعظيم المنعم بسبب إنعامه.

وفسره بعضهم بأنه حرف العبد جمـيع ما أنعم الله عليه السمع والبصر والفؤاد لما خلق له وأعطى لأجله.

وعلى التـفسـيريـن الشكر من مقـولة الفـعل لا العلم والحكمـة فى مقـوله العلم فتفسيرها به إشارة إلى ما ذكرنا البتة.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أى نفعه عـائدًا إليه لأنه قيد للموجـود وصيد للمفقود وأداء الواجب وانتقال من النعمة إلى المنعم العظيم.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنما يكفر لنفسه وضرره عائد إليه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكر الشاكرين.

﴿حَمِيدٌ﴾ محمود فى نفسه حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد.

وبعدما أخبر الله تعالى كمال لقمــان فى نفسه أخبر عن تكميله لغيره وبدأ بابنه لأنه أهم لقربه فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ﴾ أنعم أو اشكر أو هاتان ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ والوعظ هو الزجر عن المعاصى والنهى عنها.

﴿يَا بُنَيَّ﴾ تصغير شفقة.

﴿لا تُشْــرِكْ بِاللَّهِ﴾ فإن كان ابنه مؤمنًا فالنهى للتثبـيت والتهييج، وإن كان مشركًا فعلى حقيقته.

قيل: كان مشركًا فآمن بوعظه وكذا أمه.

وقال العلماء: من الـشرك حلف الإنسان بغير الله، فـإذا حلف الجاهل بالنبى، أو الولى، أو الصلاة، أو الـصوم أو الكعبـة، أو رأس السلطان وحيـاته، أو بروح جده أو غيره واعتقد أن هذا الحلف واجب البر، فقد كفر.

وإذا ادعى الجاهل فى أوقات حاجاته أو عباداته غير الله، واعتقد أن ذلك عبادة أو سميع لحاجته ومجـيب فقد كفر لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِـمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (الأحقاف: ٥).

والجاهل الذى يروح إلى قـبور الأولياء فيصلى لهم أو يسـجد لهم، أو يذبح على نية التقرب بهم يكفـر ويخرج عن الدين البتة، وكل ذلك شرك فلا يستـبعدوا شرك ابن لقمان لأن المـشرك فى زماننا بين المسلمـين أكثر من أن يحصى وذلك لشـيوع الجهل فيهم وسكوت العلماء عن الحق أعاذنا الله تعالى من شرورهم.

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فإنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه، وبين من لا نعمة منه البتة.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ الآيتان إلى قوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اعتراض بين وصايا لقمــان لابنه لتأكيد شناعة الشـرك، فإنه كان الإحسان إلى الأبوين، وخـدمتهم، وطاعتهم تلو عبادة الله فى وصاياه لعباده.

ومع ذلك قـال: وإن حمـلاه على الشـرك يجب المخـالفـة فلا أشنع من الشـرك

﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ أى بالإحسان إليهما.

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ﴾ اعتراض فى اعتراض يؤكد الوصية فى حق الأم خصوصًا.
ولذا قال ﷺ لمن قال: من أبر؟ قال: أمك ثم أمك، ثم أمك، ثم أباك.
﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ أى ضعفًا على ضعف أى متزايدًا فإنها كلما زاد حملها ازداد ضعفها.

من هن يهن وهنا.
﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ أى فطامه وقطعه على اللبن ﴿ فِى ﴾ تمام ﴿ عَامَيْنِ ﴾ لقوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ (البقرة: ٢٣٣).
﴿ أَنِ اشْكُرْ ﴾ تفسير لوصينا ﴿ لِى ﴾ بالإيمان والعبادة ﴿ وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ بالإحسان والخدمة.
﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى مصيرك ومصيرها لى فأجازيكم على إيمانكم.
قال ابن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا لأبويه عقيبها فقد شكر الأبوين.
﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ ﴾ وهو المقصود من الاعتراض الأول وسابقه مستطرد لتأكيد هذا المقصود أى حملاك ﴿ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ﴾ أى بكونه شريكًا لى.
﴿ عِلْمٌ ﴾ أى على أن تشرك بى ما ليس لى شريكًا لى ونفى العلم كناية عن نفى المعلوم لأن بينهما لزومًا فى الجملة أى فى العلم الفعلى واللزوم فى الجملة يكفى فى المجازات والكفايات.
﴿ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ لأنه لا طاعة للمخلوق فى معصية الخالق، وإنما الطاعة فى المعروف.
﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا ﴾ صحابا.
﴿ مَعْرُوفًا ﴾ فى الشرع والعقل.
﴿ وَاتَّبِعْ ﴾ فى الدين.
﴿ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وهو النبى ﷺ وبعده الخلفاء الراشدون، ثم العلماء العاملون ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى أجازيكم عليه، والآيتان نزلتا فى سعد بن أبى وقاص وأمه خمسة بنت سفيان فإنها لما سمعت بإسلامه حلفت أن لا تأكل ولا تشرب ولا تستظل حتى يرجع سعد إلى الكفر وقد كان برًّا إليها فمكثت ثلاثًا

فجاءها سعد قال: يا أمى لو كان لك مائة روح فخرجت واحدًا بعد واحد ما أشركت، فأكلت، ونزلت الآيتان، ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان لابنه.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ أى الهنة أى الخصلة من الإساءة والإحسان.

﴿إِن تَكُ﴾ فى الصغر والحقارة والخفاء، لأن الصغر يستلزم الخفاء.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ أى مقدارها.

﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ فإنه أصغر الحبات ومثل فى الصغر.

﴿فَتَكُن﴾ بعد هذا الصغر للخفاة فى أحرز مكان وأحجبه أى ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾.

﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أى أبعد مكان من الإنسان.

﴿أَوْ فِي الأَرْضِ﴾ أى فى الظلم مكان فإن معفر الأرض وجوفها وسبحها أظلم.

والحاصل أن الإساءة أو الإحسان إن كان فى الخفاء والصغر مثل الخردلة فى أحرز مكان مثل جـوف الصخرة فـإنه أخفى من قـعر البحـر أو فى أبعد مكان مثل مـحدب السموات أو فى أضلم مثل جوف الأرض.

﴿يَأْتِ بِهَـا اللَّهُ﴾ أى يحضرها يوم القـيامة، فإن علمه وقدرته مـحيطان بها وهى معنى قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ نافذ القدرة بكل شىء.

﴿خَبِيرٌ﴾ أى عليم بدقائق الأمور.

وهذه الآية إشارة إلى مقام المراقبة والإحـسان لقوله ﷺ (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

قوله: (فإنه يراك) حاصل هذه الآية الكريمة.

والعبـد إذا كان فى هذا المقام أى كـان بحيث لا يغفل عن إحـاطة علم الله تعالى وقدرته لا يصدر عنه سيئة ولا يخل بالحسنة.

رزقنا الله تعالى وإياكم هذا المقام آمين.

روى أن لقمان لما تكلم بهـذا الكلام انصدع قلبه من هيبته فمات فـهذا آخر كلامه وإن قـدم للاعتناء فـقـد وقع النهى عن الشـرك الذى هو أصل الرذائل وتركـه مسـتلزم للتوحيد الذى هو أصل الفضائل.

ووقع الترغيب إلى المراقبة التى هى أصل مقامات الأولياء من أعمال القلوب فشرع

فى الأمر بأعمال الجوارح وخص الصلاة بالذكر لكونها عماد الدين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) وقال:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أى أدها بشرائطها وأركانها وواجباتها، وسننها، وآدابها، فإن (أقم الصلاة) من أقمت العود إذا سويته، فلما ذكر الصلاة كأنه ذكر جميع العبادات البدنية والمالية لما ذكر فقد حصل الكمال لابنه بتحصيل التوحيد والإخلاص بنهى الشرك بتحصيل المقامات للأولياء من أعمال القلوب التى أثبتها.

وبتحصيل أعمال الجوارح التى أثبتها الصلاة وبعد ذلك أمره بتكميل غيره بقوله:

﴿وَأْمُرْ﴾ الناس كلهم ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يعرف فى الشرع والعقل.

﴿وَانْهَ﴾ إياهم ﴿عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الذى أنكره الشرع والعقل.

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ فى الأمر والنهى خصوصًا لقوله ﷺ (من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر سيؤذى كما أوذيت الأنبياء).

أو ما أصابك من البلايا والمحن عمومًا.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أى ما ذكر من الأمر والنهى والصبر على ما أصاب فيها أو جميع ما ذكر من التوحيد والمراقبة والصلاة والأمر والنهى والصبر على ما أصاب عمومًا.

﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ مصدر بمعنى المفعول أو الفاعل معزوماتها ومقطوعاتها ومفروضاتها أو من جاد الأمور وجدها لا فى هزلها.

ولما كان الكمال فى الإنسان غالبًا مفضيًا إلى الكبر وتحقير الناس وكان تكميل الغير مفضيًا إلى إيذائه لأنه رباه نهى ابنه عن إيذاء الناس بعد التكميل بقوله:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ والصعر داء يصيب الإبل فى عنقه فلا يقدر على لىّ عنقه، أى لا تجعل خدك إذا صعر لأجل الناس المكلمين بك إذا كلمهم، وواجههم بكل وجهك بالإحسان والشفقة كمواجهة الأب الشفيق لابنه المحبوب ولا تكلمهم ببعض وجهك كما يفعله المتجبرون المتكبرون أى لا تفعل التصعير، فضلاً عن الشتم والضرب فهذا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ (الإسراء: ٢٣).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى بطالة وبطرًا كما يفعله الإنسان إذا لاحظ فى نفسه الكمال فيحقر الناس ويتكبر كأنه يقول: أنا لا غير، فيمشى فى الأرض بطرًا ولا يسلم على الناس ولا يتواضعهم بل ينظر إليهم بعين الازدراء ويكون أكثر مشية فضولاً لا

للدين ولا للدنيا فقوله: ﴿وَلا تُصَعِّرْ﴾ ناظر إلى التكميل، وقوله: ﴿وَلا تَمْشِ﴾ إلى الكمال كما فصـل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ فى مشيه محـتقر للناس ناظر إلى «لا تمش».

﴿فَـخُـورٍ﴾ على الغير مؤذ له ناظر إلى «لا تصـعر» ثم بعد ذلك أمر ابنه بأصول الآداب لأنها إما لسانيـة فأصلها غض بعض الصوت وإما جوارحية فـأصلها القصد فى المشى فقال: ﴿وَاقْصِدْ﴾ أى توسط.

﴿فِى مَشْيِكَ﴾ أى لا تسرع فيه كحب اليهود فيذهب بهاؤك.

كما قال ﷺ: «سرعة المشى تذهب بهاء النوم».

ولا تماوت فيه كتماوت النصارى فإنه يؤدى إلى الرياء وسوء قالة الناس.

رأت عائشة رضي الله عنها رجلاً يتماوت فى مشيته قالت: ما لهذا؟ قيل: إنه من القراء، أى العُبَّاد، قالت: كـان سيد القراء عمر رضي الله عنه وكان إذا مـشى أسرع وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع.

قولها: أسرع أى: لا يتماوت بل يمشى معتدلاً لا أنه الإسراع المذموم.

﴿وَاغْضُضْ﴾ أى اخفض.

﴿مِن صَـوْتِكَ﴾ أى بعض صوتك لا كله أى إذا تكلمت الناس لا تـكن جهورى الصوت.

فإنه ﷺ كان يحب من لا يكون جهوريًا.

وهذا فى كلام الدنيا.

وفى الأذكار غير الأذان والإقامة والخطبة والوعظ فإن المقصود فيها الإبلاغ فبقدره يرفع.

وفى غيره من الأذكار يخـافت لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (الأعراف: ٢٠٥) ثم بعد ذلك شبه الرافعين صوتهم فى محل لا يحتاج إلى الرفع بالحمر، وشبه صوتهم المرتفع بنهـقها فى عدم الاحتياج، فإن الحمار لو مات تحت الحـمل لا ينهق ولو ضرب ضـربًا شديدًا لا ينهق وإنما يـنهق عند عدم الحاجة كالمعتـين والمرائين ثم ترك المشبهين وأداة التشبيه ووجـه الشبه وأخرج مخرج الاستعارة فقال:

﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أى هذا الجنس من الصـوت فلإرادة الجنس وحد الصوت.

وجمع الحمير وإن كان الظاهر لصوت الحمار لنكتتين:

لفظية: وهى رعاية الفاصلة.

ومعنوية: وهى أن الحمر إذا توافقت على النهيق كان أنكر وإن كانت الجمعية قد بطلت بالأمر فـبالنظر إلى الأصل يفـهم هذا، جعلنا الله من المـتأدبين بآداب الشـريعة اللهم ارزقنا إتمام هذه العرائس آمين.

مجلس في:

بيان قصة أصحاب السبت

في أربع آيات من سورة الأعراف(١):

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس في قصة أصحاب السبت في أربع آيات في سورة الأعراف.

وبيان ذلك: أنه كان في زمن داود عليه السلام بلدة يقال لها: أيلة، بين مدين والطور على شاطئ بحر القلزم، وكان أهلها من اليهود وكانوا سبعين ألف رجل، وكان أكثر أوقاتهم وأرزاقهم لحم السمك، وكانت بقدرة الله الحيتان تأتيهم يوم السبت ظاهرة على الماء كالكباش العظام السمان وهم لا يقدرون على اصطيادها لحرمة الأعمال خير العبادات يوم السبت على اليهود وفي الأيام الباقية غير يوم السبت لا يظهر لهم سمك أصلاً، فوسوس إليهم الشيطان فألهمهم الحيل الباطلة فاتخذوا حياضًا على شاطئ البحر فكانوا يفتحون الأنهار إلى الحياض في آخر يوم الجمعة فكانت تجيء الحيتان يوم السبت فيلقيها إلى الأرض ثم إلى الحياض فلا يقدرون على الخروج وفي آخر يوم السبت كانوا يسدون الأنهار وفي يوم الأحد كانوا يأخذونها ويأكلونها ويبيعونها، فبلغ الخبر إلى داود عليه السلام فكتب إليهم ونهاهم عن صنيعهم فلم ينزجروا فلعنهم ودعا عليهم كما قال الله تعالى في سورة المائدة «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل» وهم

---

(١) ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦).

أصحاب السبت ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ﴾ (المائدة: ٧٨) فبعد ذلك صار أصحاب البلدة ثلاثة أصناف: صنف يرتكبون المحرم، وصنف ينهونهم، وصنف يسكتون ثم بعد ذلك اتخذ الناهون جدارًا بينهم وبين المرتكبين لئلا يختلطوا بهم ومضى على ذلك ستون سنة فأمهلهم الله تعالى ثم لم يهملهم فمسخوا ليلة قردة، ففى الغد رأى الناهون أنهم لا يخرجون ولا يعملون فركبوا على الجدار فرأوهم قردة، ثم دخلوا عليهم فكانت القردة تجىء أنسابهم من الناهين يشتمون أذيالهم وهم يعرفونهم وأنسابهم لا يعرفونها، ويقولون: كنا نعظكم وننهاكم، فالقردة تحرك رءوسها تصديقًا لهم ثم بعد ثلاثة أيام هلكوا ولا يكون للممسوخين نسل ولا بقاء، بل المراد العقوبة والهلاك وذلك قوله تعالى:

﴿وَاسْئَلْهُمْ﴾ أى اليهود المعاصرين، للتقرير والتقريع والإعلام بأنك تخبرهم عن وحى بالكلام المعجز.

﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أى البلدة والعرب تسمى البلدة قرية.

﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أى راكبة على شاطئ البحر قريبة منه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ بدل من القرية بدل الاشتمال و «إذ» بمعنى الوقت أى عن وقت عدوانهم وتجاوزهم حدود الله بالصيد.

﴿فِي السَّبْتِ﴾ أى فى يوم السبت.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ ظرف ليعدون المضارع فى الجملتين لاستحضار الحال القريبة.

﴿حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ يوم تعظيمهم للسبت، مصدر سبت اليهود إذا عظمت السبت.

﴿شُرَّعًا﴾ أى ظاهرة على وجه الماء.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أى لا يعظمون السبت بأن لا سبت ولا تعظيم له، وهذا النفى مقابل سبتهم فيكون هو أيضًا بمعنى الفعل أى تعظيم السبت لتعادلا.

﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ولما ورد سؤال لم فعل لهم هذا؟ أجاب:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل اللاحق أى مثل هذا البلاء العظيم.

﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يجوز أن يكون لهم فسق قبل هذا فابتلوا لذلك، أو المراد بالفسق ما فى ضمائرهم من الخبث فأظهره الله بالابتلاء.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ ﴾ معطوف على «إذ يعدون» لتكون الأمنة من أهل القرية صالحين ولا يجوز عطفه على «إذ تأتيهم» وإلا لكانت الأمنة من العادين.

﴿ أُمَّةٌ ﴾ استفسار صالحة آيه من أذكار المرتكبين ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ من أهل القرية الناهين منهم.

﴿ لِمَ تَعِظُونَ ﴾ استفسار لمنفعة الوعظ أو إنكار للوعظ إذ لا تأثير له فيكون لغواً.

﴿ قَوْمًا ﴾ أى المرتكبين.

﴿ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ بالاستئصال.

﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ غير الاستئصال لتماديهم فى العصيان، يعنى أن هؤلاء المرتكبين أصروا على فعلهم فالله يستأصلهم فى الدنيا أو يعذبهم بغير هذا للوعظ فيهم، فأى فائدة فى الوعظ.

﴿ قَالُوا ﴾ أى الناهون نعظهم ونرجوهم ولا رعوى عن وعظهم.

﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ لئلا يقول فى القيامة فرطتم فى الوعظ.

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ لأن رجاء إتقانهم ما لم يملكوا، ثابت.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا ﴾ أى تركوا ذكر ولد المنسى وإلا فالنسيان عذر.

﴿ مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ من ترك الاصطياد.

﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ والإنجاء مترتب على النسيان.

﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وظلمهم نسيانهم وتركهم ما ذكروا به.

﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أى شديد.

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى باستمرارهم على الفسق، فكان دائمة وفيه إشارة أن الله تعالى لا يهلك قومًا بفسقهم مرة أو مرتين، وإنما يهلكهم بالاستمرار عليه.

ثم فصل وفسر العذاب البئيس بقوله:

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا ﴾ أى أبوا واستكبروا.

﴿ عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أى عن تركه وإلا فالإباء عن النهى طاعة.

﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا ﴾ والأمر تكوينى أى جعلناهم.

﴿ قِرَدَةً ﴾ لا تكليفى لأن كونهم قردة ليس فى وسعهم.

﴿خَاسِئِينَ﴾ أى مطرودين مبعدين عن الناس فأخبر الله بإنجاء الناهين وتعذيب المرتكبين للحرام ولم يخبر عن حال الساكتين، ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم عذبوا لأن السكوت عن الحق ظلم.

والثانى: أنهم نجوا لإنكارهم عليهم بقولهم: ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

ويدل عليه تفسير: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ لأن ما نهوا عنه هو الاصطياد.

والثالث: أنهم مسكوتون فى القرآن لا يمدحون ولا يذمون لأن الجزاء من جنس العمل فلسكوتهم عن الحق صاروا فى القرآن مسكوتين.

وعن الحسن: والله أكلوا أرحم أكلة أكلها أهلها أثقلها خربًا فى الدنيا عذابًا فى الآخرة.

ثم كان يقول: هاه هاه وايم الله ما حوت قوم فأكلوه بأعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله جعل موعدًا ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (القمر: ٤٦).

ومراده التعريض بالحجاج الظالم وبأشباهه فى الظلمة إلى يوم القايمة دمرهم الله تدميرًا وأوصلهم إلى جهنم وبئس المصير.

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين آمين يا رب العالمين.

فهذا دعاء شامل.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحل».

تفسير ابن كثير فى سورة الأعراف.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه». رواه البخارى.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا:

المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقـال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصـيام وزكـاة، ويأتى قد شـتم هذا، وقذف هذا، وأكل مـال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيـعطى هذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقـضى ما عليه، أخذ من خطياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار».

رواه مسلم فى باب الظلم من مشكاة المصابيح.

قال المازرى: زعم بعض المـبتدعة أن هذا الحديث معـارض لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤) وهو باطل وجهالة بينة لأنه إنما عوقب بفعله ووزره فتوجهت عليه حقوق لفرمانه فدفعت إليهم من حسناته، فلما فرغت حسناته أخذت من سيئات خصومه فوضعت عليه فحقيقة العقوبة، مسببة عن ظلمه، ولم يعاقب بغير جناية منه.

طيبى فى الباب المذكور.

فإن كان خصمه لم يعف يؤخذ من حسناته يوم القيامة.

جاء فى بعض الكتب أنه يؤخذ لدانق ثواب سبعمائة صلاة بالجماعة.

فتاوى بزازية فى كتاب الصلاة فى الفصل الثانى.

كان السيد الإمام أبو شجاع يقول: يثاب قاتل الاعونة وكان يفتى بكفرهم

قال مشايخنا واختار المشايخ: أنه لا يفتى بكفرهم وجواز القتل لا يدل على الكفر قال الله تعـالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (المـائدة: ٣٣) الآية، مـن المحاربين لله ورسوله.

كتاب الكراهية فى الفصل الثانى فى فتوى البزازية.

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الغادر ينصب له لواء يوم القـيامة فيقال: هذه غدرة فلان» متفق عليه.

وعنه عن أنس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قـال: «لكل غادر لواء يوم القـيامـة يرفع به» متفق عليه.

وعن أبى سعيد رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة».

وفى رواية: «لكل غـادر لواء يوم القيـامة يرفع له بقـدر غدره ألا ولا غـادر أعظم غـدراً من أميـر عامـة» رواه مـسلم من مـشكاة المصـابيح فى باب مـا على الولاة فى

التيسير، قال محيى الدين النووى: فيه بيان غلط تحرير الغدر لا سيما من حاجب الولاية العامة لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثير.

والمشهور: أن هذا الحديث وارد فى ذم الإمام الغادر وغدره للأمانه التى قلدها للرعية والتزم القيام بها والمحافظة عليها، فمتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم، والرفق بهم فقد غدر بعهده.

طيبى فى الباب المذكور.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ (فاطر: ٥) بالحشر والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فيذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة والسعى لها، ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية فيها وإن أمكنت لكن الذنب بهذا التوقع كتناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة.

تفسير بيضاوى فى سورة فاطر.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦) أى شىء جزعك وجرأك على عصيانه وذكر الكريم للمبالغة فى المنع عن الاغترار، فإن محض الكريم لا يقتضى إهمال الظالم وتسوية الموالى، والمعادى، والمطيع، والعاصى فكيف إلذا انضم إليه صفة القهر والانتقام.

والإشعار بما به يغره الشيطان فإنه يقول: افعل ما شئت فربك كريم لا يعذب أحداً ولا يعاجل أحداً بالعقوبة.

والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعى الجد فى الطاعة لا الانهماك فى عصيانه اغتراراً بكرمه.

تفسير القاضى فى سورة الانفطار.

وقد روى الغزالى فى بعض تصانيفه أن لجهنم جناباً فيه حيات كالبخاتى وعقارب كالبغال الدلم فإذا ألقى وطرح الظلمة إلى النار كما تقدم فى الحديث الصحيح ألقاهم لهب النار إلى الجباب فتلدغهم الحيات والعقارب المذكورة، فيلقون أنفسهم فى النار فتغلب عليهم الحكة والحرارة من لدغ الحيات والعقارب فيجأرون ويتضرعون إلى خالقهم فيقول الله تعالى: «إنكم كنتم تظلمون عبادى وتلدغونهم والجزاء من جنس العمل».

أعاذنا الله تعالى من الظلم والظلمات وأوصلنا الله إلى النعيم والدرجات.

مجلس فى:

بيان استيلاء بخت نصر على بنى إسرائيل وقطعه دابرهم ثم بيان رد الكرة لهم

فى ثلاث آيات من سورة الإسراء[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد...

فهذا مجلس فى بيان استيلاء بخت نصر على بنى إسرائيل وقطعه دابرهم ثم بيان رد الكرة لهم، فى ثلاث آيات من سورة الإسراء.

وبيان ذلك أن الله تعالى قال:

﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ أى أوحينا إليهم قاضين قاطعين باتين للحكم بحيث لا يغير ولا يبدل، وهذا الوحى أولاً إلى موسى عليه السلام وبواسطة إلى بنى إسرائيل.

﴿ **فِي الْكِتَابِ** ﴾ أى فى التوراة.

﴿ **لَتُفْسِدُنَّ** ﴾ جواب قسم محذوف أو مضمن فى قضينا لأن بت الحكم لا يكون إلا بالقسم عادة.

﴿ **فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى أرض الشام.

﴿ **مَرَّتَيْنِ** ﴾ أى إفسادين: أحدهما قتل شعبا وحبس ارميا، ومخالفة حكم التوراة.

والأخرى: قتل زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام.

وقصد قتل عيسى عليه السلام.

﴿ **وَلَتَعْلُنَّ** ﴾ أى لتظلمن الناس أو لتستكبرن عن طاعة الله أو ليغلبن المفسد منكم المفسد.

---

(١) ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ (الإسراء: ٤ - ٦).

﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ مجاوزًا للحد.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾ أي وقت وعد عقاب أولاهما.

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ مؤاخدة بجناياتكم كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ (الأنعام: ١٢٩) أي نسلطهم عليهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ هم بخت نصر وجنوده المجوس.

والقطع عن الإضافة لعدم استحقاقهم التشريف المستفاد منها وللتهويب المناسب للمقام.

﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي شجاعة ونجدة فى الحرب وتوصيف البأس بالشدة كظل ظليل لما فى البأس من معنى الشدة.

﴿فَجَاسُوا﴾ أي ترددوا للقتل والأسر والنهب.

﴿خِلالَ الدِّيَارِ﴾ أي أوساطها على أن خلال جمع خلل كجبال وجبل، أو أوسطها على أنه مفرد كهلال.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ أي لا بد أن يفعل للمجازات تذييل للتأكيد.

وقد وقع ذلك بعدما خرج موسى عليه السلام من مصر بنى إسرائيل بأكثر من ألف سنة وسببه الظاهرى أنه كان بموصل ملك يقال له: **سنجاريب** جد «بُخْت نَصَّر» فغزا بنى إسرائيل بجيش كثيف ومعه سبط «بُخْت نصَّر» وكان لبنى إسرائيل ملك صالح اسمه صديقة يسدده شعبا ابن أمضيا نبى الله، فلما قرب هذا العدو ادعا شعبا وآمن صديقة، فدفع الله عدوهم بأن انهزموا بأدنى حرب وأسر سنجاريب سبط بخت نصر فأوحى الله إلى شعبا بإطلاق **سنجاريب** وسبطه لما أراد الله أمرًا كان مفعولاً.

ثم بعد سبع سنين مات **سنجاريب** واستخلف بخت مكانه فكان عاملاً لهراسف ملك المجوس على بابل وموصل وحواليها.

ثم بعد سبع عشر سنة من ملكه أمر لهراسف بالمسير إلى الشام لأخذ ثأر جده فتهيأ بخت نصر للمسير إلى الشام.

وفى هذه الأيام مات صديقة واختل أمر بنى إسرائيل فطغوا، وبغوا وقتلوا الأنفس، وظلموا الناس، ففى ذلك الوقت قال الله تعالى لشعيا (عليه السلام) قم فى قومك أوصى على لسانك فلما قام النبى أنطق الله لسانه بالوحى فقال: يا سماء استمعى

ويا أرض أنصتى فإن الله تعالى يريد أن يقضى شأن بنى إسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطنعهم لنفسه وخصهم بكرامة، وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التى لا راعى لها، فآوى شاردها، وجمع ضالتها، وجبر كسيرها، وداوى مريضها، وأسمن مهزولها، وحفظ سمينها. فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضًا حتى لم يبق عظيم صحيح تجبر إليه آخر كسير، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أَنَّى جاءهم الحَيْنُ. إن البعير مما يذكر وطنه الذى شرب فيه فينتابه وإن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الحين، وهم أولو الألباب وليسوا ببقر ولا حمير، إنى ضارب لهم مثلاً فليستمعوه فلهم كيف ترون فى أرض كانت خواء زمانًا خربة مواتًا لا عمران فيها، وكان الهارب حكيمًا قويًا فأقبل عليها بالعمارة، وكره أن تخرب أرضه وهو قوى أو أن يقال: ضيع وهو حكيم فأحاط عليها جدارًا وشيد فيها قطرًا وانبسط نهرًا وصنف فيها غراسًا من الزيتون، والرمان، والنخيل، والأعناب وألوان الثمار كلها، وولى ذلك واستحفظه ذا رأى وهمة حفيظًا قويًا أمينا، فلما اطلعت جاء طلعها خروبًا قالوا: بئست الأرض هذه نرى أن يهد جدارها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غرسها، حتى تصير كما كانت أول مرة خرابًا، مواتًا لاعمران فيها.

قال الله تعالى: قل لهم فإن الجدار ذمتى، وإن القصر شريعتى، وإن النهر كتابى، وإن القيم نبيىّ، وإن الغراس هم، وإن الخروب الذى أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة، وإنى قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وإنه مثل ضربته لهم يتقربون إلىَّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالنى اللحم ولا آكله ويدعون أن يتقربوا إلى بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التى حرمتها فأيديهم محفوفة منها وثيابهم مترملة بدمائها يشيدون إلى البيوت مساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها، ويزوقون إلىَّ المساجد ويرينونها ويخربون عقولهم، وأحلامهم، ويفسدونها فأى حاجة إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أمرت برفعها لأذكر فيها وأسبح فيها يقولون صمنا ولم يرفع صيامنا، وصلينا فلم تنور صلاتنا، وتصدقنا فلم تزل صدقتنا ودعونا بمثل حنين الخمام وبكينا مثل عواء الذباب فى كل ذلك ولا يستجاب لنا، قال الله تعالى: فاسألهم بالذى يمنعنى أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين؟ وأبصر الناظرين؟ وأقرب المجيبين، وأرحم الراحمين فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور، ويتقوون

عليه بطعـمة الحرام، كيف أنور صـلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحـاربنى ويحادنى، ويهتك محارمى أم كـيف تزكو عندى صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غـيرهم إنما آجر عليها أهليها المغصوبين أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما قول بألسنتهم والفعل من ذلك بعيـد، وإنما أستـجيب للوادع اللين، وإنمـا أسمع قول المـتعفف الـمسكين، وإن من علامة رضائى، رضاء المساكين.

يقولون: لما سمعوا كلامى وبلغتـهم رسالتى: إنها أقاويل منقولة وأحاديث متوارثة وتأليف ممـا يؤلف السحرة والكهنة، وزعمـوا أنهم لو شاءوا بحديث مـثله فعلوا، ولو شاءوا أن يطلعوا على علم الغـيب بما يوحى إليهم الشياطين اطلعـوا، وإنى قد قضيت قضاء أثبته وختمته على نفسى وجعلت دونه أجلاً مؤجلاً لا بد أنه واقع فإن صدقوا بما ينتحلون من علم الغيب فليخبـروك متى أنفسك أو فى أى يكون، وإن كانوا لا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليـأتوا بمثل القدرة التى بها أمضيـه، فإنى مظهره على الدين كله ولو كره المـشركون، فإن كـانوا يقدرون على أن يؤلفوا مـا يشاءون فليؤلفـوا مثل الحكمة التى أدبر أمره ذلك القضاء إن كانوا صادقين.

وإنى قضيت يوم خـلقت السماء والأرض أن أجعل النبـوة فى الأجراء، وأن أجعل الملك فى الرعاء، والعز فى الأذلاء، والقوة فى الضـعفاء، والغناء فى الفقراء، والعلم فى الجهلة، والحكم فى الأمـيين فأسـألهم متى هذا ومن القائم بهـا، ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره، وإن كانوا لا يعلمون، فإنى أبعث لذلك نبيّا أميّا أعمى من عميان ضالاً من ضالين، ليس بفظ ولا غليظ ولا صـخاب فى الأسواق، ولا متـزى بالفحش، ولا قوال للحـاء، أسدده لكل جميـل، وأهب له كل خلق كريم ثم أجعل السكينة لبـاسه، والبر شعـاره، والتقوى ضميـره، والحكمة معقولة، والصـدق والوفاء طبيعتـه، والعفو والمعـروف خلقه، والعدل سـيرته، والحق شـريعته والهـدى إمامه، والإسـلام ملته، وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعـد الجهالة، وأرفع به الخمالة، وأشتهر به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مخـتلفة وأهواء مـشتتة، وأمم مـتفرقـة، وأجعل أمتـه خير أمـة أخرجت للناس، يأمرون بالمـعروف وينهون على المنكر توحـيداً إلىّ، وإيمانًا بى وإخـلاصًا لى يصلون لى قيـامًا وقعـودًا، وركعًا وسـجدًا، ويقاتـلون فى سبيلى صـفوفًا، وزحـوفًا،

ويخرجون من ديارهم وأموالهم يبتغون ابتغاء رضوانى، ألهمهم التكبير والتوحيد، والتسبيح، والتحميد والمدحة والتمجيد لى فى مسيرهم، ومجالسهم، ومضاجعهم، ومتقلبهم ومثواهم، يكبرون، ويهللون، ويقدسون على رءوس الأشهاد ويطهرون بى الوجوه والأطراف ويعقدون الثياب على الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم صدورهم، رهبان بالليل، ليوث بالنهار ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم.

فلما أتم خطبته، قتله اليهود شر قتلة.

فصار أرميا نبيًا بعده وصار أمر بنى إسرائيل مخلاً اختلالاً عظيمًا، وقرب العدو منهم، وتحيروا فى أمرهم وضعفوا، ومع ذلك لا يقلعون من الشر فأوحى الله إلى أرميا أن ذكرهم بأيام الله، فإنه قد حان عذابى وهم غافلون: «إن أجل الله لا يؤخر» وإن موعدهم قد أظل وإن غضبى قد حل عليهم، وإن سخطى أحاط بهم، وإن أمرى قد دنا، وإن القضاء قد وقع، وإن حكمى صار مثبوتًا، فعند ذلك قال أرميا: رب إنى ضعيف إن لم تقونى، عاجز إن لم تبلغنى، مخذول إن لم تنصرنى، قال الله تعالى: أولم تعلم أن الأمور كلها تصدر من مشيئتى وأن القلوب والألسنة بيدى أقلبها كيف شئت، وأنى معك لن يصل إليك شيء معى، فقام أرميا فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه الله عز وجل فى الوقت خطبة بليغة بيَّن لهم فيها ثواب الطاعة، وعقاب المعصية.

وقال فى آخرها عن الله عز وجل: وإنى حلفت بعزتى لأقضين لهم فتنة يتجبر فيها الحليم ولأسلطن عليهم جبارًا قاسيًا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا: أنى مهلك بنى إسرائيل بيافث، ويافث أهل بابل، ثم لما أتم موعظته حبسوه فبقى فى الحبس زمانًا طويلاً.

ثم إن «بخت نصر» أحاط بهم كإحاطة السوار بالمعصم ثم إنه أخذ بلاد الشام كلها من صفد وصيدا وبيروت ونابلس، وبلدة بيت المقدس، فقتل رجالهم وسبى نساءهم حتى يقال: إنه قتل من علماء التوراة أربعين ألفًا غير سائر الناس، وأسر من أولاد الأنبياء سبعين ألفًا، وأسر من الأنبياء دانيال وعزير وحنانا وغيرهم عليهم السلام فساقهم جميعًا إلى أرمن بابل ووضع على من بقى منهم من الضعفاء فى أرض الشام خراجًا عظيمًا وسلط عليهم جيشًا كثيفًا فتوطنوا فى بلاد بنى إسرائيل فلما جاء بخت نصر

أرض بابل وأسكن بنى إسرائيل فيها رأى ليلة رؤيا فهالته ونسى من الهيبة ما رآه فدعا دانيال، وعزيرًا، وسائر الأنبياء فقال: رأيت رؤيا فنسيت فأخبرونى بالرؤيا والتعبير وإلا لأقتلنكم، فدعا الأنبياء وتضرعوا إلى الله تعالى فأوحى الله إلى دانيال فجاء فقال: يا أيها الملك إنك رأيت صنمًا رجله وساقه من الفخار وفخذه من النحاس، وبطنه من الفضة، وصدره من الذهب، وعنقه ورأسه من الحديد، فعندما تنظر إليه جاءت صخرة من السماء فدقته فصار كالهباء المبثوث، ثم إن هذه الصخرة ملأت الأرض وسدت الأفق، فقال بخت نصر: هذا فما تأويلها؟ قال: رأيت أملاك الملوك بعضها قوى وبعضها ضعيف فالحديد مسلكك والصخرة دولة نبى فى آخر الزمان تدق الأملاك وتملأ العالم والدين.

ثم بعد ذلك مات بخت نصر، فبعد سبعين من أسر بنى إسرائيل ألقى الله تعالى بهمن بن اسفنديار بن لسياسف بن لهراسف، لما ورثت الملك من جده كتشاسف الرحمة على بنى إسرائيل فكتب إلى كرشر عامل بابل بعد بخت نصر أن يرد بنى إسرائيل إلى الشام فولى عليهم دانيال فأرسلهم فقتلوا من كان فيها من المجوس من أتباع بخت نصر، واستولوا على الشام كلها.

فذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أى الدولة والنصرة والاستيلاء ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المجوس من أتباع بخت نصر الباقين فى الشام من عباد لنا.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ﴾ كثيرة بدل أموالكم المنهوبة ﴿وَبَنِينَ﴾ بدل أموالكم المأسورة.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ مما كنتم.

قيل: أو فى أعدائكم، والنفير من ينفر أى يخرج من الرجل قومه.

وقيل: جمع نفْر بالسكون كالعبيد جمع عبد، ونفر جمع نافر كصاحب وصحب، فالنفير جمع الجمع.

وفى هذه القصة تحذير للعقلاء مما حل ببنى إسرائيل من سوء صنيعهم.

نبهنا الله تعالى من نومة الغافلين وأيقظنا الله من سنة الجاهلين آمين يا رب العالمين.

مجلس في:

بيان إماتة الله عزير النبي عليه السلام
ابن شرخيا ثم بعثه إياه بعد مائة عام

في آية واحدة في سورة البقرة(١):

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس في بيان إماتة الله عزير النبي عليه السلام ابن شرخيا ثم بعثه إياه بعد مائة عام وما يتعلق به في آية واحدة في سورة البقرة.

وهي قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ فكلمة «أو» للعطف تقتضي معطوفًا عليه وهو إما في عطف المفرد وهو عند الأخفش، فإن الكاف مزيدة عنده، فالمعطوف عليه الذي حاج في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

فيكون تقدير الكلام أو إلى الذي مر على قرية.

وإما عطف الجملة على الجملة، فيكون التقدير: لو رأيت مثل الذي مر على قرية، فحذف أرأيت لدلالة ألم تر عليه فالكاف غير مزيدة.

ولا يجوز عطف «كالذي مر» على (الذي حاج) لمانع لفظي ومعنوي: فاللفظي هو أن حرفًا من حروف الجارة غير عن لا تدخل على الكاف اسمية أو حرفية.

والمعنوي: هو التفاوت بين ألم تر إلى زيد كيف يفعل، وبين أرأيت مثل زيد.

فإن كليهما للتعجب لكن التعجب في الأول من صنع زيد بأنه حصل لكنه كان

---

(١) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

ينبغى أن لا يحصل فالمعنى أنك قد رأيت صنع زيد وأنه من الغرابة بحيث لا يخفى فتعجب منه.

فالاستفهام للتقرير والإثبات والتعجب من أمر واقع غريب.

وفى الثانى التعجب من مثل زيد بأنه لا يوجد لغرابته فالاستفهام لإنكار مثل زيد والتعجب منه ويستلزم التعجب من زيد لأنه إذا كان مثله لا يوجد فيكون أمرًا غريبًا، فلتفاوت طريقى التعجب لا يجوز عطف «كالذى مر» على «الذى حاج» وإلا لتناقض الكلام لأنه على الأول يكون المثل موجودًا غير الثانى غير موجود فيقدر أرأيت لعطف الجملة، واختير كلمة «أو» الفاصلة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر والمستشهد عليه فى الأول ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

وفى الثانى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

وقيل: من العطف على المعنى مثل قوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ (المنافقون: ١٠).

فالمعنى: أرأيت مثل الذى حاج إبراهيم، أو أرأيت مثل الذى مر على قرية.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أى ساقطة جدارها.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أى سقوفها بأن سقطت العروش أولاً ثم سقطت عليها الجدران وهو كناية عن كمال الخراب والجملة حال لا من قرية لأنها نكرة فكان تقديم الحال عليها واجبًا، بل عن الضمير فى (مر) والجملة الاسمية إذا كانت حالاً يكتفى بالواو كقوله ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين».

والمار هو عزير بن شرخيا على المشهور من علماء أهل السنة.

وقيل: هو أرميا بن حليف.

ونختار الأول.

والقرية فى المشهور بلدة بيت المقدس.

وقيل: العنب على فرسخين من بيت المقدس، وبيانه أنه لما خرب نصر بلاد الشام وسبى بنى إسرائيل إلى بابل ثم بعد ذلك ألقى الله الرحمة فى قلب بهمن ورد بنى إسرائيل إلى بلاد الشام مع دانيال عليه السلام فجاء عزير النبى عليه السلام معهم واستوطن فى بيت المقدس، ثم بعد أيام خرج راكبًا حماره فجاء قرية العنب فرأى خرابها وداخل فيها وكان وقت الخريف كثرة الثمار فقطف من أعنابها وتينها فاستظل

بظل شجرة وربط حماره بشجرة أخرى، فـأكل من العنب والتين وعصرهما فشرب من العصيـر وبقى باقى العنب والتين فى السلة وباقى العصيـر فى الركوة وتفكر فى أحوال أهل القرية الذين قـتلوا وصاروا ترابًا وكيفيـة إحيائهم يوم القيـامة، فإن الأبرار لا تنفك خواطرهم من دار القرار.

فعند ذلك قال: ﴿أَنَّىٰ﴾ أى متى وكيف.

﴿يُحْيِي هَٰذِهِ﴾ أى أهل هذه القرية.

﴿اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى موت أهلها، فالاستبعاد الذى يفهم من أنى بحسب العادة لا بحسب القـدرة كقول زكريا عليـه السلام ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ (آل عمران: ٤٠).

وكقول مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ (آل عمران: ٤٧).

فمراده أعلم أن الله يحيها لكن لا أعلم كيفية الإحياء.

وقيل: مقصوده السؤال من الله تعالى أن يريه كيفية الإحياء لينضم العيان إلى البيان كما فى إبراهيم إذ قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ لكن إبراهيم عليه السلام أتى بالأدب حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ فأراه الله تعالى على الفور من غير نفسه، بل فى الطيور.

ولما لم يراع عـزير عليه بالسلام بالأدب فى الدعاء ألبـثه مائة عام وأراه فى نـفسه وفى مركبه على ما قال:

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ فألبثه ميتًا.

﴿مِائَةَ عَامٍ﴾ فالظرف للإلباث المضمن لا للإماتة فإنها فى ساعة.

﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أى أحياه بدليل أماته لا أيقظه.

﴿قَالَ﴾ الله على ما هو الظاهر لمرور ذكره.

﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ والسؤال كما فى أصحاب الكهف لإعطاء اليقين بالجواب.

﴿قَالَ﴾ عزير ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ على ما هو عادة الظان هو الصحيح.

ولا وجه لما قيل إنه مات ضحى وبعث بعيـد العصر فقبل النظر إلى الشمس قال: لبثت يومًـا، وبعد النظر أضـرب عن الأول فقـال: أو بعض يوم، فأو بمعـنى بل إنما يكون فى عطف الجمل.

وأيضًا لما كان موته عند الضحى فيكون بعض يوم ولو كان البعث عند الغروب. قال الله تعالى: ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ فصدق بقول الله تعالى، لتكثير المعجزات.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ من التين والعنب فى السلة.

﴿وَشَرَابِكَ﴾ من العصير فى الركوة أى إلى متناولك لإفراده الضمير فى.

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أى لم يتغير بأن يمر عليه سنة.

والهاء أصلية بأن يكون أصل السنة سنهة كجبهة، أو للسكت بأن تكون أصل السنة سنوة كطلحة، وقرأ حمزة والكسائى «لم يتسن» بإسقاط الهاء فى الوصل، تدل على أن أصلها واو.

فإن الأصل تطابق القراءات وإن جاء سانهة، وسانهة فى التصغير سنيهة لاحتمال أنه لا يكون فصيحًا لأنه قد جاء سانيت وساناة، وفى التصغير سينوة فحفظ الطعام والشراب اللذين يتغيران بسرعة فى الزمان الطويل على القدرة أدل دليل.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أى كيف تفرقت عظامه وأجزاؤه وهو الصحيح لما سيجىء.

فنظر فرأى العظام تبيض متفرقة فحفظ ما يتسرع الفساد إليه سالمًا وتفرق عظام الحمار دليل آخر على القدرة.

وقيل: وانظر إلى حمارك سالمًا يقف كما ربطته، ولا وجه له لما سيجىء.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ أى فعلنا ذلك لنجعلك، فالعطف على ما قال على طريقة الالتفات.

﴿آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ بالنبوة، يهتدون بك أو بالإحياء بعد الموت يستدلون بك على صحة الحشر والنشر.

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أى عظام الحمار، فاللام عوض عن الضمير الراجع إلى الحمار، والدليل عليه أنه عقب ذكر الطعام والشراب بحال لم يتسنه وأطلق الحمار ثم اعترض بجملة (ولنجعلك) تأكيدًا لأمر الدلالة على صحة الحشر، ثم ذكر قيد الحمار وأعاد انظر لأن المقصود وهو معرفة كيفية إحياء الموتى وتركيب أجزائها إنما يحصل هنا وأما فى نفسه عليه السلام فبمجرد البعث.

وما قيل إلى عظامك بأن أحيا رأسه وعينيه فرأى عظامه تجمع، يرده الظن فى قوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهو ظاهر قوله «بعته» وقول «بل لبثت» لأن الظاهر أن الضمائر إلى الجملة.

وما قيل إلى عظام الأموات من أهل القرية يمنعـه أن ذلك فى يوم الحشر فلا وجه للنظر فى هذا اليوم.

﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أى نرفعها إلى مواضعها وتركب بعضها مع بعض.

قيل: أرسل الله ريحًا حملت العظام بعضها إلى بعض فركب عظام الجسد سوية.

﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ بأن جعل على العظام اللحم وعلى اللحم الجلد وأخرج من الجلد الشعر بقـدرته، ثم جاء ملك إلى جسد الحـمار فنفخ فى منخريه فحـيى الحمار فنهق، فقد أراه الله كيفية الإحياء فى حماره على ما ذكر مفصلاً.

فالضمير المبدل منه اللام إلى الحمار البتة.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أى ظهر ما خفى عليه من كيفية الإحياء.

﴿قَالَ﴾ استدلالاً بالجزئى على الكلى.

﴿أَعْلَمُ﴾ مستمرًا لا يزول بالتشكيك على ما هو شأن اليقينات.

﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته من إحياء الموتى وغيره ﴿قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته ذاتية ونسبته إلى كل المخلوقات على السواء لأنه خالق كل شىء، فإذا ثبت قدرته على مقدور ثبت على الكل فضمير الفاعل فى تبـين على ما فسرنا عائد إلى ما قبله مما خفى عليه وأشكل على ما علم من قوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

ويكون استـدلالاً بالقدرة على البعض على القـدرة على الكل بانضمام المقـدمات المذكورة فيكون لائقًا بفصاحة القرآن، وليس هذا من باب التنازع بأن يكون قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاعلاً لتبين ومفعولاً لأعلم.

وقطعه على مذهب البصريين بأن أضمـره فى تبين وأعطى المفعول الثانى أى أعلم ولا يجوز الـقطع هنا على مذهب الكوفـيين لأنه يجب علـى مذهبهـم أعلمه بإضـمار المفعول ولم يـقع كذا فيكون دليلاً على صحة مـذهب البصريين، فى قطع التنازع لكن الاحتـمال الأول يدفع الاستـدلال، وحكى فى التفاسـير: أن عزيرًا عليـه السلام ركب حماره فجاء فحلت فى بيت المقدس عجـوزًا قاعدة على باب بيته فقال: يا عجوز أهذا بيت عزير، فبكت وقالت: نعم، قال: لم بكيت؟ قالت: لأنا فقدنا عزيرًا منذ مائة سنة ولم يذكر حتى الآن، قال: أنا عزير، قالت العجوزة: كان دعاء عزير مستجابًا فادع الله أن يرد بصرى حتى أعرفك، فمسح على عينيـها ثم قال: قومى، فنظرت وقامت مقعدة

فقالت: والله أنت عـزير، فذهبت إلى ابن عزير وكـان فراق عزير فى سن ثمانيـة عشر والجارية فى عـشرين فالآن هو فى مائة وثـمانية عشـر وبنوه شيوخ والعجـوزة فى مائة وعشرين فجاء إليـه ابنه وقومه فرأوه شابًا فقال ابنه: إن شامة كـبيرة كانت فى كتف أبى فنظروا إليه فرأوها فـقالوا: إن التوراة قد ذهبت منا بإحراق بخت نصر وكـان حافظًا لها يقرؤها من ظهر قلبـه فأملها علينا فاملى عليـهم فكتبوها فسألوا الدليل عليـه فقال: فى الحديقة الفلانيـة عند الشجرة الفلانية قد خبـأ الفلانى خبأ فيه نسخـة توراة فأخرجوها فقـابلوا بإملائها فـوجدوا طابق النعل بالنعل، فـعند ذلك آمن به بنو إسرائيل فصـدقوه وجعلوه سلطانًا عليهم فهداهم وأرشدهم وأحيـا ما أميت من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثم بعد انقـضاء أجله راح إلى سبـيله ولم يكن الموت الأول موت الانقـضاء، بل موت الابتلاء كمـوت الألوف من أصحاب حزقيل عليه السلام ثم حـياتهم بدعائه لكن الفرق كان موتهم موت العقوبة وموت عزير عليه السلام للإعلام بكيفية الحشر مثل ذبح إبراهيم ثم حياتها.

اللهم أحينا بمعارفك واجعلنا من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر آمين.

مجلس في:

بيان أحوال نبى الله حنظلة بن صفوان عليه السلام

في خمس آيات من سورة الأنبياء[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس فى بيان أحوال نبى الله حنظلة بن صفوان عليه السلام فى خمس آيات فى سورة الأنبياء عليهم السلام.

قال المفسرون: إن صالحًا رسول الله ﷺ لما دعا قومه ثمود إلى الله الودود فكذبوه فأهلكهم الله تعالى ذهب من نجا من قومه ممن آمن منهم وهم أربعة آلاف نفس بعد طواف مكة إلى اليمن فجاءوا حضرموت، فمات نبى الله صالح عليه السلام هناك فقال قومه حضرموت أى موت صالح عليه السلام فسموا البلدة بذلك، فسكنوا بعد نبى الله بحضرموت وتناسلوا وتكثروا فبنوا بلدة أخرى اسمها حضور وأخرى سحول وكانوا فى أرغد عيش وأهنئه ثم بعد انقراض المؤمنين عبد أولادهم الأصنام، وذهب على ذلك زمان ثم بعث إليهم نبيًّا منهم اسمه حنظلة بن صفوان، فدعاهم إلى الله ونهاهم عن عبادة الأصنام وكان فى بلادهم طائر كبير فيه من كل لون وعنقه طويل يسمونه عنقاء لطول عنقه، وكان ينقض على صبيانهم إذا أعوزه الصيد فيختطف أولادهم فيأكل فلذلك سمى مغربا فدعى نبى الله عليه فأصابته صاعقة فاهلكته ولم يبق منه نسل، وكان نبى الله حمالاً لا يأكل إلا من كسب يده فقتلوه فى السوق ثم سلط الله عليهم بخت نصر فذهب بعد إهلاك بلاد الشام إلى اليمن فحاربه قوم حنظلة عليه

---

(١) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (الأنبياء: ١١ - ١٥).

السلام أهل حضور وسحول فلما انتحر القتال نادى مناد فى جو السماء: يا لثارات الأنبياء يعنى هذا الوقت وقت أخذ انتقام جنس الأنبياء والمراد: حنظلة عليه السلام فيا ثارة يقال هنا وقتلت فلما سمعوا هذا النداء تزلزلت أركانهم وضعفت قلوبهم فانهزموا فأخذتهم السيوف فأهلكوا جميعًا فهلاك أهل حضور أحد أحدًا ما يراد من الكثرة فى قوله تعالى:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ على قول ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: أراد بها قرية حضور لأنها المراد فقط لدلالة كم التكثرية على وقوعه.

مرادًا وكم هنا خبرية وقرية تميزها ومن زائدة للفصل بين مميز كم ومفعول قصمت والقصم كسر شديد بفرق الأجزاء بالكلية فإذا لم يشتد يقال: بالعا.

(قصمنا) هنا دالة على سخط عظيم وغضب شديد.

والمراد من (قرية) أهلها إما بالمجاز فى الحذف بدلالة إنشاء الظلم لأنه فعل أهلها وبدلالة أنشأنا قومًا آخرين ولرجوع الضمائر فى أحسوا وما بعده إلى الأهل.

﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أى أهلها فلما طوى ذكر الأهل وأقيم (قرية) مقامه نسب فعلهم وهو الظلم إليها.

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أى بعد إهلاك أهلها.

﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم فى نسب ولا دين وهذا القصم بتسليط جند بخت نصر عليهم.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا﴾ أى أدركوا بحس اللامسة.

﴿بَأْسَنَا﴾ أى شدة عذابنا وهو عذاب السيف وهو محسوس باللمس أو أبصروا فإن المعارف فى الإحساس الإبصار شدة العذاب بالسيف وهو مبصر أيضًا، أو علموا علمًا يقينًا بمنزلة الإبصار نزول سخطنا عليهم.

﴿إِذَا هُم﴾ أى فاجاءوا أنفسهم.

﴿مِّنْهَا﴾ أى فى القرية.

﴿يَرْكُضُونَ﴾ يهربون ينهزمون راكبين دوابهم يضربونها بأرجلهم للإسراع أن كان الحرب والانهزام خارج البلدة أو يغدون على أرجلهم يسرعون فى الهرب والانهزام مشبهين بقوم يركضون الدواب للإسراع إن كان الانهزام داخل البلد.

فلما اشتغل أعداء الله القاتلون نبى الله بالهرب وقد قدر الله تعالى استئصالهم نادى ملك من السماء على سبيل التوبيخ والاستهزاء:

﴿لا تَرْكُضُوا﴾ دوابكم ولا تسرعوا فى العدو فإنه إذا جاء القضاء أضاق الفضاء، فإذا جاء القدر عمى البصر فلا ينفع الحذر.

﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ والإتراف إبطار النعمة صاحبها، والإبطار إحداث البطر وهو خفة فى العقل تعرض لأهل النعم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق: ٦، ٧).

أى ارجعوا إلى النعم والتلذذ بها التى أحدثت فيكم البطر حتى قتلتم نبى الله وعصيتم الله فى أمره ونهيه.

﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ التى تفتخرون بها لحسنها وزينتها، يقولون ذلك استهزاء.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أى يسألكم خدمكم وحشمكم عما تأمرون وترسمونه من أمثال قتل النبى المعصوم وتكذيبه وتحقيره، أو يسألكم الناس الرأى السديد والفكر الجميل فى المشاورات، أو يسألكم وفادكم عطاياكم للرياء والسمعة أن كانوا استحياء للرياء، وإن كانوا بخلاف، فهو توبيخ، فلما سمعوا ذلك من الملائكة وصار الأمر عيانًا فلا تقبل التوبة ولا ينفع الندم:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ أى يا هلاكنا تعال فهذا أوانك فدعوا ويلهم وندموا حين لا ينفعهم الندم لمشاهدة ملائكة العذاب وسماع كلامهم.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ واعترفوا بظلمهم حين لا ينفع فصار أمرهم كأمر فرعون حيث آمن عند الغرق وما نفع.

﴿فَمَا زَالَت﴾ من الأفعال الناقصة اسمًا وخبرًا هما ﴿تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ يجوز أن يكون تلك أى دعوتهم ويلهم بقولهم يا ويلنا اسمًا ودعواهم أى دعوتهم، ودعادهم عليهم خبرًا وبالعكس.

وليس هذا مما يتعين المتقدم للرفع مثل: ضرب موسى عيسى، لاتحادهم الاسم والخبر للذات فلا يتفاوت المعنى باختلاف الإعراب.

بخلاف المثال المذكور حيث يختلف المعنى باختلاف الإعراب.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ﴾ أى كانوا يكررون ويرددون قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ حتى جعلنا السيوف الآخذ فهم.

﴿حَصِيداً﴾ أى مثل حصيد وهو النبت المحصود، وفعيل إذا كان بمعنى مفعول يستوى فيه التذكير والتأنيث والواحد والجمع فيكون محمولاً على الجمع، وأيضًا لما قدر مثل وهو فى الأصل مصدر يستوى فيه الواحد والجمع جاز حمله على الجمع، لأن جعل بمعنى صير فى دواخل المبتدأ والخبر.

﴿خَامِدِينَ﴾ أى ميتين فإن الخامد يطلق فى اللغة على الميت فلا حاجة هنا إلى كلمة التشبيه ولذلك جمع.

لكن أصل الخمود انطفاء النار، فأطلق على الموت تشبيهًا وصار حقيقة بعد المجاز.

وجعل بمعنى صير، إنما يقتضى مفعولين لا ثلاثة، فالمفعول الثانى هنا جميع قوله: ﴿حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ مثل قولك جعلناه أى الشراب حامضًا، أى مزّا وصار المعنى حتى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد.

والخمود عطف على مماثلة لا الحصيد، فالمفعول الثانى جامعين.

والمراد من قوله تعالى فى سورة الحج: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (الحج: ٤٥) هذه القرية حضور وأمثالها.

وكذا المراد من أصحاب الرس فى سورة الفرقان فى قوله تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً﴾ (الفرقان: ٣٨) أصحاب هذه القرية فى بعض الروايات أعاذنا الله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه هو البر الرحيم.

مجلس في:

بيان أحوال أولاد سبأ وسيل العرم

في سبع آيات من سورة سبأ[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس في بيان أحوال أولاد سبأ وسيل العرم في سبع آيات من سورة سبأ.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾.

وسبأ اسم رجل على ما جاء في الحديث هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

واختلف في قحطان قيل: من أولاد آدم بن سام بن نوح عليه السلام وهو المشهور بين النسابين فلا يكون من ولد إسماعيل عليه السلام.

لكن جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ارموا بني إسماعيل إن أباكم كان راميًا»[2] فيدل هذا على أن بني أسلم من أولاد إسماعيل عليه السلام،

---

(١) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝١٧ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝١٨ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (سبأ: ١٥ - ٢١).

(٢) حديث: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا) والحديث له بقية وهي: (وأما مع بني فلان، قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ قال: ارموا وأنا معكم كلكم) أورده السيوطي وقال: رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والبخاري في صحيحه وابن حبان في صحيحه كلهم عن سلمة بن الأكوع ورواه الحاكم عن أبي هريرة، انظر الحديث رقم (٢٨٤٣) من جامع الأحاديث ١/ ٥٥٦. ثم انظر الحديث رقم (٢٨٤٤) وفيه رواية للطبراني عن حمزة بن عمرو الأسلمي.

وأسلم قبيلة من الأنصار أوسها وخزرجها من غسان، وغسان من أولاد سبأ فيكون قحطان اسمًا علمًا كعدنان هو الصحيح.

وأطلق السبأ على الحى تسمية باسم الأب الأكبر فلذا صرف، ومن لم يصرف يجعله اسمًا للقبيلة.

وكان أولاد سبأ فى بلد يقال له «مأرب» على وزن «منزل» بينه وبين صنعاء مسيرة ثلاث وكان هناك واد عظيم اسمه «عرم» وقد سده وعمل فيه سكرا ملوك سبأ فكان يجتمع فيه مياه الجبال والتلال فى أراضى شحر.

ثم إن الملكة بلقيس عزت هذه السكر بالصخور والقار فصار الماء فى الوادى بحرًا عظيمًا وجعلت له ثلاثة أبواب، وثقب أعلى وأوسط وأسفل واتخذوا أولاد سبأ أهل مأرب فى أسفل الوادى فى أرض واسعة جنانًا كثيرة تفوت عن الحصر، وامتدت الجنان عن يمين بلد مأرب وعن شماله مراحل متعددة فصارت فى كثرة النعمة والفواكه آية من آيات الله تعالى حتى قيل: إن المرأة كانت تجعل الزنبيل على رأسها وتغزل المغزل فتمر بين الأشجار ولا تحرك شجرًا ولا تقطف تمرًا فيمتلئ الزنبيل من كثرة الفواكه وسقوطها فترجع إلى بيتها.

وكانت تلك الجنان تسقى بماء الوادى إذا احتيج بفتح الباب العالى ثم الأوسط، ثم الأسفل.

فأرسل الله إليهم ثلاثة عشر رسولاً وقيل: نبيًا، فذكرهم أنبياء الله ـ تعالى ـ نعم الله وخوفهم من نقمته فلم ينجع فيهم فصار مالهم إلى البوار كما سيجىء.

وكان ذلك فى زمن لهراسف الذى أرسل بخت نصر إلى الشام واليمن، فيكون فى أزمنة استيلاء بخت نصر.

وقال أكثر المفسرين: إنه كان فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

لكن يرده أنه كيف يكون فى فترة من الرسل وانقطاع الوحى ثلاثة عشر رسولاً أو نبيًا فى بلدة وفى عصر واحد، فاخترنا الأول.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أى لحى سبأ.

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أى موضع سكناهم وهو بلد مأرب وحواليه.

﴿آيَةٌ﴾ علامة دالة على وجود الصانع المختار.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية أو خبر محذوف أى هى جنتان وكونهما آية إما فى نفسهما لأن كثرة الفواكه واتصال الجنان، ووفرة النعم كانت خارجة عن المعتاد فتكون دالة على قدرة خالقها وإنه يفعل ما يشاء.

وإما فى أحوالهما وهى تأتى بعد من وفرة النعم ثم تخريبها سيل العرم، وتبديلها بالآخريين فيكون علامة دالة على إحسان خالقهما وإنعامه ثم على انتقامه بفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

والمراد بالجنتين، جنان كثيرة تفوت عن الحصر والعدد فلم ثنيت؟ لأنها فى اتصالها وتقاربها وتضامها كأنها جنتان.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وعن بمعنى فى كقول الشاعر:

*** لأنك عن حمل الرباعة وانيا ***

بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه: ٤٢).

وإنما أوثرت لتدل على المجاوزة والبعد عما يطلق عليه اليمين والشمال أو عن يمين مسكن كل رجل وشمال، والصحيح هو الأول.

فقال لهم أنبياؤهم تذكيرًا للنعمة وتنبيهًا على وجوب شكرها:

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الأمر للإباحة.

﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ وهذا الأمر للوجوب وعللوا وجوب الشكر استئنافًا بقولهم:

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أى بلدتكم هذه بلدة طيبة لطيب هواها ومائها فكانت لا توجد فيها البرغوث ولا البعوض ولا القمل ولا الذباب ولا الجنة، ولا العقرب، ولا الحيات ولا الوباء وكان المسافر إذا وصل فيها يموت ما عليه من البرغوث والقمل.

فقد كان سعادة النشأة الأول حاصلة لهم، وربكم الذى أعطى ذلك وطلب شكركم رب غفور لفرطات الشاكرين فإن شكرتم تحصل سعادة النشأة الأخرى فتكونون جامعين للسعادتين وهو غاية المنى والمقاصد.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر وعن مواعظ الأنبياء وقالوا: لا نعرف لله علينا نعمة، فقولوا لربكم فليمنع منا نعمه، وذلك إما للبطر وعدم احتمال التهمة وهضمها، وإما لسوء عقيدتهم بأن كانوا دهريين منكرين للصانع قائلين ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ **(الجاثية: ٢٤)** ومن الفلاسفة القائلين الموجبة.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ العرم إما اسم واديهم كما مر، أو المطر الشديد، أو الجرذ أى الخلد، وهى فأرة تجول تحت الأرض وتنقبها.

وورد فى بعض التفاسير: أن الأنبياء أخبروهم بأن الله يرسل على هذا السد الفأرة العمياء فتخربها، وقيل: فعلموه من الكهان ثم عمدوا إلى الهر فربطوا على كل حجر من السكر هرة لتقابل الجرذ.

فلما جاء أمر الله تعالى أقبلت فى بعض الليالى فأرات كبار هربت منها الهر فدخلت فى ثقب الاحجار وأكلت ما بينها من الغار، ففى بعض الليالى حينما امتلأ الوادى فصار كالبحر انهدم السد فهجم الماء على بيوتهم وجنانهم، وأراضيهم فخربت وغرقوا جميعًا بأولادهم، وأموالهم وجاء السيل على الجنان فهلكت الأشجار وصارت مواضعها سجة كما هى الآن.

كذلك فقد أرسل عليهم سيل الوادى والمطر والجرذ.

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أى فى مقابلتهما.

﴿جَنَّتَيْنِ﴾ لا نفع فيهما وتسميتهما جنتين للمشاكلة والتهكم.

﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ تثنية الذات ولاشتمال ورد بإدخال الواو والأكل هو الثمر.

﴿خَمْطٍ﴾ صفة أكل أى أكل مر بشيع فإن الخمط وإن كان اسم الشجر الذى له شوك ولا أكل له، أى أكلاً نافعًا لكنه قد جاء فى اللغة بمعنى المر والبشع فلا حاجة إلى مضاف أى أكل خمط.

وجعله بدلاً من أكل.

﴿وَأَثْلٍ﴾ هو نوع من الطرفاء، ومعطوف على (أكل) لا على (خمط) ليكون صفة ولأن الشجر يباين الثمر.

﴿وَشَيْءٍ﴾ وهو معطوف أيضًا على أكل ﴿مِّن سِدْرٍ﴾ الذى ثمره النبق ﴿قَلِيلٍ﴾ وإنما قلله لأن فى ثمره بعض النفع فلذا تستنبت فى البساتين ﴿ذَلِكَ﴾ أى ما ذكر من الإرسال والتبديل مفعول ثان لقوله: ﴿جَزَيْنَاهُم﴾ فإن جزى قد يتعدى إلى مفعولين.

﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ بالرسل وكذبوهم، أو بكفرانهم النعمة.

﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بذلك الجزاء العاجل المستأصل.

﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أى المبالغ فى الكفور أو الكفران.

وهو تذييل أى القسم الأول منه الذى لم يخرج مخرج المثل ولم يكن مستقلاً فى الإفادة بأن كان محتاجًا إلى ملاحظة السابق فلا يكون من القسم الثانى أصلاً.

فقول العلماء المعانى على وجه كما فى تلخيص المفتاح مبنى على مذهب الاعتزال: تأمل تجد.

ولما بين الله أحوال بلدتهم أولاً وآخراً شرع فى بيان أحوال ما يتصل ببلدتهم من القرى أولاً أى حين العمارة وآخرًا أى حين التخريب فقال: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وهو عطف على ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ﴾ عطف قصة.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ أى بين بلدتهم وقت العمارة.

﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب والرخاء وهى قرى الشام.

﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ بعضها من بعض أو راكبة متن الطريق يراها المسافر وكانت بين بلدتهم وبين بلاد الشام أربعة آلاف وسبعمائة قرية بعضها على الطريق وبعضها على الأطراف، وكانت بادية العرب كلها عمارات.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ بأن جعل بين كل قريتين على الطريق ثلاثة فراسخ أو أربعة الغادى يقبل فى إحداهما والرائح يبيت فى الأخرى.

فكان يقول الأنبياء عليهم السلام: ﴿سِيرُوا﴾ الأمر للإباحة.

﴿فِيهَا﴾ أى فى القرى الظاهرة من رحلته إلى الشام.

﴿لَيَالِيَ﴾ مع أن الخوف فيها أغلب فلذا قدمت.

﴿وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ فى هذين الجنسين لكثرة العماره فلا فرق بين الليل والنهار، أو فى ليالى سفركم أو عمركم وأيامها.

﴿فَقَالُوا﴾ إما للاستهزاء بالرسل وسوء العقيدة بأنها ليست من الله، وإما للبطر وعدم هضم النعمة، وعدم احتمالها.

﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أى مسافة أسفارنا، فبين مفعول به لتتميز الغنى بحمل الأرواد والركوب على الأجواد بالفقر.

﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا الدعاء حقيقة أو استهزاء فإنه قد أجابهم سريعًا فغادت مياه القرى الظاهرة فى الأرض إلا قليلاً، فخربت العمارات وتفرق أهلها شذر مذر.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يضرب بهم المثل فيقال: تفرق بنو فلان أيدى سبأ أى فى طرقهم أو كأولاده.

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ مصدر ميمى أى تفريقًا لا فوق عليه.

لحق غسان بالشام وخزاعة بتهامة وأنمار بيثرب والأزد بعمان.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ ما ذكر من أحوال نفس البلدة وقراها حين العمارة والتخريب.

﴿لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ يصبر على العبادة.

﴿شَكُورٍ﴾ يشكر نعمه.

قال الله تعالى بدل بجنتيهم النافعتين جنتين من الشوك والأشياء المرة، وبقراهم العامرة الوادى والبرارى، ففى ذلك آية عظيمة.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أى على أولاد سبأ لمرور ذكرهم، أو على أولاد آدم عليه السلام فإن إبليس معارض لهم كلهم.

﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أى حقق، أو وجد ظنه صادقًا وقد كان اللعين لما رأى آدم عليه السلام ذا جوف محتاجًا إلى الأكل والشرب إنه لا يتمالك نفسه، أو لما رأى فيه تسعة عشر مبادئ الشر هى القوى الخمس الظاهرة والخمس الباطنة، والشهوة والغضب، والقوى السبع الطبيعية، قوتين هما: العقلية والعملية من مبادئ الخير ظن أنه لا يصير عن الشر.

﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ فى الكفر.

﴿إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان للفريق أو التقليل لكثرة الكفار أو فى الكفر والمعاصى، فمن للتبعيض والفريق هم المخلصون.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى بالوسوسة إذ لا سلطان له غيرها.

﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ استثناء من أعم عام العلل أى ما جعلنا تسليطه بالوسوسة لأمر من الأمور «إلا لنعلم» أى لنميز بحار ذكر الملزوم، وأريد اللازم أى لنميز المؤمن الصديق من الكافر الشاك، أو نقول ذكر العلم، وأريد المعلوم أى ليؤمن من قدر إيمانه، ويكفر من قدر شكه، أو ليتعلق علمنا تعلقًا حاليًا الذى هو مناط الجزاء بعد تعلقه أزليًا بالمؤمن وإيمانه، والشاك وشكه.

﴿مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ﴾ أى مميزًا ممن، فالتضمين لازم على كل حال.

﴿هُوَ مِنْهَا﴾ من للابتداء السببى أى شكه حاصل بسبب الآخرة وسماعها فلا يرجى زواله.

﴿فِى شَكٍّ﴾ عظيم محيط به، والجملة الاسمية تدل على الدوام والشك أدنى مراتب الكفر، فلذا غير أسلوب هذه القرينة.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى محافظ كالجليس والعشير، تكميل لدفع وهم احتياج علمه بوقوع المعلوم أى لا احتياج له لأنه حفيظه والمحافظ للشىء يعلم حاله على كل حاله وإنما مراده التمييز ليعلم الملائكة والثقلان أو الوقوع ليقع الجزاء، الحمد لله على حال ونعوذ بالله من حال أهل النار.

مجلس فى:

بيان أحوال ذى القرنين

فى ست عشرة آية من سورة الكهف:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس فى بيان أحوال ذى القرنين فى ست عشرة آية فى سورة الكهف[1].

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ﴾ والسائلون هم قريش سألوه بتعليم اليهود فإن نفرًا من قريش جاءوا إلى المدينة، وسألوا اليهود عن علامة نبوة نبى خرج فيهم قالوا سلوه عن رجل طواف وعن فتيان غابوا ولم يدر ما فعلوا، وعن الروح الإنسانى، فنزلت سورة الكهف.

واختلف فى ذى القرنين: فأكثر القدماء من المحدثين والمفسرين على أنه: أبو كرب شمر يرعش بن أفريقس من أولاد حمير بن سبأ بن يشجب، بدليل أن الاذواء كانت من اليمن كذى يزن، وذى جدن، وذى نواس، وذى الكلاع، وذى القرنين.

---

(١) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ (الكهف: ٨٣ - ٩٨).

وأنه كان فى زمن إبراهيم عليه السلام وآمن به وطاف مكة أول ما بناها إبراهيم، وملك ما بين المشرق والمغرب.

والمتأخرون من المفسرين والمؤرخين على أنه هو اسكندر بن فيلقوس اليونانى الرومى المقدونى.

وقال الإمام: لا شك أن ذا القرنين ملك المشرق والمغرب وبنى السد بشهادة التنزيل ولا شك أن مثل هذا الملك يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا على ما هو المعتاد.

ولا شك أن اسكندر هو المشهور والمعلوم فى جميع الآفاق لا شمر بن أفريقس.

فوجب أن يكون الذى فى القرآن هو اسكندر المذكور، لكن وقع الإمام فى شبهة وهى أن اسكندر المذكور تلميذ أرسطاطاليس وهو فلسفى منكر للحشر الجسمانى وللنبوات فهو كافر، والمذكور فى القرآن نبى أو ولى فكيف يكون تلميذه.

وأجاب عن النيسابورى بأن جميع ما ذهب إليه الفلاسفة ليس بباطل، فلعل اسكندر أخذ ما صفا وودع ما كدر، أقول: مثاله إنه كان الشيخ أبو الحسن الأشعرى إمام أهل السنة تلميذ أبى على الجبائى المعتزلى فوافقه فيما هو الحق، وخالفه فيما هو الباطل، فوقع الظن القريب من اليقين أن المذكور فى القرآن هو اسكندر المذكور.

وبعضهم فرق بين الرومى واليونانى وهو خلط لأن فى نسبه على ما ذكر ابن العساكر وابن كثير يونانا، وروما فكيف من أولاد عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام فهو يونانى ورومى ومقدونى.

ومقدون اسم بلدة خربة قرب سيروز وقد شاهدتها، وتسميته بذى القرنين لأنه ملك الفارس أو الترك والروم، أو لأنه بلغ المشرق والمغرب، أو كان له قرنان من اللحم على ما شاهدته فى بلاد قيتاد كان لرجل اسمه إبراهيم شبه القرنين من اللحم فى محلهما.

أو سمى بذلك لشجاعته كأنه كبش ينطح أقرانه كما سمى بالكبش لذلك.

واسم أبيه فيلقوس على ما هو المشهور.

وقيل: فيلفوس اسم أبى أمه، وأبوه داردد الأكبر من ملوك فارس فإنه تزوج بنت فيلقوس ودخل بها وحملت باسكندر، وكانت زفرة فأرسلها إلى أبيها فولدت اسكندر عند فيلقوس، ولم يكن له ابن غيره فاشتهر بالنسبة إليه، لكن الظاهر هو الأول.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو﴾ السين للتأكيد بمعنى النية كقول الشاعر:

سـأشكر عـمـراً إن تراخت منيـتى أيـادى لم تـمنـن وإن هـى جلـت

﴿عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ أى من ذى القرنين، أو من جهة الله.

﴿ذِكْرًا﴾ نبأ بذكر وهو قوله:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ﴾ أى جعلنا القدرة له.

﴿فِي الأَرْضِ﴾ فى جميع أمورها، ومنها النبوة بل هى أعلى مراتب التمكين فيكون نبيًا.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى لأجل كل شىء أراده وتوجه إليه ومنه النبوة، بل أعلى من كل شىء فمن أجلية.

﴿سَبَبًا﴾ أى ما يوصل إليه من الأسبـاب والآلات والعلم والقدرة، والسبب فى الأصل هو الحبل ثم أطلق على كل ما يكون وصلة لشىء فأراد بلوغ المغرب.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ بالقطع.

﴿سَبَبًا﴾ أى تبعًا وأدرك ما يوصله إلى المغرب من المهمات والتدبيرات.

قيل: لما مات فيلقوس وجلس على سـريره وهو ابن تسعة عشر جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف وعـدل فيهم، ودعاهم إلى الله ونشر فـيهم الإحسان فبـعد خمس سنين من جلوسه وبلوغه أربعة وعشرين سافر إلى المغرب وبدؤه إلى المغرب لقربه إلى الروم.

﴿حَتَّىٰ﴾ ابتدائية غاية سفره إلى المـغرب أى سار إليه ووطئ الأمم ودعاهم إلى الله وقتل المصرين على الكفر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ عند آخر العـمارة فى موضع يقال له: أوقـياس باليونانية بقرب سوس الأقصى.

﴿وَجَدَهَا﴾ بمرأى العـين لا فى الواقع على ما عليـه الراكبـون فى السفن أو المقيـمون فى الساحل فإنهم يرونها تغـرب فى البحر وإيثاره على رأى حينئـذ لمشاكلة وجد ثانيًا.

﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ﴾ هى البحر المحيط وتسميته عينًا لأنه فى جنب قدرة الله تعالى كالعين.

﴿حَمِئَةٍ﴾ أى ذات طين أسود، وقرئ (حامية) لأنه هناك يشتد تأثير الشمس فيكون البحر حاراً.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أى عند العين.

﴿قَوْمًا﴾ من بربر أو سودان المغرب كافرين.

﴿قُلْنَا﴾ بلا واسطة بشر على ما هو الظاهر فيكون نبيّا.

﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ فشأنك معهم.

﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل أى إياهم، وتقديمه لاستحقاقهم له بكفرهم.

﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أى أمرًا ذا حسن فى الغاية حتى كأنه مثل رجل عدل، وهو دعوتهم إلى الإسلام وتعليمهم الشرائع، وهذا تخيير منه تعالى لاسكندر بين قتلهم قبل الدعوة لكفرهم، وبين دعوتهم وتعليمهم.

لكن أشـار تعالى بحـذف المـفعـول والإيجاز فى الأول وذكـره والإطناب ووضع المصدر موضع الصفة للمبالغة فى الثانى إلى ترجيحه فلذا اختاره.

﴿قَالَ﴾ لأتباعه بعد تلقى الأمر من الله.

﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ بالإصرار والبقاء على الكفر بعد الدعوة والتعليم مرارًا على ما دل عليه كلمة التسويف فى قوله:

﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ بالقتل، ونون العظمة لعادة الملوك ﴿ثُمَّ يُرَدُّ﴾ بعد الموت، وثم للتراخى الرتبى لأن عذاب الآخرة أشد وأبقى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ المستحق لعبادته لتربيته.

فلذا اختير على سائر الأسماء.

﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ منكرًا أشد من الأول.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ بعد الدعوة.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بعد تعليم الشرائع.

﴿فَلَهُ﴾ فى الآخرة، قدم أمر الآخرة هنا لدوامه وكماله.

﴿جَزَاءً﴾ حال أى مجزيا بها، أو يجزى جزاء، أو تمييز المثوبة.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهى الجنة.

﴿وَسَنَقُولُ﴾ بعد إيمانه وعمله.

﴿لَهُ مِنْ أَمْرِنَا﴾ حال ﴿يُسْرًا﴾ أى قولاً ذا يسر كأنه يسير غير شاق من مأموراتنا

من الحقوق الشرعية كالزكاة أو من العشور ومن الخدمات الشرعية كسد التغور، وتجهيز البعوث.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ أى بعد بلوغه إلى المغرب قصد وأراد بهمته الكاملة سفراً لمشرق فتهيأ أسبابه وهذا هو المراد من قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

أى اهتم واعتنى بسبب يوصله إلى المشرق من التدبيرات، والمهمات، والخزائن، والزخائر، والرجال والآلات اللائقة له، فدخل مصر وبنى السكندرية ثم جاء بيت المقدس وذبح لله فيه وملك بلاد الشام، ثم قصد بلاد الأرمن وأذربيجان، وقاتل مع دازا الأصغر مراراً حتى هزمه، وقتل فى المعركة، ثم دخل بلاد الفارس، وبنى أصفهان ثم فتح الهند والصين وأمره مع أهاليهم ما مر من حكمه فى أهل المغرب.

﴿حَتَّىٰ﴾ أى سار فى بلاد الشرق حتى.

﴿إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ فى آخر العمارة قبل طلوعها على سائر بلاد العمارة.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من سودان الهند الذين يسكنون فى البرارى كالوحوش لا بناء لهم ولا لباس لهم كالسودان فى المغرب.

﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ أى من دون الشمس.

﴿سِتْرًا﴾ من البناء واللباس.

حاصل الكلام أنه لا حائل بينهم وبين الشمس فكانت أشعة الشمس الواقعة عليهم كاللباس لهم.

كذلك صفة ستراً أى ستراً مثل ستركم فى اللباس والبناء، أو صفة قوم، أى وجد قومًا مثل قوم المغرب فى الكفر والحكم، أو صفة مصدر محذوف لبلغ، أى بلوغًا مثل بلوغه إلى المغرب فى المشقة وكثرة الجرح وسائر الأحكام، أو خبر مبتدأ محذوف أى أمر ذى القرنين كذلك مثل ما وصفنا فهو تعظيم له.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من التعجب عن حال القوم العراة وتعيشهم وتحملهم لحرارة الشمس وفى مشاهدة آثار قدرة خالقهم وغير ذلك على الأول.

أو من رحمته لهم ودعوتهم إلى الإسلام وتعليمهم الشرائع مع بعدهم عن العمارة، كما فعل بأهل المغرب على الثانى، أو من التعب وتحمل المشاق وصرف الأموال الكثيرة والخزائن الوفيرة على الثالث.

أو من الجنود والآلات والأسباب والعدد على الرابع.

﴿ خُبْرًا ﴾ تمييز أى علمًا محيطًا بالظاهر والباطن.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى بعد وصوله إلى المشرق والمغرب وفتح البلاد المتوسطة بينهما ودعوته أهاليها إلى الدين القويم وتعليمهم الشرائع الحقة، فاكتفى الله تعالى بذكر الطرفين أى المشرق والمغرب للاختصار، أراد وقصد بلوغ الشمال فى منتهى العماره، فتهيأ أسباب الوصول إليه على ما سبق.

﴿ حَتَّىٰ ﴾ أى سار إلى الشمال وفتح بلاد ما وراء النهر، وخراسان وبنى مدينة هراة ومرو وصفد، وسمرقند.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ أى الجبلين فى منقطع أرض الترك المبنى بينهما سد، وبين مفعول به لبلغ لا ظرف لأنه ليس بلازم الطرفين.

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أى قريبًا منهما فى الجهة التى جاء ذو القرنين منها لا وراء السدين لأن فيه يأجوج ومأجوج، ولم يدخل فيه ذو القرنين، ومعنى المجاوزة التى فى دون مجاوزة من جاء من قبل يأجوج ومأجوج، ولم يدخل ذو القرنين.

ومعنى المجاوزة التى من دون مجاوزة من جاء قومًا من الترك.

﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ من أقوال أتباع ذى القرنين لبعد لغتهم عن لغتهم ولقلة فطنتهم.

﴿ قَالُوا ﴾ بمترجم وبلا واسطة لتعليم الله ذا القرنين لغة قوم يتوجه إليهم على ما روى أنه إذا توجه إلى قوم ألهم إليه لغتهم، وهذا من الأسباب التى آتاها الله إياه.

﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ اسما جيلين من أولاد يافث بن نوح عليه السلام فإن أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سام أبو العرب والفرس والروم، وحام أبو السودان والزنج والحبشة، ويافث أبو الترك والحرب والصقالبة.

ويأجوج ومأجوج هما غير منصرفين للعجمة والعلمية، وقيل: للتأنيث باعتبار القبيلة والعلمية إن كانتا عربيتين من أخ الظليم أى أسرع أو تأجج النار أى تلهب.

﴿ مُفْسِدُونَ ﴾ بالإهلاك والقتل والأسر ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى فى أرضهم إذا خرجوا كل سنة فى الصيف لشدة البرد أهلكوا من وجدوا، ونهبوا أموالهم، ولا يطاق لهم.

﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ جعلاً نخرجه من أموالنا.

﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ حاجزًا حصينًا كالجبل.
﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ أي جعلني مكينا قادرًا على التصرف.
﴿فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي خزائني كثيرة فلا حاجة إلى جعلكم.
﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بالفعلة والآلات.
﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي حاجزًا أحصن من السد يقال: ثوب مردم مرقع رقاع فوق رقاع.
﴿آتُونِي﴾ أي ناولوني، فلا ينافي رد الجعل، أو أعطوني بالقيمة.
﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطعه الكبيرة، فآتوه زبره.
﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ جانبي رأس الجبلين.
﴿قَالَ انفُخُوا﴾ في الأكباد فنفخوا بعد اتخاذ الحائل بينهم وبين النار.
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ أي المبني من زبر الحديد.
﴿نَارًا﴾ كالنار.
﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ نحاسًا مذابًا، مفعول لأفرغ، على ما هو مذهب البصرية.

ولو كان مفعولاً لآتوني على ما هو مذهب الكوفية لقيل أفرغه بالأضمار على المختار وهو دليل للبصريين.

روى أن ذا القرنين قاس البناء بين الجبلين فجاء مائة فرسخ فخصر إلى الماء وجعل الأساس من الصخور والنحاس، ثم بسط زبر الحديد ثم عليها الفحم والحطب، ثم وثم إلى أن ساوى بين رأسي الجبلين، ثم أمر بالنفخ فيها بعد رعاية أحوال النفخ بأن بنى جدارين وجعل بينهما خمسين ذراعًا وسمكها مائتا ذراع وامتدادها مائة فرسخ بقدر الوادي، وجعل فيهما الثقب للنافخ وجعل فيها المنافخ، واحترق الحطب والفحم وذاب الحديد فصار كالنار واختلط بعضه ببعض وجعل النحاس المذاب في أجوافه وملأ طاوله ليكون أملس.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ أي جميع يأجوج ومأجوج.
﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي البناء المذكور لملاسته وارتفاعه.
﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ لثخانته وصلابته.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين بعد إتمام السد.

﴿هَذَا﴾ السد.

﴿رَحْمَةٌ﴾ عظيمة عليَّ لتحصيل الثواب على جميع الناس للأمن عن يأجوج ومأجوج.

﴿مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أى وقت موعده وهو القيامة.

﴿جعله دَكَّاءَ﴾ مدكوكًا أى مبسوطًا على الأرض بأى سبب كان.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ مطلقًا، ويدخل فيه هذا الوعد دخولاً أوليًا.

﴿حَقًّا﴾ كائنًا لا محالة فيه.

ذكر فى مشكاة المصابيح فى باب العلامات بين يدى الساعة.

عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال «إن يخرج وأنا بينكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرئ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم، إنه شاب قطيط، عينه طافية كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف».

وفى رواية: «فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته إنه خارج خله بين الشام والعراق فعاث يمينًا وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا، قلنا: يا رسول الله! وما لبثه فى الأرض؟ قال: أربعون يومًا: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره، قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه فى الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به، فيأمر السماء فتمطر الأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى واسعة ضروعا وامده خواطر يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك فيتبعه كنوزها كبواسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مرين عليهما السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهروذتين واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه مثل جُمان كاللؤلؤ ولا يحل لكافر يجده ريح نفسه

الأمارة ونفسه ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه ببابل، فيقتله، ثم يأتى عيسى عليه السلام قومًا قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إنى قد أخرجت عبادًا لى لا يُدان لأحد بقتالهم فحرزّ عبادى إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول: لقد كان بهذه ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى الجبل جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون: لقد قتلنا من فى الأرض هلم فلنقتل من فى السماء فيرمون نشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دمًا ويحضر نبى الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله».

وفى رواية: «تطرحهم بالنهيل ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم سبع سنين، ثم يرسل الله مطرًا لا يكنّ منه بيت مدر ولا وبر فيبل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتى ثمرتك وردى بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى المضام من الناس، واللقحة فى البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم، لتكفى الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة».

رواه مسلم إلا الرواية الثانية وهى قوله: «تطرحهم بالنبل» إلى قوله «سبع سنين» رواه الترمذى.

ذكر فى عرائس الثعلبى: قال قتادة: «ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبى الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: انعته لى، قال: كالبرد المحر طريقة سوداء وطريقة حمراء، قال: قد رأيته».

وذكروا عن الواثق بالله أمير المؤمنين أنه رأى فى المنام كأن السد مفتوح فوجه سلام الترجمان فى خمسين رجلاً وأعطاه دينه خمسة آلاف دينار، وأعطى كل رجل من الخمسين عشرة آلاف درهم ورزق سنة، وأعطاه مائى بغلة فحمل الزاد والماء، وخرج

من سر من رأى بكتاب الواثق إلى إسـحاق بن إسماعيل صـاحب أرمينة وأمر أن يكتب إسحـاق إلى صاحب السرير ويكتب صاحب السـرير إلى ملك الآن، ويكتب إلى ملك الحرن، فأقام عنده حتى وجه خمسين أذلاء فساروا خمسًا وعشرين يومًا حتى انتهوا إلى أرض سوداء منبتة فسألوا عن نتن ذلك الريح مـا هو؟ فقالوا: مات ههنا قوم، ثم ساروا فى مدن فرس عشـرين يومًا فسألوا عن تلك المدن؟ فقالوا: لما ظهـر يأجوج ومأجوج خربوها، ثم ساروا إلى حصون بالعريب من الجبل يتكلمـون بالعربية والفارسية يقرءون القرآن لهم كتب ومساجد فقـالوا: من هؤلاء القوم؟ قالوا: رسل أمير المؤمنين، قالوا: ومن أمير المؤمنين؟ قـالوا: من أولاد عباس ﷺ وموضعه بالعراق، فتـعجبوا وقالوا: شيخ أو شاب وزعموا أنهم لم يبلغهم خبـره ثم ساروا إلى جبل أملس ليس عليه حفرة وإذا جبل مقطوع عرضه مائة ذراع.

وعضـادتاه مبنيتـان متقابلتـان للجبل عن جنبى الوادى عـرض كل عضادة خمـسة وعشرون ذراعًـا، الظاهر من تحتها عـشرة أذرع قد ركب العضـادتين، على كل واحدة مقـدار عشرة أذرع فى عـرض خمسـة أذرع، فوق دور الوقد وبين ذلك الـلبن الحديد المصب فى النحاس إلى رأس الجـبل وارتفاعه مد البصر وفـوق ذلك شرف عن حديد فى طرف كل شرف قريتـين مبنى بعضا على بعض، وإذا باب له مصـراعان عرض كل مصراع خـمسون ذراعًا فى ارتفاع خمـسين قائمتا همـا فى دورهما على قدر بند وعلى الباب قفل من حديد طوله سبعة أذرع غلظه ذراع، وفيه مفتاح طوله ذراع ونصف معلق من سلسلة طولها عشرة أذرع وللباب عتبة طولها عشرة أذرع، وإلى جانب الباب حصن ورئيس الحـصن يركب فى كل جمـعـة عشـرة فوارس مع كل فـارس مرزبة كل منهـا خمسون رطلاً فيضربون القفـل بتلك المرازيب كل يوم ثلاث مرات فيسمع صوتهم من خلف البـاب فيظنـون أن هناك حفظة وحـراسًـا فيـضيـفون بآذانـهم، وعلى الحصـين صخرتان، وبين الحصنين عين عذب وفى آخر هذين الحصنين بقية آلة البناء الذى فضل من بناء السد من قدور ومعارف مـثل قدرو الصابون، وهناك بعض من اللبن الحديد قد ألزق بعضـه ببعض من الصدأ طول كل لـبنة ذراع ونصف فى عرض شبـر، وسألنا هل رأوا أحدًا من يأجوج، ذكروا أنهم رأوا عدة منهم فوق شـرف فهبت الريح فألقتهم إلى جـانبنا فكان مقـدار الرجل من رأى العيـن شبـرًا ونصف ثم انصرفنا وأخـذ بنا الأدلاء وساروا بنا على سمرقند.

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى عبد الله بن طاهر فـوصلنا بنفقة ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى الرأى وعدنا إلى سر من رأى بعد ثمانية وعشرين شهرًا. والله أعلم.

قال النيسابورى: قال أبو الريحان البيرونـى: مقتصر هذا الخبر أن هذا الموضع فى الربع الشمالى من المعمورة.

والله أعلم بحقيقة الحال.

مجلس في:

مولد مريم أم عيسى عليهما السلام

في ثلاث آيات من سورة آل عمران:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس فى مولد مريم أم عيسى عليهما السلام فى ثلاث آيات من سورة آل عمران[1].

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

هذا عمران بن ماثان بن أبى عازار من سلالة سليمان بن داود عليهما السلام من سبط يهوذا بن يعقوب عليه السلام لا عمران بن يصهر ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام أبى موسى عليه السلام، لأن زكريا بن برخيا بن آذن أبا يحيى عليه السلام كان معاصرًا لعمران بن ماثان جد عيسى عليه السلام لا لعمران بن يصهر أبى موسى عليه السلام وما بين عمرانين ألف وثمانمائة سنة.

وكان عمران بن ماثان قد تزوج حنة قافوزا وكان زكريا عليه السلام قد تزوج بنته الأخرى ايشاع بنت مامودا، وكانت جنة عاقرًا لم تلد وبلغت سن الفحول، وكانت ذات يوم فى ظل شجرة فرأت طائرًا يطعم فرخه فحنت واشتاقت إلى الولد، فدعت الله أن يرزقها ولدًا صالحًا، فحملت بمريم، فهلك عمران.

فلما استشعرت بالحمل.

---

(١) ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٥ - ٣٧).

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ منادية له.

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ من الولد.

﴿مُحَرَّرًا﴾ أى معتقًا مخلصًا من أشغالى لعبادتك ولخدمة بيت المقدس بيتك ولخدمة العلماء والمعلمين لكتابك فى المسجد وكان فى شريعة أنبياء بنى إسرائيل نذر الأولاد وتحريرهم إذا بلغوا مبلغ الخدمة للأبوين، ولم يكن نبى من الأنبياء إلا وله ابن محرر فى بيت المقدس فيجعلون أبناءهم إذا بلغوا عشر سنين، أو اثنتا عشرة سنة مخلصين لعبادة الله، ولكنس البيت وتطهيره، ولخدمة العلماء المعلمين لكتاب الله، فإذا بلغ الغلام مبلغ الرجال كانوا يخيرونه فإذا اختار الخروج يذهب حيث يشاء وإذا اختار المقام فى بيت الله فلم يكن بعده خيار ولا خروج، وكان المعتاد نذر الغلمان ولم يكن نذر الجوارى أصلاً إلا مريم فنذرت حنة ما فى بطنها على تقدير الذكورة، أى نذرت ما فى بطنى إن كان ذكرًا، أو كنت بهذا النذر فى طلب الذكر فالمعنى: سألت وطلبت منك يا رب أن تجعل ما فى بطنى ذكرًا صالحًا عابدًا لك فى بيتك محررًا مخلصًا عن خدمة غيرك.

والنذر إيجاب الشخص شيئًا مباحًا على ذمته، والتحرير التخليص عن الرق أو عن الأشغال بغير الله.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ التقبل أخذ الشىء عن الرضا أى خذه منى على رضائك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ إلى دعائى وندائى وأقوالى.

﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيتى وما فى ضميرى، تعليل للتقبل أى تعلم إخلاص فتقبله.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير لما فى بطنها والتأنيث لما فى علم الله أو فى الواقع لأن هذا الكلام حكاية من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ.

وكانت بعد مولد مريم بسنين كثيرة فلكونها فى الواقع مؤنث أنث الضمير، أو بتأويل الجبلة أو النسمة.

﴿قَالَتْ﴾ حنة.

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ وكذا هذا الضمير كما فى بطنها وتأنيث الضمير لقاعدة أخرى غير اعتبار العلم أو الواقع وهى أنه إذا وقع الضميرين مذكر ومؤنث يكونان عبارة عن ذات واحدة يجوز تأنيث الضمير وتذكيره، فهنا وقع الضمير فى كلام المرأة ثم بين

ما فى بطنى وبين أنثى التى هى حال والحال عين ذى الحال فجاز تأنيث الضمير لكون لفظة أنثى عبارة عما فى بطنى.

وهذا الكلام ليس إخبارا لانتفاء الفائدة ولازم الفائدة لأن المخاطب هو الله تعالى وهو عالم بكونها أنثى، وهو فائدة الخبر، وتكون حنة عالمة بها، فمقصود المرأة إنشاء التحزن والتحسر لا الإخبار عنها لأنه تعالى عالم بهما أيضًا فأظهرت حزنها بكونها أنثى، لأن الأنثى لا تصلح لخدمة بيت المقدس للعادة المعروفة لأنها تحيض فتخرج ويلزم من مخالطتها الرجال المفاسد.

﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾ جملة معترضة لتعظيم قدر الموضوع، وتجهيل حنة، والواو اعتراضية، أى الله أعلم بالحكم والآيات التى فى مريم، وحنة لا تعلم فلذلك حزنت.

﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ**﴾ اعتراض مدمج، نظيره قوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ (الواقعة: ٧٦).

وتفسير وبيان للاعتراض الأول والواو للعطف تفسيريًا أى ليس الذكر المطلوب إن كان النذر فيما سبق كناية عن طلب ذكر، أو ليس الذكر المقدر إن كان النذر على التقدير كالأنثى الموهوبة، فاللامان فى الذكر والأنثى للعهد الخارجى وانتفاء المماثلة لما علق بهذه الأنثى من الكرامات التى تفوت عن الحصر كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ٩١).

﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**﴾ عطف على ﴿**إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ**﴾ وتوليها للتسمية لموت أبيها لأن المعتاد تسمية الآباء فقولها: «إنى سميتها» تعريض بكونها يتيمة للاستعطاف.

ومريم فى لغتهم العابدة فيكون تفاؤلاً ليكون الفعل مطابقًا للاسم، وإنما ذكرت ذلك لربها طلبًا لأن يعصمها أى اجعلها عابدة كاسمها وفيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كقوله عليه السلام «قد ولد لى الليلة غلام سميته إبراهيم».

﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ**﴾ عطف على ﴿**إِنِّي وَضَعْتُهَا**﴾ أيضًا والإعاذة الإجارة أى أجيرها بحفظك.

﴿**وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ المطرود، وأصله الرجم بالحجارة.

وقال رسول الله ﷺ: «ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد

فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها»[1]. أخرجه الشيخان: البخارى ومسلم.

وفى رواية: «ذهب ليمسهما فضرب حجاب فمس الحجاب».

وتلك الكرامة لها من دعاء حنة، ولا يلزم من هذا الاختصاص تفضيل عيسى عليه السلام على نبينا ﷺ لأن لكل نبى خصائص لقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ (البقرة: ٢٥٣) الآية.

﴿**فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا**﴾ الفاء تدل على عدم تراخى التقبل من دعاء حنة، أى تقبل مريم وأخذها على وجه الرضا ربها.

﴿**بِقَبُولٍ حَسَنٍ**﴾ دخول الباء يدل على أن (قبول) ليس بمصدر، فيؤول تارة بأن قبول اسم آلة كالسعوط واللدود بمعنى ما يقبل به وهو إقامة مريم مقام الذكر فى قبول النذر وتسلمها أى أخذها إلى بيت المقدس قبل أن تبلغ مبلغ الخدمة.

بيان ذلك أن حنة لما وضعتها لفتها بخرقة يوم وضعها فأتت بها إلى المسجد وكان زكريا مع سبعة وعشرين من الأخيار يكتبون التوراة ويتدارسونها فقالت: دونكم هذه النذيرة، فقال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندى، قالت الأحبار: وإذا لم تكن أمها أحق بها فكيف بخالتها، فاقترعوا لحب خلق الله فيهم كموسى عليه السلام كقوله: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**﴾ (طه: ٣٩) وقيل: لأن بنى ثامان كانوا رؤساءهم وملوكهم فذهبوا إلى نهر جار فقالوا: نلقى الأقلام التى نكتب بها التوراة، فمن صعد قلمه وذهب فوق جرية الماء فهو أحق بها، فألقوا فذهب قلم زكريا فوق جرية الماء ورسبت أقلامهم فأخذها زكريا وذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾.

فبنى لها زكريا غرفة فى المسجد يصعد إليها بالسلم فوضعها فيها يوم وضعها وغلق عليها الأبواب بوحى من الله، ولم ترضع ثديًا قط فكان جبريل يأتيها برزقها من

---

(١) حديث: (ما من بنى آدم مولود إلاَّ يمسَّه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها).

أورده السيوطى فى جامع الأحاديث تحت رقم (١٨٧٦٠) ٥/ ٥٧٦ وقال: رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه.

الجنة ويربيها ويطهرها وكانت تتكلم فى صغرها كابنها وذلك هو السلم المذكور، وذلك يوم ولادتها كما تدل عليه الفاء فى «فتقبلها».

وقيل: قبول وهو السلم المذكور.

وقيل: تقبل بمعنى استقبل أى استقبلها ربها فى أول أمرها ويوم ولادتها بقبول حسن.

فيكون (قبول) مصدرًا.

﴿ وَأَنْبَتَهَا ﴾ فتنبت.

﴿ نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ النبات بمعنى الإنبات أى هيأ لها ما يصلحها فى معاشها من رزق الجنة وتربية جبريل ومعادها من المعارف والحكم.

﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ابن برخيا أى جعله كافلاً لها وضامنًا إما بالوحى أو بصعود قلمه كما مر.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ أى وقت طفولتها وما بعدها.

﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قد أتى من الجنة بواسطة جبريل عليه السلام، فى الشتاء فاكهة الصيف كالعنب والتين وفى الصيف فاكهة الشتاء.

﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ ﴾ لعلمه بالوحى أنها تتكلم.

﴿ أَنَّىٰ ﴾ من أين.

﴿ لَكِ هَٰذَا ﴾ الرزق الخارق للعادة المخالف لأرزاق الدنيا فى الطعم والكيف.

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ لعملها الأول وتأكيدًا أو ابتداء كلام من الله تعالى لتصديقها.

﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى تقدير، فإن عطاءه غير متناه، أو بغير مناقشة ولا حساب.

فى تفسير ابن كثير: روى محمد بن المنكدر عن جابر ﷺ «أن رسول الله ﷺ أقام أيامًا لم يطعم طعامًا حتى شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا فأتى فاطمة ﷺ فقال: يا بنية هل عندك شىء آكله فإنى جائع، فقالت: لا والله بأبى أنت وأمى، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسنًا

وحسينًا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له: بأبى أنت وأمى قد أتى الله بشىء فخبأته، فقال: هلمى يا بنية، قالت: فأتيت بالجفنة فكشفت عن الجفنة فإذا هى مملوءة خبزًا ولحمًا فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله ﷺ فلما رآه حمد الله وقال: من أين لك هذا يا بنية؟ قالت: يا أبت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد الله وقال: الحمد لله الذى جعلك يا بنية شبيهة سيدة نساء بنى إسرائيل كانت إذا رزقها الله شيئًا فَسئلت عنه قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فبعث رسول الله ﷺ إلى على رضي الله عنه ثم أكل رسول الله ﷺ وعلى وفاطمه وحسن وحسين وجميع أزواج النبى ﷺ أجمعين وأهل بيته جميعًا حتى شبعوا، قالت: وبقيت الجفنة كما هى فأوسعت بقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيرًا كثيرًا».

مجلس في:

بيان دعاء زكريا ربه وتبشيره إياه بغلام اسمه يحيى وولادته وسيرته

في أربع آيات من سورة آل عمران(١):

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وهب لزكريا يحيى على وهن العظم واشتعال الرأس من الشيب، ووعد جنات عدن عباده بالغيب، وأحب المؤمنين الصالحين وحببهم إلى خيار خلقه مع ما بهم من العيب، والصلاة والسلام على سيدنا ورسولنا ونبينا وشفيعنا محمد المنجي أمته من الشك والريب ﷺ وعلى خلفائه الراشدين المرشدين ذوي قدر جلي، سادتنا، وقادتنا، وأئمتنا حضرة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعلى آله وأصحابه التابعين لهم بإحسان الداعين عباد الله إلى العطاء والسبب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أما بعد.

فهذا مجلس في بيان دعاء زكريا ربه وتبشيره إياه بغلام اسمه يحيى وولادته، وسيرته صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما في أربع آيات من سورة آل عمران وآيات آخر من سورة مريم.

---

(١) ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (آل عمران: ٣٨ - ٤١).

وفي سورة مريم ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ١١ - ١٥).

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أى فى ذلك المكان الذى وجد عند مريم رزقًا قد أتى من الجنة فاكهة الصيف وقت الشتاء وبالعكس، أو فى ذلك الزمان لأن (هنا وحيث وثم) فى الأصل للمكان وقد يستعار كل منهما للزمان.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ لما رأى كرامة مريم على ما هو المذهب عندنا من أن الخارق أى إتيان رزقها من عند الله كان كرامة لها لا معجزة لزكريا عليه السلام لأن ظاهر استفهامه بقوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ يدل على عدم معرفته به ومعرفة النبى بمعجزته شرط لأن المعجزة فعل اختيارى للنبى.

ورأى أيضًا منزلتها عند الله، وقربها منه تعالى حسن واشتاق إلى الولد الصالح كما حنت حنة عند رؤية إطعام الطائر فرخه.

﴿قَالَ﴾ استئناف لبيان الدعاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك شريفًا، لأن ما من عند العظيم شريف، عظيم، أو من دون الأسباب المعتادة والوجوه المعهودة.

﴿ذُرِّيَّةً﴾ نسلاً، تطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى، وهنا الواحد المذكر بدليل قوله فى سورة مريم: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٥) ولدًا صلبًا.

﴿يَرِثُنِى﴾ العلم والحياة.

﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يعنى ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، النبوة والرسالة.

﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم: ٦) أى مرضيًا، فى أقواله وأحواله وأفعاله كما قال هنا:

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أى فى أقواله وأحواله وأفعاله، والذرية من الذرء بمعنى الخلق، والذر بمعنى النشر لأن نسل الرجل ينتشر فى الآفاق.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى مجيبه، وهذا إجمال قوله تعالى فى سورة مريم: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٣) أى بالإخلاص التام لأن الإخفاء لازم الإخلاص.

﴿قَالَ﴾ بيان للنداء ﴿إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ﴾ أى جنسه ﴿مِنِّى﴾ والعظم دعامة البدن فوهنه مستلزم لوهنه.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فى الكلام استعارة بالكناية شبه الشيب بالنار فى بياضه

وإنارته بقرينة الاشتعال وقوله ﴿شَيْبًا﴾ تمييز أى فشا الشيب فى رأسى فشوًا كاشتعال النار.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ﴾ فى جميع أحوالى.

﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى خائبًا خاسرًا كلما دعوتك أجبتنى لأنك سميع الدعاء.

﴿وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ﴾ أى بنى أعمامى لأنهم شرار بنى إسرائيل فأخاف أن يبدلوا دينى ويغيروا شريعتى وطريقتى.

﴿مِن وَرَائِى﴾ أى بعد موتى.

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لم تلد قط.

﴿فَهَبْ لِى﴾ لإحياء دينك ونصرة شريعتك.

﴿وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

وقال هنا أى فى آل عمران:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أى جنسهم كقولهم: فلان يركب الخيل، ويأكل الأطعمة النفيسة، ويلبس الثياب النفيسة، أى جنسها، وإن كان واحدًا والمراد هنا جبريل عليه السلام على ما ورد فى الروايات.

وفى قراءة شاذة عن ابن مسعود ﷺ: روى أن زكريا لما دعا ربه ووقع فى حيز القبول جاء جبريل عليه السلام بثياب بيض وناداه.

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ﴾ أى فى الغرفة التى بنيت لمريم.

﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بأن الله ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أى بغلام اسمه يحيى على ما فى سورة مريم، وتولى الله تسميته تشريفًا له، وتخصيصه بهذا الاسم لحياة قلبه فى الدنيا بعدم توجهه إلى غير الله وحضوره معه فى أكثر الأوقات، وهى الحياة الطيبة ولشهادته عند الموت، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ثم وصفه بخمسة أوصاف وهى قوله:

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من يحيى والحال فى المعنى وصف.

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى صادرة منه وهى جنس الكتب السماوية من التوراة وغيرها.

وإطلاق الكلمة عليها لأن الكلمة فى اللغة مطلق ما يتكلم به فيعم.

وقيل: المراد منها عيسى عليه السلام فإن يحيى أول من صدق به وإطلاق الكلمة عليه لأنه تكون بكلمة كن من غير أب.

والتصـديق بكتب الله ورسله الذين أخبرهم عـيسى عليه السـلام بالنظر إلى يحيى أصل الإيمان.

ويحتمل أن يكون المراد: ومصدقًا بمحمد الذى جاء من كلمة الله فى التوراة وفى سائر الكتب فـيكون قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ جامعًـا للإيمان بالكتب والرسل جميعًا.

ثم وصفه بقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ فائقًا على الناس كلهم والسيادة بتعليم الدين وتأديبهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

﴿وَحَصُورًا﴾ أى حاصرًا نفسه مانعًا إياها عن الشهوات المكروهة والملاهى، فعول بمعنى الفاعل يدخل فيه عدم التزوج فإنه عند الأمن من الزنا أفضل عند الشافعية.

﴿وَنَبِيًّا﴾ من الأنبياء والمرسلين.

﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فى إبانة العظام وأجداده الكرام، ويجوز أن تكون تبعيضية أى من الكاملين فى الصلاح وهو الاستقامة فى الأقوال والأفعال والأحوال وكماله لا نهاية له.

﴿قَالَ﴾ زكريا عليه السلام عند التبشير متوجهًا إلى ربه الكبير معرضًا عن الملك الكريم.

﴿رَبِّ أَنَّىٰ﴾ من أين؟ أمن هذه الزوجة العاقر أم من غيرها؟ أو كيف يكون غلام أبعد ردنا إلى الشباب أم على هذه الحالة؟ على تقدير الاستفهام وهو الظاهر.

ويجوز أن يكون المراد الاستبعاد من حيث العادة لا من حيث القدرة استعظامًا للأمر.

ويجوز أن يكون المراد التعجب منه لأمر غريب.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ حال للتعليل أى أثر فى الكبر على ما قال فى سورة مريم: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أى خسارة وفحولاً وشيبًا فى الفاصل.

﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لم تلد قط.

قيل: كان زكريا ابن تسعة وتسعين سنة وامرأته بنت ثمان وتسعين.

﴿قَالَ﴾ الله، أو جبريل.

﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه خمسة أوجه من الإعراب: فعلى تقدير حقيقة الاستفهام كذلك أى على مثل ما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر حال أو ظرف.

الله يفعل ما يشاء من خلق الولد يعنى حين كونكما على جالكما يهب لكما يحيى ليحيى رحم أمه به، وعلى تقدير الاستبعاد من حيث العادة كذلك أى فعلاً مثل ذلك وهو خلق الولد من العاقرين فيكون كذلك صفة مصدر محذوف الله يفعل مما يشاء من الأمور القريبة والمفارقة للعادة وعلى تقدير التعجب كذلك أى الأمر كذلك فتكون (كذلك) خبر مبتدأ محذوف، أو كذلك خبر والله مبتدأ ويفعل ما يشاء بيان له أى الله كذلك فإنه يفعل ما يشاء فلا تتعجب، فإن عجائبه لا تحصى.

﴿ قَالَ ﴾ زكريا بعدما حقق أمر البشارة.

﴿ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ تدل على علوق الولد لأتخلص من الانتظار الذى هو أشد من النار ولأزيد شكرى وذكرى.

﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ﴾ أى لا تقدر على تكليم الناس، فإن الآية هى عدم القدرة على التكلم لا عدم التكلم، فذكر الفعل وأريد القدرة بقرينة: ﴿ آيَتُكَ ﴾.

﴿ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ أى بلياليهن على ما فى سورة مريم ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أى سليم الأعضاء ليس خرسًا، فذكر الأيام هنا والليالى ثمة.

﴿ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ إشارة باليد أو بالشفة أو بالكتابة على الأرض، استثناء منقطع، أى لكن ترمز رمزًا، وقيل: متصل فيكون معنى قوله: أن لا تكلم أن لا تعبر عما فى ضميرك بشىء إلا بطريق الرمز والإشارة.

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ ﴾ فى هذه الثلاث ﴿ كَثِيرًا ﴾ بحيث يغلب الأوقات، ويعم أنواع الذكر من التقديس والتمجيد والتكبير والتحميد.

﴿ وَسَبِّحْ ﴾ تخصيص بعد تعميم لأناقته على سائر الأنواع.

﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ وهو ما بعد الزوال إلى الغروب أو إلى مضى صدر الليل.

﴿ وَالإِبْكَارِ ﴾ ما بعد طلوع الفجر إلى وقت الضحى، من أبكر إذا دخل فى البكرة.

قال العلماء: أحسن الأجوبة ما اشتق من السؤال أى ناسبه أشد المناسبة، فهنا لما طلب زكريا عليه السلام آية ليزيد فى الشكر، جعل آيته حبس لسانه عن غير الشكر لئلا يتكلم إلا بالشكر فيكون أحسن جواب.

وقال فى سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أى بعدما وقع النطفة فى الرحم وحملته أمه خرج زكريا صبيحة العلوق على قومه المنتظرين لخروجه لأمر القربان وغيره من المحراب أى من غرفة مريم على ما هو الظاهر، فوجد لسانه معقداً عن كلام الناس ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾ أى بأن سبحوا أو أى سبحوا فإن فى الإيحاء معنى القول.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فعلم أنه كما كان ماهراً بالذكر والتسبيح كان أمته أيضًا كذلك فأمرهم أن يسبحوه ويذكروه ثلاثة أيام شكراً على ما أعطاه من الولد النجيب.

ثم لما تمت مدة الحمل ولدت إيشاع بنت فاقوذ لزكريا عليه السلام يحيى، ولما تم له ثلاث سنين أعطاه الحكم وفهم التوراة والنبوة على ما قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾ بتقدير القول.

﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ التوراة أو جنس الكتاب فتناول الزبور وغيره أيضًا.

﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى جد واستظهار بالتوفيق، وفى الحقيقة هى ملكة بها بقدر الإنسان على الأعمال الحسنة بسهولة ولا يقدر على الأعمال السيئة إلا بصعوبة.

﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ معطوف على قلنا المقدر.

﴿الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ والمراد بالحكم الحكومة بين الناس بالحق، وفهم كتب الله من التوراة والزبور وغيرهما، وقيل: النبوة أحكم عقله وإعطاء النبوة فى صباه قيل: دعاه الصبيان إلى اللعب قال: ما للعب خلقنا.

﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على الحكم أى آتيناه حنانًا عظيمًا وهو رقة فى القلب تحصل عند المكاشفات فلا يقدر صاحبها على غير ذكر الله ما دام كذلك فإذا عظمت خلصت صاحبها عن رمد الكونين.

رزقنا الله وإياكم.

﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ إشارة إلى عظم غاية العظمة.

وقيل: حنانه رحمته وتعطفه على الخلق.

وقيل: أبويه وهما من إفراد الأول.

﴿وَزَكَاةً﴾ أى طهارة كاملة من الذنوب حتى إنه ما هم بمعصية قط.

وقيل: نماء على الخير.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ محرزًا مجتنبًا عن ملاحظة ما سوى الله.
﴿وَبَرًّا﴾ عطف على تقيًا.
﴿بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ يأخذ ويبطش على غضب لما به من الحنان.
﴿عَصِيًّا﴾ لعدم همه بالعصيان.
﴿وَسَلَامٌ﴾ من الله ﴿عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ حيث سلم من آفات الدنيا وهى المعاصى.
﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من فتانى القبر.
﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من أهوال القيامة.

وكان يعظ الناس فى أعيادهم وجمعهم ويدعوهم إلى الله عز وجل ثم ساح ودخل العام يدعـو الناس ولما بعـثه إلى بنى إسـرائيل أمره أن يأمـرهم بخصـال: ضرب لكل خصلة مثلاً، أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا.

وقال: مثـل الشرك مثل رجل اشتـرى عبيدًا من خـالص ماله، ثم أسكنهم دارًا له ودفع لهم مالاً يتجرون فيه، ويأكل كل واحد منهم ما يكفيه ويرد فضل الربح إليه فعمد العبيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى عدو سيدهم.

وأمرهم بالصلاة وقال: مثل الصلاة كمثل رجل استأذن على ملك فأذن له، فدخل عليه، فأقبل عليـه الملك بوجهه يسمع مقالته ويقض حاجـته، فلما دخل الرجل التفت يمينًا وشمالاً، فأعرض عنه الملك بوجهه ولم يقض حاجته.

وأمرهم بالصدقة وقال: مثلها كمثل رجل أسره عدوه فاشترى منه نفسه بثمن معلوم فجعل يعـمل فى بلادهم ويؤدى إليهم من كسبـه القليل والكثير حتى وفى ثـمنه فأعتق وأمرهم بذكر الله عز وجل وقال: مثله مثل قوم لهم حصن ولهم عدو، فإذا أقبل عليهم عدوهم دخلوا حصنهم فـلم يقدر عليهم عدوهم كذلك من ذكـر الله عز وجل لا يقدر عليهم شيطان.

وأمرهم بالصيام وقال: مثله مثل الجـنة لا يصل إليه عدوه، وأما سيرته فروى عن رسـول الله ﷺ كان من زهد يحـيى بن زكريا عـليهـا السلام أنه كـان إذا دخل بيت المقـدس فنظر إلى المجـتهـدين من الأحبـار والرهبان وعليـهم مدارع الشـعر وبرانس الصوف وقد خرقوا تراقيهم وسلكوا فيهـا السلاسل وشدوها إلى سوارى المسجد، فلما رأى ذلك أتى أمه فقال: يا أماه انسجى لى مدرعة من شعر وبرنسًا من صوف حتى آتى

بيت المقدس فأعبد الله مع الرهبان والأحبار، فلما دخل أبوه أخبرته بمقالته، فقال: يا بنى ما يدعوك إلى هذا وأنت صبى صغير؟ فقال: يا أبتاه أما رأيت من هو أصغر منى قد ذاق الموت؟ فقال: بلى، وأمر أمه فقال: انسجى له مدرعة وبرنسًا، ففعلت فتدرع المدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه وأتى بيت المقدس، وجعل يعبد الله مع الرهبان حتى أكلت مدرعته لحمه ونظر ذات يوم إلى ما نحل من جسمه فبكى، فأوحى الله إليه: يا يحيى أتبكى مما نحل من جسمك، وعزتى وجلالى لو اطلعت على النار اطلاعة لتدرعت مدرعة الحديد فضلا عن النسوج، فبكى حتى أكلت الدموع لحم خديه وبدت للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه، فأقبل زكريا وأقبل الرهبان والأحبار فقال زكريا: يا بنى ما حملك على هذا وإنما سألت ربى ليهبك لى لتقر بك عينى، قال: يا أبت أمرتنى بهذا حيث إن بين الجنة والنار عقبة لا يقطعها إلا الباكون من خشية الله عز وجل، قال: بلى يا بنى فجهد واجتهد.

قال: وقامت أمه فاتخذت له قطعتين من لبد يوارى بهما أضراسه وتنشفان دموعه، قال: فبكى حتى ابتلا من دموع عينيه فأخذهما وعصرهما فتحدر الدموع من بين أصابعه فنظر زكريا إلى ابنه ودموع عينيه فرفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إن هذا ابنى وهذه دموع عينيه وأنت أرحم الراحمين، وكان زكريا عليه السلام إذا أراد أن يعظ بنى إسرائيل يلتفت يمينًا وشمالاً فإن رأى يحيى عليه السلام لم يذكر جنة ولا نارًا فجلس ذات يوم يعظ بنى إسرائيل، وأقبل يحيى عليه السلام وقد لف رأسه بعباء وجلس فى غمار القوم، فالتفت زكريا يمينًا وشمالاً فلم ير يحيى عليه السلام فجعل يقول: أخبرنى جبريل عليه السلام عن الله عز وجل وقال: فى جهنم جبل يقال له سكران، فى أصل ذلك الجبل واد يقال له: الغضبان خلق من غضب الرحمن، فى ذلك الوادى جب طوله مائة عام، فى ذلك الجب توابيت من نار، فى تلك التوابيت صناديق من نار فيها ثياب من نار وأغلال من نار، ورفع يحيى عليه السلام رأسه وقال: واغفلتاه من السكران، ثم أقبل هائمًا على وجه وقام زكريا عليه السلام من مجلسه ودخل على أمه وقال: يا أم يحيى قومى فاطلبى يحيى فإنى لا أراه يعود إلينا أبدًا ولو ذاق الموت، فقامت وخرجت فى طلبه فمرت بصبيين من بنى إسرائيل فقالا لها: يا أم يحيى أين تريدين؟ قالت: أريد ولدى يحيى ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه، قالا:

تركناه الساعة على عقبة كذا ناقعًا قدميه فى الماء رافعًا بصره إلى السماء يقول: وعزتك يا مولاى لا أذوق بارد الشـراب حتى أرى منزلتى منك، فأقبلت أمـه، فلما رأته، دنت إليه، وأخذت برأسه ووضعته بين يديها وناشـدته الله تعالى أن ينطلق معها فانطلق حتى أتى المنزل فقالت له: هل لك أن تخلع مدرعة الشعر وتلبس مدرعة الصوف فإنها ألين لك، فطبخت عدسًا فأكل واستوفى فذهب به النوم، فلم يقم لصلاته فنودى فى منامه: يا يحيـى أردت دارًا خيرًا من دارى، وجـوارًا خيـرًا من جوارى، فـاستيقظ وقام وقال: يا رب أقلنى عثرتى فوعزتك لا أستظل سوى ببيت المقدس وقال لأمه: ناولينى مدرعة الشعر فـقد علمت أنكما تسوقانى إلى الـمهالك، فدفعت له أمـه المدرعة وتعلقت به، قال لها زكريا: يا أم يحيى دعيه فإن ولدى قد كشف عن قناع غفلته ولم ينتفع بالعيش، فقام يحيى ولبس مدرعة، ووضع البرنس على رأسه وأتى بيت المقدس وجعل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى كان من أمره ما كان.

مجلس في:

بيان ولادة عيسى عليه السلام

في ثلاث وعشرين آية من سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا المجلس في بيان ولادة عيسى عليه السلام في ثلاث وعشرين آية من سورة مريم(١).

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ﴾ عطف على مقدر تقديره اذكر ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ واذكر للناس ليعتبروا.

﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ قصتها.

---

(١) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (مريم: ١٦ - ٣٨).

﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ اعتزلت اعتزال من قلة مبالاته بنفسه بين الناس بدل من المضاف المحذوف أعنى قصتها بدل الكل لأن المراد من الظرف الأمر الواقع فيه أى اذكر الحادث إذ انتبذت، أو بدل الاشتمال لأن الاحيان مشتمل على ما فيها.

﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا﴾ ظرف لانتبذت أو مفعول به المفهوم من الانتباذ.

﴿شَرْقِيًّا﴾ شرقى بيت المقدس، أو شرقى الدار، وسبب الانتباذ أنها لما بلغت سن ثلاث عشرة حاضت فخرجت من المسجد ودخلت بيت خالتها ايشاع زوجة زكريا عليه السلام ولما طهرت عادت إلى المسجد ثم حاضت فى شهر آخر، فراحت فى بيت خالتها، فعند التطهير اعتزلت للاغتسال، وقيل: اعتزلت لتغلى رأسها.

وقيل: للتخلى للعبادة.

والظاهر هو الأول لقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ﴾ أى بقربهم.

﴿حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أى جبريل، مسمى روحًا لأنه يحيى به البدن، ففيه استعارة، والإضافة للتشريف كبيت الله، وقيل: روحنا، حبيبنا لأن الإنسان يقول لحبيبة روحى ففيه أيضًا استعارة، لكن التشريف على هذا فى لفظ الروح.

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ لاستئناسها أو انتفاعها وعدم تنفرها عنه.

﴿بَشَرًا﴾ إذ لو أتى بصورة الملك لما قدرت على استماع كلامه والنظر إليه.

﴿سَوِيًّا﴾ معتدل الأعضاء لا ينقص منها شيئًا إذ لو انتقص لنفرت وما انتفعت، وتمثل الملك هو خروجه عن صورته الأصلية ودخوله فى صورة أخرى من مرأى العين بقدرة الله تعالى فلا فائدة فى البحث والإطناب عن كيفيته لأنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقد تمثل جبريل عليه السلام للصحابة مرارًا، وأشهرها ما روى عمر ﷺ أنه رأى مع الصحابة جبريل فى صورة شاب حين أتى يسأل رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام، والإحسان، والساعة على ما هو مذكور فى أول كتاب الإيمان فى المصابيح ومشكاته وغيرهما.

ولما رأت مريم فى الخالى عارية للاغتسال الملك فى صورة شاب أمرد وضىء الوجه.

﴿قَالَتْ﴾ فى غاية عصمتها ﴿إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾ الذى عمت رحمته كل شىء، فأرجو أن يعصمنى.

﴿مِنكَ﴾ بعموم رحمته ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جوابه محذوف يدل عليه السابق يظهر أثر الاستعاذة وهو كفه نفسه وأمنها منه.

وقيل: الشرط للمبالغة أى إن كنت تقيًا أتعوذ منك فإن لم تكن تقيّا فالطريق الأولى.

﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذى رباك بنعيم الجنة من حين طفولتك إلى بلوغك وحفظك وجعلنى خادمًا لك حيث كنت آتيك برزقك أرسلت الآن ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ لأن أكون سبب هبة الله لك ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ طاهرًا من الذنوب أو ناميًا على الخير.

﴿قَالَتْ﴾ حينما سمعت بشارة الغلام.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بالنكاح أى لم يجامعنى بطريق الكناية لكمال حيائها، ولأن الكناية التى هى أبلغ من التصريح حقيق بالحلال وفى الحرام بترك ذكره مطلقًا صيانة للسان عنه، أو يصرح تصريحًا للتوبيخ والتقريع.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ طالبة للرجال للفحش أى زانية آتى به، تبرئة لساحتها عن مظنة الفحش والبغى فعول بمعنى الفاعل، ولذا ترك التاء واجتمع الواو والياء والسابق ساكن فقلبت ياء وكسر العين للاتباع.

وقيل: فعيل بمعنى الفاعل وترك التاء لتشبيهه بفعيل بمعنى المفعول أو بفعيل بمعنى المصدر كنقيض.

﴿قَالَ﴾ الملك ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أى الأمر المعتاد كذلك لا يكون الولد إلا فى النكاح أو السفاح.

﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ﴾ أى خلق الولد بلا أب.

﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كما خلقت آدم بلا أب ولا أمر، لأنى لا أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى مادة ولا مدد.

﴿وَلِنَجْعَلَهُ﴾ أى خلق الولد بلا أب.

﴿آيَةً﴾ علامة دالة على قدرتنا.

﴿لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ على العباد يهتدوا بهديه ويسترشدوا بإرشاده فعلنا ذلك فالعلل محذوف معطوف على الاسمية أى هو هين.

﴿وَكَانَ﴾ هذا الأمر ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ فى الأزل بأن تعلقت به إرادتنا، أو مقدرًا مسطورًا فى اللوح بعدما خلق اللوح، أو أمرًا من شأنه أن يقضى أى يفعل لكونه آية ورحمة فعلى المعنيين الأولين تذييل الجملة الكلام، وعلى الثالث لفعلنا المقدر.

فلما سمعت مقالته اطمأنت به وقرب الملك منها ونفخ فى جيب درعها ووصل النفخة إلى بطنها ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ فالفاء فصيحة، وتدل على عدم التراخى أى حملت فى الحال.

﴿فَانتَبَذَتْ﴾ أى اعتزلت عن الناس اعتزالاً أشد من الاعتزال الأول، حيث كان الأول فى المكان الشرقى وهذا فى المكان القصى.

﴿بِهِ﴾ حال، أى: انتبذت وهو فى بطنها كقوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (المؤمنون: ٢٠) وكقول الشاعر:

* تدوس بنا الجماجم والتريبا *

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أى بعيدًا عن الناس حيث ذهبت فى حال الحمل إلى وراء جبل هناك فى شرقى بلدة المقدس يقال له الآن الطور بحول الله فى سنة سبع وخمسين وألف، الحمد لله.

﴿فَأَجَاءَهَا﴾ أى فألجأها منقول من جاء لكن غير بعد الاشتقاق فصار بمعنى ألجأها لأن آتى مشتق من أتى لكن بعد الاشتقاق صار بمعنى أعطى.

﴿الْمَخَاضُ﴾ فالفتح والكسر مصدر مخضت المرآه إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج أى ألجأها الوجع الحاصل من تحرك الولد.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الجذع من الشجر ما بين العروق والأغصان أى عموده، واللام للجنس هو الظاهر فألهمها الله تعالى الالتجاء إلى جذع هذا النوع من الأشجار، لأن الرطب خيرٌ للنفساء موافقة لها وكان الوقت شتاء، والشجر يابسة لا رأس لها، ولا خوص، فالآية فيها عظيمة وجعله للعهد تكلف لا حاجة إليه، فراحت إلى شجرة هناك من جنس النخل يابسة فألقت بطنها على جذعها من شدة وجعها.

﴿قَالَتْ﴾ من شدة حيائها وتسورها من الناس أو لتوهمها تفرق قلبها بسبب الولد واشتغالها عن الله أو لتوقعها وقوع الناس فى الفتنة، والإثم، والبهت بسببها لا لكراهة قضاء الله وقدره.

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الوقت ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ بالفتح والكسر ما من شأنه أن ينسى كحرمة الطمث ونحوها منسّا بالفعل.

﴿فَنَادَاهَا﴾ الضمير المرفوع استكن للغلام وهو الظاهر لقربه، وقيل: للرسول أى ناداها وخاطبها عيسى ابنها.

﴿مِن﴾ بالكسر ﴿تَحْتِهَا﴾ بالجر أى حين يخرج.

وقرئ بالنصب فيكون من فاعل نادى.

﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ أى لا تحزنى، أو بأن لا تحزنى، نهاها عن الحزن وعلله بقوله:

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ من السر بمعنى السود وهو عيسى يناسب ذلك فناداها من تحتها لأن ما فى التحت عيسى عليه السلام أى لا تحزنى لأن ما تحتك وتحت ذلك حين تلدين ولد سرى رفيع القدر رسول من أولى العزم، وقيل: السرى النهر الصغير.

وقد روى مرفوعًا ويكون بمعنى فى جنبك لأن ظهور الماء يكون عندها لكن النظم يدل على الأول وليس فيه مخالفة الظاهر.

﴿وَهُزِّي﴾ عطف على «لا تحزنى» والهز تحريك بجذب ورفع، والمراد الجزء الأول أى اجذبى.

﴿إِلَيْكِ﴾ ليكون سقوط التمر عليك.

﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الباء مزيدة لتأكيد لصوق الجذب بجذع النخلة كما فى قوله تعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥).

﴿تُسَاقِطْ﴾ جواب الأمر بمعنى تسقط.

وقد قرئ به ﴿عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مجنيّا.

﴿فَكُلِي﴾ من الرطب ﴿وَاشْرَبِي﴾ من عصيره أو من النهر ﴿وَقَرِّي﴾ بالفتح والكسر من القرار لأن العين إذا رأت ما تحب تسكن فى النظر إلى غيره أو فى القر لأن دمع السرور بارد، ودمع الحزن حار، أى اسكنى أو قرّى.

﴿عَيْنًا﴾ أى تسكنى عينك أو تقرّ.

وجدت من يحويك ومن يقربك من الله تعالى ويوصلك إلى رضائه لأن من تشتغلين به عن الله كما توهمت والأكل، والشرب، والسرور بالولد السرى وأن سكنى

لحطبها الحامل من الحياء والنشوز ظاهرًا لكن فيه ما إن تأملته رفع وهو أن الله تعالى لما خصها بهذه الكرامات الثلاث: نداء الصبى الوليد حين يولد، وإعطاء الرطب من الشجرة اليابسة فى غير أوانه، وإجراء النهر اليابس على قول أو إعلامها أن ولدها من أولى العزم على قول آخر، علمت أنه تعالى يحفظ عرضها ويبرئ ساحتها من لوث التهمة، ونبه الله تعالى لمن سمع هذه القصة أو رآها على أن الولد بلا أب مقدور ممكن كخلق الرطب بلا خوص ولا رأس.

فلما سمعت مريم من ولدها النجيب أو من الملك ما سمعت وأكلت، وشربت، وقرت عينها بقدوم مسافرها من عالم الغيب ذهب حزنها، وما بقى إلا ألم مخاطبة السفهاء فأمرها بالسكوت عنهم بقوله:

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ إن شرطية وما مزيدة والنون للتوكيد أى إن ترى ﴿مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ كائنًا من كان من الأقارب الذين هم كالعقارب فى مثل هذه الحال، ومن الأجانب الذين هم فى جانب، وأنت فى جانب.

﴿فَقُولِي﴾ بالإشارة، لما سيجىء من قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾.

وقيل: بعد الإخبار بالنذر.

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ صمتًا فإنه فى معنى فى اللغة له، أو صيامًا مشتملاً على الصمت، فإنهم كانوا إذا صاموا سكتوا حذرًا عن الغيبة أو مراقبة لجلاله كما هو المعروف عند أرباب القلوب المكاشفين فما قيل: وإنه منسوخ عندنا كما ذكر فى الفقه فى باب الاعتكاف، ولا صمت لأن الصمت ليس بقرينة عندنا لقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».

فقدم قول الخير على الصمت، فما دام يمكن قول الخير فالصمت مكروه، لكن إذا لم يأمن الغيبة أو عن عجز ولم يقدر على قول الخير فصمت فجاء واستراح فهذا كله لغير المراقبين المتفكرين يدل قوله ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة».

كما نقل عن سير الأئمة المجتهدين كانوا يتفكرون فى تحصيل مسألة كذا وكذا وقتًا.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وإنما أكلم الملائكة وأذكر الله وأناجيه، وإنما أمرت بذلك

لأن عيسى عليه السلام يكفيها فى الجواب ولأن مخاطبة السفهاء سفاهة والإعراض عنهم إذلال لهم كما قيل: أذل الناس سفيه لم يجد مسافهًا، بالسين أو بالشين.

وقيل: ما قدح سفيه بمثل الإعراض وما أطلق عنانه بمثل العراض.

﴿فَأَتَتْ﴾ أى بعدما أحاطت بجوانب الأمر وطهرت من نفاسها ساعتئذ.

كما روى فى فاطمة الزهراء ﵂ لما ولدت أحد الحسنين فى وقت المغرب صلت العشاء ليلتئذ، وعدم التراخى فى هذه القصة مفهوم من الفاءات، وإن قيل للتعقيب كل شىء بحسبه، فيجوز أن يعتبر التعقيب بالنسبة إلى آخر كل حال.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ الباء هنا للتعدية، كما يدل عليه قوله: ﴿تَحْمِلُهُ﴾.

روى أنها لما ولدته لفته فى خرقة وحملته فى حجرها فأتت به قومها كل ذلك فى يوم لأنه وقت ظهور الخوارق وهذا أيضًا خارق فلما رأوه فى حجرها:

﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ أى فعلت، كقولهم أتى إليه إحسانًا.

﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ منكرًا بديعًا خارقًا للعادة إذ عادة أخيك من الأب هارون وأبيك عمران وأمك حنة كانت الصلاح والتقوى فأنت قطعت عاداتهم المستمرة بفسادك، والفرى قطع الشىء مطلقًا للإصلاح أو الإفساد.

والمراد هنا للإفساد.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ هو أخ لها من الأب من زوجة أخرى غير حنة لأن حنة كانت عاقرًا قبل مريم، وقدموا ذكر أخيها لشهرة صلاحه، حتى قيل: إنه يوم مات تبع جنازته أربعون ألف هارون كلهم قد تبركوا باسمه، وقيل: شبهوها بهارون النبى عليه السلام أو برجل صالح فى زمانها اسمه هارون، أو برجل طالح اسمع كذلك، أو شتموها به، وكله لا حاجة إليه فى ترك ظاهر القرآن، وعدم شهرة أخ لها كذلك لا يضر إذ يكفينا شهادة ظاهر القرآن.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿امْرَأَ سَوْءٍ﴾ بإضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على ما علم فى النحو فى قولهم: جانب الغربى.

﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنة ﴿بَغِيًّا﴾ طالبة للرجال للفحش، فصلاح أخيك المشهور به، وصلاح أبيك وأمك الذى كان عادة لهم وهم استمروا عليه قد انقطع بفسادك وتوليدك بغير زوج.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أى أشارت إلى صومها وإليه يكلمونه.

﴿ قَالُوا كَيْفَ ﴾ الاستفهام للإنكار.

﴿ نُكَلِّمُ مَن ﴾ موصول مراد به عيسى عليه السلام أو موصوف عام.

﴿ كَانَ ﴾ زائدة ﴿ فِي الْمَهْدِ ﴾ صلة أو صفة معناه: من شأنه أن يكون فى المهد وإن لم يكن فيه.

﴿ صَبِيًّا ﴾ حال من الضمير فى الظرف.

وقيل: كان تامة أو دائمة أو بمعنى صار وفى الكل تكلف يعرف بالتأمل.

فحاصل كلامهم أن سخريتك بنا فى إشاراتك بتكلم الصبى أشد من توليدك بلا زوج لأنا لا نكلم الذى الآن فى المهد أى من شأنه أن يكون فى المهد صبيّا، هذا على تقدير أن تكون موصولة.

وعلى تقدير المصوفة: لا نكلم الموصوفين بأنهم فى المهد أى ما كلمناهم إلى الآن، وفى العدول عن الماضى إلى الحال لإفادة التصوير والاستمرار وهذا وجه حسن ملائم كذا فى الكشف.

ولم يبق إلا جواب عيسى عليه السلام أنطقه الله تعالى بحجة فترك الرضاع وكان يرضع ثدى أمه أسند على يده اليسرى إلى ورائه إلى القوم وأشار بمسبحة يده اليمنى إلى نفسه فعند ذلك:

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ تكلم للاعتراف بالعبودية أولاً لأنه أول مقامات السالكين، وللرد على النصارى المشركين به ربه.

﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ الإنجيل ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ظاهر القرآن يدل على إعطائه الإنجيل، وجعله نبيّا ومباركًا حين الولادة لما تكلم بالأمر بالأكل والشرب وقرار العين، والنهى عن الحزن، وعن تكلم البشر بعدما أمرها بالصوم، والصمت أيضًا، وما النبى الآمر والناهى، وما الكتاب إلا ما ورد عليه فى الوحى فصرفه عن الظاهر بأن أخبر عما فى القضاء الأزلى والعلم القديم، أو بأنه أجرى المستقبل من مجرى الماضى لتحقق وقوعه لا وجه له.

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ كثير النفع للعباد آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، معلمًا للخير كما فعلت بأمى حين ولدت.

﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أى فى بلادكم يا بنى إسرائيل، أو فى بلاد المسلمين من أمة محمد ﷺ كما فى آخر الزمان.

﴿وَأَوْصَانِي﴾ أمرنى ربى ﴿بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ على ملة موسى عليه السلام قبل الرفع، وشريعة محمد ﷺ بعد النزول من السماء، وفى أوقات الرفع كأنه ميت لعدم التكليف.

﴿وَبَرًّا﴾ أى جعلنى براً ﴿بِوَالِدَتِي﴾ عطف على مباركًا، وأوصانى، أو حال كأن جعله براً بوالدته ردّاً لتهمة الفاحشة لأن النبى ﷺ من أولى العزم كيف يبر من الفواحش.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أحمل الناس على ما أريد أقتل بغضب وأبطش بغضب.

﴿شَقِيًّا﴾ صاحب كبيرة من الكبائر، ووصف يحيى بقوله: ﴿عَصِيًّا﴾ لأنه ما همّ بمعصية ولا كذلك غيره.

﴿وَالسَّلامُ﴾ اللام للجنس أدابه الجنس فى ضمنه جميع الأفراد لعدم العهد، والقاعدة أنه إذا لم يوجد العهد يحمل على الجميع لدفع الترجيح بلا مرجح، فالمعنى جميع أفراد السلام ﴿عَلَيَّ﴾ أى علىّ وعلى أتباعى لأن ذكر النبى مشتمل على ذكر أمته كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ حيث خص النداء وعم الخطاب والحكم لأن ذكر النبى ذكر لأمته، فإذا كان جميع أفراد السلام عليه وعلى أتباعه لم يبق على مخالفيه إلا اللغة، وهذا معنى التعريض الذى ذكر فى التفاسير.

﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ من مس الشيطان بدعاء حنة.

﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ من فتانى القبر وعذابه.

﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ من أفزاع يوم القيامة.

﴿ذَلِكَ﴾ أى الذى مر ذكره من المعرف بالعبودية والنبوة وغيرهما.

﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الذى لا أب له فلا ينسب إلا إلى الأم، ويلزم منه إبطال قول البيضاوى: وإن لم نقل بالحصر لأن طرقه فى المشهور أربعة: اللام والتقديم، وما، وإلا، وإنما، ولم توجد هنا لأنهم يقولون بأنه إله وليس بعبد الله ونبى الله، فإذا أقبل ذلك الرفيع القدر للأم فى ذلك التصرف يعبوديته لله وبأنه نبى ومنه عيسى ابن مريم أن لا يكون ما قاله البيضاوى عيسى ابن مريم لأن ما قالوه من وجود شخص إنسانى

يأكل، ويشـرب، وينام، ويحدث، ويتـألم بالقتل ويمـوت ويحيى يكون عـين الآلة أو إقنومه أى صفته أو ابنه أمر خيالى لا وجود له فى الخارج كخيالات السكران من البنج.

وما قال البعض إن تعريف المبتدأ بأى طريق كان يفيد الحصر فلا خفاء من بعده.

﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بالنصب من القول، أو الرفع الإضافة بيانية كما مر فى هذا الدرس من قبيـل إضافة الموصوف إلى الـصفة، فعلى النصب يكون مـصدراً مؤكدًا لمـضمون الجملة السابقة كقولنا: زيد مؤمن حقا.

ويقال له المؤكد لغير الاحتمـال الخبر السابق لكونه خبراً مع قطع النظرِ عن الواقع والمتكلم والأمور الخارجة عن الخبر الصدق وغيره، فالتقدير أقول قولاً حقّا.

وعلى الرفع يكون خبر مبتدأ محذوف أى هو ما ذكر قول الحق.

ويجوز أن يكون الحق اسم الله، والنصب على المدح أى أمـدح قول الله وكلمته، لأن عيسى عليه السلام أوجده بقوله: كن، بلا واسطة أب.

والرفع أيضًا للمدح، أى هو كلمة الله.

وقوله: ﴿الَّذِى﴾ صفة لعيسى عليه السلام، أو قول الحق على احتمال الثانى.

﴿فِيهِ﴾ فى شأنه ﴿يَمْتَرُونَ﴾ من المرية أى الشك، أو المراء أى الجدال، أى يشك فيه اليهود وأحـزاب النصارى ويجادلون فيه، فتقول اليـهود عليهم لعائن الله: هو ولد الزنا وساحر، ويقول أكثر النصارى لعنهم الله: هو الله أو ابنه أو ثالث ثلاثة.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ ما صح وما استقام وما أمكن لله.

﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أكد النفى بمن أى أىّ شى ولد كان أرضيّا أو سماويّا إنسيّا أو ملكيّا أو جنيًا فهذا الكلام تكذيب النصارى.

وقـوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه عنه، وأصله أسبحه سبحانه فسـبحان مصدر كغفران، أقيم مقام فعله بعد حذفه وهو لإنشاء التنزيه.

ثم جاء بدليل قاطع يدل على نفى الولد تبكيـتًا لهم فقال: ﴿إِذَا قَـضَىٰ﴾ أى أراد ﴿أَمْـرًا﴾ وجود أمر من عيـسى وغيره ﴿فَإِنَّمَا يَقُـولُ لَهُ﴾ أى ما شـأنه إلا أن يقول له مخاطبًا إياه لوجود العلمى ﴿كُن﴾ أى ادخل فى الوجود تكون ﴿فَيَكُونُ﴾ أى يوجد بلا توقف على مـادة ومدد، فـلا حاجـة إلى اتخاذ الولد بإحـبال الإناث فـ «كـان» فى الموضعين تامة.

وعند العلماء الأمر على ظاهره فإن أجرى عادته بأن يقول عند تكوين كل شيء كله كن فيكون.

وعند البعض فيه استعارة تمثيلية، شبه نفوذ قدرته عند إرادته وجود شيء ما وسرعة نفوذه فيه بأمر أمر مطاع عبده المطيع بشيء ما وسرعة امتثاله له ثم ذكر المشبه به أى صورة الأمر وأريد المشبه أى صورة نفوذ قبله.

«وإن الله» معطوف على قول عيسى عليه السلام ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وقوله ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى هنا اعتراض لتأكيد العبودية وإبطال قول النصارى والاستدلال عليه، فنبى الله عيسى عليه السلام بعدما اعترف بالعبودية وغير ذلك فى حق نفسه جاء بكلام بليغ يدل على الإرشاد والهداية لجميع الأنام فى طرفى العقيدة والعمل اللذين بعث الأنبياء للإرشاد فيهما.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فهذا هو التوحيد الذى هو لب العقائد وخلاصة العلوم النظرية، فالخطاب من ربكم لجميع الأنام بل للموجودات على التغليب فالرب هو المبقى الذى هو الموجد أى لا مبقى ولا موجد سواه، وإلا لزم توارد العلتين المستقلتين على معلول واحد شخصى وهو محال بالبديهة.

وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال النفس بالعبادة التى هى الامتثال بالأوامر والانتهاء عن المناهى فيشمل الأعمال كلها.

﴿هَذَا﴾ أى ما ذكر من التوحيد والعبادة.

﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يوصل إلى مرضاة الله والجنان.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين اليهود والنصارى، فاليهود قالوا: إنه ساحر فى خوارقه وولد زنا، حاشاه عن ذلك، ثم بعد رفعه إلى السماء اجتمعت النصارى على أربعة من علمائهم: إسرائيل، ويعقوب ونسطور وملكا واستفتوا منهم فى أمر عيسى، فقال إسرائيل: ثالث ثلاثة أى اقنوم الذات هو الأب واقنوم العلم أى الكلمة هو الابن، واقنوم الحياة هو روح القدس، وعنوا بالاقنوم الأصل والصفة كالذات عندهم جوهر والكل واحد.

وقال يعقوب: هو الله فنزل إلى الأرض وأحيا وأبرأ الأكمه وغير ذلك ثم صعد إلى السماء.

وقال نسطـور: هو الابن لله ويرجع كلامه إلى كـلام إسرائيل فـلا فرق بينهـما إلا باعتبار.

ولذا ترك بعض العلماء ذكر إسرائيل وجعل الأحزاب ثلاثة.

وقال الملكا: إنه عبد الله ورسوله.

وبعضهم قال: قول النسطوريه فأخذ بقول كل جماعة ثم بعد ثلاثمائة سنة من رفع عيسى عليه السلام ظهر فى الروم ملك اسمـه قسطنطين بأن قسطنطينة وكان قال فأعلى دين الفلاسـفة والصـابئين فوقع له حـرب مع قوم فـرأى فى منامه كأن رمـاحًا عليـها الصلبيان نزل من السماء فانتبه واستفسر عن الصليب قالوا: إنه دين النصارى فدخل فى دينهم وأخـذ الصلبان على الرايات وحـارب مع عدوه فظفر بـهم فقيل له: قـسطنطين المظفر، ثم إنه بنى المدينة المنسوبة إليه ثم جمع رهبـانًا وأساقفة وشماسه يبلغ عددهم ألفين ومائة وسبعون، وقيل: المجمع بلدة قرب قسطنطينة ثم أمرهم أن يناظروا فى أمر عيسى عليه السلام فتناظروا أربعة عشر شهرًا، فـتباينوا، وتخالفوا اختلافًا كثيرًا ثم فتش الملك فوجـد ثلاثمائة وثمانيـة عشر سقـفًا على رأى نسطور ولم يجد أكـثر منهم على رأى، ثم أخذ برأيهم وطرد غـيرهم ونصرهم وبنى لهم فى بلاد الروم والجـزيرة والشام من الديار، والصوامع والكنائس، والمعابد ما يقرب من اثنى عشر ألفًا وأمه هيلان بنت كيسـة القيامة مـوضع الصليب بزعمهم ووضعـوا له كتابًا يسمى بالأمـانه الكبرى وهى الخيـانة العظمى، ووضعوا فيـه القوانين من صيـامهم وعدد أيامه، وصـلاتهم، وسائر عباداتهم حتى صاروا دين المسيح دين قسطنطين.

وقـالوا بالأب أى الذات والوجود، والابن أى العـلم والكلمة، وروح القـدس أى الحياة والكل واحد، وصار معتـقدهم ودينهم وطريقهم خيالات باطلة لا يرضى بها ذو العقل، فبالتقليد ضلوا، وأضلوا كثيرًا عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقال تعـالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ﴾ أى عذاب شـديد وهلاك عظيم وسخط كبير.

﴿لِّلَّذِينَ كَـفَـرُوا﴾ هم الأحزاب ووضع الظاهر مـوضع الضمـير للتسـجيل على كفرهم.

﴿مِن مَّـشْـهَـدِ﴾ من الشهـود والشهادة، مصـدر ميمى أو اسـمى زمان أو مكان

فالاحتمال ست والمراد من يوم عظيم، إما يوم القيامة، أو يوم اجتماعهم فيضرب الاثنين فى ست يحصل اثنا عشر احتمالاً الأول: فلهم الويل من شهود يوم عظيم هو يوم اجتماعهم وكفرهم فى المجمع عظمة لعظم ما فيه كما قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ (الكهف: ٥) أو شهادتهم فى ذلك اليوم بما شهدوا وهو الثانى، أو فى شهود يوم عظيم يوم القيامة هو الثالث، أو مما شهادة ذلك اليوم أى شهادة ما فيه من الملائكة وإرائهم وغيرها وهو الرابع، أو فى زمان شهودهم أو زمان شهادتهم فى يوم الاجتماع أو يوم القيامة لأن يوم القيامة يوم ممتد وزمان الشهود بعض منه هو الخامس والسادس والسابع والثامن.

أو فى مكان شهودهم أو شهادتهم يوم الاجتماع أو يوم القيامة هو التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ هما فعلا تعجب مثل أنصر بِهِ والباء زائدة على المرفوع عند سيبويه، والمتعدية عند الأخفش، والتعجبية على المتكلم وهو الله هنا مجال لأنه انفعال يعرض عند رؤية أمر غريب فمعناه أن أسماعهم وأبصارهم.

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يوم القيامة جديرة بأن تعجب منها كل متعجب لشدة أسماعهم وأبصارهم بعد أن كانوا فى الدنيا صمّا وعميانًا.

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ المسبوق ذكرهم، والإظهار فى موضع الإضمار للتسجيل على ظلمهم بعد التسجيل على كفرهم.

﴿الْيَوْمَ﴾ أى فى الدنيا.

﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا شك فيه منغمسون، فللانغماس فى الضلال لا يسمعون ولا يبصرون، كالظلمة فى زماننا، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين، آمين.

وقيل: معنى التعجب التهديد من أهوال ذلك اليوم ولا يلائم الاستدراك المذكور إلا بتكلف مستغنى عنه وأضعف من هذا ما قيل أنه أمر للنبى ﷺ بأن يسمعهم ويبصرهم أحوال الآخرة وهو بعيد جدّا لأن الصيغة صيغة التعجب ولا يفهم هذا المعنى أصلاً، تأمل.

مجلس فى:

بيان الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة التى أعطاها تعالى عبده ونبيه عيسى عليه السلام

فى ست آيات فى سورة المائدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس فى بيان الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة التى أعطاها تعالى عبده ونبيه عيسى عليه السلام فى ست آيات فى سورة المائدة[1].

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ أى اذكر يا حبيبى محمد ﷺ الحوادث الكائنة إذ قال الله الآن إذ لازم الظرفية عند الجمهور، أو اذكر وقت إذ قال الله بأن تكون إذ مفعول به لاذكر، وذكر الوقت مستلزم ما فيه، وهذا عند بعض.

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وهذا التذكير والامتنان من الله لعبده عيسى عليه السلام فى وقت، فقيل: إنه يكون يوم وصيغة المضى فى إذ قال لتحقيق وقوعه، فكأنه كان، فأخبر عنه على طريقة: «ونادى أصحاب الجنة».

---

(١) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ١١٠ - ١١٥).

وقيل: إنه كان عند رفعه إلى السماء.

وقـــيل: إنه وقع فى الدنيا حين كـان يأكل الشجر ويلبس الشعـر ولا يدخر لغد ويقول: كل يوم يأتى برزقه ولم يكن له بيت فيخـرب ولا ولد فيموت أينما أمسى بات فيه، فرفعه الله تعالى وسرده بذكر نعمه الروحانية حتى يطمئن قلبه ويرضى بما قسم الله فقال: اذكر نعمتى والإضافة للاستـغراق لأن الإضافة كاللام تكون للعهدين: الخارجى والذهنى وللجنس كقولهم ندلك على حرامى الأرض النفخـة من رائحتها، وللاستغراق جميع نعمى.

﴿**اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ**﴾ أولا بالذات، لأن النعم المذكورة هنا كلها نعم له.

﴿**وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ**﴾ بواسطتك لأن الإنعام على الولد إنعام على والديه يدل عليه ما فى الحديث: الـحسن: (من قرأ القـرآن وعمل بمـا فيه أُلبس والداه تاجًـا يوم القيـامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس).

(فى بيوت الدنيا لو كانت فيكم فمـا ظنكم بالذى عمل بهذا) رواه أحمد وأبو داود فى مشكاة.

﴿**إِذْ أَيَّدتُّكَ**﴾ متعلق بنعمتى لأن فيها معنى الإنعام والتأييد التقوية فى الأبد بمعنى القوة أى قويتك.

﴿**بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ بجبريل عليه السلام لأنه روح من الأرواح، وإضافته إلى القدس من إضافة الـموصوف إلى مصدر الصـفة كرجل صدق أى بالروح المـقدس عن الآثام وهذا المعنى أشهر، وقيل: إن انتساب عيسى عليه السلام إلى جبريل وتأييده به أكثر من سائر الأنبيـاء لأنه حصل بنفخه، وكـان عند ولادته كقابلته ولم يفـارقه إلى دفع، فلذا امتن به، وإلا فجميع الرسل مؤيد بجبريل عليه السلام.

وقـيل: المراد بروح القدس الكلام الإلهى فهو كالروح لحياة الدين، والدين سبب للقدس أى طهارة النفس عن الآثام، ففى لفظ الروح استعارة مصرحة ذكر الروح المشبه به وأريد الكلام المشـبه، ووجه التشبـيه سببيـة الحياة أحدهما لـلبدن والآخر للدين أو إضافة الروح أى الكلام إلى القدس أى طهارة النفس توسع لأنه سبب السبب، فأضيف إلى سبب السبب.

وهذا المعنى يؤيده قوله:

﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ ﴾ لأنه استئناف لبيان التأييد المذكور فعلى الأول يحصل البيان مع الخفاء لأن التكليم فى المهد حصل بتأييد جبريل عليه السلام فى المهد فى حجر أمك حين كان الكون فى المهد من شأنك حيث كلم بقوله: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ إلى آخر ما سبق فى الدرس السابق.

﴿ وَكَهْلاً ﴾ والكهولة القوة، يقال: كهل النبات أى قوى وهذا فى سن ما فوق الثلاثين وقع ذلك قبل الرفع لأنه أرسل فى رأس ثلاثين سنة وبقى بعد الإرسال ثلاثين شهرًا، ورفع فى أواسط ثلاث وثلاثين.

وقيل: الكهولة مخالطة الشيب الشباب فيكون بعد الأربعين إلى إحدى وخمسين فعلى هذا فيه دلالة على نزوله فى آخر الزمان لأنه لم يكتهل حين الرفع.

وضم كهلاً إلى فى المهد وإن لم يكن خارقًا للعادة للدلالة على أنه كلم فى المهد كما كلم كهلاً كلام العقلاء بل الأنبياء والاستواء يفهم من واو الجمع فى الجملة.

﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ﴾ معطوف على ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾.

﴿ الْكِتَابَ ﴾ أى الكتابة وحسن الخط.

قيل: ما كان فى زمانه أحسن خطًا منه فعلم أن حسن الخط من النعم التى امتن به على أنبيائه، وقيل: جنس الكتاب.

﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى تحقيق العلم، وإتقان العمل وبعبارة أخرى هى معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل فتشمل العلوم النظرية أى المعتقدات والعملية أى الأحكام والشرائع فى التوراة.

﴿ وَالإِنجِيلَ ﴾ تخصيص بعد تعميم الحكمة والكتاب على ما قيل، فلما عدد الله النعم العملية شرع فى تعداد النعم الفعلية فقال: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية للاستغراب، والخلق بمعنى التقدير والتصوير لا الإيجاد لأنه مختص بالله دون الأول لقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤) أى المقدرين.

﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ أى هيئته مماثلة لهيئته أى لصورته.

﴿ بِإِذْنِي ﴾ أى بأمرى فى التصوير لأن حرمة التصوير شرع مجدد لنا وفى شرعهم كان مرخصًا فيه وفائدته رفع وهم حرمة التصوير بالنظر إلى شرعنا.

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أى فى الصورة المماثلة، فالضمير للكاف لأنه بمعنى الهيئة وبالنظر إلى لفظ لأنه اسم بمعنى المثل.

ذكر فى سورة آل عمران ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ اسم جنس الطائر فيقع على الواحد وعلى الكثير أى طيرًا ذا روح ﴿بِإِذْنِي﴾ بتكوينى وخلقى.

روى أنه عليه السلام كان يأخذ عند قصده إظهار المعجزة قطعة طين فيصورها على صورة الخفاش فينفخ فيها فتصير ذا روح وتطير.

وما قيل إنه كان يسقط بعد غيبوبته عن نظر الحاضرين فيصير ترابًا للفرق بين مخلوق الله وبين ما صوره عيسى عليه السلام.

يرده ظاهر القرآن وأنه أيضًا مخلوق الله لقوله (بإذنى) وإنما اختار الخفاش لأن فيه العجائب قيل: لأنه كان يضحك ويبكى، ويحيض، وتحمل، وتلد، وله أسنان ويطير بغير ريش لأن جناحه قطعة جلد.

﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ﴾ الذى ولد ولا عين له أصلاً.

﴿وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ بتسهيلى، والبرص مرض معروف، وقد عجز الأطباء فى علاجها.

روى أنه كان يجتمع المرضى لعيسى عليه السلام فرب يوم كان يجتمع خمسون ألفًا من المرض والزمنى والعمى فكان يداويهم بالدعاء، وباسم الله الأعظم، وكان وقته وقت شيوع الطب والأطباء فأعطى معجزة شبيهة الطب ليس منه لأنه ليس الدواء بل الدعاء والشفاء بالدواء عادة مستمرة، وبالدعاء خارق للعادة فتكون معجزة.

فهذا كما أنه كان زمن موسى عليه السلام زمان شيوع السحر كما قال: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فانقلبت حيات بالحيل والأدوية فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين معجزة لا بحيلة، وكان فى زمن نبينا ﷺ الفصحاء حتى علقوا فى مكة سبع قصائد مشهودًا عليها بالبلاغة فى أقصى مراتب، وسعى لبشر فآتاه قرآنًا معجزًا فأبكم مصاقع البلغاء من بنى عدنان وسعاسق الخطباء من بنى قحطان، فلله الحمد والمنة.

وهذا معجز باق إلى يوم القيامة رغم الأزمان والأمكنة ومعجزات الأنبياء عليهم السلام مختص بأزمانها وأمكنتها.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ﴾ أعاد (إذ) لكونه أغرب فى الغاية.

﴿الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ بإحيائى وإعادة الروح إلى أجسادهم، روى أنه أحيا أربعة أموات، أحيا سام بن نوح عليه السلام لما طلبوا منه المعجزة وكان فى قفر فركض برجله الأرض، وقال: هذا قبر سام فدعا الله باسمه الأعظم وهو: يا حى يا قيوم يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام يا نور السموات والأرض يا رب العرش العظيم يا رب، يا أحد، يا صمد يا فرد يا وتر، يا قديم، يا دائم، يا خفى، فخرج سام نافضًا ترابه، وقد شاب نصف رأسه قال: يا سام لم تشيخت وأنت كنت غلامًا شابًا فى سن خمسمائة وهذا من سن الشباب فى زمانهم، وقال: لأنى زعمت القيامة قد قامت، قال عيسى عليه السلام: لا، ولكن دعوت باسم الله الأعظم، فقال سام: ادع الله أن يعيدنى كما كنت لئلا أذوق سكرات الموت، فدعا الله فعاد كما كان.

وكان لعيسى عليه السلام صديق اسمه عازار فمات فأرسلته أخته إلى عيسى عليه السلام أن احضر جنازة صديقك فجاء بعد ثلاثة أيام وقد دفن فراح إلى قبره فدعا الله باسمه الأعظم فخرج عازار من قبره يسيل وركه، فعاش وبقى زمانًا طويلا فولد له.

ومر عيسى عليه السلام على جنازة رجل ترفع إلى القبر وأمه عجوزة خلفها تبكى فلما رأته وتضرعت إليه فدعا الله فحيى ابن العجوز وحمل سريره إلى بيته وعاش فولد.

وجاء رجل مكاس عشار إلى عيسى عليه السلام فقال: ما كان لى ولد غير بنت فماتت وهى بعد فى البيت فادع الله أن يحييها وتاب العشار من فعله فراح عليه السلام إلى بيته فدعا الله فحييت البنت وبقيت وولدت.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ بإظهار حجتك ومعجزتك، أو بالرفع إلى السماء حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المذكورة أو بجنسها.

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا﴾ يعنى عيسى عليه السلام.

﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ للمبالغة كرجل عدل، ويؤيده قراءة «ساحر» وقيل ما جئت من البينات.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ روى أنهم كانوا صيادين سماكين يصيدون السمك، فمر عليهم عيسى عليه السلام فقال: تعالوا نصد الناس بالإرشاد والهداية فتبعوا عيسى

عليه السلام وما فارقوه إلى أن رفع وكانوا اثنى عشر رجلاً أسماؤهم: شَمعون، ومتى ومرقس، ويوحنا فهؤلاء نقلة الإنجيل لكل إنجيل فالأناجيل أربعة وجدت نسخة بلسان العرب فتقرأت كلها وتأملت ما فيها الآن، ووجدت من نعوت نبينا فيها ما يغلب على ضوء الشمس، والثمانية الأخر لا يحضرنى أسماؤهم.

والحوارى مأخوذ من الحور أى البياض سموا بذلك لصفاء سريرتهم، وخلوص نيتهم، ومنه حوارى الرجل لخالصه وظاهر القرآن يدل على كونهم أنبياء ولا خبر فيه لأنه كان يوجد فى بنى إسرائيل فى وقت واحد متعددون كيوشع نبى فى زمن موسى عليه السلام.

فعلى هذا الإيحاء على ظاهره.

﴿أَنْ آمِنُوا بِى﴾ أى آمنوا، أو بأن آمنوا، وهو تمهيد وتوطئة لقوله: ﴿وَبِرَسُولِى﴾ لأن الأنبياء يؤمنون بالله البتة.

فالمقصود التصديق بعيسى عليه السلام.

﴿الَّذى أَرْسَلَ﴾ الآن فى يوم إرساله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ﴾ الآية.

وقيل: المراد الإلهام، لكن الإلهام ليس من أسباب المعرفة، فالمعنى أوحيت أى أملت قلوبهم بعد دعوة عيسى عليه السلام وإظهار المعجزة عليهم إلى الإيمان بالله وبرسوله فلا يرد شىء أصلاً.

﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ﴾ يا عيسى لقوله فى آل عمران ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

لأن مخاطبتهم مع عيسى عليه السلام هناك فكذا هنا ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ منقادون فى الظاهر بعد الإيمان بالقلب، أو مخلصون.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ معناه قد يستطيع ربك كما فى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ والهمزة للتقرير أى أنت مقر بأنه البتة يستطيع ربك.

﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ دفعة بعد دفعة أى مراراً، لأن التنزيل تدريجى والإنزال أعم أو دفعى.

﴿ مَـائِدَةً ﴾ سفرة وخوانًـا مملوءًا من الطعام فسأل حتى ينزل، من مـاد يميد أى تحرك لأن السفرة تنقل للآكلين، أو من ماده أعطاه لأن السفرة تعطى ما فيها، أو كعيشة راضية أى مميدة معطاة.

﴿ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من جهتها.

﴿ قَالَ ﴾ عيسى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى استعملوا التقوى لأن ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ أو اتقوا الله عن الاقـتراح والتـقدم بين يدى رسول الله كقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾.

﴿ إِن كُنتُم مُّـؤْمِنِينَ ﴾ أى لأنكم مـؤمنون، فى موضع الحـال عن فاعل اتقـوا، والمقـصود التعليل فـهذا شرط محـذوف الجزاء يأتى به المدل بأمـره الواثق به الموقن التحقق لصحته، ونظيره قول الأجير: إن كنت عملت لك فوفنى حقى.

وقد ذكره الكشاف فى سورة الشـعراء عند قوله تعالى: ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُـؤْمِنِينَ ﴾ على قراءة الكسر.

وأشار إلى بعضه فى سورة المـمتحنة فى قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي ﴾ فعند ذلك التحقق سقطت الأسئلة الركيكة والأجوبة الضعيفة كما فى التفاسير، واستفدت من هذا من المحـقق المحشى الطيبى: ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَـا ﴾ لشـدة جـوعنا ﴿ وَتَطْمَـئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بانضمام العيان إلى البيـان، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾.

﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ فى استجابة دعائنا فإنه عليه السلام كان قال لهم: صوموا ثلاثين يعنى شهر رمضان، ففى يوم العيد يجيب الله دعاءكم.

﴿ وَنَكُونَ عَلَيْـهَا ﴾ حال من ضمير تكون أى عاكفين عليها، أو نشهد مقدرًا لا من قوله: ﴿ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

لأن ما فى حيز الجار، وكذا الموصول لا يعمل فيما قبله، فلما علم عيسى صدق نيتهم وخلوص طويتهم فى سـؤال المائدة صريحًا بعد علمه التـزامًا بقولهم هل يستطيع على ما مر تقـريره هذا بعد قوله: ﴿ اتَّقُـوا اللَّهَ ﴾ استعجال للمـطلوب، أى استعمال التقوى يكون فى زمان ونحن الآن محتاجون، فليكن الباعث من طرفك.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ﴾ نداء والميم المشددة عوض عن ياء ولحوقه مانع من التوصيف والإبدال لأنه كالصوت وهذا ما قال سيبويه.

ونقض سيبويه فإنه يوصف، وأجيب بأن سيبويه وضع وضعًا ثانيًا علميّا فصار مفردًا غير مركب فى الوضع الثانى، ولا كذلك الميم المشددة فى اللهم.

﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان راعى آداب الدعاء فلاحظ باسم ذاته ثم باسم صفته ثم قال:

﴿أَنزِلْ﴾ ملاحظًا له بقوله: ﴿عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ كما طلبوا.

﴿تَكُونُ﴾ نفسها لا يوم نزولها كما قالوا.

﴿لَنَا﴾ لأرواحنا لأن السرور بالخوارق روحانى محض.

﴿عِيدًا﴾ سرورًا عائدًا بعد المعجزات الماضية.

﴿لأَوَّلِنَا﴾ بدل من «لنا» بإعادة الجار أى لحضار المجلس.

﴿وَآخِرِنَا﴾ من يجيء ويعلم بعد.

﴿وَآيَةً﴾ صادرة ﴿مِّنكَ﴾ بمحض قدرتك لا تعلق لها بمسمى وغيره إلا الدعاء دالة على قدرتك وصحة نبوتى.

﴿وَارْزُقْنَا﴾ أكلها والأنتفاع بها.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنك ترزق لا لعوض ولا لغرض وتخلق الانتفاع بها.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ فوعد وأكد بأن واسمية الجملة فلا وجه لما قيل إنها لم تنزل.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي﴾ تأكيد للفاء.

﴿أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أى تعذيبًا اسم مصدر كالسلام والكلام، فيكون مفعولاً مطلقًا للتأكيد.

ويجوز أن يكون معناه بعذاب هو اسم ما يعذب على الحذف والإيصال.

﴿لاَّ أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير للمصدر فى ضمن أعذب كقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فيكون الضمير أيضًا مفعولاً مطلقًا ولكونه عين العذاب بمعنى التعذيب يحصل بهذا الضمير ربط بين الموصوف وصفة الجملة.

ويجوز إلى (عذابًا) على الاحتمال الثانى على طريق الحذف والإيصال أيضًا.

﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أى عالمى زمانهم أو مطلقًا لأنهم مسخوا قردة وخنازير، وأما أصحاب السبت فمسخوا قردة فقط لقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

روى أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام فقال: اللهم اجعلنى من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسمًا عند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكرات، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا، أو من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكنه اخترعه الله بقدرته، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم، ويزدكم من فضله.

فقالوا: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال: يا سمكة احيى بإذن الله، فاضطربت، ثم قال لها: عودى كما كنت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة ثم عصوا بعدها فمسخوا.

وقيل: كانت تأتيهم أربعين يومًا عشاءً يجتمع عليها الفقراء، والأغنياء، والصغار، والكبار حتى إذا قاء القيء طارت وهم ينظرون فى ظلها ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره، ولا مريض إلا صح، ولم يمرض أبدًا.

ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عيسى أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء فاضطرت الناس لذلك فمسخ ثلاثة وثمانون رجلاً.

وعن بعض الصوفية: المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن وعلى هذا فلعل الحال أنهم رعوا فى حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه السلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه فسأل لأجل اقتراحهم فبين الله تعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقاصده لعله لا يحتمله ولا يستقر له، فيضل به ضلالاً بعيدًا.

أعاذنا الله من وساوس الشيطان، وهو حسن النفس ذات الخسران والله الهادى.

مجلس في:

بيان رفع عيسى عليه السلام من الأرض إلى السماء وفي بيان الصلب وفي بيان العقوبة في الآخرة لبني إسرائيل المنكرين لعيسى عليه السلام

في عشر آيات من سورة آل عمران، وأربع آيات من سورة النساء[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس في بيان رفع عيسى عليه السلام من الأرض إلى السماء وفي بيان الصلب، وفي بيان العقوبة في الآخرة بني إسرائيل المنكرين لعيسى ـ عليه السلام ـ وقطع عروقهم، وتمزيقهم في الأرض عليهم لعائن الله ما وارت السماء، في عشر

(١) ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٥٤ - ٦٣).

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٥ - ١٥٨).

آيات من سورة آل عمران وفى أربع آيات من سورة النساء، وفى الآيتين فى سورة الإسراء[١].

قال الله تعالى فى آل عمران: ﴿وَمَكَرُوا﴾ أى اليهود بعدما رأوا الآيات فى قتل عيسى عليه السلام بأن كتبوا إلى ملك الروم فى دمشق من قبل قيصر فى الرومية الكبرى بأن فى بلدة بيت المقدس رجل يسمى بعيسى يفسد الرعية على الملك فخاف أن يخرج على الملك ويفسد فى الأرض فدفعه أهم، فكتب ملك دمشق إلى ملاطوس أمير قدس الرومى أن اصلبه، وضع على رأسه الشوك، ولما وصل إليه المكتوب دبروا ومكروا فى قتل عيسى عليه السلام وكان ذلك بعد قتل يحيى عليه السلام.

وسببه أن هيردوس الإسرائيلى كان نائب قيصر على اليهود فإنه كان بنو إسرائيل ثلاثمائة سنة فى أيدى أهل بابل بعد غلبة بخت نصر البابلى، لما غلب اسكندر على ملوك فرس بابل، وقع بنو إسرائيل فى أيدى اليونانيين ثلاثمائة سنة، ثم لما غلب أغسطس الرومى المسمى بقيصر على بنى اليونان، وقع بنو إسرائيل فى أيدى الروم، وكان يجلس قيصر فى الرومية، وملك من قبله فى دمشق الشام وأمير من قبل ملك دمشق فى بلدة بيت المقدس المسمى بأورى شلم على وزن نعم، وكان أيضًا من بنى إسرائيل أمير فى جانب قيصر يجلس فى بلدة الخليل، ففى وقت إرسال يحيى وعيسى عليهما السلام كان قيصر فى الرومية طساربوس بن أغسطس والأمير على القدس فيلاطوس وهو نائب ملك دمشق وكان على بلدة الخليل إسرائيلى اسمه هيردوس، وكان هيردوس يحب يحيى عليه السلام وكان له ربيبه من امرأته يحبها ويريد أن يتزوجها فاستفتى يحيى عليه السلام قال: هى حرام عليك، فغاظت امرأة هيردوس على يحيى عليه السلام ففى يوم من الأيام جلس هيردوس على شرب الخمر فاستدعى ربيبة اسمها هردود، فلما دخلت عليه وسقته الخمر راودها عن نفسها فأبت فلما ألح استدعت رأس يحيى عليه السلام فأبى وألحت فأرسل الجلادين قطعوا رأسه المبارك إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٧، ٨).

فلما جـاءوا إليه برأسـه فى طست سمـعوا الرأس تقول: هى حـرام عليك وأرسل رأسه إلى ملك دمشق فدفن فى مسجد دمـشق ودفنوا جسده الشريف فى القدس، وكان دمه يغلى فكانوا يلقـون إليه التراب وكان يـغلى حتى صار التراب مـثل تل عظيم وكان الدم يغلى وكان زكريا حيّا ولما سـمع زكريا أن ابنه قتل انطلق هاربًا ووصل بستانًا عند بيت المقـدس فيه الأشجـار فأرسل الملك فى طلبه غضـبًا لما حصل لامـرأته فى قتل ابنه، فمر زكريا بشجرة فنادتـه يا نبى الله هلم إلىَّ فانفلقت له ودخل زكريا عليه السلام فلما عرفوه فلقوا الشجرة مع زكريا فلقت بالمنشار، إنا لله وإنا إليه راجعون.

فلما سمع عيسى عليه السلام بقـتله ساح فى الأرض وكان لا يستقر فى مكانه، ثم بعد ستـة أشهر من قتل يحيى عليـه السلام وقد بلغ عيسـى عليه السلام إلى سن ثلاث وثلاثين، دخل بلدة بيت المقدس فى أيام عيدهم المـسمى بفصح ويقال له الآن: بيضة الحمراء عند النصارى وكان يوم السادس والعشرون من رمضان يوم الخميس فلما دخل بيت المقدس رأى الطرفـين فى باب المسجد فأخرجـهم وطردهم وهو يقول: أتجعلون مسجد ربى مقارة اللصوص حتى لما دخل المسجد صعد كرسى جده من أمه داود عليه السلام ووعظ الناس فقـال: أوراشلم أوراشلم يا تلة الأنبياء والمرسلـين لقد هممت أن أصلحك فمـا أبعد ذلك، ثم قام رجل من أحـبار اليهود فـقال: يا عيسى إن تلامـيذك يقلون الصوم، وتلامذة يحـيى كانوا يكثرونه، فقال عليه السلم: فلم قـتلتموه لا يصلح لكم النبى الصائم ولا النبى الآكل.

فقـام آخر فـقال: يا عـيسى تلامـذتك لا يغسلون أيديهم قـبل الطعام وكـان سنة الأنبياء، فقال عليه السـلام: لا ترون فى أعينكم الشجر العظيم، وترون فى أعين الناس القذى إنكم تأكلون الربا وأموال اليتامى ظلـمًا، وأموال الناس بالباطل، وهو من الكبائر ولا تنكرون ذلك وتنكرون على من ترك المسـتحب، ثم قام آخر فقـال: يا عيسى، إن قيـصر يطلب منا الذهب خـراجًا، فقال علـيه السلام: أرونى الذهب، فـأعطوه، فرأى نقش صورة قيصر فقال: أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا ما لله لله، وهذا الذهب لقيصر لأنه عليه نقشه وما كان عليه اسم الله فهـو لله، ثم خرج من المسجد فى مجمع عظيم فلما كان ليلة الجـمعة ليلة السابعة والعـشرين من رمضان اتخذ نبى الله طعـامًا، ودعا الحواريين إليه فـجاءوا سبعـة عشر إنسانًا والخمـسة غير الحواريـين، ثم جاء بالطعام،

وخدمهم بنفسه وغسل أيديهم أولاً وآخرًا وجفف أيديهم بالمنديل، ووضع الطعام ثم رفعه، فقال: إنى مسافر، أوحى إلى إننى أخرج فى هذه الليلة من دنياكم، فكما رأيتمونى أفعل بكم من الخدمة، فليفعل بعضهم ببعض، ثم قال: لى إليكم حاجة أعينونى بالدعاء لعل الله يدفع القضاء بالدعاء، فإنى أريد مقامى عندكم، ثم قال: يكفر بى أحدكم فى هذه الليلة بالدراهم المعدودة، ثم بعد ذلك خرج رجل منهم اسمه يهوذا الاسخريوطى من أقارب مريم أم عيسى عليه السلام فجاء اليهود وكانوا فى طلب عيسى عليه السلام فقال: ما تعطونى إن دللتكم عليه، قالوا: ثلاثين درهمًا فجاء الملعون مع جماعة من اليهود المسلحين إلى عيسى عليه السلام لكن أكان فى البنيان أم فى الصحراء؟ فيه خلاف.

وعندى أنه فى الصحراء، كذا وجدت فى الإنجيل.

ثم إن عيسى عليه السلام قال للحواريين بعد خروج المنافق: أنا أدعو فأمنوا، وشرع فى الدعاء والحواريون سلط الله عليهم النوم حتى لا يقدرون عى رفع رءوسهم، ثم إن نبى الله يوقظهم ويطلب منهم التأمين فيقولون: كنا نسهر الليل والآن لا نقدر على السهر ساعة، فيقول عليه السلام: إلهى ليكن مرادك، فقرب منه اليهود أى المغتالون لأجل أخذه وهذا مكرهم.

﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بأن ألقى شبهه على المنافق يهوذا ورفع عيسى عليه السلام.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ لأن مكره أنفذ وهو عدل بخلاف مكر غيره، والمكر هو الاحتيال فى إيصال الشر إلى أحد ولا يسند إلى الله تعالى إلا مزاوجة ومشاكلة، فالمعنى احتالوا فى إيصال الشر إلى عيسى عليه السلام بالسعى إلى ملكهم بدمشق ونصب العيون للفرصة ليأخذوه ويقتلوه، والله تعالى جازاهم بمكرهم بأن ألقى شبهة على من دل عليه، فقتلوه فسمى جزاء المكر بالمكر للمشاكلة كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

ولما كثر من عيسى عليه السلام الجزع بمقتضى البشرية على خروجه من الدنيا وكثر فى الحواريين النوم، فعند ذلك أوحى الله إليه مضمون قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ أى اذكر يا محمد الحوادث وقت ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أى منيمك فى الأرض.

﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى يعنى السماء فلا تنسب إلا فى السماء آمنًا من الخوف وإطلاق التوفى على الإنامه كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ وكقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾.

وكقوله ﷺ (الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا، ورد إلينا أرواحنا، وإليه البعث والنشور) كان يقول عند الانتباه من النوم.

وأستوفى أجلك، ومتمم عمرك، وعاصمك فى اليهود ومؤخر أجلك ومميتك خف أنفك ففيه كناية تلويحية، أو قابضك من الأرض تمامًا بروحك وجسدك من توفيت مالى على فلان، أى قبضته تمامًا.

ويجوز على طريق العموم المجاز أن يكون المعنى: يا عيسى إنى منيمك ومؤخر أجلك إلى يوم القيامة وقابضك إلى بروحك وجسدك ورافعك إلى مقر ملائكتى ومحل كرامتى.

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من حيث جوارهم وسوء عشيرتهم.

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ﴾ هم المصدقون لك فى قولك: ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ وهم الموحدون من النصارى إلى مجىء نبينا محمد ﷺ ثم المؤمنون من أمته.

﴿ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعلونهم بالحجة دائمًا، وبالسيف فى أغلب الأوقات، والكافرون هم اليهود المكذبون نبوته، وأكثر النصارى هم المكذبون بعبوديته ونبوته، بل يقولون: هو الله أو ابن الله سبحانه عما يقولون، فكفر النصارى أشد، ولا فرق بين الطائفتين فى التكذيب لأن عيسى عليه السلام اعترف بعبوديته ونبوته، والنصارى يكذبونه فى كليهما، واليهود فى إحداهما عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة، أى أبدًا وليس المراد التجديد، بل التأبيد لأن الغلبة تتأكد يوم القيامة ولا تنقطع.

﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخى الرتبى ﴿ إِلَىَّ ﴾ إلى حكمى ﴿ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رجوعكم مطلقًا فى الدنيا والآخرة، والخطاب لعيسى والمتبعين والكافرين على التغليب غلب المخاطب الواحد على الكثير الغيب أو للمتبعين والكافرين على الالتفات للدلالة على إرادة إيصال الثواب والعقاب لأن الالتفات أدل عليها.

﴿فَأَحْكُمُ﴾ الفاء تفسيرية، فالجملة تفسير للمرجوع.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ﴾ وكان زائدة أو دائمة.

﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تفصيل للحكم المذكور.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ ولا التفات هنا لأن الكافرين ملتفتون فيما سبق على وجه ضمنا والشرط فى الالتفات القصد الأولى [. . .][1] تعذيبًا شديدًا فى الدنيا بالقتل، والسبى، والإجلاء ونهب الأموال وفتح البلاد إلى يوم القيامة كما نشاهد، الحمد لله.

﴿وَالآخِرَةِ﴾ بالخلود فى النار.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ كما زعموا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة.

﴿أُجُورَهُمْ﴾ فى الدنيا بالنصر والفتح وغيرهما، وفى الآخرة بالخلود فى الجنة ورؤية جماله والوصول إلى لقائه، رزقنا الله تعالى وإياكم.

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تذييل لما تقدم جميعًا فإنه يلزمه حب المطيعين، والظالم لم يعم الكافر والفاسق ولذا عطف فيما قبل «عملوا» على «آمنوا» ولما تم وجيء مضمون هذه الآية إلى عيسى عليه السلام رفع رسه ورأى الحواريين نائمين ووجد يهوذا الاسخريوطى المنافق متوجهًا مع جماعة من اليهود عليه، وكان المنافق قد قال لليهود إذا أنا أخذت يد رجل وقبلتها فخذوه فإنه عيسى عليه السلام، فأقبل المنافق على عيسى عليه السلام قائلاً: رابونى رابونى أى معلم الخير بلغتهم فأخذ يده فقبله وصافحه فذهب اليهود ليأخذوه، فعند ذلك رفع جبريل عيسى عليهما السلام نائمًا إلى السماء الثانية والرابعة، وألقى شبهة على المنافق فأخذوه وضربوه وربطوه وهو ينادى أنا وليكم أنا يهوذا وتفرق الحواريون وذهبوا باللعين إلى قيافا رئيسهم فى العلم فحكم عليه بالقتل وهو يصيح أنا يهوذا أنا الدليل فمن ينظر إليه لا يشك فى أنه عيسى ثم ذهبوا به إلى فيلاطوس فأمر بصلبه، ثم إن اليهود أصعدوه استهزاء على سرير الملك، ووضعوا على رأسه إكليلاً من الشوك وجلسوا بين يديه على الركب فقالوا: يا ملك بنى إسرائيل المحيى الموتى، والمبرئ للأكمة والأبرص، ثم قاموا فبزقوا فى وجهه ثم صلبوه أى

(١) غير واضحة فى المخطوط.

بعد العصر من يوم الجمعة وهو يقول: أنا يهوذا، فعليه وعليهم لعائن الله، وقد أخبر الله عن التشبيه والصلب فى سورة النساء بقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أى فعلنا بهم ما فعلنا بكفرهم.

﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ أى اليهود.

﴿عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ هو الزنا.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ إن كان من قول اليهود فللاستهزاء كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

وإن كان استئنافًا من قول الله فللمدح وتبديل قولهم السيئ بالحسن.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ الجار والمجرور قائم مقام الفاعل لشبه أى وقع التشبيه لهم، أو شبه المقتول بعيسى عليه السلام لهم لمكرهم.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من اليهود والنصارى، واختلافهم قولهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وقولهم الوجه وجه عيسى والجسد جسد يهوذا حتى إنى رأيت فى الإنجيل العربى للنصارى يقررونه الآن أن اليهود بعدما تم أمر الصلب طلبوا يهوذا ليعطوه الثلاثين الموعود، فما وجدوه فاشتروا بهذه الدراهم ضيعة جعلوها مقابر الغرباء وأجره ليهوذا، فالحمد لله على تحقق شكهم.

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ فى قتله.

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ مصدر مؤكد لغيره كقولنا: زيد قائم حقا أى أتيقن عدم القتل يقينًا.

﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى محل كرامته ومقر ملائكته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فيقدر على رفعه وله فيه حكمة.

ثم إن مريم أم عيسى عليه السلام وامرأة أخرى اسمها مريم المجدلانية [. . .][1] عيسى عليه السلام بكتاب عند الصليب أربع ليال فنزل عيسى عليه السلام من السماء فأخبرهما بأنه حى فى السماء وقد شبه لهم، ثم جمع الحواريين فأمرهم بدعوة الناس، وأرسل كلا إلى قطر، ثم لم ينزل إلى آخر الزمان، فذهب منهم إلى أنطاكية وسيجىء إن شاء الله خبرها فى سورة يس.

(١) غير واضحة فى المخطوط.

ثم إن مريم ولدت عيسى عليه السلام وسنها ثلاث عشرة ورفع عيسى عليه السلام وسنه ثلاث وثلاثون، وبقيت مريم بعده ست سنين ثم ماتت وقطع الله تعالى عن عيسى عليه السلام لذة المآكل والمشارب، فصار أرضيًا وسماويًا وما إنسيًا وملكيًا يطير مع الملائكة.

ثم إن اليهود أخذوا الحواريين وشمسوهم وعذبوهم فوصل خبرهم إلى ملك دمشق فاستنقذهم وجاءوا دمشق وأخبروا خبر عيسى عليه السلام وإحياءه للموتى وإبراءه للمرضى، فتأسف الملك طيارنوسى.

ثم إن بعد أربعين سنة بعد رفع عيسى عليه السلام عن أطيطوس قيصر بن استانفوس من رومية وهو كافر عابد للكواكب لعدم أداء اليهود الخراج وإعانه مردوس ملك بابل من ملوك الطوائف وهو مجوسى، فجاءوا على بيت المقدس مراده الدنيا ومراد الله أخذ ثأر الأنبياء عليهم السلام فقتلوا اليهود قتلاً ذريعًا واستقصى عليهم فتح بلدة القدس فخرجت امرأة من أمة يحيى عليه السلام فقالت لخردوس: أنا أفتح لك الحصن فأعطنى مرادى، قال: نعم، قالت: يا إله يحيى خذهم بدم يحيى، فانهدم الجدار فدخلوا فى البلدة فجاءت بخردوس على دم يحيى فرآه يغلى فقال: ما هو؟ قالت: سل اليهود، فقالوا: دم قربان لم يقبل منا، فقالت: كذبوا، دم نبى قتل عليه حتى يهدأ فقتل عليه سبعين ألفًا فهدأ ثم طردوا اليهود وسبوهم وباعوهم حتى باعوا ثلاثين يهوديًا بدرهم من كثرة الأسرى، وغلية القحط، ثم هدموا بيت المقدس، ولم يتركوا حجرًا على حجر، ثم حرقوا اليهود ومزقوهم كل ممزق، وذلك قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يا بنى إسرائيل.

﴿أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ فإن نفعه لكم.

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فلا تتعداكم إساءتكم.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ العقوبة الآخرة بعد قتل يحيى عليه السلام وقتل عيسى عليه السلام.

﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أى بعثنا عبادًا فحذف لما مر فى الأولى، ليسوءوا وجوهكم ليفعلوا بكم ما يظهر المساءة على وجوهكم، لأن الأعراض النفسانية تظهر آثارها على الوجوه.

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أى الأقصى.

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ عند قتل شعيا والداخلون أولاً بخت نصر البابلى مع جنده كما مر، والداخلون ثانيًا خردوس البابلـى مع جنده وطيطوس الروحى عامتهم وأكثرهم روميـون، لأن اليهـود أكثـر ما يوجـد فى الروم والافرنـج، وذلك يدل على أن أكـثر الداخلين ثانيًا: روميون.

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ ليخربوا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ مدة علوهم وغلبتهم، أو كل شىء علوا عليه.

﴿ تَتْبِيرًا ﴾ تخريبًا.

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بإرسال محـمد ﷺ للعالمين أو بنزول عـيسى عليه السلام فى آخر الزمان.

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ يا بنى إسـرائيل إلى التكـذيب وكفرتـم بمحـمد ﷺ وبجمـيع الرسل.

﴿ عُدْنَا ﴾ إلى التعذيب والتدمـير، فرجعوا زمان محمـد ﷺ إلى التكذيب فقتل بنى قـريظة، وأجلى بنى النـضير وفى آخـر الزمان يتـبع الرجال سـتمائة ألـف يهودى وسبعـون ألفًا من يهود أصفـهان، وفى رواية من يهود هذه الأمة وهـم الروافض فينزل عيسـى عليه السلام على المـنارة البيضاء فى الـشام التى بنيت فى سنة إحـدى وأربعين وسبعمائة على ما فى تفسير ابن كثير.

فيقتل الدَّجال بباب لدّ، ويقتل المسلمون اليهود والروافض.

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أى محبسًا يحبسون فيه أبد الآباد.

ثم إن عيسى عليه السلام يمكث فى الأرض خـمسًا وأربعين سنة، وقيل: أربعين، ويتـزوج ويولد له وتنـزل الأمنة حتـى إن الأسود ترتع مـع الإبل والنمـور مع البقـر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان مع الحيات بلا آفة.

ثم يموت فيـدفن فى قبة النبى ﷺ عند أبى بكـر وعمر ﭫ فيوم القيـامة يقوم رسول الله ﷺ وعـيسى عـليه السـلام فى قبـة واحدة وذلك قـوله تعالى فـى سورة النساء.

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ أى أحد ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ أى بعيسى علـيه السلام ذلك الأحد.

﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قبل موت عيسى وهو أولى الوجوه لخلوه عن التفكيك بالحديث أى لا يبقى نصرانى ولا يهودى إلا آمن به برفع الجزية، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويكون الدين كله لله.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ أى عيسى عليه السلام.

﴿عَلَيْهِمْ﴾ أى على أهل الكتاب.

﴿شَهِيدًا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أى مما ذكر من نبأ عيسى عليه السلام وغيره، مبتدأ.

﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ خبره ﴿مِنَ الآيَاتِ﴾ حال من الضمير المنصوب أى من الآيات الدالة على نبوتك، لم تشاهد هذه الوقائع ولم تسمع فى أهل الكتاب على ما هو معروف فى حالك، فلم يبق إلا الوحى فأنت نبى.

﴿وَالذِّكْرِ﴾ أى القرآن الحكيم المشتمل على الحكم، أو المحكم الذى لا نسخ أبدًا أمر حكيم صاحبه فأسند على المجاز العقلى، أو كالحكيم الناطق بالحكمة فاستعاره.

وقد روى البيهقى فى دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة ولنذكره فإن فيه فوائد كثيرة وفيه غرابة وفيه مناسبة لهذا المقام: قال البيهقى: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكر بن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه، عن جده قال يونس وكان نصرانيًا فأسلم: إن رسول الله ﷺ كتب إلى نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبى رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران أسلموا أنتم فإنى أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد، فإنى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام، فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه قطع به ودغره دغرًا شديدًا وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعة، وكان من همدان، ولم يكن بأحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله لأنه السيد والعاقب فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه فقال: يا أبا مريم: ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم من ذرية إسماعيل من النبوة

فما يؤمن أن يكون هذا هو ذلك الرجل الحسن فى النبوة رأى ولو كان أمر من أمر الدنيا لأشرت عليك فيه برأيي وجهدت لك، فقال له الأسقف: تنح فاجلس، فتنحى شرحبيل ناحية ، فبعث الأسقف إلى رجل من نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل وهو من ذى أصبح من حمير فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأى فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: تنح فاجلس، فتنحى فجلس ناحية، وبعث الأسقف إلى رجل يقال له جبار بن فيض من بنى الحارث بن كعب أحد بنى الحماس فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأى فيه فقال له مثل قول شرحبيل، وعبد الله فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية، فلما اجتمع الرأى منهم على تلك المقالة جميعًا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به ورفعت النيران والمسوح فى الصوامع.

وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران فى الصوامع فاجتمع حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادى أعلاه وأسفله، وطول الوادى مسيرة يوم للراكب السريع وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأى فيه فاجتمع رأى أهل الرأى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمدانى وعبد الله بن شرحبيل الاصبحى، وجبار بن فيض الحارثى فيأتوتهم بخبر رسول الله ﷺ ، فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر ولبسوا حللاً يجرونها فى حبرة وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ وسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام وتصدوا لكلامه نهارًا طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب فانطلقوا يبتغون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وكانا معرفة لهم فوجدوهما فى رأس من المهاجرين والأنصار فى مجلس فقالوا: يا عثمان، ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيئين له فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد علينا سلامنا، وتصدينا لكلامه نهارًا طويلاً فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأى منكما؟ أترون أن نرجع؟ فقالا لعلى بن أبى طالب وهو فى القوم فقال على لعثمان ولعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه، ففعلوا فسلموا عليه فرد سلامهم ثم قال: والذى بعثنى بالحق لقد آتونى فى المرة الأولى وإن إبليس لمعهم، ثم سألهم وسألوه فلم نزل به وهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول فى عيسى عليه السلام فإنا

نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبيًا أن نسمع ما تقول فيه، قال رسول الله ﷺ : ما عندى فيه شىء يومى هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول ربى عن عيسى عليه السلام، فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ**﴾ إلى ﴿**عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ فأبوا أن يقروا بذلك فلما أصبح رسول الله ﷺ فى الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين فى جميل له وفاطمة ﵂ تمسى عند ظهره للملاعبة وله يومئذ عدة نسوة فقال شرحبيل لصاحبه: قد علمتما أن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا، ولم يصدروا لا عن رأيى، وإنى والله أرى أمرًا ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكًا مبعوثًا فكنا أول العرب طعن فى عينيه ورد أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه، حتى يصبونا بحاجة وإنما ولى العرب منهم جوارًا، ولئن كان هذا الرجل نبيًا مرسلاً فلا عناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحباه: فما الرأى يا أبا مريم؟ فقال: رأيى أن أحكمه، فإنى أرى رجلاً لا يحكم شططًا أبدًا، فقالا له: أنت وذاك، قال: فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ قال: إنى قد رأيت خيرًا من ملاعنتك فقال: ما هو؟ فقال: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح فما حكمت فينا فهو جائز، فقال رسول الله ﷺ : لعل وراءك. . . عليك، فقال شرحبيل: سل صاحبى فسألهما فقالا: ما يرد الوادى ولا يصدر إلا عن رأى شرحبيل، فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبى ﷺ لنجران إن كان عليهم حكمه فى كل ثمرة وكل صفراء، وبيضاء، وسوداء، ورقيق فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفى حلة فى كل رجب ألف حلة، وفى صفر ألف حلة، وذكر تمام الشروط وبقية الساق والغرض أن وفودهم كان فى سنة تسع، لأن الزهرى قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ وآية الجزية إنما نزلت بعد الفتح وهى قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ إلى أن قال: ﴿**حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾.

قال البخارى: حدثنا عباس بن الحسين، حدثنا يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن صله بن زفر، عن حذيفة، قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران

إلى رسول الله ﷺ يريدا أن يلاعناه قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنما نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أمينًا، فقال لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين، فاستشرف لهما أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة».

ورواه البخارى أيضًا ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه من طرق عن أبى إسحاق التبيعى عن صلة، عن حذيفة بنحوه.

وقد رواه أحمد والنسائى، وابن ماجه من حديث إسرائيل عن أبى إسحاق، عن صلة، عن مسعود بنحوه وقال البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة عن خالد، عن أبى قلابة، عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال: «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الدقى، حدثنا أبو يزيد، حدثنا فرات بن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ، قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة لآته حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عنانًا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً».

وقد رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم.

وقال الترمذى: حسن صحيح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ صفته العجيبة الغريبة، والمثل الأصل والشبه ثم استعمل فى المثل السائر الممثل مضربه بمورده، ثم استعير لكل ما فيه الغرابة.

﴿عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ كصفته العجيبة.

﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ جملة مستأنفة مبينة لصفته العجيبة أى صور قالبه من تراب أو أرد خلقه من تراب.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى أنشأه بشرًا سويًا.

فقول: كن، عبارة عن نفوذ قدرته سريعًا فيما تعلقت به إرادته، أو نقول: التراخى

بين الخبرين لا بين المخبرين فيكون أى فكان، وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية.

﴿الْحَقُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق لا ما قالته النصارى.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ خبر بعد خبر ﴿فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى الشاكين، والنهى للنبى ﷺ للتهييج والتثبت أو للأمة كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أى فى عيسى عليه السلام.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من البينات الموجبه للعلم.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ وأصله أن يقول من فى العلو لمن فى الأسفل ثم اتسع فاستعمل أعم.

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ لهم ﴿وَنِسَاءَنَا﴾ أى بناتنا ﴿وَنِسَاءَكُمْ﴾ أى بناتكم ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ أى اقترب الناس إلينا ﴿وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أى نتباهل ونتلاعن كاصطلح بمعنى تصالح وأصله من البهلة أى اللغة يقال: بهل الناقة أى تركها بلا صرار.

﴿فَنَجْعَل﴾ الفاء تفصيلية تفسير للابتهال.

﴿لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ وتقديم الأبناء والنبات على نفسه مع نفسه مع أن الملاعنة مظنة الهلاك ومئنة التلف والإنسان يخاطر بنفسه دونهم لكمال وثوقه عليه السلام على لطف ربه وحفظه من المهالك وكان من عادة العرب العراب إدخال الأقرب فالأقرب فى المباهلات.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما قضاه الله.

﴿لَهُوَ﴾ صيغة فصل واللام زحلقت عن المبتدأ فدخلت ما هو أحرب منه.

﴿الْقَصَصُ﴾ اللام للتخصيص وكلمة الفصل للتأكيد.

﴿الْحَقُّ﴾ أى ما قصصنا هو الحق لا ما يقصه النصارى واليهود من أمر الصليب وما يعتقدونه عن أسلافهم.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ كلمة من لاستغراب النفى فصار مثل لا إله، لكن الأصل لا من إله، فالتشبيه فى التصريح بالاستغراق فإن هذه الكلمة لشيوعها بين المؤمنين صارت نصًّا فيه وإن كان يجب الاشتقاق فرعًا.

﴿إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب فى كل ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ العالم بعواقب الأمور وخفياتها فلا يليق بمنصب الألوهية بغيره.

«تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيرًا».

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ بعدما ظهر الحق وزهق الباطل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل على إفسادهم الدين والعقيدة المفضى إلى فساد العالم، اللهم لا تجعلنا من المفسدين وخلصنا من شرورهم آمين.

مجلس فى:

بيان أحوال الرسل الثلاثة المبعوثين من قبل عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء

فى ثمانى عشره آية فى سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس فى بيان أحوال الرسل الثلاثة المبعوثين من قبل عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فى ثمان عشرة آية فى سورة يس(1).

وذلك قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ أى مثل لأجلهم أى لأجل قريش، يقال: هذه الأشياء على ضرب واحد، أى على مثال واحد، فاشتق منه اضرب وهذا وضمن اضرب معنى اجعل فتعدى إلى مفعولين الثانى «مثلاً» والأول مثل أصحاب القرية على حذف، أو ضمن اذكر فتعدى إلى واحد وهو مثلاً ومثل أصحاب القرية بدل منه بدل الكل، أو عطف بيان له، ولا اتحاد فى التفسير إذا الأول منكر والبيان معرف فيوضحه وهو المطلوب من البيان والاختلاف بالتنكير والتعريف لا يضر صرح به الرضى.

---

(1) ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (19) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (28) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (يس: 13 - 30).

فإنه قال: يجوز التخالف فى عطف البيان.

والقرية أنطاكية.

قال العلماء بأخبار الأنبياء: بعث عليه السلام رسولين من الحواريين بعد رفعه إلى السماء إلى أهل أنطاكية فأنزل بأمر الله تعالى بعد سبعة أيام من رفعه على مريم الجد فاشتعل الجبل نورًا فجمعت له مريم الحواريين فبعث إلى الأقطار دعاة إلى الله تعالى فبعث يحيى وبولس إلى أهل أنطاكية وقال لشمعون: انظر إن كذبًا اذهب أنت أيضًا إلى أهل المدينة أنطاكية، فلما قربا إلى المدينة رأى شيخًا يرعى غنمًا له وهو حبيب صاحب يس فسلما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى عليه السلام ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال: أومعكما آية؟ قالا: نعم نحن نشفى المريض ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى، فقال الشيخ: إن لى ابنًا مريضًا منذ سنين، قالا: فانطلق بنا نتطلع حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه فقام فى الوقت بإذن الله صحيحًا، ففشى الخبر فى المدينة وشفى الله على أيديهما كثيرًا من المرضى وكان لهم ملك قال وهب: اسمه انطخيوس.

وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام، قالوا: فانتهى الخبر إليه فدعاهما فقال: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى عليه السلام، وفيم جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، قال: أولنا إله دون آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك، قال: قوما حتى أنظر فى أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما فى السوق.

قال وهب: بعث عيسى عليه السلام هذين الرجلين إلى أنطاكية فأتياها، فلم يصلا إلى ملكها وطال مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم، فكبرا وذكرا الله سبحانه وتعالى فغضب الملك وأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائة جلدة، قالوا: فلما كذب لرسوله [...][1] وضربا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون [...][1] على أثرهما، فدخل شمعون البلد متنكرًا فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه عشرته وأنس به وأكرمه ثم قال له ذات يوم: أيها الملك بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما؟

(١، ١) غير واضحة فى المخطوط.

فقال الملك: حال الغضب بينى وبين ذلك، قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نتطلع ما عندهما، فدعاهمـا الملك فقال لهما شمعـون: من أر سلكما إلى ههنا؟ قالا: الله الذى خلق كل شىء وليس له شريك، فقال لهما شمـعون: صفاه وأوجذا، قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال شمعون: وما أتاكما؟ قالا: ما يتمناه الملك فأمر الملك حتى جاءوا بغلام مطمـوس العين موضع عينيـه كالجبهـة فماذا لا يدعوان ربهمـا حتى انشق موضع فأخذا بندقتين من الطين فوضعا فى حدقتيـه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك: فقال شمـعون للملك أنت سألت إلهك حتى يصنع صنيعًـا مثل هذا فيكون لك الشرف ولإلهك، فـقال الملك: ليس لى عليك سـر إن الهنا الذى نعبـده لا يسمع ولا يبـصر ولا يضـر ولا ينفع، فكان شـمعـون إذا دخل الملك على الصنم يدخل دخـوله ويصلى كثيرًا ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملـتهم فقال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما الذى تعـبدانه على إحيـاء ميت آمنا به وبـكما، قالا: إلهـنا قادر على كل شىء، فـقال الملك: إن ههنا ميـتًا مات منذ سبـعة أيام ابن لدهقان وأنا أخـرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائبًا، فجـاءوا بالميت وقد تغيروا روح فجعلا يدعوان ربهـما علانية، وجعل شمـعون يدعو ربه سرًا فـقام الميت فـقال: إنى قدمت منذ سـبعة أيام ووجدت شـركًا فأدخلت فى سبعـة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنـوا بالله، ثم قال: فتحت أبواب السماء فنظرت فرأيت شابًا أحسن الوجـه لهؤلاء الثلاثة قال الملك: ومن الثلاثة؟ قال: شمعون وهذان أشـار إلى صاحبيه فتعجب الملك لما عـلم، فلما علم شمعون أن قوله أثر فى الملك أخبره بالحال ودعاه فآمن الملك وآمن قوم، وكفر آخرون.

وقـيل: إن ابنة الملك كانت قد توفيت ودفنت، فـقال شمعون للملك: اطلب من هذين الرجلين أن يحـييـا ابنتك، فطلب منهـما الملك ذلك، فـقامـا وصليـا، ودعوا وشمعون معهما فى السر، فأحـيا الله المرأة وانشق القبر عنها فخرجت وقالت: أسلموا فإنهـما صادقـان، قالت: ولا أظنكم تسلمون، ثم طلبت مـن الرسولين أن يرداها إلى مكانها قدرا ترابًا على راسها وعادت إلى قبرها كما كانت.

وقال ابن إسحاق عن كعب، ووهب: بل كفـر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حـبيبًـا وهو على باب المدينة الأقصى فـجاء يسعى إليـهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلـين فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بدل مـن

أصحاب القرية بدل الاشتمال، ولم يقل إذ جاءهم ليعلم أنهم أتوهم فى مقرهم ومحل شوكتهم.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ بدل من إذ الأولى أو ظرف لجاء.

﴿إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ يحيى وبولس كما مر وإسناد الإرسال إلى ذاته تعالى لأنه فعل رسوله بإذنه فرسول الرسول منه تعالى كما أن وكيل الوكيل وكيل من الموكل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل، بل بعزل الموكل فجاءا إليهم ودعواهم إلى الله تعالى وبلغنا وقالا ما قالا.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فالفاء فصيحة.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون، وإنما لم يذكر المعزز هو الرسولان المكذبان، بل ذكر المعزز به لأن القاعدة فى البلاغة أن الكلام إذا سبق لغرض يطوى ذكره غيره والمقصود هنا ذكر المعزز به أعنى شمعون، والمعززان قد سبقا بهما معلومان.

﴿فَقَالُوا﴾ بعد فتح عين المطمويس وإحياء الغلام وإيمان من آمن وإصرار من بقى على الكفر وظهور شمعون مؤمنًا بأخبار الغلام.

﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ مؤكدًا بأن واسمية الجملة لسبق تكذيبهم بالاثنين واتحاد كلمة الثالث معهما فقد كذب هو أيضًا فهو عطف على كذبوهما وهو الفاء، لكن قال صاحب الكشاف: هو ابتداء آحاد وقولهم الثانى جواب إنكار.

وتبعه البيضاوى ووجهه خفى وتكلف صاحب الكشاف بأنه عطف على محمله تفصيلاً له على كذبوهما أى قال الأولان كذا، وقال الثالث: كذا مجمل ففصل بقوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ لكنه لم يبين وجه التأكيد مع أن التكذيب يقتضى قولاً مفصلاً فلا اعتماد عليه.

﴿قَالُوا﴾ أى أهل انطاكية.

﴿مَا أَنتُمْ﴾ أيها المرسلون الثلاثة ومرسلكم عيسى عليه السلام أيضًا بإقراركم.

﴿إِلَّا بَشَرٌ﴾ والرفع لانتقاض النفى بإلا.

﴿مِّثْلُنَا﴾ فلا مزية لكم علينا فلم صرتم أنبياء دوننا؟ فهو كقول أبى جهل وأشباهه على ما حكى الله تعالى عنهم فى سورة الأنعام ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ حتى قال أبو جهل كنا بنى مخزوم وبنى عبد مناف كفرسى

رهان لا فضل لهم علينا، فالآن يقولون منا نبى يوحى إليه، والله لا نرضى حتى يوحى إلينا، قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ لأنها من الخصائص النفسانية، والفضل الروحانية يخص الله بها من يشاء من عباده لأنه فاعل مختار وليس بموجب بالذات، وليست مما يتعلق بالنسب والمال.

«والله يعلم محلها» المستحق لها فكذا هنا نفوا غير البشرية وادعوا التماثل، فمن أين جاء التفضيل بالرسالة وأنتم لا تناسبون الله، والمناسبة بين المرسل والمرسل شرط فهو كقولهم المحكى فى القرآن: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً ﴾ لكن لم يعلموا أن المقصود من إرسال الرسل عمارة الأرض بالعدل وسياسة الناس وحفظهم عن التهارج، وتكميل النفوس بالعقائد، والشرائع الحقة، وتنفيذ أمر الله فيهم لا لقصور فى المرسل إليهم عن قبول القبض عن البارى وعن ملائكته بلا واسطة ولذا قال فى سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ فاقتضت حكمته أن يجعل الأنبياء لصفاء باطنهم بحيث يكاد زيتهم يضىء ولو لم تمسسه نار ولاستعدادهم لقبول الفيض من الملائكة، بل عن البارى تعالى كما وقع لموسى عليه السلام ليلة الطور، ولمحمد ﷺ ليلة المعراج وسائط بينه وبين الناس، ومثاله فى عالم الطبيعة أن العظم لما لم يناسب اللحم لكمال صلابته وكمال لينته الغضروف واسطة بينهما فيأخذ الغذاء من اللحم ويعطيه العظم لمناسبته لهما، فكذا هنا.

﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ ﴾ من الوحى لأن تصرفه فى العلويات وتصرفها فى السفليات ولأن الرحمة العامة المفهومة من الرحمن تنافى التكليف لأنه مشتمل على الرحمة ولأن عمومها يقتضى عموم الإنزال على أحد وليس فليس.

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ كذبًا مستمرًا متجددًا، فلذ جىء بالمضارع موضع اسم الفاعل.

﴿ قَالُوا ﴾ أى الرسل ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ علمًا مستمرًا دائمًا، استشهد بعلمه وهو بمنزلة القسم بل أوكد لأن من حلف بالله كادبًا يأثم، ولا يكفر، ولو استشهد بعلمه وقال: علم الله أو شهد الله كاذبًا يكفر لأن نسبة الجهل إليه تعالى وقولهم هذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾.

﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ فلما زاد الكفرة فى تكذيبهم على ما مر زاد المرسلون فى التوكيد فجاءوا بالقسم وإن واللام واسمية الجملة، لكن لما كان من ديدن العاجز عن

إقامة الحجة الاستشهاد بالعلم ولا حسن له لأن حسنه بعد إقامة الحجة قالوا: ﴿وَمَا عَلَيْنَا﴾ أى لا يجب علينا شىء.

﴿إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أى التبليغ.

﴿الْمُبِينُ﴾ الظاهر المكشوف بالبينة والمعجزة وقد فعلنا على ما مر.

﴿قَالُوا﴾ أى الكفرة.

﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا وحصل لنا الشؤم بسببكم، وهو إما اختلاف الكلمة لأنه من بعضهم، أو عدم نزول المطر أو القحط على ما قيل، أو يمنيكم لأن اليمين الفاجرة تدع الديار بلا، أو قولكم هذا ودعوتكم إلى الإيمان والتوحيد لأن العجزة يتشاءمون بما يخالف هواهم وطبعهم ويتمنون بصده.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن مقالتكم هذه بتركها أو عنا بهجرتكم منا.

﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة أو بالشتم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ وليصيبنكم ﴿مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ القتل على الأول أى لترجمنكم حتى تموتوا أو الضرب على الثانى، وأليم بمعنى مؤلم اسم فاعل لكنه قليل، أو ذو ألم كعيشة راضية يعنى للنسبة.

﴿قَالُوا﴾ أى الرسل.

﴿طَائِرُكُم﴾ أى سبب شؤمكم وهو سوء عقيدتكم وعملكم.

﴿مَّعَكُمْ﴾ لا ينفك عنكم أينما وردتم وإن معكم.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ تطيرتم بنا وتوعدتمونا فالجزاء محذوف.

قال الشيخ الرضى فى بحث حروف الشرط: إذا تقدمت همزة الاستفهام على كلمة الشرط اسما كانت أو شرطًا وما أو حرفًا كان ولو، فالاستفهام أو ما يتبعه من الإنكار وغيره ومنصب على مجموع الشرط والجزاء لحرف الشرط إذا كان مضارعًا، وهذا عند سيبويه وهو الحق دليله قوله تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

الفاء الأولى للسببية، والثانية لجزاء الشرط، فلو لم يكن جزاء الحرف الشرط لقيل أفإن مت هم الخالدون أى أفهم الخالدون إن مت.

وقال يونس: الاستفهام وما يتبعه منصب على ما فى خير الجزاء وهو مرفوع.

ويرد عليه ما ذكرنا سابقًا، فإذا قلت: إن تأتنى آتك يكون الجزاء الجزم عند سيبويه والاستفهام أنصب على الجملة الشرطية.

وعند يونس تقول: إن تأتنى أتيك بالرفع لأن التقدير آتيك إن تأتنى، فلا جواب للشرط لأنه يفهم مما سبق، ففى هذا الموضع التقدير عند سيبويه، وعليه الجمهور.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ تطيرتم وقلتم ما قلتم.

وعند يونس أتتطيرون إن ذكرتم على ما اختاره صاحب الكشاف لكونه موافقًا لقواعد علم البلاغة حتى آية سورة الأنبياء ﴿أَفَإِن مِّتَّ﴾ أيبقى هؤلاء.

لأن الزجاج قال على ما نقل عنه الطيبى فى قوله تعالى فى سورة آل عمران ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أنه إذا اجتمعت همزة الاستفهام وحرف الشرط فالاستفهام على الحقيقة منصب على الجزاء فالمنكر ههنا انقلابهم على أعقابهم، وإن دخلت الهمزة على الموت أو القتل.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أى فى العصيان أو فى الضلال وخطأ الرأى والإضراب عن قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أى ليس التذكير الذى هو سبب السعادات بأسرها ومنبع الكمالات يرمتها بسبب التشاؤم بل سببه إسرافكم ومجاوزتكم عن الحد فى العصيان والفسق والكفر أو إسرافكم فى الضلال والسفه والخطأ فى الرأى والتدبير حت تطيرتم بمن هو عين التيمن، وتوعدتم بالقتل بدل كرامته ونصرته، وقد كان الواجب عليكم هذا، فعند هذه المحاورات والمراجعات وهمتهم بقتل الرسل.

سمع حبيب النجاد ابن إسرائيل وسعى بالقلب والقالب لنصرتهم على ما قال الله تعالى:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ أنطاكية فدل الكلام على أنه دعاهم إلى الإيمان فى المدينة حتى سمع من فى أقصاها وإنه لم ينتفع أهل المجلس الحاضرون بل من فى المكان الأبعد على ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

﴿رَجُلٌ﴾ أى كامل فى الرجولة فالتنكير للتعظيم يسمى أى يسرع لنصرة الحق أو يقصد كقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه رفعًا للتهمة.

﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى المؤيدين بالآيات.

﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ لتخسروا فى دنياكم.

قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى صلاح الدارين إيفال حسن هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها لأن كونهم مرسلين يستلزم الاهتداء لزومًا جليًا فإبرازه للحث على اتباع الرسل والتحريض.

ثم أتى بالتعريض وهو أن ينسب الكلام إلى أحد والمقصود غيره، وقال: ﴿وَمَا لِيَ﴾ المقصود وما لكم بدليل ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إذ لولاه لقال أرجع، ومراده رفع المانع أولاً.

فقوله: ﴿لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إشارة إلى إثبات للواجب للعادة وهو خلقه تعالى أي ليس لي مانع من العبادة، وقد حصل الموجب كما قال ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾.

وفائدة التعريض عدم إغضاب الخصم الإله بسببه إلى الكفر والضلال والاستعانة في قبول الحق بترك تصريحه له وإمحاض النصح بحيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ويسمى هذا النوع من الكلام الكلام النصف لأن كل ما سمعه يقول للمخاطب أنصفك المتكلم من نفسه به، ويسمى الاستدراج لاستدراجه الخصم إلى الإدغان والتسليم.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تهديد لهم بأحوال القيامة ثم عاد إلى المساق الأول فقال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ﴾ أي مجاوزًا الله ﴿آلِهَةً﴾ من الجمادات، تصور الكواكب عند قومه لأنهم كانوا صائبين.

﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ مرض أو غيره.

﴿لا تُغْنِ﴾ لا تدفع ﴿عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من الضر.

﴿وَلا يُنقِذُونِ﴾ بقوتهم.

﴿إِنِّي إِذًا﴾ على تقدير عبادتهم ﴿لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر كونه ضلالاً.

﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ خطاب لقومه وإضافة الرب إليهم لأن ربهم وربه واحد.

﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي اقبلوا قولي، من سمع بمعنى قبل.

وقيل: الخطاب المرسل فمعنى فاسمعون اشهدوا لي عند ربكم، فلما نصح لهم بمحض النصح وأسمعهم إيمانه قتلوه برجم الحجارة أو بوطئهم بأرجلهم حتى أخرجوا قصبه من دبره.

وعن الحسن: ما قتلوه بل رفعه الله تعالى إلى السماء وإلى الجنة وهو فيها حي

يرزق، فكأنه سأل سائل ماذا فعل الله به بعد التصلب فى الدين والنصح لقومه والتسخير بروحه وإشغاله قومه عن قتل الرسل حتى يخلصوا فأجاب بقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ بعد القتل أو الرفع، وحذف القول له وهو حبيب لأنه معلوم مما سبق، والكلام مسوق لذلك المقول، ولما ورد أنه ماذا قال بعد ذخول الجنة فأجاب بقوله: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي﴾ ما مصدرية أى بغفرانه لى، أو موصولة بحذف المضاف أى بغفران الذنب الذى غفر لى.

﴿رَبِّي﴾ فالأول أولى ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وتمنيه بعلم قومه ليتوبوا ويكسبوا الجنة كما كسب هو، وهذا طريقة الأولياء يحبون النجاة لأعدائهم وهذا حبيب رحمه الله ورضى عنه نصح حيًا بقوله: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الآية، وبقوله ميتًا: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ الآية.

وقيل: يا ليتهم يعلمون منزلتى حتى أخطأهم ورشادى فيزداد ندامتهم بكفرهم وغيظهم لى، فهذا شماتة الأعداء وليس فى حسن الأول.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد قتله، أو رفعه على ما مر.

﴿مِن جُندٍ﴾ من الملائكة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أى ما كان عادتنا إنزال الجند على أمة من الأمم المكذبين لأنه بريشة من جناح جبريل عليه السلام انقلبت خمس مدائن قوم لوط، فبأى حاجة إنزال الجند لكن الله تبارك وتعالى قد أنزل النصر لحبيبه محمد ﷺ ألفًا ثم ألفين فلذلك خمسة آلاف فى بدر وستة عشر فى حنين، واثنى عشر ألفًا فى الخندق، فكأنه أوحى هنا إليب الفرق بين حبيب النجار وما صح وما استقام لنا إنزال الجند على أمة مكذبة من أمم الأنبياء لأن إنزال الجند للنصرة من خصائصك فلا يكون لغيرك.

﴿إِن كَانَتْ﴾ أى العقوبة ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

روى أن جبريل عليه السلام أخذ بعضادتى باب من أبواب أنطاكية وصاح صيحة.

﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أى أهل انطاكية ﴿خَامِدُونَ﴾ يبتون كما خمدت النار شبهوا بلهب النهار وجمره فى شدة غضبهم وتحركهم وغيظهم على الناصحين وله ثبت لهم ما هو من لوازم النار أعنى الخمود.

فقى الكلام استعارة بالكناية وتخييل.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ والحسرة هى شدة التلف والتأسف والندامة بحيث يبقى القلب حسيرًا أى منقطعًا عن كل فكرٍ وهذه الحسرة ويا حسرة العباد المهلكين تعالى فهذا أوانك.

وقيل: هى حسرة من يعتد بتحسرهم من الملائكة والمؤمنين يعنى أيها المؤمنون والملائكة تحسروا.

وقيل: هذه الحسرة من الله وهى محال عليه، لكن المراد تعظيم ما جنوا على أنفسهم أى ما أعظم ما جنوا على أنفسهم، ثم بين الحسرة بالدليل على الاستئناف وهو قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ويكذبون، فلذا أهلكوا، فالحسرة عليهم.

وذكر ابن كثير فى تفسيره قد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عذر المسيح عيسى عليه السلام ابن مريم كما نص عليه قتادة وغيره وهو الذى لم يذكر عن واحد من متأخرى المفسرين غيره، وفى هذا نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصد يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله تعالى لا من جهة المسيح عيسى عليه السلام كما قال ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح، والجواب عنه أنه لما كان هذا الإرسال بعد رفع عيسى عليه السلام ونزوله من السماء بعد سبعة أيام كما مر سابقًا، كان عيسى عليه السلام كأنه أبيهم بأمره تعالى.

والمذهب أن رسول البشر أفضل من رسول الملائكة فكأنه نزل بهذا الأمر ملك الوحى جبريل، فلما صار المرسل بواسطة الملك مرسلاً عن الله تعالى لا من الملك جعل هنا أيضًا الرسل رسلاً من الله تعالى.

الثانى: لو كانوا رسل المسيح لما قالوا إليهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يعنى البشرية تنافى الرسالة من الله بزعمهم لعدم المناسبة بين المرسل والمرسل، وجواب أمر أيضًا من أنه لما كان عيسى عليه السلام كالملك النازل بالوحى كما يوهم رسل الله فالبشرية تنافيها.

الثالث: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم فكانت أول مدينة آمنت بالمسيح ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع اللاتى فيهن تبارك وهى: القدس لأنها مدينة المسيح وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت به عن آخر أهلها، واسكندرية لأن فيها أصلحوا على اتخاذ التبارك والمطارية والأساقفة والقسيسين، والشمامة والرهابين، ثم الرومية لأنها مدينة ملك قسطنطين الذى نصر دينهم ولما ابتنى القسطنطينة نقلوا السرك إليها كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية مدينة آمنت به فكيف يكون أهل هذه القرية ما ذكر الله تعالى وإنهم كذبوا رسله وإنه أهلكهم بصيحة واحدة أخذتهم؟ وجوابه ظاهر غاية الظهور لأنه جاز أن يكون من آمن منهم بالرسل وهو الملك وطائفة من أهلها على ما مر هم المؤمنين بالمسيح أول من آمن من الروم، وأن يكون المراد من أهلها هؤلاء المؤمنين، وهذا هو الظاهر.

الله أعلم.

الرابع: أن قصة انطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة فقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ فعلى هذا تعين أن هذه القرية المذكورة غير أنطاكية وجوابه أظهر لأنه لا دلالة فى قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾.

على أن لا يكون فى القرون الأخرى عذاب الاستئصال بوجه، والحديث الموقوف، والمرفوع خبر واحد لا يفيد إلا الظن، وتناقضه قصة أصحاب السبت.

وقد استثنيت بعض طرق الحديث المذكور وتناقضه أيضًا قصة سيل العرم لأنها بعد موسى عليه السلام البتة، والعام إذا دخله الاستثناء لا يفيد العلم لأنه يجوز أن يكون فيه استثناء آخر كأهل انطاكية.

وقد روى خبر الرسول وأهل انطاكية من ابن عباس وغيره ثم الجمهور اتفقوا عليه فالواجب عدم خلافهم على أنه لو قيل: إنه غير أنطاكية العلوم لزم أن يكون تفسير هذه الآيات الثمان عشرة مجهولاً غير معلوم إلى الآن، وهو باطل لما يلزم منه إهمال الآيات القرآنية ويكون تلاوته كالتكلم مع الزنجى بالعربى، أعاذنا الله من اعتقاد هذا وروايته.

مجلس في:

بيان أصحاب الكهف

في ثمان عشرة آية من سورة الكهف:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد...

فهذا مجلس في بيان أصحاب الكهف في ثماني عشرة آية من سورة الكهف[1].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن وغيرهم.

---

(١) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ٧ - ٢٤).

﴿زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أى للمكلفين ونعلم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ زهدًا فى الدنيا وعبادة للمولى.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ﴾ بعد الجعل الأول، ولذا أتى بصيغة اسم الفاعل بعدما أتى بالأول ماضيًا.

﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من الأجناس المذكورة.

﴿صَعِيدًا﴾ كالصعيد وهو وجه الأرض الخالى عن النبات وغيره.

﴿جُرُزًا﴾ كالجرز وهو المكان الخالى عن الماء والكلأ، حاصل المعنى الكلام جعلنا الأرض مملوءة بالخيرات ثم نجعلها عارية مبراة عن [. . .](١) فلا تغتروا بها واجعلوها زادًا.

﴿أَمْ﴾ بمعنى بل ﴿حَسِبْتَ﴾ المرقى إلى الأقرب فإن الجعلين المذكورين أغرب من قصة أصحاب الكهف، فالتعجب منها لندرتها مع عدم التعجب منهما لشهرتهما أغرب بالهمزة لإنكار الحسبان بمعنى لا ينبغى أن يكون المخاطب هو النبى ﷺ على التعريض بالسائلين من أهل الكتاب فإن قريشًا أرسلوا نضر بن الحارث وعتبة بن أبى معيط إلى المدينة إلى اليهود فسألاهم عن علامة النبوة وبينا لهم أوصاف النبى ﷺ على الصدق فقالت: نعم الوصف وصفه فكذا أوصاف الأنبياء قبله، لكن اسألوه عن ذى القرنين وعن الروح، وعن قصة أصحاب الكهف وعن قريتها فقال: ائتونى غدًا أخبركم ونسى الاستثناء فمكث الوحى خمس عشرة ليلة فحزن النبى ﷺ وفرح المشركون، ثم نزلت السورة فأخبرهم رسول الله ﷺ فالسائلون فى الحقيقة هم اليهود فقال: «أحسبتم» أيها اليهود ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ هو الغار الواسع فى الجبل، فإن لم يكن واسعًا فهو الغار.

﴿وَالرَّقِيمِ﴾ بمعنى المرقوم هو اللوح الذى عليه أسماؤهم من النحاس هو الصحيح.

وقيل: اسم قريتهم، أو اسم الجبل، أو الوادى وغير ذلك.

﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا.

﴿عَجَبًا﴾ ذوى عجب أى تعجب بل السموات والأرض أعجب منهم لكن الإنسان لا يتعجب إلا من أمر غريب.

---

(١) ما بين المعقوفتين مستدرك على الهامش وغير واضح أيضًا.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أى صاروا إليه.

قال محيى السنة فى تفسيره معالم التنزيل: اختلفوا فى سبب مسيرهم إلى الكهف: فقال محمد بن إسحاق بن يسار: هرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله تعالى وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له: دقيانوس، عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفهم، وكان ينزل قرى الروم فلا ينزل فى قرية نزلها أحد إلا فتنه حتى يعبدوا الأصنام ويذبح للطواغيت، أو قتله حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهى أنسوس فلما نزلها كبر على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل وجه وكان دقيانوس حين قدمها أمر أن يتبع أهل الإيمان فيجمعوا له واتخذ شرطًا من أهلها يتبعون أهل الإيمان فى أماكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فمنهم من يرغب فى الحياة، ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل، فلما رأى ذلك أهل الشدة من الإيمان بالله، جعلوا يسلمون أنفسهم للقتل فيقتلون ويقطعون، ثم يربط ما قطع من أجسامهم على سور المدينة من تواجها، وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة، فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنًا شديدًا، فقاموا، واشتغلوا بالصلاة، والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء، وكانوا من أشراف الروم، وكانوا ثمانية، تقربوا أو تضرعوا إلى الله تعالى وجعلوا يقولون: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ اكشف عن عبادك هذه الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينا هم وقد دخلوا فى مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودًا على وجوههم يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى فقالوا لهم: ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه، ثم خرجوا فرفعوا أمرهم إلى دقيانوس فقالوا: تجمع الناس المذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزئون بك ويعصون أمرك فلما سمع ذلك بعث إليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع مصفرة وجوههم من التراب فقال لهم: ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التى نعبد فى الأرض وتجعلوا أنفسكم أسرة لسراة أهل مدينتكم اختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا وإما أقتلكم، فقال مكلسا وهو أكبرهم: إن لنا إلهًا ملأ السموات والأرض بعظمته لن ندعو من دونه إلهًا أبدا له الحمد وله التكبير والتسبيح فى أنفسنا

خالصًا أبدًا، إياه نعبد، وإياه نسأل النجاة والخير، فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدًا اصنع ما بدا لك، وقال أصحاب مكلينا لدقيانوس مثل ما قال فلما قالوا ذلك، أمر فنزع عنهم لبوس كان عليهم من لبوس عظمائهم، ثم قال: سأفرغ لكم فأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة، وما يمنعنى أن أعجل ذلك لكم إلا أنى أراكم شبابًا حديثة أسنانكم فلا إحسان أهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكرون فيه وتراجعون عقولكم، ثم أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم، ثم أمر بهم حتى أخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم قريبًا منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكر بهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له: بنجلوس فيمكثون فيه فيعبدون الله حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه ويصنع بهم ما يشاء.

فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقى معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف، فلبثوا فيه.

قال كعب الأحبار: مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارًا، فقال لهم الكلب: ما تريدون منى لا تخشوا جانبى أنا أحب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم.

وقال ابن عباس: هربوا ليلاً من دقيانوس كانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد إلى الكهف وهو قريب من البلد.

قال أبو إسحاق: فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير، والتحميد ابتغاء وجه الله وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له: تمليخا، فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرًا، وكان من أجملهم وأجلدهم وكان إذا دخل المدينة يصنع ثيابًا كانت عليه حسانًا ويأخذ ثيابًا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها.

ثم يأخذ ورقة وينطلق إلى المدينة فيشترى لهم طعامًا وشرابًا ويتحسس لهم الخبر، هل ذكر هو وأصحابه؟ ثم يرجع إلى أصحابه، فلبثوا بذلك ما لبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة فأمر عظماء أهلها فذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشترى لأصحابه طعامهم، فرجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام قليل، وأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذُكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودًا يدعون الله ويتضرعون، ويتعوذون من الفتنة.

ثم إن تمليخا قال لهم: يا إخوتاه ارفعوا رءوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم، فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا وذلك مع غروب الشمس، ثم جلسوا يتحدثون، ويتدارسون، ويذكر بعضهم بعضًا، فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون، ونفقتهم عند رءوسهم، فلما كان من الغد فقدهم دقيانوس، فالتمسهم فلم يجدهم، فقال لبعضهم لقد ساء فى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا أن بى غضبًا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمرى ما كنت لأحمل عليهم إذ هم تابوا وعبدوا آلهتى، فقال عظماء المدينة: ما أنت بحقيق أن ترحم قومًا فجرة مردة عصاة فقد كنت أجلت لهم أجلاً ولو شاءوا لرجعوا فى ذلك الأجل، ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبًا شديدًا، ثم أرسل إلى آبائهم فأتى لهم فسألهم عنهم، وقال: أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى فقالوا له: أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها فى أسواق المدينة، ثم انطلقوا فارتقوا إلى جبل يدعى بنجلوس، فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم، وجعل ما يدرى ما يصنع بالفتية فألقى الله عز وجل فى نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم أراد الله أن يكرمهم ويجعل آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور.

فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقالوا دعوهم فى الكهف يموتون جوعًا وعطشا ويكون كهفهم الذى اختاروا قبرًا لهم، وهو يظن أنهم أيقاظًا يعلمون ما يصنع بهم، وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال، ثم إن رجلين مؤمنين من بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما: بندروس، واسم الآخر: روناس أمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم فى لوحين من رصاص ويجعلوهما فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقالا: لعل الله تعالى يظهر على هؤلاء الفتية قومًا مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عنهم حين يقرأ هنا الكتاب خبرهم، ففعلا وبنيا عليه فبقى دقيانوس ما بقى ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك.

وقال عبيد بن عمر: كان أصحاب الكهف فتيانًا مطوقين مسورين ذوى ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى مرى ومركب، وأخرجوا معهم آلهتهم التى يعبدونها وقد قذف الله فى قلوب الفتية الإيمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد إيمانه فقالوا فى أنفسهم: نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسًا وجده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك، ثم خرج الآخر واجتمعوا فقال بعضهم لبعض: ما جمعكم وكل واحد يكتم إيمانه عن صاحبه مخافة على نفسه، ثم قالوا: ليخرج كل فتيين، فيخلوا، ثم يفشى كل واحد منكم سره إلى صاحبه، ففعلوا فإذا هم جميعًا على الإيمان، وإذا كهف فى الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض: فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم فناموا ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعًا، وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليه آثارهم وكهفهم، وكتبوا أسماءهم وأنسابهم فى لوح: فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم فى شهر كذا من سنة كذا فى هلكة فلان بن فلان، ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا: ليكونن لهذا شأن، ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن.

وقال وهب بن منبه: جاء حوارى عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنمًا لا يدخلها أحد إلا سجد له، فكره أن يدخلها فأتى حمامًا قريبًا فى المدينة وكان يؤاجر نفسه فى الحمام ويعمل فيه، ورأى صاحب الحمام فى حمامه البركة وعلقه فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا وصدقوه وكان شرط على صاحب الحمام أن الليل لا يحول بينى وبينه ولا بين الصلاة أحد، وكان على ذلك حتى أتى ابن الملك بامرأة يدخل بها الحمام فعيره الحوارى وقال: أنت ابن الملك وتدخل مع هذه، فاستحى، فذهب مرة أخرى، فقال له مثل ذلك، فسبه وانتهره ولم يلتفت حتى دخلا معًا فماتا فى الحمام، و أتى الملك قتل صاحب الحمام ابنك فالتمس، ولم يقدر عليه وهرب فقال من كان يصحبه فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم على مثل إيمانهم فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوا وقالوا: نبيت

ههنا الليل ثم نصبح إن شاء الله تعالى فترون رأيكم، فضرب الله على آذانهم فخرج الملك فى أصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف فلما أراد رجل منهم دخوله أرعب فلم يطق أحد أن يدخله، فقال قائل: أليس لو قدرت عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابن عليهم باب الكهف فاتركهم فيه فيموتوا جوعًا، ففعل.

وقال وهب: فعبروا بعدما سد عليهم باب الكهف زمانًا بعد زمان، ثم إن راعيًا أدركه المطر عند الكهف فقال: لو فتحت هذا وأدخلت غنمى من المطر، فلم يزل يعالجه حتى فتح ورد الله أرواحهم من الغد حتى أصبحوا.

وقال محمد بن إسحاق: ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال: تندوسيس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانيًا وستين سنة فتحزب الناس فى ملكه وكانوا أحزابًا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق، ومنهم من يكذب بها، فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع إلى الله حزنًا شديدًا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون: لا حياة إلا الحياة الدنيا، وإنما تبعث الأرواح، ولا تبعث الإجساد فجعل تندوسيس يرسل إلى من يظن فيه خيرًا وإنهم أئمة فى الخلق فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق وملة الحواريين، فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته فأغلقه عليه ولبس مسحًا وجعل تحته رمادًا فجلس عليه فذاب ليله ونهاره زمانًا يتضرع إلى الله تعالى ويبكى ويقول: أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم.

ثم إن الرحمن الرحيم الذى نكره هلكة العباد أراد أن يظهر الناس على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده الصالح تندوسيس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله فى نفسه رجل من أهل ذلك البلد الذى فيه الكهف، وكان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان على فم الكهف فيبنى به حظيرة لغنمه فأستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة بنيان تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى من الناس بالرعب، فلما فتحا باب الكهف أذن الله عز وجل ذو القدرة والسلطان محيى الموتى الفتية أن يجلسوا بين ظهرى الكهف، فجلسوا فرحين سفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما

استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون لها إذ اصبحوا من ليلتهم، ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذى كانوا يفعلون، لا يرى فى وجوههم ولا ألوانهم شىء ينكرونه لهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم دقيانوس فى طلبهم، فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم [. . .][1] ما الذى قال الناس فى شأننا عشى أمس عند هذا الجبار؟ وهم يظنون أنهم رقدوا لبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل إليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض: كم لبثتم نيامًا؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، ثم قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم، وكل ذلك فى أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا، التمستم بالمدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت، أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل، فقال لهم مكشلينا: يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله، ثم قالوا لتمليخا: انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال بها وما الذى يذكر عند دقيانوس وتتطلف ولا يشعرون بك أحد وابتغ لنا طعامًا فأتنا به، وزدناهم على الطعام الذى جئنا به، فقد أصبحنا جياعًا، ففعل تمليخا كما كان ووضع ثيابه، وأخذ الثياب التى يتنكر فيها وأخذ ورقًا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس وكان كجفاف الربع، فانطلق تمليخا خارجًا، فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها، ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيًا يصد عن الطريق تخوفًا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة، فلما أتى تمليخا باب المدينة، رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان إذا كان أمر الإيمان ظاهرًا فيها فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفيًا وينظر يمينًا وشمالاً ثم ترك ذلك الباب فتحول إلى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك يخيل إليه أن المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى ناسًا كثيرًا محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك، فجعل يمشى وتعجب ويخيل إليه حيران ثم رجع إلى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول: يا ليت شعرى ما هذا أما عشية أمس فكان المسلمون يخبئون هذه العلامة ويستخفون بها وأما اليوم فإنها ظاهر لعلى عالم، ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ كساه فجعله على رأسه، ثم دخل المدينة فجعل يمشى بين ظهرى سوقها فيسمع ناسًا

---

(١) غير واضحة فى المخطوط.

يحلفون باسم عيسى ابن مريم، فزاده فرقًا، ورأى أنه حيران فقام مسندًا ظهره إلى جدار من جدر المدينة ويقول: والله ما أدرى ما هذا أما عشية أمس فليس على ظهر إنسان يذكر عيسى ابن مريم الأقل، وأما الغداة فأسمعهم وكل الناس تذكر عيسى ولا تخاف ثم قال فى نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التى أعرف والله أعلم مدينة قرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقى فتى فقال له: ما اسم هذه المدينة يا فتى؟ فقال: اسمها أفسوس، فقال: فى نفسه لعل بى مسًا أو أمرًا ذهب عقلى، والله يحق لى أن نسرع بالخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبنى شر فأهلك، ثم إنه أفاق فقال: والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن، فدنا من الذين يبيعون الطعام، فأخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلاً منهم، وقال: بعنى بهذه الورق طعامًا فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها إلى رجل من أصحابه فنقل إليها ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض: إن هذا أصاب كنزا جنيًا فى الأرض منذ زمان دهر طويل، فلما رآهم تمليخا يتشاورون من أجله فرق فرقًا شديدًا وجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يرون أن يذهبوا به إلى ملك دقيانوس وجعله أناس آخر يأتونه فيتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق منهم: افضوا عنى قد أخذتم ورقى فامسكوها وأما طعامكم فلا حاجة لى به، فقالوا: مم أنت يا فتى، وما شأنك والله قد وجدت كنزًا من كنوز الأولين، وأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرنا وشاركنا فيه نخف عليك ما وجدت فإنك إن لم تفعل نأت بك السلطان فنسلمك إليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال: وقعت فى كل شىء كنت أحذر منه، قالوا: يا فتى والله إنك لا تقدر ولا تستطيع أن تكتم وما وجد، فجعل تمليخا لا يدرى ما يقول لهم وما يرجع إليهم، وفرق حتى ما تحير إليهم شيئًا، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساه فطرحوه فى عنقه ثم جعلوا يقودونه فى سكك المدينة حتى سمع به من فيها فقيل له: أخذ رجل عنده كنز فاجتمع عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون إليه ويقولون: ما هذا الفتى من أهل المدينة وما رأيناه قط، وما نعرفه فجعل تمليخا لا يدرى ما يقول لهم فلما اجتمع عليه أهل المدينة تمامًا فرق وسكت فلم يتكلم وكان مستيقنًا أن أباه وإخوته بالمدينة وإن حسبه من أهل المدينة من عظماء أهلها وإنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينا هو قائم

كالحيـران ينظر متى يأتيه بعض أهله فـيخلصه من أيديهم إذا اختطفـوه وانطلقوا به إلى رئيسى المدينة ومـدبرا رأيها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحـان اسم أحدهما: أريوس، واسم الآخر اسـتطوس، فلما انطلـق به إليهمـا ظن تمليخـا أنه ينطلق به إلى دقيانوس الجبار فـجعل يلتفت يمينًا وشمالاً وجعل الناس يسخـرون منه كما يسخر من المجنون، وجـعل تمليخا يبكى ثم رفع رأسه إلى السـماء فقال: اللهم إله الـسماء وإله الأرض أفرغ علىَّ اليوم صـبراً وأولج معى روحًا منك تؤيدنى عند هذا الجـبار، وجعل يبكى ويقـول فى نفسه فـرق بينى وبين إخوتـى، يا ليتهم يعـلمون ما لقـيت ولو أنهم يعلمون فيـأتونى فنقوم جمعًا بـين يدى هذا الجبار فإن كنا تواثقنا لنكونن مـعًا لا نكفر بالله ولا نشـرك به شيـئًا فـرق بينى وبينهم، فلن يرونـى ولن أراهم أبدًا وكنا تواثقنا لا نتفرق فى حـياة ولا ممات أبدًا يحدث به نـفسه تمليخا فـيما أخبر أصـحابه حين رجع إليهم حتى انتـهى إلى الرجلين الصالحين أريوس واستطيوس، فلمـا رأى تمليخا أنه لم يذهب به إلى دقيـانوس أفاق وسكن عنه البكاء، فأخـذ أريوس واسطيوس الورق فنظرا إليهـا وعجبا منـها ثم قال أحدهمـا: أين الكنز الذى وجدت يا فتى؟ فـقال تمليخـا ما وجدت كـنزًا ولكن هذا ورق آبائى ونقش هذه المدينـة وضربهـا، ولكن ممـا أدرى ما شأنى وما أدرى مـا أقول لكم، فقال أحـدهما: من أنت؟ فقال: تمليخـا أما أنا فكنت أرى أنى من أهل هذه المدينة فسألوا: من أبوك ومن يعرفك فيها؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحـدًا يعرفه ولا أباه، فقـال أحدهما: أنت رجل كذاب لا تـنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غيـر أنه نكض بصره إلى الأرض فقال بعض من حوله: هذا رجل مجنون، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكن يحـمق نفسه عمدًا لكى ينفلت منكم، فقال له أحدهما، ونظر إليه شديدًا: تظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذا الورق وضربها أكثر من ثلاثمائة سنة وإنمـا أنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن نشمط كما ترى وحولك سـراة أهل المدينة وولاة أمرها وخزا هذه البلدة بأيديها وليس عندنا من هذا الضـرب درهم ولا دينار لأنى لا أظن سـآمـر بك فتـعذب عـذابًا شديدًا، ثم أوثقك حتى تعرف هذا الكنز الذى وجدته، فلمـا قال ذلك، قال له تمليخا أنبؤنى عن شى أسألكم عنه فـإن فعلتم صدقتكم عما عندى، قالوا: لا نكتـمك شيئًا، قال: ما فـعل الملك دقيانوس؟ قالوا: ليس نعرف الـيوم على وجه الأرض ملك هلك

منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة، فـقال تمليخا: إنى إذا لحيران وما هو بمصدقى أحـد من الناس بما أقول لقد كنـا فتية وإن الملك أكرهنا عـلى عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فـهربنا منها عـشية أمس فنمنا فلـما انتبهنا خـرجت لأشترى طعـامًا وأتحسس الأخبـار فإذا أنا كما ترون فانطلقوا مـعى إلى الكهف الذى فى جبل بجلوس أريكم أصحابى، فلما سمع اريوس ما يقـول تمليخا قال: يا قوم لعل هذه من آيات الله جعلها الله لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا بنا مـعه يرنا أصحابه، فانطلق معه أريوس واسطيوس، وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم ولما رأى الفتـية أصحاب الكهف تمليخا قد أحبـس عنهم بطعامهم وشرائهم عن القـدر الذى كان يأتى به ظنوا أنه قـد أخذ فـذهب به إلى ملكهم دقيـانوس، فبـينا هم يظنون ذلك يتخوفونه إذ سمعوا الأصوات أرجلة الخيل مصعدة نحوهم فظنوا أنهم رسل الجبار دقـيانوس بعث إليهم ليؤتى بهم فـقاموا إلى الصلاة وسلم بعـضهم على بعض، وأوصى بعضهم، وقالوا: انطلقوا بنا نأت أخانا تـمليخا فإنه الآن بين يدى الجبار ينتظر متـى نأتيه فـبينا هم يقـولون ذلك وهم جلوس بين ظهـرى الكهف لم يروا إلا أريوس وأصحابه وقـوفًا على باب الكهف فسبـقهم تمليخًا فدخل عليـهم وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم وقص عليهم النبأ كله فعرفوا عنه ذلك أنهم كانوا نيـامًا بأمـر الله تعالى ذلك الزمان كله وإنمـا أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصـديقًا للبعث، وليـعلموا أن الساعة آتية لا ريب فـيها ثم دخل على إثر تمليـخا أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختـومًا بخاتم من فضـة فقام بباب الكهف ثم دعـا رجالاً من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد لـوحين من رصاص مكتوب فيها أن مكسلينا، وتمليخـا، ومرطوس، وكشطونش، وبيرونـش، ودينوس، ونيطوس قالوا: كانوا فتـية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار فخافوا أن يفتنهم عن دينهم، فدخلوا هذا الكهف فلا أخبروا بمكانهم أمر بالكهف فـسد عليهم، فلما قرءوه عجبـوا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم آية للبعث فـيهم، رفعوا أصواتهم بحـمد الله وتسبيـحه، ثم دخلوا على الكهف فوجدوهم جلوسًـا بين ظهرانيه مشرقـة وجوههم لم تبل ثيابهم فخـر اريوس وأصحابه سجودًا وحمـدوا الله الذى أراهم آية من آياته ثم كلمهم بعضهم بعضًا وأنبـأهم الضيعة عن الذى لقـوا من ملكهم دقـيانوس ثم إن أريوس وأصـحابه بعـثـوا بريدًا إلى ملكهم

الصالح تندوسيس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك وجعلها آية للعالمين لتكون بهم نورًا وضياء وتصديقًا للبعث فاعمل على فتية بعثهم الله تعالى وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة فلما أتى الملك الخبر قام وجمع إليه عقله وذهب همه فقال: أحمدك الله رب السموات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتنى فلم تطفئ النور الذى كنت جعلته لآبائى والعبد الصالح قسطنطوس الملك فلما بنى أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا مدينة دفوس فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه حتى صعدوا نحو الكهف، فلما رأى الفتية تندوسيس فرحوا به وخروا سجدًا على وجوههم، وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قال الفتية لتندويس، نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله، وحفظك الله، وحفظ ملكك، ونعيذك بالله من شرار الإنس والجن، فبينما الملك قائم عندهم إذا رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم وقام الملك إليهم، وجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى المنام فقالوا: إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب وإلى التراب نصير، فاتركنا كما كنا فى الكهف حتى يبعثنا الله تعالى منه، فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم أو أمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدًا يصلى فيه وجعل لهم عيدًا عظيمًا وأمر أن يؤتى كل سنة.

وقيل: إن تمليخا لما دخل إلى الملك الصالح قال الملك: من أنت؟ قال: أنا رجل من أهل هذه القرية وذكر أنه خرج أمس ومنذ أيام وذكر منزله وأقوامًا لم يعرفهم أحد، وكان الملك سمع أن فتية فقدوا فى الزمان الأول وأن أسماءهم مكتوبة على لوح من الخزانة فدعا باللوح ونظر فى أسمائهم فإذا هو من أولئك القوم وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا: هم أصحابى فلما سمع الملك ذلك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا: دعونى أدخل على أصحابى فأبشرهم فإنهم أن رأوكم معى رعبتموهم فدخل فبشرهم وقبض الله روحهم وأغمى عليهم فلم يهتدوا.

وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أى صاروا، يقال: أوى فلان إلى موضع كذا: اتخذه منزلاً ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ وهو غار جبل بنجلوس، واسم الكهف حرم. انتهى.

والفتية شبان من أشراف الروم هربوا من دقيانوس الجبار فأووا إلى الكهف فى جبل بنجلوس.

﴿فَقَالُوا﴾ عند دخولهم الكهف ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ بلا واسطة كسب منا واستحقاق.

﴿رَحْمَةً﴾ إحسانًا وتعطفًا فوجب لنا المغفرة لذنوبنا والرزق فى الغار والأمن من الأعداء.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ أصل التهيئة إحداث الهيئة والمراد حصل وأوجد لنا.

﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ هذا مفارقة الأوطان مهاجرة الكفار.

﴿رَشَدًا﴾ أمرًا ذا رشد، أو هو إصابته الخير فتكون من تجديدية أو أنشأ من أمرنا هذا رشدًا إصابة الخير فمن ابتدائية.

﴿فَضَرَبْنَا﴾ استجابة لدعائهم.

﴿عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ حذف المفعول لقصد التعميم، أى حجبًا فوق حجب لئلا يسمعوا صوتًا أصلاً فلا ينتبهوا، ففيه كناية تلويحية لأن ضرب الحجب على الآذان يستلزم عدم سماع صوت ما وعدم السماع يستلزم عدم الانتباه وهو المراد وفرقها عن المجاز بجواز إرادة المعنى الحقيقى والحاصل أنمناهم إنامة ثقيلة.

﴿فِي الْكَهْفِ﴾ ظرف مكان ﴿سِنِينَ﴾ ظرف زمان ﴿عَدَدًا﴾ ذات عدد يحتمل القلة بالنظر بإلى المتكلم تعالى فإن الكثير بالنسبة إلى قدرته قليل.

ويحتمل الكثرة بالنسبة إلى المخاطبين وهم كثيرون.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ علمنا تعلقًا حاليًا منوطًا للثواب والعقاب بعد تعلقه أزليًا استقباليًا.

﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ منهم أو فى المختلفين فيهم.

﴿أَحْصَىٰ﴾ أفعل أى أضبط.

﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ حال من ﴿أَمَدًا﴾ وما مصدرية حينية أى أيهم أضبط غاية كائنة لزمان لبثهم وكون أحصى أفعل تفضيل لا تخلو عن تكلف كما هو مبسوط فى الكشاف وحواشيه وهذا إجمال شرع فى التفصيل قائلاً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ ملتبسًا بالصدق.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شبان وهم أقبل للحق وأهدى إلى السبيل من الشيوخ، ألا ترى أن عامة من أسلم من قريش شبانهم وما أسلم من الشيوخ إلا قليل.

﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الذى خلقهم ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ على ما قال فى الحديث القدسى: (من أتانى شبرًا أتيته ذراعًا) الحديث ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ صيرناهم وأثبتناهم، والربط على القلب كناية عن الصبر، وكلمة على لبيان محل الربط مثل قول الشاعر:

*** يخرج فى عراقبها نصلى ***

يروى أن بعد رفع المسيح عليه السلام بمائتين وثمان عشرة سنة ظهر فى الروم وفى بلادها النصرانية ودخل من كل بلدة أناس كثيرون فى دين المسيح على الحق، وكانوا يكسبون طول نهارهم، وفى المساء يقسمون بينهم على السوية، وتبع ملك من الروم اسمه دقيانوس وكان هو أكثر مملكته وأرباب دولته صابئين يعبدون هياكل الكواكب، وكان له ستة وزراء: ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن شماله يستشيرهم فى كل أمر، أسماؤهم: تمليخا ومكشلينيا، ومشلينا أصحاب اليمين، ومرنوش ودبرتوش وشاذنوش أصحاب اليسار وكانوا على دين المسيح وكان هؤلاء الوزراء يخفون إيمانهم وكانوا من أشراف الروم ولهم آباء وإخوان وعشائر كلهم كفار وكان هؤلاء الوزراء شبانًا، وكانوا يعينون الضعفاء من أهل الإيمان فاتفق أن دقيانوس اشتد وغضب على أهل الإيمان وطفق يقتلهم ويفتنهم عن دينهم وكانوا يعينون المؤمنين، فدخل دقيانوس بلدهم اقنسوس المسمى فى الإسلام بطرسى، فجعل دقيانوس يفتش المسلمين ويقتلهم فحصل للفتية الصالحين غيرة دينينة وطينية لأن طرسوس كان مسقط رأسهم فانفصلوا، واعتزلوا دقيانوس وقومهم ودخلوا فى بيت يدعون الله تعالى فدخل رسول الملك فوجدهم سجدًا إلى القبلة فرفع الفتية الظلم عن المؤمنين، فمكثوا أيامًا وتفقدهم دقيانوس فأرسل إليهم يدعوهم، فدخل رسول الملك فوجدهم سجدًا إلى القبلة يتضرعون، فرجع إلى دقيانوس فقال: إنك تقتل الناس ووزراؤك مؤمنون فأحضرهم كرهًا فقال: من ربكم؟ وما تعبدون؟ وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدى الجبار.

﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ قولاً ذا شطط أى بعد عن الحق.

ثم أحضر الجبار آباءهم وأقاربهم فقال: ما تعبدون؟ قالوا: نعبد إلهك، وهؤلاء الفتية مردة عصاة، فقال الجبار للفتية: هؤلاء قومكم يعبدون آلهتى فلم تركتموها؟ فقال الفتية:

﴿هَؤُلاءِ﴾ مبتدأ.

﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ صيروا معبودهم ﴿آلِهَةً﴾.

﴿لَّوْلا﴾ حرف تحضيض تكون فى المضارع أعنى.

﴿يَأْتُونَ﴾ يعنى الأمر أى فليأتوا.

﴿عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة ظاهرة من عند الله تعالى تدل على ألوهيتها.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى لا ظلم من قومنا لأنهم افتروا على الله الشريك ولا منا أن قلدناهم، لأنه لا يجوز التقليد فى أصول الدين.

ثم أمر اللعين بنزع ثيابهم النفيسة وقال إنى أقتلكم لولا شبابكم وقرب نسبكم منى نسبكم العالى وإنى أمهلكم كذا يومًا وإنى أذهب إلى بلاد فلان فانظروا إلى أمركم فإذا رجعت قتلتكم شر قتلة إن لم تكفروا ولم تعودوا فى دين آبائكم، فذهب اللعين، فبعد أيام اجتمعت الفتية وشاوروا وقالوا:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أى قومهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ وما موصولة الذى يعبدونه ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾ يقول بعضهم لبعض، وقيل: نافية شهادة من الله للفتية بأنهم كانوا يعبدون الله، فالجملة اعتراضية.

﴿فَأْوُوا﴾ جزاء لإذ الشرطية ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ المعلوم عندهم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ بعض رحمته كما دعوا فيما قبل للمغفرة والرزق والأمن من الأعداء.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ مفارقة الكفار ﴿مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفعون ويتصفون به، جزموا بذلك لقوة يقينهم ونصوح إيمانهم وكمال توكلهم، فخرجوا فى بعض الليالى إلى الغار المعهود عندهم حاملين ثمن نفقتهم معهم فمروا على راع اسمه كسطيطوس فتبعهم بعد رد الغنم على أهاليها، وتبعهم كلب الراعى اسمه قطمير فطردوه فكلمهم فقال: أنا أحب أحباء الله ناموا أحرسكم فحملهم عنهم، فدخلوا الكهف فعبدوا الله فيه ليالى وأيامًا وكل يوم يجىء تمليخا البلدة ويأخذ نفقتهم ويتجسس الأخبار فيجىء إليهم فيخبرهم، ففى يوم جاء تمليخا باكيًا سألوا عن سبب بكائه فقال: إن الجبار قد جاء البلدة واستفسر

عنكم وأخبر بكم وبمكانكم فالله أعلم بعد ذلك، فبكوا كثيراً واستوصوا بأنفسهم خيراً منهم فى ذلك ضرب الله على آذانهم فناموا، ونام كلبهم نومة ليس وراءها نوم ففى الغد أحضر دقيانوس آباءهم فقالوا هربوا إلى الغار فى جبل بنجلوس، فأرسل إليهم فلما جاءوا إلى الغار ألقى الله عليهم الرعب فلم يقدروا على الدخول، فجاءوا إلى دقيانوس، فأخبروه برعبهم، فقال من عنده اردموا على الباب حتى يكون الكهف قبورهم، فأرسل البناء هو يعمل على بابه سدّاً ولا يقدرون الدخول عليهم للرعب.

ثم إنه كان فيهم نوم كتب صفحة من النحاس أسماءهم وأحوالهم ثم وضعها فى البنيان ليقف على أحوالهم من يجىء بعدهم ثم مضى زمان هلك فيه دقيانوس وقومه، وثم إلى ما شاء الله ثم إن الله تعالى يصف غارهم ويقول:

﴿وَتَرَى﴾ يا محمد ﷺ أو يا كل أحد.

﴿الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ بحذف تاء الافتعال أى تميل من الزور أى الميل محركة كلتاهما.

﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أى إلى جهة ذات اسم اليمين

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أى تنقطع عنهم، وعدم ذكر الكيف هنا يدل على مخالفة الطلوع بأن يكون القرض بفعل الله تعالى على خرق العادة.

﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أى إلى جهة ذات اسم الشمال.

﴿وَهُمْ﴾ أى الفتية ﴿فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ فى مكان متسع فى الكهف، وقيل: باب كهفهم إلى بنات النعش ووقع الكهف جنوبًا فعند الطلوع يقع شعاع الشمس على يمين الباب للداخل، وإذا غربت يقع على شماله فتخلل الرطوبات وتدفع عفونة الهواء، ولا تقع عليهم.

﴿ذَلِكَ﴾ أى قرض الشمس على خرق العادة كما مر، أو نومهم مدة طويلة أو إخبار النبى الأمى عنهم أو إيواؤهم إلى كهف كذلك ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الخارقة للعادة الدالة على كمال قدرته.

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ يخلق فيه الاهتداء ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ مدح لهم بالاهتداء هو الحق لأنه جاء على وجه كلى يدخلون فيهم أول داخل، أو تنبيه على أن أمثال ذلك كثيرة لكن لا ينتفع بها إلا من هدى.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يخلق الضلال ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ﴾ البتة ﴿وَلِيًّا﴾ يمنعه عن الضلال.

﴿مُّرْشِدًا﴾ يهديه، والمقابلة تدل على أنهم لكونهم مهتدين لهم ولى مرشد هو الله تعالى ثم شرع فى حال وصفهم عند النوم.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ يا أيها الرائى ﴿أَيْقَاظًا﴾ لانفتاح عيونهم وكثرة تقلبهم، جمع أيقظ بالكسر كانكار ونكر ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ جمع راقد نائم كركوع وسجود جمعى الراكع والساجد ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فى اليوم على ما دل عليه الاستمرار التجددى من المضارع.

وقيل: [. . .](١).

وقيل: مرة يوم عاشوراء، وقيل: فى سبع سنين مرة.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ عمل اسم الفاعل الماضى لحكاية الحال الماضية.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾ فناء الكهف هو الصحيح، لأن الملك لا يدخل مدخل الكلب فيكون خارجًا، وقيل: بابه أو عتبته فيكون مجازًا فى مكانه.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن رأيتهم ﴿لَوَلَّيْتَ﴾ أعرضت.

﴿مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ علة أو حال أو فررت فرارًا.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ خوفًا لجعل الله تعالى عليهم هيبة من عنده لحفظهم عن تطرف الناس ثم ملك الروم بعد زمان طويل رجل مؤمن اسمه تندويس ودخل الروم كلهم فى دين المسيح محقين ومبطلين.

ثم ما مضى ثمانى وستين من ملكه حتى وقع فى الناس اختلاف عظيم فى أمر المعاد بعضهم يقول: المعاد روحانى لا تحشر الأجساد كقول الفلاسفة، وبعضهم يقول: تحشر الأجساد والأرواح، فدخل تندويس بيتًا وبسط تحت الرماد ولبس المسح وتضرع إلى الله أيامًا ليريهم ما يرفع الاختلاف ففى تلك الأيام ألقى الله تعالى فى قلب رجل اسمه أولياس يهدم روم الكهف ليجعله حظيرة لغنمه فأخذ غلامين له ونقضا الحجارة فوجد فيها اللوح الرقيم ثم بعد الهدم لم يقدروا الدخول عليهم للرعب من جهة الله تعالى فأتى باللوح إلى الملك، ثم بعد ذلك بعث الله الفتية على ما قال:

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أى أغناهم.

---

(١) غير واضحة فى المخطوط.

﴿ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أيقظناهم ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ فيتعرفوا أحوالهم ويستبصروا قدرة الله وإلا فالتساؤل والتنازع فى نفسه غير مطلوب.

﴿ قَالَ ﴾ بيان للتساؤل ﴿ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ بعدما قاموا ضحى وقد ناموا فى نصف الليل ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا ﴾ أى بعضهم وهو الثلاثة أو كلهم.

﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وهذا قول الظان فإنه يقول كذا أو كذا ولا يقطع.

﴿ قَالُوا ﴾ أى الثلاثة الباقية أو كلهم بعدما رأوا طول أظفارهم وأشعارهم ولم يهتدوا إلى تعيين المدة بعد إحصائهم ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ فاتركوا النزاع لأنه لا ينفع وخذوا بالأهم وهو تحصيل الرزق لأن الجوع سلط عليهم.

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾ هى الفضة مضروبة أو لا والمراد المضروبة للعامة.

﴿ هَـٰذِهِ ﴾ للإشارة إلى الحاضر فعلم أنهم حملوا ثمن الزاد ولا ينافى التوكل لأن التوكل هو تفويض الأمر إلى الله تعالى بعد مباشرة الأسباب وترك الأسباب منهى، وإلقاء للنفس إلى التهلكة كما قال العلماء فى سفر الحج شرط هذا السفر شد الهميان والتوكل على الرحمان، ويدل عليه قوله تعالى فى أحد وجوهه: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾.

﴿ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ طرطوس ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا ﴾ أى أهلها على حذف المضاف أو الاستخدام.

﴿ أَزْكَىٰ ﴾ من الزكاة بمعنى النماء أى أكثر بركه دينية أو دنيوية بأن لا يكون معضوبًا ولا مذبوح الصابئين ويكون أرخص وألذ ﴿ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ ﴾ هو ما ينتفع به الحيوان.

﴿ مِّنْهُ ﴾ أى من بعض الطعام الأزكى.

﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ وليستعمل الدقة والرفق فى المعاملة حتى لا يغبن دينًا أو دنيا أو فى التخفى حتى لا يعرف.

﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ تأسيس على الأول تأكيد على الثانى أى لا تجعلن أحدًا يشعر بكم بقول أو فعل.

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى أهل المدينة ﴿ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ من الظهور بمعنى العلم والاطلاع أو الغلبة أى إن يعلوكم أو يظفروا بكم.

﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم بالحجارة وكان معتادًا عندهم.

﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ ﴾ أى يصيروكم لأن الفتية لم يزالوا مؤمنين ويجوز أن يكونوا أولاً فى دين الصابئين ثم يؤمنون فالإعادة على حقيقتها.

﴿ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ مستقرين لأن الإكراه لاينال الإيمان إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، ولكن بالاعتبار يشرح الصدور للكفر فلذا قالوا من دون إلى: ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا ﴾ جواب عن سؤال ماذا يكون بعد العود وجزاء لأن تعودوا مقدرًا.

﴿ أَبَدًا ﴾ فأخذ تمليخا الدرهم وذهب إلى البلدة فلما خرج إلى الباب رأى الحجارة المهدومه وعلامة البناء فتعجب وقال ما كان أمس هذه، ثم راح البلد فلما وصل باب المدينة رأى عليه علامة المؤمنين بأن نقش لا إله إلا الله عيسى رسول الله، فتعجب وقال: واعجبًا من تكلم بالأمس هذه قتل، فاليوم ظاهرة، ثم قال: لعلى أخطأت البلدة فذهب إلى باب رأى كذلك علامة الإيمان فسأل رجلاً عن اسم البلدة فقال: طرسوس، فرجع إلى باب الأول الذى اعتاده فدخل منه فرأى أناسًا يذكرون الله والمسيح بالتعظيم فاستند إلى الجدار فقال فى نفسه: ما هذه الحال كان لا يدرك من أحد يسبح بالتعظيم إلا قتل لعلى أنى حالم أى نائم، ثم يرى رؤيا، ثم نظر إلى نفسه فوجدها يقظان ثم قال: لعل بى جنوبًا، ثم لف ثوبه على رأسه فراح إلى حانوت خباز كان يعرفه فأخرج درهمه فأعطاه وسأله الخبز فنظر الخباز إلى الدرهم الدقيانوسى، ثم طرحه إلى حانوت آخر فنظر صاحبه ثم، ثم قالوا له: أيها الفتى إذا وجدت شيئًا أشركنا فيه، قال: ما وجدت شيئًا، وهذا الدرهم درهم أبى، ثم قالوا: إنه يجنن نفسه ليأكل وحده، ثم أخذوه وذهبوا به إلى وزير الملك أريوس، فتفكر فى الطريق وبكى وقال: يذهبون بى إلى الجبار دقيانوس فليت أصحابى كانوا معى فنقتل معًا كان يلتفت يمينًا وشمالاً يطلب أباه وإخونه حتى ذهبوا به إلى أريوس الوزير وأعطوه الدرهم فقال: أيها الفتى وجدت كنزًا جاهليّا خمسه لبيت المال، وأربعة أخماسه لك أعطنا، قال: أيها الوزير هذا الدرهم درهم أبى اسمه كذا فى محلة كذا فسأل الوزير عنه الناس، قالوا: ليس من هذا الزمان فى المحلة التى ذكر اسمه كذا، ثم دخل الوزير على الملك سدوس فأخبره فذهبوا بالفتى إليه، ثم سأله عن الكنز وأخبره خبره قال: أيها الفتى أنت رجل شاب ونحن شيوخ وما سمعنا بهذه البلدة الأسماء التى تذكر، اصدقنى، قال:

أيها الملك أخبرنى عن دقيانوس ما فعل؟ قال: سبحان الله مات ذلك اللعين منذ مدة طويلة، قال تمليخا: والله يا ملك إنى حيران نحن سبعة فتية هربنا من دقيانوس لأجل المدين إلى الكهف فى جبل بنجلوس وأنا أمس جئت إلى البلدة لتجسس الأخبار ووجدت الملك قد جاء هنا فى بلد آخر فخرجت مسرعًا إلى إخوتى فأخبرتهم عن مجىء اللعين وتفقدهم إيانا للقتل فنمنا الليلة، ثم خرجت اليوم إلى البلدة لأجل النفقة ولتجسس الأخبار فوجدت الحال كذلك وسائر أصحابى فى الكهف ينتظروننى، فتعجب الناس، فقال الملك: قد جاء أولياس بلوح فيه أسماؤهم إيتونى باللوح، فأتوه به يسأله عن أسمائهم وأسماء آبائهم وينظر فى اللوح فوجده مطابقًا ثم قبل الملك يديه وركب وركب الناس معه فأتوا إلى الكهف فقال تمليخا: قفوا أدخل على أصحابى لئلا يخافوا ظنًا منهم بمجىء أعوان دقيانوس، فدخل باكيًا فقال أصحابه: ما يبكيك أعلم الظالم دقيانوس مكاننا؟ قال: إن دقيانوس قد هلك من زمان طويل ثم أخبر بقية القصة فدخل تندويس مع أركان دولته عليهم وقبل أيديهم، وأرجلهم وكلمهم ساعة، ثم ألهمهم الله تعالى على قلوبهم فقالوا لتندويس نستودعك من شر الجن والإنس ثم اصطجعوا فى مواضعهم أولاً فتوفاهم الله، ثم إن الملك تولى دفنهم وجعل لكل واحد تابوتًا من ذهب ودفنهم، فقالوا للملك فى منامه: خلقنا من تراب ردونا إليه فجعل لهم تابوتًا من ساج، ثم دفنهم، ثم تنازع الناس هل ماتوا أو ناموا كالأول، وتنازعوا فى أحسابهم وأنسابهم وسائر أحوالهم، وكذا تنازعوا فى بناء البنينان عليهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أى كما أنمناهم وبعثناهم.

﴿أَعْثَرْنَا﴾ من عثر به أى علم كما فى الصحاح أى أعثرنا الناس أى أطلقناهم.

﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بحشر الأجساد، والوعد بمعنى الموعود.

﴿حَقٌّ﴾ لا محالة ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ أى القيامه أى قيام الأجسام دفعة واحدة فإن الساعة من أسمائها آتية ﴿لا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن من قدر على حفظ أجسامهم مدة متطاولة وهم نائمون، ثم على بعثهم قادر على إحياء الموتى وحشر أجسادهم بعد البلى ضرورة [. . . . .][1].

﴿إِذْ﴾ ظرف لأعثرنا ﴿يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أمر دينهم فى حشر الأجساد والبعث

---

(١) غير واضحة فى المخطوط.

فعلموا صحة حشر الأجساد أو أمر الفتية به الموت أناموا أم ماتوا وكيف أحسابهم وأنسابهم وسائر أحوالهم، أو فى أمر البناء عليهم.

﴿فَقَالُوا﴾ الفاء فصيحة على الأول أى عرفوا صحة الحشر تنبهوا عليها فتوفاهم الله بعد أن حصل المنى.

﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وعلى المعانى الأخيرة تعقيبية أى فروا عن وصول التحقيق فقالوا ابنوا عليهم بنيانًا ربهم أعلم بهم انتقالاً من النزاع الذى لا حاصل لهم إلى همّ البناء عليهم لئلا يتطرف الناس عليهم، فقول بنيانًا أى مسكنًا يسكن الناس ويتخذونه قربة.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ وهو أمر دينهم حشر الأجساد أو أمر الفتية وهم المؤمنون من الملك وسائر البلد.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ كما هو عادة النصارى فى بناء المساجد على قبور الأنبياء والأولياء، لكن يكره فى ديننا لقوله ﷺ: «لعن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ثم أخبر نبيه وهو بمكة عن النزاع الذى سيقع بالمدينة فإنه لما جاء وفد نجران فى السنة التاسعة من الهجرة كما مر فى مجالس عيسى عليه السلام فكلموا فى أمر أصحاب الكهف فكلمهم فى أمر عيسى عليه السلام فقالوا السيد وأتباعه: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب: هم خمسة سادسهم كلبهم، والأول قول اليهود والثانى قول النصارى، وقال المؤمنون: هم سبعة وثامنهم كلبهم، فأخبر الله نبيه عن هذا الاختلاف قبل وقوعه من عشر سنين بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ فيما يستقبل ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أى هم ثلاثة.

﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ صفة ثلاثة.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ صفة.

﴿رَجْمًا﴾ رميًا وإتيانًا ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أى يأتون بالقول الغائب عنهم معناه لأنهم لا يعلمون ذلك فكلا القولين باطل بشهادة الله تعالى والباء فى بالغيب متعلق بالإتيان المتضمن.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أى المؤمنون ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أيضًا والواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف تشبيهًا لها بالحال كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ

مَّعْلُومٌ﴾ فى سورة الحجر، فإن الجملة بعد إلا صفة، ويفيد حقية ذلك القول بيانه بعد قوله رجمًا بالغيب، حيث أدخل فى سلكها ويفيدها أيضًا زيادة الواو، لأنها تدل على زيادة طمأنينة نفس المتكلم ولا يكون ذلك إلا باليقين، ويفيد أيضًا حقية اتباعه بقوله: ﴿قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فيعلم بنية وقد سمعه المؤمنون منه، وكذا قوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أى بتعليمه فلما حصر العلم فى القليل بعد إبطال قولهم فيما سبق بقوله رجمًا بالغيب علم أن المؤمنين المستندين إلى نية يأخذون منه وليس هذا إلا ما سبق آخرًا فهو حق.

﴿فَلا تُمَارِ﴾ أى إذا عرفت أنك تعلم وهم لا يعلمون فلا تجادل أهل الكتاب.

﴿فِيهِمْ﴾ فى أصحاب الكهف ﴿إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ وهو أن تقرأ بما أوحى إليك من قوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولا تزيد عليه فإنه يكفى فى تجهيلهم وتمزيق عرضهم ولا تضم شيئًا آخر من عندك ﴿وَلا تَسْتَفْتِ﴾ لا تسأل عن سؤال مسترشد فإنهم جاهلون ولا متعنت فإنه يحمل بحسن الخلق.

﴿فِيهِم﴾ فى أمر أصحاب الكهف ﴿مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب.

﴿أَحَدًا﴾ أبدًا، فالمنهى من الجدال غير ظاهر وهو ما ورد فى القرآن لا مطلقًا.

﴿وَلا تَقُولَنَّ﴾ كما قلت إذا سئلت عن أصحاب الكهف وغيرها.

﴿لِشَيْءٍ﴾ لأجل شىء تعزم عليه ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾: أى فيما يستقبل من الزمان، وتخصيص الغد لوقوعه فى كلام النبى ﷺ، أى لا تقل ذلك فى حال من الأحوال.

﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أى إلا ملتبسًا بذكر أن يشاء الله أى المشيئة قائلاً إن شاء الله وهذا المعنى هو الصحيح وغيره من المعانى فيه تكلف وميل إلى الاعتزال، فأدب نبيه فى ترك إن شاء بلبث الوحى وحبسه وقولاً بهذا النهى وفى كلمة إن شاء الله بعد الإخبارات فائدتان: تفويض الأمر إليه تعالى أى إنى فاعل فيما يستقبل أن تعلقت مشيئة الله به خلفًا ولا أستقل أنا، ففيه رد لمذهب الاعتزال وتغير الحكم فى الحزم والبت إلى التردد لأنه لا يعلم مشيئة الله، فإذا ذكره موصولاً لا يحصل الفائدتان حتى إذا قال: عبدى حر إن شاء الله، لا يعتق لا ريب فيه ويحصل التفويض، وإن ذكر مفصولاً ولو

فى المجلس يحصل التفويض فقط فيخرج عن إثم دعوى الحول والقوة، ولا يحصل التغيير حتى إذا فصله فى الإعتاق وكذا غيره من الأحكام.

وما نقل عن ابن عباس موقوفًا ومرفوعًا فى قول: ولو بعد سنة معناه حصول التفويض لا التغيير وذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ أى مشيئته، فالمضاف محذوف.

﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ أى مشيئته فالمفعول محذوف لدلالة الكلام السابق عليه ليحصل تدارك ما فات من التفويض على ما علمت، وليس المراد تغيير الحكم لأن ذلك لا يكون إلا متصلاً وإلا لا يبقى فى العالم عقد من العقود أصلاً، ولأن الناكح أو المنكوحة بعد زمان إن شاء الله، فيصل العقد وكذا غيره وفيه ضرر للناس ليس فوقه ضرر فيؤول بما ذكرنا.

كذا روى عن أبى حنيفة رحمه الله.

لما عاد منصور الخليفة ليعاتبه فى مخالفته جده أبى عباس فى مسألة الاستثناء فأجاب... إن عدم بقاء العقود حتى بيعة الخلفاء فاستحسنه منصور.

وقيل: واذكر أسماء أعقاب ربك.

﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ شيئًا من أوامره ومن جملتها الاستثناء أى تركتم حتى نتدارك ما فات.

وقيل: اذكر أسماء من أسماء ربك إذا اعتراك النسيان فهو دواؤه.

﴿وَقُلْ﴾ أى وقت نسيانك أمرًا من الوحى ﴿عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ﴾ إلى أقرب من هذا المنسى ﴿رَشَدًا﴾ أى نفعًا وخيرًا فهو كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

أو قل لسائلك بعد جوابك فى قصة أصحاب الكهف: لا تعظموا جوابى من هذه القصة لأنه عسى ربى أى أرجوه أن يهدينى لأقرب من هذا الإنباء رشدًا، وقد هداه إلى نبأ الأولين والآخرين.

﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ بالتنوين ﴿سِنِينَ﴾ عطف بيان، وقيل: بدل لأنه تمييز المائة مفرد مجرور.

وقرأ حمزة والكسائى بالإضافة بناء على وضع الجمع موضع المفرد لأن المفرد فى

مميز المائة أصل فى الاستعمال والجمع أصل فى القياس المرفوض لأنها جمع كالثلاثة والأربعة.

ذكره الرضى نقلاً عن ابن الحاجب.

﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وكان عند أهل الكتاب ثلاثمائة فقط لكن شمسية، ففى هذه المدة تزيد تسع سنين قمرية فى نفس الأمر لأنهم قالوا بتلك الزيادة وهنذا مما سنح من الله لى ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أى بمدة لبثهم وقد أخبرنى بهذا فهذا زمان لبثهم.

﴿لَهُ غَيْبُ﴾ فيه أمران تقديم الخبر ولام الاختصاص أى مختص به علم غيب ﴿السَّمَوَاتِ﴾ فالمضاف محذوف.

﴿وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ﴾ فعل تعجب أصله أبصر على المعنى أى صار ذا بصر ثم غير إلى صيغة الأمر فبرز الضمير لعدم سباق الصيغة به فزيدت الباء عليه وهذا عند سيبويه وعند الأخفش أمر لكل أحد أن يجعله بصيراً أى يصف بالإبصار والباء زائدة أيضًا لكن عند سيبويه على المرفوع، وعند الأخفش على المنصوب.

ومعنى التعجب على الله المتكلم بهذا محال لأنه هيئة انفصالية تحصل عند إدراك أمر غريب، فالمراد تعظيم علمه بأنه خارج عن حد سائر العلوم لأنه ذاتى وغيره عرضى وهو قديم، وغيره حادث، ولا اختصاص بالقريب والبعيد واللطف والكشف بخلاف غيره.

﴿وَأَسْمِعْ مَا لَهُم﴾ لأهل السموات والأرض.

﴿مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ناصر ومعين.

﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ فى قضائه ﴿أَحَدًا﴾ لأنه فرد فى ذاته وصفاته وأفعاله، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيراً.

روى عن على ﷺ أنهم سبعة نفر أسماؤهم: تمليخا ومكشليينا ومسلينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش، ودمونوش، وشادنوش وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره، والسابع الراعى، وافقهم واسمه كفشطيطوش، واسم مدينتهم أقسوس، واسم كلبهم قطمير.

وقيل: ريان.

وعن ابن عباس ﷺ قال: أسماء أصحاب الكهف تصلح للطلب والهرب وإطفاء

الحريق تكتب فى خرقـة ويرمى بها فى وسط النار، ولبكاء الطفل تكتب وتوضع تحت رأسه فى المهد، وللحرث يكـتب على القرطاس ويرفع على خشب منصوب فى وسط الزرع، وللضـربان والحـمى المـثلـثـة، والصـداع، والغنى، والجـاه والدخـول على السلاطين، يشد على الفخذ اليمنى، ولعســر الولادة تشد على فخذها اليسرى، ولحفظ المال والركوب فى البحر والنجاة من القتل.

وبلفظه نقله سعـد الدين الرومى من حاشية البـيضاوى لكن قوله فى شـد الأسماء على الفخذ سوء أدب، فالأولى أن يشد على العضد الأيمن والأيسر.

مجلس في:

بيان قصة أصحاب الأخدود

في إحدى عشرة آية في سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أهلك أصحاب الأخدود، الرحمن الذى نبهنا بحديث الجنود، الرحيم الذى هو الغفور الودود، أما بعد، فهذا مجلس فى بيان قصة أصحاب الأخدود فى إحدى عشرة آية فى سورة البروج[1]: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أقسم الله بالسماء والبروج تعظيمًا لها لأنها مناط مصالح العالم لأنه ينعت سير الشمس فيها تحصل الفصول الأربعة وتنتظم مصالح الحيوانات ويعيش الإنسان ويتكون النبات، والمقصود من القسم هو التعظيم والإشعار بما أودع الله فيها من المنافع.

وتعظيم الله لبعض مخلوقاته بالقسم يجوز بنص الكتاب وإنه فعال لما يريد ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

وأما تعظيم العباد بالقسم لمخلوقات الله تعالى لا يجوز بل يحرم.

قال فى الفتاوى: من حلف بغير الله كالنبى ﷺ والولى، أو مكة، أو العرش، أو الكرسى وغيرها فإن اعتقد أنها يمين يجب برها كالحلف بالله يكفر وإن لم يعتقد كذلك بل جرى على لسانه على طريقة الغفلة لا يكفر بل يحرم.

قال فى منية الفقهاء: والجاهل الذى يقول برأس الأمير وحياته لم يتحقق إيمانه بعد.

---

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (البروج: ١ - ١١).

والمراد بالسماء هنا الفلك التاسع الذى يقال له: فلك الأفلاك، لأنه محرك الكل، والفلك الأطلس لأنه خال عن الكواكب ويقال له بلسان الشرع العرش العظيم، لأن البروج عليها وأن تحيلها فى الثوابت التى على الفلك الثامن يقال له: فلك الثوابت، وفلك البروج لأن الكواكب الثانية التى تخيلت من بعضها البروج عليه.

ويقال له بلسان الشرع الكرسى لكن لو فرض البروج على فلك الثوابت تبدلت أوضاع البروج، لأن فلك الثوابت متحركة يحركها الخاصة، فى كل سبعين سنة تقريبًا درجة، ففرضت البروج على الفلك التاسع المتحرك بالحركة اليومية السريعة التى هى أسرع الحركات لئلا تكون متحركة بغير الحركة اليومية ولا يختل أوضاعها.

والبروج هى البروج الاثنى عشر: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدى، الدلو، الحوت.

وتتحرك الشمس وسائر السيارات فى محاذاتها حتى لو أخرجت خطوط فى مركز العالم مارة بمراكز الشمس والسيارات قاطعت للعالم تقع أطرافها على تلك البروج، أو قريبًا منها، فهى مشبهة بالقصور على السور التى تنزلها سور المدينة فالاستعارة مصرحة لكن لشيوعها التحقت بالحقائق أو المراد بالبروج منازل الثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها والشمس تكون فى كل منزل ثلاثة عشر يومًا تقريبًا وهى أقسام البروج كل برج منزلان وثلث منزل.

والمراد بالبروج عظام الكواكب وهى ستون كوكبًا خمسة عشر فى القدر الأول، وخمسة وأربعون من القدر الثانى والثالث.

والمراد بالبروج أبواب السماء التى تنزل منها النوازل وتركيب البروج للظهور فالمذكورات ظاهرة بعضها بالإبصار كعظام الكواكب وبعضها بالآثار كالبروج والمنازل.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أى ما يخرج فى اليوم الموعود من الخلائق وما يشاهد فيه من العجائب، والتنكير إما للتعظيم أى مشاهد ومشهود لا يكتنه كنهه، وإما للمبالغة فى الكثرة كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ ولقوله تعالى: ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ وهذا التفسير هو اللائق بفصاحة القرآن وإيجازه وجامع لجميع

ما يقال فيه وهو عشرة أقوال، الشاهد والمشهود إما الله أو الخلائق أو العكس، لأنه تعالى مطلع عليها وحافظ ودالة على وجوده.

أو النبى وأمته، أو الأنبياء وأممهم، أو أمته وأممهم، أو الملك الحافظ والمكلف، أو الجمعة والمجتمع أو يوم عرفة والحجيج، أو يوم النحر والحجيج، أو كل يوم الخلائق، لأن كل يوم ينادى: أنا اليوم الجديد فاغتنمونى فإذا غابت الشمس لا أعود أبدًا.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ قيل: هو جواب المقسم بحذف اللام، والصحيح أن الجواب محذوف وهو أنهم أى قريش ملعونون كما قتل أى لعن أصحاب الأخدود والأخدود بمعنى الخد، وهو الشق مستطيلاً وكان سبب ذلك ما ورد فى الحديث الصحيح وهو هذا عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت فابعث إلىَّ غلامًا لأعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، وكان فى طريقه إذا سلك إليه راهب فقعد إليه، وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه، فإذا رجع عند الساحر قعد إلى الراهب فيسمع كلامه، فإذا أتى أهله ضربوه فشكى إلى الراهب فقال: إذا جئت الساحر فقل: حبسنى أهلى، وإذا جئت أهلك فقل حبسنى الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر، فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس، فرماها فقتلها فمضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أى بنى أنت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك لتبتلى، فإن ابتليت فلا تدل على فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس الملك وقد كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى قال: إنى لا أشفى وإنما يشفى الله فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس: فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربى، قال: ولك رب غيرى؟ قال: ربى وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجىء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فأتى بالمنشار فى مفرق رأسه فشق به حتى وقع شقاه، ثم جىء،

بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، قال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاجعلوه فى قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، قال: فذهبوا به فقال: اللهم اكفهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك بك؟ فقال كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك، فقال: وما هو؟ قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، وتصلبنى على جذع ثم تأخذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس وقل بسم الله رب الغلام ثم ارمنى فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى، فجمع الناس فى صعيد واحد، وصلبه على جذع وأخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم فى كبد قوسه ثم قال: بسم الله رب الغلام ثم رماه فوضع السهم فى صدغه فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام ثلاثًا، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخذوا ضربها من النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له اقتحم قال: ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبى لها فتقاعست أن تقع فقال لها الغلام: يا أماه اصبرى فإنك على الحق».

هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة.

واسم الغلام عبد الله بن التامر.

قال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر أن حربه احتقر فى زمن عمر بن الخطاب ﷺ فوجدوا عبد الله بن التامر واضعًا يده على ضربة فى رأسه إذا بسطت يده عنها انبعث دمًا وإذا تركت ارتدت مكانها وفى يده خاتم من حديد مكتوب فيه: ربى الله، فبلغ ذلك عمر فكتب أن أعيدوا عليه الذى وجدتم عليه.

وعن عبد الله بن جبير قال: كانت الأخدود فى اليمن زمان تبع وفى القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى بقتلهم عن دين المسيح والتوحيد.

وفى العراق فى أرض بابل بخت نصر صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشائيل فأوقد لهم آتونًا وألقى فيها الحطب والنار ثم ألقاهما فيه فجعلها الله عليهما بردًا وسلامًا وأنقذهما منها وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعةٌ فأكلتهم النار.

وقال أسباط عن السدى فى قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ وهى ثلاثة: خد بالشام، وخد بالعراق، وخد باليمن.

رواه ابن أبى حاتم.

وعن مقاتل قابل كانت الأخدود ثلاثة: واحد بنجران باليمن وأخرى بالشام وأخرى بالعراق، حرقوا بالنار، أما التى بالشام فهو لانطيانوس، وأما التى بالفارس فهو لبخت نصر، وأما التى بأرض العرب فهو ليوسف ذى نواس، وأما التى بفارس والشام فلم ينزل فيهما وأنزل التى بنجران وهو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ وهم الملك وأعوانه المعذبون للمؤمنين والمؤمنات.

﴿النَّارِ﴾ بدل اشتمال من أصحاب الأخدود والتقدير النار فيه، ويكفى اشتمال المبدل على البدل كقوله: أعجبنى زيد علمه.

﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ بالفتح اسم ما يتوقد من الحطب والنفط والكبريت أن الإنسان.

﴿إِذْ﴾ ظرف لقتل.

﴿هُمْ﴾ أى الملك وأصحابه ﴿عَلَيْهَا﴾ على حافات النار كقوله وبات على النار الندى والمحلق تعود لتعذيب المؤمنين ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الإحراق ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ حاضرون، ناظرون لا يترحمون فهو تم لهم بقسوة القلب، أو شاهدون يستهدون عند الملك بعضهم لبعض بأنهم لم يقصروا فيما أمروا به من تعذيب المؤمنين أو يشهدون عليهم يوم القيامة حين تشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يكسبون.

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أى ما أنكروا أو ما عابوا وما غضبوا.

﴿مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وهو تأكيد للمدح بما يشبه الذم أى ما أنكروا منهم شيئًا إلا إيمانهم بالله وهو رأس المحامد كلها ورئيس الفضائل برمتها كقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم تلام بنسيان الأحبة والوطن

﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب التى يخشى عقابه ﴿الْحَمِيدِ﴾ للنعم لأن الحمد فى العرف فعل شىء عن تعظيم المنعم بسبب إنعامه، فالحميد المنعم الذى يرجى ثوابه.

﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فهذه الأوصاف تدل على أن الإيمان به وعبادته واجب على كل مكلف عاقل فهؤلاء الجبابرة ناقضوا عقولهم وكفروا بولى نعمهم.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيعلم أحوال المظلومين فيثيبهم وأحوال الظالمين فيعاقبهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى أحرقوا بالنار، يقال فتنته بالنار، أى أحرقته.

﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يدل هذا على كمال إحسانه فإنهم بعدما قتلوا أولياءه لو تابوا قبل الله توبتهم على ما يشعر به هذا الكلام.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لكفرهم وهذا فى الآخرة، وأما فى الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أى الإحراق.

روى أن الجبابرة بعدما أحرقوا اثنى عشر إلفًا من أهل الإيمان فى الأخاديد وكانت سبعة طول كل واحد أربعون ذراعًا وعرضه اثنا عشر ذراعًا فبعدما تم أمر الله فى أهل الإيمان ارتفعت النار وأخذت الظلمة فلم ينج منهم أحد فذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

لكن على هذا كان المناسب تقديمه لأنه عذاب الدنيا فأخر لكونه تتمة ورديفًا لعذاب جهنم من عذاب آخر نسبته إلى عذاب جهنم نسبة الإحراق إلى سائر التعذيبات فى الدنيا لأن الجزاء من جنس العمل، فالله تعالى يجعل لأصحاب الأخدود عذابًا شديدًا أشد ما يكون غير عذاب حهنم مقابل تعذيب المؤمنين فى الدنيا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى من تحت أشجارها.

﴿ذَلِكَ﴾ أى الحصول المدلول بلهم ﴿الْفَوْزُ﴾ هو النجاة من كل مكروه والظفر بكل مطلوب ﴿الْكَبِيرُ﴾ لأن نعم الدنيا بجنبه أصغر من كل صغير.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أى أخذه بعنف للجبابرة والظلمة.

﴿لَشَدِيدٌ﴾ فتفاقم وتضاعف شدة أخذه فهو كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أى يبدئ البطش فى الدنيا للجبابرة ويعيد فى الآخرة تعليل لشدة بطشه.

وقيل: يبدئ الخلق، ويعيده فيكون كامل القدره فيكون بطشه شديداً.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لمن تاب البتة يدل عليه صيغة فعول واسمية الجمة وإن لمن شاء على ما هو المذهب.

﴿الْوَدُودُ﴾ بمعنى الفاعل أى المحب لعباده المؤمنين الصالحين، فالغفران لمن تاب من المذنبين والمحبة لمن لا يزال صالحًا، وهاتان الجملتان قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ تذييلان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، ولقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أى خالقه والمراد بالعرش الملك من قبيل ذكر المحل وإرادة الحال أى ذو الملك.

﴿الْمَجِيدُ﴾ بالرفع صفة (ذو) وقرئ بالجر صفة العرش ومجده تعالى عظمة لذاته فإنه واجب الوجود من حيث صفاته فإنه كامل الحكمة وتام القدرة وشامل الإرادة ومجد العرش عظمته لعظم حرسه.

الأجرام العلوية والسفلية وهى السماء ذات البروج المذكورة فى أول السورة، ففيه نظير رد العجز على الصدر.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من البطش الشديد للظلمة الجبابرة أو الغفر والود للمظلومين من المؤمنين فقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ وقوله ﴿فَعَّالٌ﴾ خبر بعد خبر لقوله: هو فى ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ أو خبر إن لمحذوف تعليلاً على البطش والغفر.

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ الاستفهام للتقرير أى قد أتاك وفيه معنى التعجب كقول الشاعر:

* فقد حسا آخر أساء *

﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ من طغيانهم الشديد وبطش ربهم بهم.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ لأن من الجنود والمراد بفرعون هو وقومه لقوله تعالى: فى يونس على خوف ثم فرعون وملائهم أن تفتنهم فذكر من المتأخرين قوم فرعون وفى القدماء قوم صالح عليه السلام أعنى ثمود والخطاب فى (أتاك) للنبى ﷺ أو لكل أحد، فذكر بحديث الجنود ليتسلى النبى ﷺ والمؤمنون المعذبون بمكة فإن السورة

مكية نزلت حينما كان كفار قريش يعذبون المؤمنين بأنواع من التعذيبات وليحذر الكفار مما نزل بأوائلهم من أحوالهم المعلومة عندهم سماعًا ومشاهدة آثار.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى من قومك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ أعظم من تكذيب الأوائل فإنهم سمعوا أخبارهم ورأوا آثار هلاكهم، ثم كذبوك، وكلمة (بل) للترقى فإن تكذيب قريش أعجب وأشهد من تكذيب الأوائل.

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ استعارة تمثيلية شبه كمال قدرته على تعذيبهم فى الدنيا والأخرة بحيث لا يفوتون عنه ولا ينجون منه بإحاطة سور المدينة على أهاليها بحيث لا يفوتون عنه أين ما توجهوا وجدوه أمامهم، ووجه الشبه عدم الانفلات وعدم النجاة عنه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ عجيب لا يشبه كلام أحد فى إعجازه وإيجازه وتبيينه وتلخيصه.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ عن مساس الجن والشياطين وعن التغيير والتبديل بغير إذن الله تعالى لقول الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى اللوح المحفوظ.

عن ابن عباس ﷺ قال: إن فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده لا شريك له دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الله الجنة.

قال: واللوح لوح فى درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه نور وكلامه قديم معتود بالعرش وأصله فى حجر ملك.

قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش.

كذا فى معالم التنزيل.

مجلس فى:

بيان نبأ شمسون النبى عليه السلام ونزول سورة القدر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل القرآن فى ليلة القدر، وجعلها خيرًا من ألف شهر، ونزل فيها الملائكة والروح من كل أمر وجعلها سلامًا حتى مطلع الفجر، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم البعث والنشر.

فهذا مجلس فى بيان نبأ شمسون النبى عليه السلام ونزول سورة القدر، وبيان ذلك: أنه روى العلماء بأخبار الأنبياء أنه كان فى زمن الفترة بين نبينا ﷺ وبين عيسى عليه السلام من أهل الإنجيل إسرائيلى اسمه شمسون وكانت له واحدة صالحة جعلته نذيره لله عز وجل وكان شمسون بين أظهر قوم يعبدون الأصنام لأنه كان بنو إسرائيل قد تفوقوا كأيدى سبأ شذر مذر وكان بيت شمسون على أميال من بلدة عبدة الأوثان، وكان عليه السلام يصلى أكثر الليل ويجاهد كل يوم فيقتل ويسبى ويغنم فيجىء فى الليل إلى بيته فمضى على ذلك ألف شهر وهو ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، وكان عليه السلام شجيعًا مؤيدًا من عند الله لا يقاومه الكفرة فاحتالوا فأرسلوا إلى امرأة وجعلوا لها جعلاً إن قتلته أو حبسته وأعطوها سلسلة جامعة من حديد فقالوا: اجعليها فى عنقه ثم أخبرينا، فجعلت ليله السلسلة فى عنقه عند نومه ثم أيقظته فلما انتبه جذب السلسلة فقطعها فقال: أين هذا؟ قال: حرسك قال لا يضبطنى شىء لأن أمى جعلتنى نذيرة لله عز وجل، قالت المرأة الخبيثة: فأى شىء يحبسك؟ قال: شىء واحد قالت: وما هو؟ قال: ما أخبرك، فما زالت الملعونة تخدعه أيامًا حتى أخبرها، قال: إن شعرى على رأسى يضبطنى لأنه جزئى ولا يحبسنى غيره ففى ليلة أرسلت إلى الكفار فجاءوا قريبًا

---

(١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر: ١ - ٥).

من الدار فجعلت الملعونة شعره على يديه وربطته ثم نادت فأخذوه فذهبوا به إلى ملكهم مع المرأة ثم فى الغد اجتمع الكفار والملك وأمراؤه على بنيان عال على أساطين من الحجارة وجاءوا بشمسون فى الميدان قبالة البنيان العالى ففقأوا عينيه وجذعوا أنفه وأذنيه وقصدوا قطع يديه ورجليه ففتحوا يديه فأوحى الله إليه اجذب اسطوانة من أساطين البيان الذى عليه الكفرة مع الملك فجذبها وأيده الله بملائكته، فسقطت الأسطوانة وسقط البنيان فخر الملك ومعه من الأمراء والكفرة والمرأة الملعونة فهلكوا وهلك من تحته من الكفار فرد الله أعضاء شمسون إليه ثم شرع فى جهاده وعبادته، فلما أخبر بذلك رسول الله ﷺ الصحابه تعجب المؤمنون من كثرة جهاده وفى طول عمره، فقال رسول الله ﷺ: «يا رب جعلت أمتى أقصر الأمم أعماراً وأقلهم أعمالاً» فنزلت سورة القدر وأخبر الله تعالى أن ليلة القدر خير لأمتك من ألف شهر الذى جاهد فيه شمسون عليه السلام.

وقال بعض العلماء: أن ملك سليمان النبى عليه السلام كان خمسمائة شهر، وملك ذى القرنين أيضًا خمسمائة شهر فجعل الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر، أيام ملكها لهذه الأمة.

وقال بعضهم: كان أربعة من الأنبياء يوشع بن نون وحزقيل وأيوب، وزكريا عليهم السلام قد عبد كل واحد منهم ألف شهر لم يغفل الله فيه طرفة عين، فتحسر المؤمنون عما قصر العمر وقلة العمل فجعل الله لهم ليلة القدر خيرًا من ألف شهر أيام عباداتهم.

وقال بعضهم: كان المعتاد فى بنى إسرائيل أنه إذا عبد أحد ألف شهر كان من العابدين وأعطى له دعوات مستجابة فتحسر المسلمون عند سماعهم فجعل الله ليلة القدر لهم خيرًا من ألف شهر لعباد بنى إسرائيل.

وروى فى التفسير الكبير فى سورة الإسراء: أن رسول الله ﷺ قال يومًا فى المدينة بعد فتح مكة وعمر رضي الله عنه: إنى رأيت فى منامى قبل الهجرة أن أولاد مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، يتداولون منبرى بدوال الصبيان الكرة فتناولتها بانتقال الخلافة إليهم وجورهم لأمتى وأنزل الله إذ ذاك قوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ**﴾ معناه والله أعلم وما جعلنا تعبير الرؤيا التى أريناك فى استخلاف بنى مروان وتعبيرها وقوع استخلافهم إلا فتنة وبلاء للناس،

والشجرة معطوفة على الرؤيا وما جعلنا الشجرة الملعونة فى عمومات القرآن مثل ألا لعنة الله على الظالمين، والمراد بها الحكم بن أبى العاص والد الظالمين أو بنو مروان كلهم إلا فتنة وابتلاء للناس أى لأمتك.

وقد اتفق أن الحكم قد سمع لقول الرسول ولصاحبيه وأخبر به الحكم الناس فنفاه رسول الله لإفشاء سره إلى الطائف فبقى فيه طريدًا إلى زمن عثمان ﷺ فأدخله مكة ومات هناك.

وبعد ذلك كان نبى الله يحزن كثيرًا لاستخلاف الظالمين على أمته فسلى الله حزنه بهذه السورة فجعل ليلة القدر لهذه الأمة خيرًا من ألف شهر أيام ملك بنى أمية لأنها كانت اثنتين وتسعين سنة فبعد إسقاط تسع سنين أيام خلافة ابن الزبير فى أوقاتهم يبقى ثلاث وثمانون سنة قريبًا من ألف شهر أيام دولتهم وإن كانت مذمومة لظلمهم لكنها كانت من خيرات الدنيا فالمعنى ليلة القدر والعبادة فيها خير لأمتك عند الله فى أيام دولة بنى أمية فى سعادات الدنيا وخيراتها.

وروى الإمام فى التفسير الكبير فى سورة القدر عن القاسم بن الفضل: أن عيسى ابن مازن قال: قال لأمير المؤمنين حسن بن على ﷺ حين سلم الخلافة لمعاوية ﷺ يا مسود وجوه المؤمنين عمدت الرجل فسلمت إليه الخلافة قال: إن جدى رسول الله ﷺ رأى فى منامه أن بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة فلا راد لقضاء الله فرض الله، عنه حيث أصلح بين المسلمين، وصار كابن آدم عليه السلام الصالح حيث قال: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال الإمام فى سورة الإسراء: لا يبعد أن يرى رسول الله وهو بمكة أنه يكون له منبر فى المدينة ينزون عليه بنو أمية لأنه عليه السلام علم علم الأولين والآخرين.

وقال النيسابورى فى سورة الشعراء: أن ابن عباس ﷺ قال فى تفسير قوله تعالى: [...][1] بيننا وبين بنى أمية يكون لنا الدولة عليهم فتظل أعناقهم خاضعة بعد صعوبة ولينة بعد شدة ففى سنة اثنتين وثلاثين ومائة بعد مرور أيامهم ألف شهر خرج صاحب الدولة أبو مسلم فى خراسان فجاءوا إلى العراق فنصب عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عباس خليفة فقاتلوا مروان الحمار آخر خلفاء المروانية فهزموهم بإذن الله، ودخلوا

(١) غير واضحة الآية فى المخطوط.

الشام، فقـتلوا من قدروا عليهم من بنى أمية وفـر مروان الحمار إلى مصر فـاختفى فى ضربه وكان معـه غلام واحد فقطع لسانه لئـلا يخبر ثم أخذ مروان فقطعـوا رأسه فجاء هرة فأخرج لسانه فأكل فوقع القصاص.

ثم إن محمـد بن مروان الحمار دخل فـأراد بلاد النوبة فخرج إليه النـوبة كافر من الكفار لأن النوبة يفـتحها المهـدى فقال لمحمـد: يا ظالم ظلمتم الناس وكنتم تهلكون زرع فقيـر لأجل سمانية فوقع عليكم غـضب من ربكم فلا تدخل بلدى وارجع من هنا لئلا يقع غضب الله علينا وإلا قـتلتك وأخذت معك فرجع إلى مصـر فأخذ وذهب إلى منصور الخليفـة العباسى فاستـخبر خبره خـبر ملك النوبة فأخبر فـرق له، وما قتله بل حبسه إلى أن مات حتف أنفه.

مجلس في:

بيان ليلة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين فأنزل سورة القدر تسلية له في هذه الأحزان فقال تعالى بعدما قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وهذه السورة مدنية في أكثر الأقاويل وخمس آيات على الصحيح، وثلاثون كلمة واثنا عشر ومائة حرف.

والمقصود الأولى منها تعظيم القرآن فهو ما سبق له الكلام لأنه المتقدم وأدمج فيها تعظيم ليلة نزوله وهي ليلة القدر، لكن ما سبق له الكلام في آية والمدمج في أربع آيات فيكون كقول الشاعر:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له نعماك منهم أتمنها ودع أمرنا إن المهم المقدم

حيث جعل ما سبق له الكلام في هذه الأبيات الشكاية من الدهر وأدمج فيها التهنئة والشكاية في مصراع والتهنئة في ثلاثة مصاريع، وأدمج في هذه السورة تسلية للنبي عليه السلام من الأحزان أيضًا.

وقد جاز اجتماع الإدماجين كقول الشاعر:

ولا بد لي من جملة في وصاله فمن لي يخل أودع تحلم عنده

حيث أدمج فيما سبق له وهو لزوم جهل واحد في وصال الحبيب الفخر بأنه حليم والشكاية عن الزمان بانتفاء حل صادق يضع الحلم عنده وديعة معظم القرآن خمسة تعظيمات: الأول نون العظمة في «إنا» لأن المنزل تعالى واحد فعبر عن نفسه بنون العظمة لتعظيم القرآن.

والثاني: تقديم الفاعل المعنوي أي التأكيد لإفادة الاختصاص لأن الأصل أنزلناه نحن فقدم التأكيد لقصد التخصيص.

الثالث: إسناد إنزاله إلى ذاته الجليلة في قوله: «أنزلنا».

والرابع: وضع الضمير موضع الظاهر للدلالة على نباهته أى شهرته بالشرف إذ الأصل أنزلنا القرآن فأضمر لأنه مركوز فى القلوب موضوع فى الصدور فلا يلتفت الذهن إلى غيره.

الخامس: الرفع فى مقدار الوقت الذى نزل فيه لأن الوقت شرف به لأنه شرف بالوقت فيكون كقول الشاعر:

ما إن مدحت محمداً بمقالتى لكن مدحت مقالتى بمحمد

والقدر هو الشرف والعظمة فأى شرف أزيد من نزول القرآن فيه.

وقيل: القدر التقدير لأنه يظهر الأشياء فى هذه الليلة على ما سيجىء بيانه إن شاء الله تعالى.

والإنزال فى هذه الليلة على قول الشعبى: لأنه بعدما تعبد رسول الله ، فى غار حراء عند قرب النبوة ليالى ذوات عدد ظهر له جبريل عليه السلام وأنزل عليه أوائل سورة العلق وكان ذلك ليلة السابع عشر من رمضان وكانت ليلة القدر فى هذه السنة.

وقال أكثر العلماء: المراد بالإنزال فيها الإنزال جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، وبيانه على ما ذكره الإمام وغيره أن للقرآن ثلاث ظهورات ونزولات: ظهور ونزول من الغيب إلى عالم الشهادة فإن القرآن صفته الله تعالى فأظهره أى ما يدل عليه من الألفاظ ونقوش الحروف على اللوح، والكاتب إسرافيل الملك عليه السلام كتبه عليه بأمر الله ليلة القدر جملة، ثم بعد ذلك استنسخه السفرة أى الكتبة من الملائكة فى صحف على ما قال فى سورة عبس ﴿**فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾ فيجعلونها فى الصحف فنزلوا بها إلى بيت العزة فى السماء الدنيا فى ليلة القدر وذلك الاستنساخ والنزول كان مرة بجملة القرآن.

وقيل: نزل كل صحيفة فى ليلة القدر فى كل سنة من عمر النبى ﷺ بأن نزلت الآيات التى ستنزل فى هذه السنة فى صحيفة وهكذا وكل ذلك فى ليلة القدر، ثم بعد ذلك أنزله جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة بحسب المصالح، وذلك فى جميع ليالى السنة ثم شرع تعالى فى مدح الليلة ليرجع المدح إلى القرآن فقال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ أى شىء يجعلك داريًا أى عالمًا.

﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ وجرى سنته ما قال ابن عيينة بأنه إذا ما أدرك بعلمه كما هنا وإذا قال وما يدريك كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ لا يعلمه فترقى فى مدح الليلة بتعليم فضلها بقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ الذى لا يكون فيه ليلة القدر لئلا يلزم تفضيل الشيء على نفسه.

والمراد بالألف المذكور ما مر فى أسباب النزول.

ثم ترقى فى مدحها فقال استئنافًا لبيان الحرمة ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ﴾ جميعًا غير حملة العرش وإسرافيل وخزان الجنة.

﴿وَالرُّوحُ﴾ الصحيح أنه جبريل فالتخصيص للتعظيم.

﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ كما قال فى سورة مريم فى لسان الملك: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ من خير أو شر أى لأجله وبيانه على ما قال جمهور المفسرين إنه يأمر الله تعالى الملائكة بانتساخ كل خير وشر فى السنة الثابتين فى أم الكتاب فكتب السفرة الكرام البررة شارعين فيها ليلة النصف من شعبان ليلة براق، ثم بعد ذلك فى ليلة السابع والعشرين من رمضان التى هى ليلة القدر فى أصح الأقوال.

تنزل جميع الملائكة وجبريل عليهم السلام إلى الأرض فتدفع نسخة الأمطار والأرزاق إلى ميكائيل فيدفعها إلى أعوانه بعدد ما فى الأرض من النبات وبعده قطرات الأمطار فينزلون الأمطار فى السنة وينبتون النبات بإذن الله تعالى وتدفع نسخة المصائب والأموات إلى عزرائيل عليه السلام وأعوانه ونسخة الحروب والصواعق والزلازل والخسوف إلى جبريل وأعوانه ونسخة الأعمال فى الطاعات والمعاصى إلى إسماعيل صاحب الدنيا وأعوانه.

ثم ترقى فقال: ﴿سَلامٌ هِيَ﴾ تقديم الخبر للتخصيص والسلام إما بمعنى السلامة أو التسليم يعنى ليست ليلة القدر كل فيها، ففى الكلام مبالغة كقول الشاعر:

*** إنما هى إقبال وإدبار ***

أو ليست الليلة إلا تسليم الملائكة يسلمون على المتبعين للسنة من المؤمنين، ولا يسلمون على المبتدعين منهم فيكون فى سنة متبعًا بعدما كان مبتدعًا فيسلمون عليه ويدعون له.

وقد يكون مبتدعًا بعدما كان مـتبعًا فلا يسلمون عليه ولا يدعون له، أعاذنا الله من الابتداع.

فيمتد التسليم أو السلامة ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ مصدر ميمى فلا يحتاج إلى تقدير مضـاف على هذا التأويل أى الامـتداد وإن لم يئول فـيحـتاج إليه على مـعنى أن الليلة سلامة فقط وسلام فقط حتى وقت طلع الفجر ليكون الغاية من جنس المغب.

قال بعض العلماء: السـورة ثلاثون كلمة السابع والعشرون كلمـة (هى) التى عبارة عن الليلة فهذا أمارة أنها هى السابع والعشرون.

وقيل: ليلة القدر تسع حروف وهى مكررة ثلاث مرات فيكون سبعة وعشرين وهى الأمارة أيضًا.

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا وهذا دعاء ليلة القدر آمين يا رب العالمين.

وبيان ذلك على مـا رواه علماء التفـسير عن محـمد بن إسحاق صـاحب الغازى، وعن غيره أنه لما أحرق ذو نواس ملك حمير وقومه أصحاب الأخدود فى نجران اليمن اثنا عشر ألف مؤمن، أو أكثر وقتلوا عبد الله بن التامر نجى منهم مؤمن اسمه دوس ذو ثعلبان وجاء قيـصر فى الشام واستنجده على قوم ذى نواس فكتب قـيصر إلى النجاشى ملك الحبشـة وكانا نصرانيين أن قاتل مع الحمـيرة اليمن لانتصار المؤمنين الـمحرقين فبعث النجاشى من أمرائه أمرين أرباط وأبرهة بن صباح أبا يكـسوم وضم معهما سبعين ألفًا من الجند فذهبوا فى السفن إلى اليمن فقـاتلوا ذو نواس وقومه فهزموهم وغرق ذو نوس، فى البحر.

وقيل: احترق كما فى سورة البروج.

فغلبت الحبشة على اليمن وبقوا فيها سبعين سنة ثم إنه عارض أبرهة لإرباط وقاتله فانفلقت الحبشة فرقتـين فرقة مع إرباط، وفرقة مع أبرهة وقال أبرهة لارباط هلم أقاتل معك فـإن قتلتنى كان الأمـر لك وإن قتلتك كان لى ولا يـهلك الجند فاستـصوبا ذلك الرأى فدخلا فى المـيدان وكان أبرهة جعل غلامًـا له فى وراء مكة فضرب ارباط أبرهه فشرم أى قطع أنفه فقـيل له: أبرهه الأشرم فرمى الغلام ارباط فقتله فجـمع أمر الحبشة لأبرهة.

ثم إنه كـان يرى العـرب يروحـون إلى مكة كـل مـوسم فـغاظـه ذلك فكتب إلى

النجاشى يخبر بأمر ارباط فكتب إليه النجاشى لأطأن تراب اليمن وأحرق ناحيتك فجعل أبرهة فى جراب من تراب اليمن وحز ناحية (من رأسه) فأرسلهما مع التحف والهدايا إلى الملك وقال: ضع قدمك على الجراب وخذ بيديك شعرى حتى تبر فى قسمك واصفح عن ذنبى واعف عنى، فرضى عنه النجاشى بهذه الحيلة، فاستقر أمر أبرهة.

ثم إنه كتب إلى النجاشى أن عرب اليمن يذهبون كل سنة إلى مكة ويغيظه أمرهم إن شئت أبن لك كنيسة أصرف وجوه العرب إليها وأعطل كعبتهم فقبله النجاشى فبنى أبرهة كنيسة هائلة بصنعاء وسماها قليس، ثم نادى فى قبائل اليمن أن اتركوا مكة شرفها الله تعالى وتوجهوا إلى قليس واجعلوها قبلة، فغضب العرب القحطانية والعدنانية.

وجاء رجل من بنى كنانة قبيلة عند مكة وتغوط ليلاً فى قليس ومسح بغائطه جدار قبلة قليس، ولم يشعر به أحد من الرهبان الساكنين هناك، فلما رأوا الحال، فأخبروا أبرهة وغضب اللعين وحلف ليهدمن الكعبة ثم كتب إلى النجاشى وطلب منه الفيلة لهدمها فأرسل اثنى عشر فيلاً كبيرها اسمه محمود، فتجهز أبرهة وعاد جيشه وخرج يريد هدم بيت الله تعالى فعادت العرب القحطانية والعرب العدنانية، فاستقر قومه ملك اسمه ذو نفر من أمراء اليمن وقاتل أبرهة وانهزم وأسر ذو نفر، ثم جاء إلى بلاد خشعم فخرج إليه نفيل الخشعى فقاتل وانهزم، وأسر نفيل أيضًا حتى جاء أبرهة إلى الطائف فأخذ منه أبا رغال دليلاً، فلما جاء المغمس موضعًا قريبًا من مكة مات أبو رغال فقبره مرجوم إلى الآن فأرسل أبرهه أميرًا من أمرائه اسمه أسود بن مقصود فأغار على أموال مكة فأخذ مائتى إبل لعبد المطلب جد النبى ﷺ ثم أرسل أبرهة خياطة الحميرى رسولاً إلى مكة فقال له: قل لكبرائها إنى لم أجئ للقتال وإنما جئت هادمًا لهذا البيت، وأبتنى مكانه فجاء خياطة عبد المطلب وأخبره خبر الملك واستدعاه فراح عبد المطلب من قريش ويعمر من بنى بكر، وخويلد من هزيل فدخلوا بمعكسر وكان ذو نفر صديقًا لعبد المطلب فقال له: اشفع لى عند الملك، فقال: أنا الأسير لكن أنيس سائس الفيل صديق إلى أمره بشفاعتك فدخل أنيس على أبرهة فقال: إن عبد المطلب رئيس مكة الذى يطعم الناس فى السهل والوحوش على رءوس الجبال، يستأذن عليك فأذن، فدخل عبد المطلب وصاحباه، فلما رأى أبرهة عبد المطلب استعظمه وكان جسيمًا وسيمًا فنزل فى سريره وجلس على البساط، وأجلسه عنده، وتكلم يعمر وخويلد وعبد

المطلب ساكت فعرضا عليه ثلث أموال تهامة على أن لا يهدم البيت، فأبى اللعين إلا الهدم، ثم استنطق عبد المطلب فقال: رد عليَّ إبلى فقال: إنك كنت فى عينى معظمًا فسقطت الآن من عينى لأنى جئتك لأهدم دينك ودين آبائك وأهدم بيت القبلة وأنت تكلمنى فى ذى يدك، قال عبد المطلب أنا رب الإبل، وللبيت رب سيمنعه، قال: لا يمنعنى، قال: أنت وذاك، فأمر برد إبله، فأخذ عبد المطلب إبله فجاء مكة وأخبر أهل مكة بقول الملك وتفرق الناس على رءوس الجبال، فلما كان الغد عبأ أبرهة جيشه وجعل الفيلة قدامهم، وأحضروا السلاسل ليربطوها بجدران مكة، ثم يعقلوها على الفيلة فيضربونها بالسلاسل فتهدمها.

ثم إن عبد المطلب أخذ بحلقة باب البيت يدعو ويرتجز يقول:

*** يا رب لا أرجو لهم سواكا ***

*** يا رب فامنع منهم حماكا ***

*** إن عدوَّ البيت من عاداكا ***

*** امنعهم أن يخربوا قراكا ***

*** لا هم إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك ***

*** لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك ***

*** جروا جموع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك ***

*** وعمدوا حماك بكيدهم جهلاً وما رقبوا جلالك ***

*** إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدا لك ***

ثم ترك الحلقة وذهب إلى مكة ينظر فإذا الفيل محمود برك، فضربوه بالحديد فما قام، فأدخلوا الكلاليب تحت آباطه ومراقته فلم يقم وكلما وجهوه إلى اليمن أو الشام أو المشرق قام يهرول، وإذا وجهوه إلى الحرم يبرك، فعند ذلك أرسل الله تعالى من جانب البحر طيراً لا يعد من الكثرة جماعات متفرقة بيض وجماعة سود وجماعة خضر، وجامعة بلق.

وقد أخبر كل رأس فلذا اختلفت الرواية فى ألوانها وجرمها كجرم الخطاطيف وما رأيت قبل ولا بعد، وفى مناقر كل طائر حجر، وفى رجله حجران وجاءت الطيور حتى حازت رءوس الجيش ثم صاحت فرمت ما معها من الحجارة قد أغليت فى جهنم

وصارت من شدة الحر كالنار، فسبحان من يحفظه الطير من حرها فهى كزبانية النار، بل هى هم وقد كتب على كل حجر اسم من يقتل به فلا يخطؤه فيصيب حجر حيشأ فى رأسه، فينقب رأسه ومغفره عليه، ثم جسده وفرسه حتى يدخل الأرض، فقتل أكثرهم بالرمى وهرب الباقون، ورميت الفيلة غير محمود.

ثم إن أبرهة نجا ودخل اليمن وسلط الله عليه داء به تقطعت لداته فمات حتى انصدع صدره من قلبه.

ثم إن وزيره أبا مكسوم راح إلى النجاشى ليخبره وراح معه طائر لم يشعر به فلما أخبر النجاشى بخبر أصحاب الفيل وكان الطائر على رأسه يرفرف رمى الحجارة فمات أبو يكسوم هناك.

وكان قصة أصحاب الفيل فى السنة التى ولد فيها رسول الله ﷺ على المشهور الصحيح.

وقيل: قبله بأربعين سنة.

وقيل: بثلاث وعشرين سنة.

والصحيح هو الأول أى كونها فى سنة الولادة فيكون بعثه إلى النار بعد قصة الفيل بأربعين سنة فأنزل الله تعالى بعد مبعثه ﷺ سورة الفيل وسورة قريش.

مجلس في:

بيان سورة الفيل(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للتقرير أى قد رأيت والخطاب للنبى ﷺ تعريضًا إلى قريش فإن من رأى منهم هذه الواقعة بعينه من شيوخهم كانوا قومًا كثيرين وقت المبعث، والنبى ﷺ كان قد رأى بعض آثارهم فإنه كان عند أم هانئ ببيت أبى طالب فبصر بحجر المرمى إلى أصحاب الفيل.

وقالت عائشة ﵂: إنى رأيت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان فى مكة.

وقد تواتر سائر أخبارهم عنده فكانت هذه الواقعة كالمشاهد المحسوس عنده فالرؤية بصرية ولو جعلت علمية لم يحتج إلى التأويل.

﴿كَيْفَ﴾ حال فى المشهور بفعل لا «بألم تر» لاقتضاء الاستفهام الصدارة.

وإسناد «فعل» إلى «ربك» فإضافته إلى ضمير المخاطب دون البيت يدل على أن هذه الواقعة من إهاصارت النبى ﷺ.

إذ لولا ذلك لكان الظاهر فعل رب البيت والمعنى على أى صفة من القهر، والغضب، والانتقام ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ على تقدير الحالى أو أى فعل من الانتقام والقهر فعل ربك على تقدير المصدر والإرهاص خارق يظهر قبل ولادة النبى ﷺ إلى مبعثه فى أمور الخارقة للعادة فأمر أصحاب الفيل لما كان فى سنة الولادة وكان إرهاصًا له يدل عليه إضافة الرب إلى ضميره.

والمعتزلة لما أنكروا الإرهاصات جعلوا الأمر معجزة للنبى فى هذا الوقت مثل

---

(1) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل: 1 - 5).

خالد بن سنان أو قس بن ساعـدة، أو زيد بن عمرو بن نفيل وإن لم يشتهـر بأصحاب الفيل، ولم يقل بأرباب الفيل أو ملاكه، لأن الأصحاب تضاف إلى الأعلى فيكون الفيل على حالاتهم حيث قال بلسان الحال لما ترك لا طاعة للمخلوق فى معصية الخالق.

فلذا ترك فهؤلاء أضل من الأنعام حيث عمدوا تخريب بيت الله تعالى.

ثم بين فعله بهم فـقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ فى تعطيل الكعبة ببناء قليس وفى تخريبها بجر الجيوش والفيلة.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ فى تضييع وخسارة أى صنيعنا كيدهم.

﴿وَأَرْسَلَ﴾ عطف على قد جعل المفهوم من ألم يجعل لأنه للتقرير.

﴿عَلَيْهِمْ طَيْرًا﴾ اسم جمع للطائر يذكر ويؤنث اللفظ.

﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعات متفرقة.

يقال: جانت الخليل أبابيل أى متفرقات.

ولا واحد لـها مثل عـباديد وشـماطيط، وقـيل: واحدها إبالـة أو أبولة كعـجول وعجاجيل ﴿تَرْمِيهِم﴾ حال من طير.

﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ معرب [....][1] أى من طين قد طبخ فى نار جهنم حتى صار كالحجارة.

وقيل: سجيل لديوان العذاب، أى بحجارة مسببة بديوان العذاب لأنها لو لم تكتب لم تر.

وقيل: سجيل مأخوذ من السجل أى الدلو العظيم أو بحجارة مرسلة.

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ الله أو الطير لأن اسمه مذكر كما مر.

﴿كَعَصْفٍ﴾ كورق زرع أو كتبن أو سنبلة.

﴿مَّـأْكُـولٍ﴾ أصابه الأكال ففنـى أو أكله الدواب فتفرق أجزاؤه، فيكون التـعبير بمأكول من أدب القرآن مثل قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

أو أكل حبها وبقى عصفها، فإنهم لما بقى أجسادهم وذهبت أرواحهم شبهوا بزرع أكل حبته وبقى عصفه.

---

(١) كلمة غير واضحة فى المخطوط.

مجلس في:

بيان سورة (لإيلاف قريش)[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ قال بعض المفسرين: اللام متعلق بـ فجعلهم كعصف مأكول.

أما إذا كانت السورتان واحدة على ما نقل عن أبي كعب أنه ما كتب في مصحفه البسملة بين هاتين السورتين وعلى ما روى بينهما فلا إشكال.

وأما إذا كانتا سورتين مستقلتين فتعلق صدر هذه بآخر السورة المتقدمة يكون كالتضمين في الشعر كقول الشاعر:

إذا ضاق صدري وضقت: الورى ... تمثلت بيتًا بخالي يليق

فبالله أبلغ ما أرتجي ... وبالله أرفع ما أطيق

فالمعنى: أن الله أهلك الحبش الذين قصدوا قريشًا وكتبهم ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب، ويعظموهم فضل تعظيم حتى ينتظم لهم الأمر في رحلتهم فلا يجترئ أحد عليهم.

وقال بعضهم: هذه اللام لام التعجب مثل قولهم: يا للماء ويا للدواهي، ولام التعجب والاستغاثة قد تكون مفتوحة وهو الأكثر وقد تكون مكسورة، وإذا كانت مكسورة فالمنادى محذوف والتقدير: يا أيها المؤمنون تعجبوا من إيلاف قريش ومن عنادهم، وتكذيب محمد ﷺ.

وقال أكثرهم: هذه اللام متعلقة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ والفاء مزحلقة إذ التقدير: إن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة، فإن لم يعبدوا لسائرها ما فلإيلاف قريش ليعبدوا، ثم حذف الشرط وأقيم متعلق الجزاء يعني لايلاف مقامه، ففاء الجزاء زحلقت عن مقام

---

(١) ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ١ - ٤).

الشرط إلى ليعبدوا، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

إذ الاعتذار رجاء فيها جميعًا.

﴿إِيلَافِهِمْ﴾ بدل من إيلاف قريش، بدل الكل للتوضيح والتقرير.

﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ﴾ إلى اليمن لكونها من البلاد الحارة.

﴿وَالصَّيْفِ﴾ إلى الشام لكونها من البلاد الباردة.

والإيلاف من ألفت الشيء إذا ألزمته واعتدته وألفيته غيرى إذا ألزمك إياه وجعلك معتادًا له، فالمعنى لجعل الله قريشًا معتادًا بالرحلتين وإلزامهم إياهما ليعبدوا أو جعلهم كعصف مأكول وتعجبوا.

وقريش تصغير قرش للتعظيم وهو الكسب يقال: قرش بمعنى كسب، فلما كانوا تجارًا كاسبين، جعلوا كأنهم عين الكسب العظيم.

وقيل وهو المشهور: إن قريشًا دابة عظيمة في البحر تأكل جميع دواب البحر ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى، وتعيث بالسفن فلا تطاق إلا بالنار فيها، شبهت بها قبيلة قريش لأنهم شجعان غالبون على الكل، وصغر للتعظيم.

وعدم تثنية الرحلة للأمن عن الإلباس كقول الشاعر:

*** كلوا في بعض بطنكم تعفوا ***

أو لأنها في الأصل مصدر يطلق على الواحد والكثير وكان سبب الرحلتين على ما روى أنه لما كانت بواد غير ذى زرع، ولا ضرع على ما قال إبراهيم عليه السلام في القرآن: ﴿إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾.

احتاج أهلها إلى التجارة، وجلب الرزق من البلاد البعيدة، فسن لهم هاشم جد النبي ﷺ الرحلتين وسببه أنه كان لهاشم ابن يقال له أسد وكان أسد صديقًا لغلام من قريش يلعب معه، ففي يوم جاء الغلام واستودع الأسد وقال: أذهب مع أبي وعياله إلى الخباء في الصحراء لنتقوت بالنباتات أو تهلك، وكان المعتاد فيهم من نفد زاده يضرب خباءه في الصحراء مع عياله فيأكل النبات حتى يهلك، فرحم أسد هذا الغلام فجاء أمه فأخذ له الزاد ثم أخبر هاشمًا فخطب في قومه وكلمهم في أمر الرحلتين فأجمعوا عليهما.

وكان هاشم رئيس العير ترتحل بهم فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام فيتجرون ويجيئون مكة بالزاد.

وكان هاشم وأسخياء قريش يخرجون رءوس أموالهم ونفقة عيالهم، ويتصدقون بالباقى على الفقراء فمن الله تعالى عليهم بأنه لو لم يهلك أصحاب الفيل لم يتم أمر الرحلتين، لأن ملوك البلدان كانوا يعظمونهم ويكرمونهم ولا يأخذون منهم شيئًا من الباحات فى أسفارهم ولا يغصبون أموالهم، فلو تم أمر أصحاب الفيل ذهبت دولتهم، وصولتهم، ولم يبق فى أعين الناس عظمتهم ولم يقدروا على الرحلتين.

فلذا قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الذى دمر الله أعداءه أصحاب الفيل لبقاء رحلتهم ببركة محمد ﷺ.

إن هذا التدمير من إرهاصاته على ما مر.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ عظيم قبل الرحلتين على ما مر.

و «من» تعليلية أى أطعمهم لأجل الجوع.

وقيل: بدلية مثل قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ أى بدلها.

أى أطعمهم وأشبعهم بدل الجوع، ولا حسن له بدون التضمين.

﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ عظيم وفى هذه للتعدية.

والمراد بالخوف خوف أبرهة وجنده.

وقيل: خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم، وكذا خوف الطاعون بدعوة إبراهيم عليه السلام.

وقيل: خوف الجبابرة فى الطرق عند الرحلتين، والإنعام والإحسان على الناس يكون بأمرين لا غير: بدفع الضر عنهم، وبجلب النفع إليهم.

فبين الله تعالى فى سورة الفيل أنه أحسن إلى قريش وأنعم عليهم بدفع ضرهم وأخبره فى هذه السورة بأنه أعطى وجلب النفع بالرحلتين فتم الإنعام وبقى الشكر من المنعم عليهم على الدوام.

رزقنا الله تعالى الشكر على نعمه، وحفظنا الله تعالى من جميع نقمه آمين.

تم بعون الله وتوفيقه فى وقت المباركة الضحوة الكبرى فى يوم الأحد فى شهر ربيع الأولى فى النصف فى المغرب فى سوق علنجار فى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف من هجرة من له العز والشرف.

مجموعة الفهارس

١- **فـهرس الآيات الـقرآنيـة:** عدلنا عن عــمل فهرس الآيات القــرآنية فى اللحظة الأخيسرة لعمل مجموعة الفهارس، التى كان متوقعًا لهذا الكتاب، والسبب طبعًا واضح وجلى، وهو أننى وجــدت أن تكرار الآيات فى هذا الفهرس لا يخــدم الكتاب، فـضلا عن تكرار القرآن كله تقريبًـا ـ إن لم يكن أكثره ـ فمثلا وجــدت أننى سوف أذكر سورة يوسف كاملة، وسورة البقرة أكثر من ثلثيها، وهكذا عدد كبير جدًا من السور والآيات، وسوف يثقل هذا الكتاب، فربما زاد حجمه وقلَّت فائدته، فصرفنا النظر.

(المحقق)

٢- فهرس الأحاديث والآثار.

٣- فهرس الأشعار.

٤- فهرس الأعلام.

٥- فهرس المصادر والمراجع.

٦- فهرس المحتوى.



أولا : فهرس الأحاديث والآثار

نص الحديث	جزء/ صفحة
٤٣- اللهم إنى أعوذ بعفوك من عقابك	١/ ٥٠٧
٤٤- اللهم بالرفيق الأعلى	١/ ٥٣٨
٤٥- اللهم عليك بقريش	١/ ١٧٧
٤٦- اللهم فقهه فى الدين	١/ ٤٣
٤٧- أما إنى سأحدثكم ما حبسنى	١/ ٢٠٠
٤٨- أما رأيتما إعراضى عن الرجل	١/ ٢٠٦
٤٩- أما والله إنه لنبى ابن نبى	١/ ٥٠٧
٥٠- أمان أمتى من الغرق ـ آل بيتى	١/ ١٤٣
٥١- أمرت أن أقاتل الناس	١/ ١١٠
٥٢- أنا أحب القرع لأنه. . .	٢/ ١٧٤
٥٣- أنا أعلم به وبصبره	١/ ٣١٨
٥٤- أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى	١/ ٢٤٦
٥٥- أنا زعيم ـ والزعيم الحميل ـ لمن آمن بى، وأسلم وجاهد. . .	١/ ٤٩٤
٥٦- أنا الفرط على الحوض	١/ ٣١١
٥٧- أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من شهر رمضان	١/ ٣١٢
٥٨- انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين. . .	١/ ١٢١
٥٩- إن يخرج وأنا بينكم فأنا حجيجه	٢/ ٢٩٣
٦٠- إن أبا الدحداح قال: يا رسول الله. . .	٢/ ١٦٢
٦١- إن إبراهيم حين ألقى فى النار	١/ ٢٢٢
٦٢- إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكذب	١/ ٢٣٠
٦٣- إن إبليس يضع عرشه على الماء	١/ ١٠٣
٦٤- إن أخوف ما أخاف عليكم	١/ ٥٤٧
٦٥- إن أخوة يوسف ـ عليه السلام ـ قالوا: يا أبانا. . .	١/ ٣٧١
٦٦- إن أدنى أهل الجنة منزلة	٢/ ٩٥

نص الحديث	جزء/ صفحة
٩٠ - إن الله تعالى قسم الخلق	١/ ١٨٨
٩١ - إن الله تعالى كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق	١/ ٤٣٩
٩٢ - إن الله لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام	٢/ ٣٠
٩٣ - إن الله وملائكنه وأهل السموات ليصلون على معلم الناس الخير	١/ ٥٨
٩٤ - إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار. . .	١/ ١١٠
٩٥ - إن الله يحب أن تؤتى رخصه	٢/ ١٨٤
٩٦ - إنما سُمِّى الخضر خضرًا	٢/ ١٢٣
٩٧ - إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم	١/ ٥٩
٩٨ - إن من أذنب ذنبًا ثم تاب	٢/ ١٩٨
٩٩ - إن من أشد الناس بلاء	١/ ٢٩٥
١٠٠- إنَّا معاشر الأنبياء	١/ ٢٩٤، ٢٩٥
١٠١- إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نعجل فطرنا	١/ ٢٩٥
١٠٢- إن يهودية كانت تخدمها	٢/ ٦٥
١٠٣- إنه الاسم الأعظم ما دعا به أحد. . .	٢/ ١٧٣
١٠٤- إنها خرجت على قدر خرت ـ أى موضع ـ الخاتم	١/ ١٦٨
١٠٥- إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من الماشى	١/ ٨٤
١٠٦- إنها ستكون هجرة بعد هجرة	١/ ٢٢٧، ٢٢٨
١٠٧- إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى	١/ ٢٨٢
١٠٨- إنى أحب أن أتزوج فى الأنصار	١/ ٢٢٢
١٠٩- أوحى الله تعالى إلىَّ أنكم تفتنون فى قبوركم	٢/ ٦٦
١١٠- إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة	١/ ٣٨٨
١١١- أيها الناس من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله ﷺ	١/ ١٨٨

نص الحديث	جزء/ صفحة
١٧٣- الرؤيا من الله والحلم من الشيطان	١/ ٤٥٤
١٧٤- رحم الله أخى يوسف	١/ ٤٤٨
حرف الزاى	
١٧٥- الزعيم غارم	١/ ٤٩٤
حرف السين	
١٧٦- سام أبو العرب، وحام أبو الحبش	١/ ١٥٤
١٧٧- سأل موسى ربه	٢/ ١٢٤
١٧٨- سئل رسول الله ﷺ عن رجلين	٢/ ١٢٣
١٧٩ سئل النبى ﷺ عن أكرم الناس	١/ ٣٤٨
١٨٠- سبقت رحمتى غضبى	١/ ٤٢٨
١٨١- سرعة المشى تذهب بهاء النوم	٢/ ٢٥٥
١٨٢- سوف أستغفر لكم ربى	١/ ٥٢٧
١٨٣- سيخرج أناس من أمتى من قبل المشرق	١/ ٢٢٨
حرف الصاد	
١٨٤- صدق والذى بعثنى بالحق	١/ ١٠٩
١٨٥- صلى فيه رسول الله ﷺ ركعتى الطواف	١/ ٢٣٨
حرف العين	
١٨٦- العين تدمع والقلب يحزن	١/ ٥٠٧
١٨٧- العين حق ولو كان شىء يسبق القدر	١/ ٤٧٤، ٤٦٨
حرف الغين	
١٨٨- الغادر ينصب له لواء يوم القيامة	٢/ ٢٦١
حرف الفاء	
١٨٩- فألفت بذلك أم إسماعيل	١/ ٢٤٠

نص الحديث	جزء/ صفحة
٢١٠- كان ملك فيمن كان قبلكم	٢/ ٣٨٧
٢١١- كان ينفخ على إبراهيم	١/ ٢٢٢
٢١٢- كانت ثمود قوم صالح	١/ ١٧٠
٢١٣- الكريم بن الكريم بن الكريم	١/ ٤١٠
٢١٤- كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء	٢/ ١٠
٢١٥- كن عبد الله المقتول	١/ ٨٤
٢١٦- كنت جالسا عند عمر	١/ ٣٤٧
٢١٧- كنت نبيا وآدم بين الماء والطين	٢/ ٢٧٠
٢١٨- كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر	٢/ ٩٥
حـــرف اللام	
٢١٩- لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود	٢/ ٢٦٠
٢٢٠- لا تزال أمتى بخير ما لم. . .	١/ ١٠٥
٢٢١- لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق	١/ ٢٥٨
٢٢٢- لا تسجد لى يا سلمان	١/ ٥٣٢
٢٢٣- لا تقتل نفس ظلما	١/ ٨٠
٢٢٤- لا عدوى ولا طيرة ولا هامة	٢/ ١٣٥، ١٥٦
٢٢٥- لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور	٢/ ٣٨٠
٢٢٦- لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة. . .	٢/ ٣٤٦
٢٢٧- لكل غادر لواء يوم القيامة. . .	٢/ ٢٦١
٢٢٨- لا يأكلن أحدكم متكئا ولا بشماله	١/ ٤١٣
٢٢٩- لا يحل لأحد يجنب فى هذا المسجد	١/ ٤٥
٢٣٠- لا يدخل الجنة ولد زنا	١/ ١٠٤
٢٣١- لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه	١/ ٢٨٦

نص الحديث	جزء/ صفحة
٢٣٢- لا يقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى	١/ ٤١٢
٢٣٣- لا يمس صاحبكم جمرا حتى يُطفأ	١/ ٢١٣
٢٣٤- لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره	١/ ٤٥١
٢٣٥- لقد هممت ألا أهب	٢/ ٥٥٦
٢٣٦- للماشى فى كل خطوة سبع مائة حسنة	١/ ٢٥٥
٢٣٧- لم أزل أنقل من أصلاب طاهرة إلى	١/ ١٨٧، ١٩١
٢٣٨- لم أكثر تعالى ذكر موسى فى القرآن	٢/ ٤٧
٢٣٩- لم سمَّى الله ـ تعالى ـ هذا أحسن القصص	١/ ٣٥٩
٢٤٠- لم يبق يومئذ فى الأرض	١/ ٢٢٣
٢٤١- لما ألقى يوسف فى الجب	١/ ٣٧٥
٢٤٢- لما أُمر إبراهيم بذبح ابنه عرض له الشيطان	١/ ٢٧١
٢٤٣- لما رآها يوسف ـ عليه السلام ـ	١/ ٣٥١
٢٤٤- لما خلق الله تعالى آدم مسح على ظهره	١/ ٨٧، ٨٨
٢٤٥- لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة	١/ ٤٨، ٤١٦
٢٤٦- لما صور الله تعالى آدم	١/ ٤٧
٢٤٧- لما نزل الحجر فى غزوة تبوك	١/ ١٨٣
٢٤٨- لما نزلت آية: ﴿ .. وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ... ﴾ (الأنعام: ٨٢)	١/ ٢٠٤
٢٤٩- لو خرج يوسف يومئذ	١/ ٣٦٥
٢٥٠- لو فعل لأخذته الملائكة	٢/ ٣٤٦
٢٥١- لو قال: ولى... لنفعه موسى	٢/ ١٠
٢٥٢- لو كان بعدى نبى لكان عمر	١/ ٢٤
٢٥٣- لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد	١/ ٥٣٢
٢٥٤- لو كنت أنا لأسرعت الإجابة	١/ ٤٥٠

نص الحديث	جزء/ صفحة
٢٥٥- لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا	١/ ٢٣
٢٥٦- لو لبث فى السجن طول... لأجبت الداعى	١/ ٤٥٠
٢٥٧- لو لم يستثنوا ما أعطوا	٢/ ١٣٤
٢٥٨- ليس ذنب أحرى أن يعجل له العقوبة من...	٢/ ١٢٠
حرف الميم	
٢٥٩- ما بال أقوام تبلغنى عن أقوام	١/ ١٨٨
٢٦٠- ما شاء الله ـ تعالى ـ كان وما لم يشأ لم يكن	١/ ١٠٣
٢٦١- ما فتح الله ـ تعالى ـ على عاد من...	١/ ١٦٨
٢٦٢- ما من بنى آدم مولود	٢/ ٢٩٩
٢٦٣- ما من ذنب أحرى أن يعجل به العقوبة	١/ ٨١
٢٦٤- ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىء	١/ ١٨٨
٢٦٥- ما يزغ بالسلطان أكثر ما يزغ بالقرآن	٢/ ٢١٢
٢٦٦- المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أدناهم	٢/ ٥٥٦
٢٦٧- مثل الذى يعمل ويحتسب فى صناعته	٢/ ١٤
٢٦٨- مكث ﷺ بالمدينة تسع سنين	١/ ٢٥٠
٢٦٩- من أبر؟ قال: أُمُّك.	٢/ ٢٥٢
٢٧٠- من أتى عرافا أو كاهنا	١/ ١١٠
٢٧١- من أصبح منكم آمنا فى سربه معافى فى بدنه	٢/ ١٤٢
٢٧٢- من أعطى فشكر، وظُلِمَ فصبر، وظلمَ فاستغفر...	١/ ٢٠٨
٢٧٣- من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر	٢/ ٢٥٤
٢٧٤- من تكبر وضعه الله تعالى	١/ ٦٤
٢٧٥- من توضأ كما أمر	٢/ ١٩٨
٢٧٦- من حج فلم يرفث ولم يفسق	١/ ٢٥٦
٢٧٧- من دخل دار أبى سفيان فهو آمن	١/ ١٢٠

نص الحديث	جزء/ صفحة
٢٧٨- من دخل السوق فقال لا إله إلا الله	٢/ ١٥
٢٧٩- من ستر أخاه المسلم	٢/ ٢٠٠
٢٨٠- من سره أن يستجاب له عند الكرب	٢/ ١٧٣
٢٨١- من صبر على حر مكة	١/ ٧٠
٢٨٢- من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة	١/ ٢٨٦
٢٨٣- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر	٢/ ٣١٧
٢٨٤- من كانت له مظلمة لأخيه	٢/ ٢٦٠
٢٨٥- من وجدتموه يأتى البهيمة فاقتلوه	١/ ٣٠١
٢٨٦- من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط	١/ ٣٠١
حرف النون	
٢٨٧- نحن أحق بالشك من إبراهيم	١/ ٤٥٠
٢٨٨- نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه	٢/ ٨٠
٢٨٩- نسمة المؤمن طائر معلق	٢/ ٦٩
حرف الهاء	
٢٩٠- هذا مقام إبراهيم عليه السلام	١/ ٢٣٨
٢٩١- هذا ما وصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا	١/ ٣٨٨
٢٩٢- هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب	١/ ٥٠٨
٢٩٣- هل تدرون ما هذا؟	١/ ٤٤
٢٩٤- هلك المسوفون	١/ ٣٦٢
٢٩٥- هو شر الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه	١/ ١٠٤
٢٩٦- هو الكامل فى العلم	١/ ٩١
حرف الواو	
٢٩٧- وأتموا الركوع والسجود	١/ ١٨٧
٢٩٨- وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون	١/ ٥٤٠

نص الحديث	جزء/ صفحة
٢٩٩- وضع الله تعالى يده بين كتفي فوجدت برد أنامله. . .	١/ ٣٠٥
٣٠٠- وقف ﷺ على قليب بدر	٢/ ٦٨
٣٠١- ولد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث	١/ ١٥٤
حـــرف اليـــاء	
٣٠٢- يأتى معاذ بن جبل يوم القيامة	١/ ١٩٩
٣٠٣- يؤتى بالظالم يوم القيامة وأعوانه	٢/ ١٩
٣٠٤- يا أيها الناس إنى قد أوتيت	١/ ٣٤٧
٣٠٥- يا رب جعلت أمتى أقصر الأمم	٢/ ٣٩٤
٣٠٦- يا رسول الله: أكُلُّنا يرى ربه	٢/ ٩٥
٣٠٧- يا رسول الله إن ولد جعفر	١/ ٤٧٤
٣٠٨- يا زيد كل رجل وصف لى	١/ ٢٩
٣٠٩- يا عبد الله ابدأ بنفسك	١/ ٣١١
٣١٠- يا فتى لقد شققت عليَّ	١/ ٣١٠

ثانيا : فهرس الأشعار

الأبيات		جزء/ صفحة
قافية الهمزة		
هجوت محمدا فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاءُ	١/ ٥٤
أتهجوه ولست له بكفء	فشركما لخيركما الفداءُ	
فإن أبي ووالده وعرضي	لعرض محمد منكم وقاءُ	
قافية الباء		
لدن بهز الكف يعسل متنه	فيه كما عسل الطريق الثعلب	١/ ٦٥
أفادتكم النعماء مني ثلاثة	يدي ولساني والضمير المحجبا	٢/ ٢١٠
ولقد طعنت أبا عيينة طعنة	جرمت فزارة بعد أن يغضبوا	١/ ٣٢٢
أقلب فيها أجفاني كأني	أعذبها على الدهر الذنوبا	١/ ١٣٥
شربنا وأهرقنا على الأرض	وللأرض من كأس الكرام نصيب	١/ ٢٨٢
فإن أصبح بلا نسب	فعلمي في الورى نسبي	١/ ٤٤٢
فمرت غير نافرة عليهم	تدوس بنا الجماجم والتريبا	١/ ١٣٥ - ١٤٣
		٢/ ٣١٥
قافية التاء		
سأشكر عمرا إن تراخت منيتي	دي لم تمتن وإن هي جلَّت	٢/ ٢٨٨
شربت الحب كأسا بعد كأس	فما نفد الشراب وما رويت	١/ ٢٨٣
لم يمنع الشراب منها غير أن	نطقت حمامته في غصون ذات	١/ ٣٢٢
* يا ربة البيت قومي غير صاغرة *		١/ ٣٩٤
* أنا الذي سمتني أمي حيدرة *		١/ ١٦١

الأبيـــــــات	جزء/ صفحة
قافية الحاء	
ومـــالى لا أجـــود بسكـب دمع وهابيل تـضـــمنه الـضــــريح	١/ ٨٧
أرى طول الحـيـــاة عـلى غـمًّــا فـهـل أنا من حيـــاتى مسـتـريح	
تغــيـــــر كـل ذى طعم ولون وقل بـشـاشـــة الوجـــه المليح	١/ ٨٧
وفـرع يصيـر الجيـد وحف كـأنه على الـليث قنوان الكـروم الدوالخ	١/ ٢٧٩
تغـيــرت البـلاد ومـن عليــهـا فــوجـه الأرض مـغـبـر قـبـيح	١/ ٨٧
قافية الدال	
وكنت كـمـا قـد يـعلم الله عـازمـا أروم بنفـسى من سرنديب مـقصـدا	١/ ٦٩
مـا عن مدحت مـحـمدا بـمقـالتى لكن مـدحـت مـقـالتى بمــحـمـد	٢/ ٣٩٨
وكنت أمـرأ من جند إبليس فانتـهى بى الأمر حتى صار إبليس من جندى	١/ ٤٠٥
فلو مـات قلبى كنت أحـسن بعـده طرائق فـسق ليس يحـسنهـا بعـدى	١/ ٤٠٥
قافية الراء	
* لـمن الـديار بـقـنة الـحـــجــــر *	١/ ٥٥٤
* أقــــوين مـن حـــجـج ومن دهـر *	
واعلـم فـعلـم المـرء ينفـعـــه أن ســوف يأتـى كل مـــا قـــدرا	١/ ٣٩، ٤٣٥
وكـنت إذا أرسـلت طـرفك رائـدا لقلبك يومـا أتـعـبـتك المـناظر	٢/ ٢٣٧
داهيــة الدهر وحـمــاء الخـبــر أنت لهـا أحــمــد بـين البـشــر	١/ ٤٤٣
كـفى حـزنا بالـواله الصب أن يرى منازل مـن يهـوى مـعطلـة قـفـرا	٢/ ١٩
داهيــة الدهر وصــمـاء الغـبــر أنت لهـا أحـمــد من بين البـشــر	١/ ٤٤٣
ترتع مـا رتعت حـتـى إذا ادكـرت فــإنـمــا هى إقــبـــال وإدبار	١/ ٣٩، ٢٢٩، ١٥٠ - ٢/ ٣٩٩

الأبيــــــات		جزء/ صفحة
آية في الجمال ليس له في الـ	ـحسن شبه وما له نظير	١/ ٣٥٨
الدهر لا يبقى على حاله	كذلك حال العبد في العسر	
أما ترى يوسف في جبه	في ضيق أمر ثم في اليسر	١/ ٣٧٦
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا	وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا	١/ ٩٢
إذا مات ابن آدم ليس	يجرى عليه من عشر	١/ ٢٥
علوم بثها ودعاء نجل	وغرس النخل والصدقات تجرى	
وحفر البئر أو إجراء نهر	وراثة مصحف ورباط ثغر	
وبيت للغريب بناه يأوى	إليه أو بناء محل ذكر	
وتعليم لقرآن كريم	فخذها من أحاديث بحصر	
قافية الصاد		
قالوا: اقترح شيئا نجد لك طبخه	قلت: اطبخوا لى جبة وقميصا	
قافية الفاء		
* كلوا فى بعض بطنكمو تعفوا *		٢/ ٢
فأرسلته مستيقن الظن إنه	مخالط ما بين الشراسيف جائف	١/ ٥٦٠
سبحان ذى الملكوت آية ليلة	مخضت صبيحتها بيوم الموقف	١/ ١٠١
لو أن عينا وهمتها نفسها	ما فى المعاد محصلا لم تطرف	
قافية القاف		
تروح على آل المحلق جفنة	كجابية الشيخ العراقى تفهق	٢/ ٢٥٤
لا تمزحن بما كرهت فربما	ضرب المزاح عليك بالتحقيق	١/ ٣٦
إن ضاق صدرى وضقت بالورى	تمثلت بيتا بحالى يليق	٢/ ٤٠٦
فبالله أبلغ ما أرتجى	وبالله أرفع ما أطيق	
* كأنه فى الجلد توليع البهق *		١/ ٤٢٧
ألا كل حى هالك وابن هالك	وذو نسب فى الهالكين عريق	١/ ١٠١

الأبيـــــــــات	جزء/ صفحة
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عــدو فى ثيـاب صــديق	
قافية الكاف	
* يـا رب لا أرجـــو لـهم ســـواكـــا *	٢/ ٤٠٢
* يـا رب فـــامنع منهم حــمـــاكـــا *	
* إن عـــدو البــيت من عــاداكـــا *	
* امنعـــهـم أن يخـــربوا قـــراكـــا *	
* لا هم إن المـرء يـمنع رحله فـامنع حـلالك *	٢/ ٤٠٢
* لا يغلبن صليبهم ومحـالهم عـدوا مـحـالك *	
* جرواء جموع بلادهم والفيل كـلى يسبوا عيالك *	
* وعمدوا حماك بكيدهم جـهلا وما رقبوا جلالك *	
* إن كنت تاركـهـم وكـعـبتنا فـأمـر مـا بدا لك *	
قافية اللام	
* يخــــرج فى عــــراقـــيــــبـــهـــا نصلى *	٢/ ٧٩،
ألا زعـمت أسـمـاء أن لا أحـبـهـا فـقـلـت: بلى لولا ينازعنى شـغلى	٣٧٣
ومـا مـات منا سيـد فى فـراشـه ولا طل منا حـيث كـان قـتـيل	١/ ٣٩٨
إذا زرتكم لقـيت أهلا ومرحـبـا وإن غـبت حولا لا أرى لكم رسـلا	١/ ٤٥٥
وإن غـبت لم أعدم إلا قـد جفوتنا وقــد كنت زوارا فـمـا بالنـا نقلى	١/ ٢٢٦
واخــضـع لله الذى هو خـــالـقى ولا أعطى للمخلوق من نفسى الكلا	
قافية الميم	
فـسـقى ديارك غـيـر مـفـسـدهـا صـوب الربيـع وديمـة تهـمى	
أبى دهرنـا إسـعـافنا فـى نفـوسنا وأسـعـفنا فـيـمن نحب ونكرم	١/ ٥٥
فـقلت له نعـمـاك منهم أتـمـمتـهـا ودع أمـرنا إن المـهـم المـقـدم	٢/ ٣٩٧
ولـئـن بقـيـت لأرحلن بـعـــزوة نحـوى الغنائم أو يـموت كـريم	

الأبيـــــــات		جزء/ صفحة
فـحصـحص فى صم الصفـا ثفنانة	وناء بسـلمى نوءة ثـم صـمـمـا	١/ ٥٥٩
فـحصـحص فى صم الصفـا ثفنانة	ورام القيــام ساعـة ثم صـمـمـا	١/ ٤٥٤
ولست حديث العمـد شوقا ولوعة	حـديث هواكم فـى حشـاى قـديم	١/ ٤٥٤
ألا قــبل ويحـك قم فــهــيم	لعـل الله يمنحنـا غـمـامـا	١/ ٢٨٤
فـيـسـقـى أرض عـاد إن عـادا	قـد أمسـوا لا يبينون الكلامـا	١/ ١٦٦
من العطـش الشديد فليس نرجـو	به الشـيخ الكبـيـر ولا الغـلامـا	
وقـد كـانـت نسـؤهم بخـيـر	فـقـد أمـست نسـاؤهـم أيامى	
وإن الوحـش تأتيـهـم جـهـارا	ولا تخـشى لعـاداتى سـهـامـا	
وأنتم ههنا فـيـمـا اشـتـهـيتم	نهـاركـمـو وليلكمـو تمـامـا	
فـقـبح وفـدكم من وفـد قـوم	ولا لقـوا التـحـيـة والسـلامـا	

قافية النون

الأبيـــــــات		جزء/ صفحة
ولا عـيب فيـهم غـير أن سيوفـهم	تلام بنسـيـان الأحـبـة والوطن	
* لأنك عـن حـمل الربـاعــة وانيـا *		٢/ ٣٨٩
عــجــبـت منـك ومنـى	أفـنيـــتـنى بـك عنى	٢/ ٢٨١
أدنيــتـنى منـك حــتـى	ظـنـنـت أنــك إنــى	١/ ٢٨٦
لله درهم مـن فـــتـيـــة بكروا	مـثل الملوك وراحوا كـالمسـاكين	
مـا كنت أعرف أن الأمر منصرف	من هـاشم ثـم من أبى الحـسـن	١/ ٧١
أليـس أول من صـلى لقــبلتكم	وأعــرف النـاس بالقـرآن والسنن	١/ ٥٣٢
* لا تعـبـثـن بحـادث فلربمـا *		
لا تنطقن بمـا كـرهت فـربمـا	عـبث اللسـان بحـادث فـيكون	١/ ٣٧١
إن الثمـانين وقـد بلغتـهـا قـد	أحـوجت سـمـعى إلى ترجـمـان	١/ ٣٧١
		١/ ٢٣٨، ٣٢٣

نص الحديث	جزء/ صفحة
قافية الهاء	
ولا بد لى من جملة فى وصاله فمن لى يخل أودع الحلم عنده	٢/ ٣٩٧
* وحديث ما مر على قعره *	٢/ ١٩٨
وابن زيد حق على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه	١/ ٥٥٣
وما صيد الأعناق فيهم بحيلة ولكن أطراف الرماح تصورها	١/ ٢٧٩
فياليت شعرى هل لنا مرة سهيل بن عمرو حولها وعقابها	١/ ١٩٠
عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه فمن لم يعرف الخير من الشر يقع فيه	١/ ١٠١

ثالثا : فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

رابعا : فهرس المصادر والمراجع التى أعانت على التحقيق

الكتاب	المؤلف / الطبعة
١- آثار البلاد وأخبار العباد	تأليف: القزوينى طبعة دار صادر بيروت
٢- الابتهاج فى أحاديث المعراج	تأليف: ابن دحية الكلبى تحقيق: د/ رفعت فوزى
٣- الإبريز من كلام سيدى عبد العزيز	تأليف: أحمد بن المبارك دار المكتبة العلمية ـ بيروت
٤- الأحاديث القدسية	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٨٦
٥- أحمد بن حنبل (حياته وعصره)	تأليف: الشيخ محمد أبو زهرة
٦- إحياء علوم الدين	تأليف: الإمام الغزالى تقديم: د/ بدوى طبانه
٧- أخبار الحلاج	بتحقيقنا طبع المكتبة الأزهرية للتراث
٨- أساس البلاغة	تأليف: الزمخشرى محمود بن جار الله، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب
٩- الإصابة فى تمييز الصحابة	تأليف: ابن حجر العسقلانى
١٠- أعذب المسالك المحمودية إلى منهج السادة الصوفية	بتحقيقنا ١٩٩٩
١١- الأعلام	تأليف: خير الدين الزركلى
١٢- الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل	(بدون تحقيق) طبعة مكتبة الحلبى
١٣- الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد	تأليف: محمود محمود الغراب
١٤- البداية والنهاية	تأليف: ابن كثير طبعة دار الفكر العربى

١٥- تاريخ الأدب العربى — تأليف: بروكلمان (الطبعة العربية) بإشراف: د/ محمود فهمى حجازى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٦-تاريخ التراث العربى — تأليف: فؤاد سزكين طبعة (جامعة الإمام محمد بن سعود)

١٧- تاريخ الخميس فى معرفة أحوال أنفس نفيس — تأليف: الديار بكرى مؤسسة شعبان ـ بيروت

١٨- تأويلات أهل السنة — تأليف: أبو منصور الماتريدى تحقيق: إبراهيم عوضين السيد عوضين المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧١

١٩- تعريف الخلف بأخبار السلف — تأليف: محمد الحفناوى

٢٠- تذكرة الحفاظ — تأليف: شمس الدين الذهبى طبع دار الفكر ـ بيروت

٢١- تهذيب الكمال فى أسماء الرجال — تأليف: جمال الدين المزّى طبع دار الفكر ـ بيروت

٢٢- التوسل والوسيلة — تأليف: أ/ موسى محمد على طبع دار الفكر ـ بيروت

٢٣- التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة — تأليف: القرطبى طبع دار الفكر ـ بيروت

٢٤- تهذيب التهذيب — تأليف: ابن حجر العسقلانى

٢٥- جامع الأحاديث — تأليف: الإمام السيوطى

٢٦- الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير — تأليف: الإمام السيوطى

٢٧- جامع كرامات الأولياء — تأليف: يوسف النبهانى - بيروت

٢٨- جوامع الكلم — تأليف: سماحة الإمام (صلاح الدين التجانى الحسنى) - سلسلة التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩

٢٩- جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى فيض سيدى أبى العباس التجانى — جمع وتقديم: على حرازم برادة مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٧م

٣٠- الحاوى فى الفتاوى — تأليف: الإمام السيوطى طبعة دار الجيل - بيروت

٣١- حبّة المحبة — تأليف: محمود الأسكدارى بتحقيقنا مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ٢٠٠١

٣٢- حدائق الحقائق — تأليف: شمس الدين الرازى بتحقيقنا - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ٢٠٠١

٣٣- الحكم وشرحها — تأليف: الشيخ زرّوق تحقيق: د/ عبد الحليم محمود مكتبة النجاح - طرابلس - ليبيا

٣٤- حلية الأولياء — تأليف: أبو نعيم الأصفهانى طبعة دار الكتب

٣٥- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور — تأليف: الإمام السيوطى طبعة دار الفكر - بيروت

٣٦- الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد، والأبدال — تأليف: الإمام السيوطى رسالة ضمن كتاب الحاوى فى الفتاوى

٣٧- الخوارج عقيدة وفكرًا — تأليف: د/ عامر النجار، دار المعارف ـ مصر

٣٨- الرسالة القشيرية — تأليف: الإمام القشيرى، طبعة مكتبة البابى الحلبى

٣٩- رشح الزلازل فى شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال — تأليف: عبد الرزاق القاشانى، بتحقيقنا ـ المكتبة الأزهرية للتراث ١٩٩٥

٤٠- روض المحب الفانى فيما تلقيناه عن سيدى أحمد التجانى — تأليف: سيدى محمد المشرى (مخطوط)

٤١- الرياض النضرة فى مناقب العشرة — تأليف: المحب الطبرى، مكتبة الجندى ـ القاهرة

٤٢- سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر — تأليف: محمود خليل المرادى، دار الكتاب الإسلامى

٤٣- السيرة النبوية — تأليف: ابن هشام، تحقيق: مصطفى السَّقا وآخرون، مكتبة الحلبى

٤٤- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — تأليف: ابن العماد

٤٥- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ — تأليف: القاضى عياض، بتحقيقنا ـ طبع هشام على حافظ ١٩٩٥

٤٦- صفوة الصفوة — تأليف: ابن الجوزى، دار ابن خلدون

٤٧- طبقات الصوفية — تأليف: السلمى، تحقيق: نور الدين شريبة ـ مكتبة الخانجى

٤٨- الطبقات الكبرى — تأليف: عبد الوهاب الشعرانى، المكتبة التوفيقية ـ القاهرة

٤٩- سيدتنا عائشة رضي الله عنها وتثويقها بالسنة - تأليف: د/ جيهان رفعت فوزى - مكتبة الخانجى ـ القاهرة

٥٠- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار المشهور بـ (تاريخ الجبرتى) - تأليف: عبد الرحمن الجبرتى، بدون تحقيق - مكتبة الأنوار المحمدية

٥١- فتح البارى بشرح صحيح البخارى - تأليف: ابن حجر

٥٢- الفتوحات المكية - تأليف: ابن عربى - دار صادر بيروت

٥٣- الفرق بين الفرق - تأليف: البغدادى

٥٤- فهرس دار الكتب المصرية

٥٥- فهرس الفهارس والإثبات - تأليف: عبد الحى الكتانى

٥٦- فهرس المخطوطات - المكتبة الأزهرية

٥٧- فهرس مخطوطات مكتبة جامعة القاهرة

٥٨- فهرس مخطوطات المكتبة التيمورية

٥٩- القول الجلى فى حديث الولى - تأليف: الإمام السيوطى (ضمن كتاب الحاوى فى الفتاوى)

٦٠- كتاب الطبقات الكبير - تأليف: ابن سعد - طبعة خاصة من مكتبة الأسرة ـ القاهرة

٦١- كتاب الوفيات - تأليف: ابن قنفد القسنطينى - تحقيق: عادل نويهضى - دار العودة ـ بيروت ١٩٨٦

٦٢- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون - تأليف: حاجى خليفة - دار الفكر ١٩٩٠

٦٣- كشف الخفاء ومزيل الإلباس (فيما اشتهر من الحديث على السنة والناس) - تأليف: العجلونى

٦٤- كشف الغيوم عن بعض أسرار القطب المكتوم
تأليف: سماحة الإمام (صلاح الدين التجانى الحسنى)

٦٥- الكمالات الإلهية فى الصفات المحمدية
تأليف: الكريم الجيلى
بتحقيقنا ـ مكتبة عالم الفكر

٦٦- الكنز فى المسائل الصوفية
تأليف: سماحة الإمام (صلاح الدين التجانى الحسنى) سلسلة التراث ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨

٦٧- الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية
تأليف: عبد الرءوف المناوى
المكتبة الأزهرية للتراث

٦٨- لسان العرب
تأليف: جمال الدين ابن منظور
دار المعارف ـ مصر

٦٩- لسان الميزان
تأليف: ابن حجر

٧٠- لطائف المنن
تأليف: ابن عطاء الله السكندرى

٧١- المعارف
تأليف: ابن قتيبة
تحقيق: د/ ثروت عكاشة
طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب

٧٢- معجم الألفاظ الصوفية
تأليف: د/ حسن الشرقاوى

٧٣- معجم الاصطلاحات والإشارات الصوفية
تأليف: عبد الرزاق القاشانى
بتحقيقنا ـ طبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٩٥

٧٤- معجم المؤلفين
تأليف: عمر رضا كحالة
دار إحياء التراث العربى ـ بيروت

٧٥- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث
تأليف: مجموعة من العلماء

٧٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — تأليف: محمد فؤاد عبد الباقى
دار الحديث ـ القاهرة ١٩٨٦

٧٧- منارات السائرين ومقامات الطائرين — تأليف: أبى بكر الرازى ـ بتحقيقنا ـ الهيئة العامة للكتاب ـ الطبعة الثانية

٧٨- مناقب عمر بن الخطاب — تأليف: ابن الجوزى
تحقيق: د/ على محمد عمر
طبعة خاصة لمكتبة الأسرة

٧٩- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — تأليف: ابن تغرى بردى
دار الكتب المصرية

٨٠- نوادر الأصول فى أحاديث الرسول ﷺ — تأليف: الحكيم الترمذى ـ بدون تحقيق دار صادر ـ بيروت

٨١- النور السافر — تأليف: الغز

٨٢- هدية العارفين — تأليف: إسماعيل باشا البغدادى
دار الفكر ـ بيروت ١٩٩٠

فهرس محتوى الجزء الأول



فهرس محتوى الجزء الثاني